

**أهل الذمة في بلاد الشام
في
العصرين الأيوبي والملوكي**

إعداد

فايزه عبدالرحمن حجازي

١٠
٤٧٤٩

إشراف

الأستاذ الدكتور يوسف حسن درويش غوانمه

١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي

إعداد

فايزه عبدالرحمن حجازي

بكالوريوس تاريخ/جامعة اليرموك ١٩٨٧م

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة
اليرموك تخصص تاريخ إسلامي وحضارة إسلامية

لجنة المناقشة

أ.د. يوسف حسن درويش غوانقه		رئيساً
أ.د. محمد عيسى صالحية		عضواً
د. نعمان محمود جبران		عضواً

١٤١٢/٥/١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

إلى الإنسان الذي وقف بجانبى لتحقيق ما أصبو اليه

إلى رمز الايثار والمحبة

إلى رفيق عمري

إلى زوجي الدكتور حمدان حسين الحوري

شكر وتقدير

بعد أن تمت هذه الرسالة بعون الله تعالى، لا يسعني إلا أن أقدم جزيل شكري وعرفاني إلى أستاذي الأستاذ الدكتور يوسف حسن درويش غوانم أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة وعميد كلية الآداب في جامعة اليرموك، الذي تتلمذت على يديه في مرحلة الدراسة الجامعية، وزرع في نفسي حب المثابرة والصبر والاجتهاد. وأشرف عليّ في مرحلة الماجستير وحباني بعنايته واهتمامه رغم مشاغله الكثيرة، وكان لتوجيهاته القيمة الفضل الأكبر في إخراج هذا الموضوع.

كما لا يسعني إلا أن أقدم شكري وتقديري إلى الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم التاريخ، الذي لم يبخل عليّ بما لديه من الكتب والمقالات النادرة التي تتعلق بالموضوع مما ساعدني على إخراج هذا البحث بصورته الحالية، كما تفضل بقراءة الرسالة. وأقدم شكري وتقديري إلى الدكتور نعمان جبران الاستاذ المساعد بقسم التاريخ الذي تفضل أيضاً بقراءة الرسالة، لتقييمها وإثرائها بملاحظاتها العلمية.

كما لا يسعني في هذا المجال إلا أن أوجه كلمات الشكر والتقدير إلى موظفي مكتبة جامعة اليرموك الذين قدموا لي كل التسهيلات أثناء اطلاعي على المصادر والمراجع. وأخيراً وليس آخراً شكري إلى كل من قدم لي مساعدة أثناء إعدادي لهذا البحث، وإلى إدارة وعاملين مركز بيبضون للكمبيوتر لطباعة وإخراج هذه الرسالة.

فهرس موضوعات البحث

المقدمة

- ١- موضوع البحث ومنهج الدراسة ٢
- ٢- عرض وتحليل لأهم مصادر البحث ٦

الفصل الأول: التسمية ولمحة تاريخية

- ١- أهل الذمة في اللغة والتشريع
 - أ- الذمة لغة واصطلاحاً ٢١
 - ب- أهل الذمة في القرآن الكريم والسنة ٢٣
- ٢- لمحة تاريخية عن أحوال أهل الذمة في بلاد الشام قبل العصرين الأيوبي والمملوكي ٣٠

الفصل الثاني: الدولة وأهل الذمة

- ١- سياسة الأيوبيين والمماليك الدينية نحو أهل الذمة
 - أ- رجال الدين ورؤساء الطوائف ٥٨
 - ب- الرهبان والكنائس والأديار ٦٢
- ٢- الإلتزامات المالية المترتبة على أهل الذمة
 - أ- الجزية (الجوالي) ٧٩
 - ب- الضرائب الإضافية ٨٥

الفصل الثالث: النشاط الاقتصادي لأهل الذمة في بلاد الشام

في العصرين الأيوبي والمملوكي

- ١- النشاط الزراعي ٩٠
- ٢- النشاط الصناعي
 - أ- صناعة البناء ١٠٣
 - ب- صناعة الزجاج ١٠٤
 - ج- الصياغة والتكفيت ١٠٥
 - د- صناعة الحرير ١٠٧

١١. هـ- صناعة النسيج والبسط
١١٢ و- صناعة الخمر
٣- النشاط التجاري
١١٨ أ- التجارة الداخلية
١٢٧ ب- التجارة الخارجية

الفصل الرابع: الحياة الاجتماعية لأهل الذمة

- ١٣٣ ١- طوائف أهل الذمة في بلاد الشام
١٤١ ٢- العلاقات الاجتماعية
١٥٧ ٣- القيود الاجتماعية
١٦٨ ٤- التعليم

الفصل الخامس: ممارسة بعض الشعائر الدينية عند أهل الذمة

- ١٧٨ ١- الأعياد
١٩١ ٢- الحج
٣- المزارات
٢٠٨ أ- المزارات النصرانية
٢٢١ ب- المزارات اليهودية

الفصل السادس: بعض الوظائف التي شغلها أهل الذمة

- ٢٢٧ ١- الوظائف الإدارية
٢٤١ ٢- الطب والأطباء

الفصل السابع: العلاقات الأيوبية المملوكية مع بعض الدول

النصرانية وأثرها على أهل الذمة داخل البلاد

- ٢٥٥ ١- العلاقات مع بلاد الحبشة
٢٦٥ ٢- العلاقات مع الدولة البيزنطية
٢٧٢ ٣- العلاقات مع الصليبيين

الخاتمة

ملحق البحث

٣٠٣	ملحق رقم (١)
٣٠٤	ملحق رقم (٢)
٣١١	ملحق رقم (٣)

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

٣١٧	١- الوثائق المنشورة.
٣٢١	٢- المصادر العربية المخطوطة.
٣٢٣	٣- المصادر العربية المطبوعة.
٣٣٧	٤- المراجع العربية الحديثة.
٣٤٢	٥- المصادر والمراجع الأجنبية المعربة.
٣٤٥	٦- الدوريات.
٣٤٦	٧- الرسائل الجامعية.
٣٤٦	٨- المصادر والمراجع باللغات الأجنبية.
٣٤٩	ملخص البحث باللغة العربية
٣٥٥	ملخص البحث باللغة الانجليزية

المقدمة

- ١- موضوع البحث ومنهج الدراسة
- ٢- عرض وتحليل لأهم مصادر البحث

موضوع البحث ومنهج الدراسة

ظل موضوع أهل الذمة والحكم الإسلامي مثار بحث ودراسة من قبل الباحثين والمتخصصين في القديم والحديث وذلك لأهمية الموضوع وحساسيته، وهناك دراسات مختلفة تدور حول هذا الموضوع، وغالبية هذه الدراسات تناولت حكم الشرع الإسلامي من أهل الذمة وآراء الفقهاء المسلمين في ذلك، والبعض تناول دراسة أحوال أهل الذمة عبر العصور الإسلامية بصورة عامة، كذلك نجد بعض الدراسات المتخصصة التي تناولت أحوال أهل الذمة في منطقة معينة وفي فترة زمنية محددة، كأحوال أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي، والعصر الأيوبي، والعصر المملوكي.

أما بالنسبة لأحوال أهل الذمة في بلاد الشام فقد كان يشار إليهم ضمن دراسات مختلفة ولم يكن هناك أي دراسة متخصصة تناولت أحوال أهل الذمة في بلاد الشام في أي عصر من العصور، لذا كان اختياري لموضوع «أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي»، وكانت هذه الفترة الزمنية بالذات لتزامنها مع قدوم الحملات الصليبية من الغرب، وجحافل التتار من الشرق حيث تكون العلاقات بين أهل الذمة والمسلمين في مثل هذه الظروف أكثر تبلوراً ووضوحاً، إلى جانب ذلك إهتمام كثير من الكتاب الغربيين والمستشرقين في الكتابة عن أحوال أهل الذمة والحكم الإسلامي في أوقات الحروب والاضطرابات، مسلطين الضوء على ما كان يحدث لهم من مضايقات وشدة بسبب تلك الظروف سابغين صفة الاضطهاد عليهم، متجاهلين الأسباب التي أدت إلى تلك المضايقات، ومتجاهلين أيضاً الأوضاع الطبيعية وما كان ينعم به أهل الذمة من تسامح ديني وحسن جوار في جميع العصور الإسلامية.

وكانت مهمتي في هذا البحث شاقة وشيقة في أن واحد، فقد كانت شاقة لقلة المادة العلمية التي تتعلق بأحوال أهل الذمة في هذه الفترة، فقد كان يشار إليهم عبر شذرات مبعثرة في بطون المصادر العربية، إذ كانت ميزة تلك المصادر الإهتمام بالأحوال السياسية والعسكرية وسيرة الحكام والسلطين أكثر من الإهتمام بالأحوال

الاجتماعية وسيرة العامة. فما كان علي إلا أن أتناول تلك المعلومات وأدرس الظروف السياسية والمحلية للفترة الزمنية التي كتبت بها ثم أقوم بمقارنتها بما جاء في المصادر الأوروبية وخصوصاً ما كتبه الحجاج والرحالة منهم، بالإضافة إلى الوثائق الرسمية التي حفظت ببعض الأديرة والكنائس والتي قام بنشرها عدد من المؤرخين والباحثين، بالإضافة إلى كتابات الباحثين النصارى واليهود حول ذلك الموضوع. وأقوم بتحليلها واستقرائها وأسخرها جميعاً لخدمة البحث، حتى استطعت أن أخرج بمادة أعتقد أنها تفي بالغرض المطلوب. أما كون الدراسة شيقة، فكنت خلال فترة الدراسة أعيش لذة البحث والاستطلاع، وعاش الموضوع معي في يقظتي ومنامي، وكانت السعادة تغمرني في حال توفر مادة علمية أحتاج إليها أو عند التوصل إلى حقيقة ما لآتم بها نقطة كنت قد بدأت بها. كما أتاح لي الموضوع التعرف على أحوال تلك الطوائف الدينية في العصور الإسلامية والتي ما زلنا نعيش ونتعامل معها. وكيف كانت طائفة اليهود في بلاد الشام طائفة مستضعفة تخضع للحكم الإسلامي، وكيف هاجر اليهود من اسبانيا هرباً من الاضطهاد والقتل الذي كان يقع عليهم، ملتجئين إلى الحكم الإسلامي لينعموا بالأمان والتسامح الديني. وما هم الآن يحتلون الأراضي العربية الإسلامية وشتان ما بين وضع اليهود تحت الحكم الإسلامي ووضع إخواننا الفلسطينيين من النصارى والمسلمين تحت حكمهم الآن!!!.

وقد قسمت البحث إلى سبعة فصول، فالفصل الأول خصصته للتعريف بلفظة الذمة لغة واصطلاحاً وأصل هذه الكلمة واشتقاقها. ثم موقف الشريعة الإسلامية من أهل الذمة كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية. ثم قدمت لمحة تاريخية لأحوال أهل الذمة في العصور الإسلامية السابقة لفترة البحث مبينة التطورات والأحداث التي مرت بهم.

أما الفصل الثاني فقد بحث فيه موقف الدولة الرسمي من أهل الذمة في العصرين الأيوبي والمملوكي، إذ بينت فيه سياسة الدولة الدينية تجاه كبار رجال الدين لديهم، والوصايا التي كانت تصدر إليهم عقب تعيينهم، والألقاب التي أسبغت عليهم. ثم موقف الدولة من الرهبان وترميم الكنائس والأديرة من خلال المراسيم التي كانت تصدر إليهم بخصوص ذلك. وذكرت في هذا الفصل الضرائب والالتزامات المالية المترتبة على أهل الذمة، مثل الجزية والتي أصبح يطلق عليها زمن المقريري اسم (الجوالي)، ومقدارها وطرق جبايتها، ثم الضرائب الإضافية التي كانت تفرض أحياناً على أهل الذمة.

وفي الفصل الثالث تحدثت عن نشاط أهل الذمة الإقتصادي، حيث كان لهم نشاط كبير في الحياة الزراعية، فامتلكوا الأراضي الزراعية، وكان غالبية سكان بعض القرى من النصارى أو اليهود. إضافة إلى ما امتلكته الكنائس والأديرة من الأراضي والبساتين التي زرعوها بكافة أنواع المحاصيل الزراعية من الحبوب والكروم والأشجار المثمرة والرياحين والأزهار، وكانت لهم مساهمتهم في بعض الصناعات الشامية المختلفة كالزجاج والخزف والنسيج والخير والضمور، وكان لتلك الصناعات سوق رائجة في أسواق الغرب، كما كان لهم دور فعال في مجال التجارة الداخلية والخارجية.

وفي الفصل الرابع تحدثت عن الأحوال الاجتماعية لأهل الذمة، موضحة فيه العلاقات الحسنة التي كانت سائدة بين جميع فئات الشعب مسلمين ونصارى ويهود نتيجة للتسامح الديني الذي نعم به الذميون من قبل السلطات الأيوبية والمملوكية. وأن تعرضت تلك العلاقات في بعض الأحيان إلى التوتر والمشاحنات بسبب من الأسباب، إلا أنه سرعان ما تعود العلاقات فيما بينهم إلى سابق عهدها. كما أوردت في هذا الفصل القيود الاجتماعية المستمدة من «الشروط العمرية» أو «العهد العمرية» التي كان لزاماً على أهل الذمة الالتزام بها، وإن طبقت بعض الأحيان إلا أن أهل الذمة سرعان ما يتحللون من تلك القيود بدليل تجديد المراسيم التي تطالبهم بذلك. ثم تحدثت عن التعليم لدى أهل الذمة، ولم يكن التعليم حينذاك مقتصرأ على التعليم الإسلامي بل نعمت طوائف اليهود والنصارى بحرية التعليم في جميع مراحله دون قيد أو شرط، وألفوا الكتب الكثيرة، كما زخرت مكتباتهم بنفائس أنواع الكتب والمخطوطات.

وتحدثت في الفصل الخامس عن ممارسة بعض الشعائر الدينية لأهل الذمة إذ سمحت لهم السلطات الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي في ممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة، فاحتفلوا بأعيادهم ضمن حاراتهم وفي كنائسهم وقرب الأنهار، وأظهروا فرحهم بتلك الأعياد، وقد شاركهم المسلمون في بعض الأحيان في تلك الاحتفالات ثم ذكرت الحج ومدى حرص السلطات الإسلامية على السماح لهم بالحج إلى مقدساتهم حتى في أوقات الحروب، فكانت المعاهدات التي تعقد بين السلطات الأيوبية والمملوكية والامارات الصليبية والدول الأوروبية تتضمن حرية الحج إلى أماكنهم المقدسة، ثم ذكرت مناسك الحج والزيارة وكيف كان يتم ذلك والرسوم التي كانت تفرض عليهم. ثم خصصت جزءاً من هذا الفصل لذكر أهم المزارات النصرانية واليهودية في بلاد الشام.

وخصصت الفصل السادس لذكر بعض الوظائف التي تقلدها النصارى واليهود، إذ تقلدوا أرقى المناصب المالية والإدارية، وعملوا في دواوين الأمراء، فاختلطوا بكبار رجال الدولة وامتلكوا الثروات الواسعة. كما ذكرت مشاهير أطبائهم الذين خدموا الخاص والعام، واختص بعضهم بخدمة السلاطين والملوك، فأنعموا عليهم بالهدايا والخلع والصلوات والإقطاعات.

أما الفصل السابع فقد بحثت فيه علاقات سلاطين الأيوبيين والمماليك ببعض الدول النصرانية، كدولة الحبشة، وبيزنطة، والدول الصليبية، وأثر ذلك على أهل الذمة داخل البلاد. ولعل الحروب الصليبية وما ارتكبه هؤلاء من جرائم وأعمال ضد العرب والمسلمين كان له أكبر الأثر في إثارة شعور الإستياء والكراهية في نفوس المسلمين ضد النصارى داخل البلاد، فتعرضوا لبعض المضايقات الطائفية، وتعرضت كنائسهم وأديرتهم للهدم والتدمير، وكان لتحسن العلاقات مع هذه الدول أثره الإيجابي على أبناء الطوائف النصرانية التي تتبع مذهب تلك الدولة خاصة، وعلى جميع طوائف النصارى عامة. أما اليهود فلم يكن لهم أنذاك قوى خارجية تتدخل لصالحهم إلا أن ذلك لم يمنع من تأثرهم بأحداث السياسة الخارجية للدولة.

(٢)

عرض وتحليل لأهم مصادر البحث

اعتمدت في هذا البحث على عدد كبير من المصادر والمراجع، بعضها قديم ألفها مؤرخون عاصروا الأيوبيين والمماليك، فذكروا الكثير من الحقائق والوقائع الصحيحة للعصر الذي عاشوا فيه. وبعضها متأخر نسبياً، لكنها لا تقل أهمية عن تلك المصادر المعاصرة بفضل ما نقلوه من مصادر معاصرة أو وثائق رسمية اتصلت إتصلاً مباشراً بموضوع البحث. وفيما يلي عرض تحليلي لأهم هذه المصادر:

أولاً: المصادر العربية:

١- الموسوعات:

١- «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين أحمد بن محي الدين بن فضل الله العمري بن المجلي بن دعجان العمري المتوفى سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م). وهو سفر ضخمة وموسوعة سياسية واجتماعية وعلمية وجغرافية، قال عنه الصفدي: «ما أعلم أن لأحد مثله...»^١. ويقع هذا الكتاب في عشرين جزءاً ويتألف من ٤٣ مجلداً. ويعتبر مصدراً رئيسياً لتاريخ مصر والشام وحضارتها في العصر المملوكي، وهو من المصادر الأصلية التي تعلو ما عداها قيمة. استفاد منه كل من لحقه من المؤرخين حيث اعتمد عليه القلقشندي اعتماداً كلياً في كتابته موسوعته صبح الأعشى، ومعظم أجزائه ما زالت مخطوطة.

وقد استفدت من الجزء الخاص بمصر والشام وهو الجزء الأول الباب السادس تحقيق أيمن فؤاد سيد. كما قامت بتحقيقه أيضاً دورتيا كرافولسكي. وقد أفادني هذا الجزء كثيراً فقد ذكر فيه أسماء الديارات النصرانية في بلاد الشام، وأنواع

١- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبد الله، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م). الوافي بالوفيات، ج ٨، تحقيق محمد يوسف نجم، فيسبادن، فرانز شتاينر، ط ٢، ١٩٨٢م، ص ٢٥٢، وسيشار له فيما بعد هكذا، الصفدي، الوافي بالوفيات.

٢- عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٦٩م، ص ٧١، وسيشار له فيما بعد هكذا، عنان، مؤرخو مصر الإسلامية.

المزروعات الشهيرة بها، كما أشار إلى حسن العلاقات بين النصارى والمسلمين، بدليل أنه كثيراً ما نزل بضيافة الرهبان، حيث ورد ذكر الديارات في كثير من شعره واصفاً ما كان يدور بداخلها، كذلك أفادني في إيضاح العلاقة التي تربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية.

٢- «صبح الأعشى في صناعة الانشاء» لشهاب الدين أحمد بن عبدالله القلقشندي، المتوفى سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م). وهو من أعظم كتب الموسوعات الإسلامية الكبرى، يقع في أربعة عشر جزءاً طبعت كلها ونشرت. وهو سجل عظيم لمختلف أنواع المعرفة لا غنى لكل باحث عنه، يعتمد في تأليفه على نوعين أساسيين من المصادر هما: محفوظات ديوان الانشاء من الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية والتقاليد والمناسير التي كانت تقع تحت يديه بحكم وظيفته كاتباً في ديوان الانشاء منذ عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م. وأمّهات الكتب والمصنفات في مختلف ميادين العلم والأدب التي طرق أبوابها في كتابه^٤. وبذلك ترك لنا ثروة تاريخية هامة لعصور سبقتها، فموسوعته تعتبر سجلاً ضخماً للحياة السياسية، والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في مصر طوال العصور الوسطى. وقد أفادني كثيراً في إعداد هذا البحث حيث اعتمدت عليه خاصة فيما يتعلق بأعياد أهل الذمة وطوائف النصارى واليهود والتعريف بكل طائفة. إذ كان يرى القلقشندي أن على المؤرخ المسلم أن يعرف الكثير عن أحوال الذميين ويطالع كتبهم الدينية. كما اعتمدت عليه عند الكلام عن موقف الدولة من رؤساء طوائف النصارى واليهود وطرق تعيينهم، والوصايا التي تصدر إليهم عقب تعيينهم. كذلك استفدت منه في التعرف على علاقات سلاطين الأيوبيين والمماليك بالدول المسيحية، حيث حفظ لنا العديد من المعاهدات والمراسلات التي كانت تتم بين الطرفين وما تضمنته من شروط واتفاقيات^٥. كما ذكر لنا العلاقة بين الكنيسة الحبشية والكنيسة المصرية وأثر ذلك على النصارى اليعاقبة داخل البلاد. كما حفظ لنا بعض المراسيم التي كان

٣- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج١، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص ٢٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، القلقشندي، صبح الأعشى.

٤- القلقشندي، المصدر نفسه، ج١، المقدمة، ص ٨.

٥- القلقشندي، المصدر نفسه، ج٥، شرح وتعليق نبيل خالد الخطيب، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ٣١٧، ج٨، شرح وتعليق يوسف علي طويل، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ٢٨، ج١٤، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ٥٧-٧٣.

١
يصدرها السلاطين بإلزام أهل الذمة ببعض القيود الإجتماعية كمرسوم السلطان
الصالح صلاح الدين صالح عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م.^٦

ب- كتب التاريخ:

١- كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» لعماد الدين أبو عبدالله محمد بن محمد، المتوفى سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م). وعماد الدين هذا ينتمي إلى طبقة الموظفين المدنيين الذين تدربوا في المدارس. خدم أولاً السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين في بغداد، ثم أحرز منصباً عالياً بدمشق في خدمة نورالدين، ثم أصبح كاتباً لصلاح الدين وصاحب السر المكتوم إذا غاب القاضي الفاضل والنائب عنه، وإن لم يصل إلى نفس المكانة العالية التي كانت للفاضل في نفس صلاح الدين.^٧

وكتابه هذا سجل لما قام به صلاح الدين من جهاد وحروب ضد الصليبيين منذ سنة ٥٨٢هـ/١١٨٧م وحتى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م. أي منذ معركة حطين وما أعقبها من تحرير بيت المقدس واستعادة كثير من البلدان والقلاع الصليبية، ثم سقوط عكا ثانية في يد الفرنج والصراع الذي كان بين صلاح الدين من جهة وفيليب اغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا من جهة أخرى، ذلك الصراع الذي انتهى بصلح الرملة سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م. فكتابه يعتبر وثيقة تاريخية هامة لعصر صلاح الدين، وترجع أهميته إلى أنه حديث من شاهد الأحداث بنفسه أو وقف عليها أثناء عمله بديوان الإنشاء أو سمع عنها، فتحرى الدقة والتثبت فيما سمع^٨. فجاءت رواياته واقعية عن الأحداث حافلة بالدقة بعيدة عن الإلتواء، رغم إلزامه بالسجع واكثاره من المحسنات اللفظية والبديعية إلى درجة كبيرة.

وقد أفادني هذا الكتاب كثيراً عند الكتابة عن موقف صلاح الدين من النصراري داخل مدينة القدس عند دخوله إليها، وموقفه من المقدسات النصرانية فيها والرهبان وعطفه عليهم. كما أفادني عند الكتابة عن الحج وسماع صلاح الدين للحجاج بزيارة القدس بعد صلح الرملة إذ يقول العماد في ذلك: «..... وفسح

٦- القلقشندي، المصدر نفسه، ج ١٢، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ٣٧٨.

٧- العماد الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥م، المقدمة، ص ٢٤-٢٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، العماد الاصفهاني، الفتح القسي.

٨- العماد الاصفهاني، المصدر نفسه، المقدمة، ص ٣٢-٣٣.

للفرنج كافة في زيارة قمامة^١ مما جعل الحجاج يتوافدون بجموع غفيرة إلى الأراضي المقدسة مما أغاظ ريتشارد قلب الأسد وطلب من السلطان منعهم من الدخول إلا بعد الحصول على تصريح منه إلا أن السلطان رفض طلبه.

وإلى جانب ذلك وضع مؤلفاً كبيراً يقع في سبعة مجلدات سماه البرق الشامي وأتى فيه على أعماله وهو في خدمة نور الدين ثم خدمة صلاح الدين ولم يصلنا من هذا المؤلف سوى مجلدين. لكن أبا شامة الدمشقي المتوفى سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) لخصه في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين^٢. وتتمثل أهمية كتاب البرق أنه تحدث فيه أيضاً عن علاقات صلاح الدين بالصلبيين، وبخاصة تحرير القدس وصلح الرملة وموقفه من نصارى المدينة والمقدسات النصرانية.

٢- كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» أو سيرة صلاح الدين لبهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد، المتوفى سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م). كان ابن شداد من المقربين إلى صلاح الدين إذ عينه قاضياً لعسكره في القدس، ثم عينه قاضياً لمدينة حلب ومشرفاً على أوقافها. ويعتبر هذا الكتاب من أوثق المصادر التي أرخت لحياة صلاح الدين ونضاله ضد الصليبيين. استفدت منه عند الكلام عن علاقات صلاح الدين مع الصليبيين في الشام وبخاصة فتح القدس وصلح الرملة. كما أن في الكتاب عدداً من الوثائق الهامة التي تلقي الأضواء على العلاقات بين صلاح الدين وأباطرة الدولة البيزنطية وأثر ذلك على رعاية الدولة من النصارى والمقدسات النصرانية في القدس. من هذه الوثائق الوصف الوافي للسفارة التي أرسلها صلاح الدين إلى القسطنطينية ولكيفية إقامة الخطبة في المسجد المقام في عاصمة الدولة البيزنطية^٣.

٩- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٦١.

١٠- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١، رواية الشيخ الإمام مجد الدين أبي المظفر يوسف بن محمد بن عبدالله الشافعي، بيروت، دار الجيل، د.ت، ص ٤-٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، أبو شامة، الروضتين.

١١- ابن شداد، كتاب سيرة صلاح الدين، المسماه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، دار المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٤م. المقدمة، ص ٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن شداد، النوادر السلطانية.

١٢- ابن شداد، المصدر نفسه، ص ١٣٢.

٣- كتاب «مختصر تاريخ الدول» لأبي الفرج غريغوريوس بن أهرن المملطي المشهور بابن العبري، المتوفى سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م). وهو من المصادر السريانية المهمة. إذ كان ابن العبري من أكابر كتبتها المبرزين حتى أطلق عليه أمير الكتبة اليعاقبة^{١٣}. وفي حوالي نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي كتب كتابه مختصراً لتاريخ الدول استند فيه على ميخائيل السرياني وابن الأثير فيما أورده عن القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. كما استمد بعض المعلومات من مصادر فارسية وغيرها من المصادر. تحدث فيه عن دخول التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ومسيره إلى هولاكو ليستعطفه على رعيته. كذلك أخبرنا في كتابه عن بعض الأطباء الذميين الذين خدموا لدى الأيوبيين، ومكانتهم المرموقة في الدولة وعلاقاتهم بالسلطات الحاكمة^{١٤}. كما تحدث عن الحروب الصليبية وأثرها على أهل الذمة داخل البلاد.

وإلى جانب ذلك وضع مؤلفاً آخرأ سماه تاريخ الدول السرياني ويشتمل هذا التاريخ على ٦٠٠ صفحة من الحجم الكبير حوت أخبار إحدى عشرة دولة، نقل أخبارها عن مؤرخين معاصرين أو شهود عيان. كما روى فيه أخباراً جمة عن الروم والعرب وعن نصارى بلاد الشام وما بين النهرين ومصر، لم يسردها في تاريخه مختصر الدول. وهذا هو السبب وراء نقل تاريخه إلى العربية بدءاً من أخبار الحقبة العاشرة وعنوانها «الملوك العرب» نشرت على صفحات مجلة المشرق بقلم الأب إسحق أرمله السرياني.

٤- «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقرئ، المتوفى سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م). وهو شيخ المؤرخين المصريين وصاحب مدرسة تاريخية صفتها تنوع مادة الكتابة وتعددتها. فكتب في التاريخ السياسي كما كتب في العمران والخطط وعالج المشكلات الاقتصادية والأزمات التي كانت تمر بتاريخ مصر ويعتبر كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك من أهم ما كتب في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية. ففي الفترة الأيوبية كان يرجع إلى مصنفات المعاصرين بل زاد عليها فقد ورد في كتابه نبذاً نفيسة عديدة نقلها عن مؤرخين

١٣- ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، بيروت، دار المسيرة. (١٩٧٠م) المقدمة. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن العبري، مختصر الدول. الزركلي، خير الدين، الأعلام- قاموس تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. ج٥، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م، ص١١٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، الزركلي، الأعلام.

١٤- ابن العبري، المصدر السابق، ص٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٣.

ضاعت آثارهم وكانت موجودة في عصره.^{١٥} أما الحوادث المعاصرة لزمانه فكان فيها شاهد عدل وثقة، ذكرها من غير تحيز، وقد أفادني كتاب السلوك كثيراً في دراستي هذه حيث ضم بين طياته الكثير من أخبار اليهود والنصارى. فذكر لنا أسماء كثيرة من موظفي أهل الذمة الإداريين ودورهم في إدارة الدولة، وعدم مقدرة السلاطين الاستغناء عنهم، كما ذكر لنا قلق أهل الذمة التي كانوا يثيرونها كردة فعلهم على التضييق الذي كانوا يتعرضون له، وموقف السلطات من كل ذلك كالذي حدث زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة، وإصدار السلطان مرسومه الشهير عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م بالزام أهل الذمة بالقيود التي جاءت فيه. وتطبيق ذلك في جميع أنحاء البلاد المملوكية في مصر والشام باستثناء الكرك والشوبك لأن غالبية سكانها من النصارى.^{١٦} كما استغدت منه عند الحديث عن علاقات السلطات الأيوبية والمملوكية مع بيزنطة والدول الصليبية وأثر ذلك على النصارى داخل البلاد. كما أشار إلى تعاون بعض نصارى البلاد مع الفرنج كالذي حدث في حملة بطرس لوزجنان على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، إذ يذكر في هذه الحوادث «... وانضم إليهم من كان بالثغر من النصارى، ودلوهم على دور الأغنياء، فأخذوا ما فيها».^{١٧}

كما ذكر لنا في كتابه «المواظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار» طوائف اليهود والنصارى وأماكن تواجدهم، وذكر لنا أعيادهم ومواسمهم ومظاهر الإحتفال بها. بالإضافة إلى ما ذكره لنا عن الجزية (الجوالي) ومقدارها، وطرق جبايتها وما طرأ عليها من تغييرات.

٥- كتاب «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» لعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العلوي المقدسي الحنبلي أبو اليمن مجير الدين، المتوفى سنة (٩٢٧هـ/١٥٢٠م). والكتاب بحد ذاته من أمهات الكتب التي تناولت أواخر العصر المملوكي في جزء من الشام وهو فلسطين، ذلك أن مؤلف الكتاب كان يقيم في القدس. وكان يدون ما يراه وما يسمعه من حوادث يوماً بيوم. ولئن كتب ابن إياس عن القاهرة وابن طولون عن دمشق فإن الحنبلي قد سدَّ الثغرة فيما يتعلق بتاريخ القدس والخليل وما يجاورهما. فأورد أخبارها حتى سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م، وقد تحدث

١٥- عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ص ٩٠.

١٦- المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م، ص ٥١٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، المقرئزي، السلوك.

١٧- المقرئزي، المصدر نفسه، ج ٣، ق ١، ص ١٠٦.

عن علمائها وقضاتها وحوادثها السياسية ووضع أهل الذمة والفرنجة في القدس بشكل خاص. كما تناول حادثة كنيس اليهود بالتفصيل، وما دار حوله من نزاع وأخذ ورد بين المسلمين واليهود. ثم صدور أمر السلطان قايتباي برجوعه إليهم وإطلاق اليهود على ذلك اليوم «عيد النصر».^{١٨} كما ذكر لنا أمر السلطان جقمق بتحويل قبر سيدنا داود مسجداً للمسلمين بعد أن كان مسرحاً للصراع بين النصارى واليهود.^{١٩} وتحدث أيضاً في كتابه عن الكثير من مزارات اليهود والنصارى في القدس والخليل والمناطق التي حولهما. والخلاصة أن هذا الكتاب عظيم النفع والأهمية لكل من يتصدى لتاريخ بلاد الشام وأوضاع أهل الذمة في العصر المملوكي.

٦- كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لأبي البركات محمد بن أحمد بن إياس، المتوفى سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٣م). مؤرخ مصر الأول في أواخر العصر المملوكي وأوائل العصر العثماني يمتاز بغزارة معلوماته ودقتها وواقعيته وبكونه شاهد عيان لأخطر مرحلة من مراحل التاريخ العربي، مرحلة سقوط المماليك وقيام العثمانيين وهو يكمل تاريخ مصر المملوكي الذي بدأه المقرئزي وابن تفرج بردي وغيرهما.^{٢٠}

ورغم أن ابن إياس مملوكي الأصل، إلا أنه لم يكن يدافع عن المماليك ولا يعبر عن آرائهم بل كانت له شخصيته الحرة. كان يحافظ على صحة ما يكتب ويتوخى التبصر والإتزان في أحكامه ونقده، ويتوخى الأمانة العلمية فيما ينقله من أخبار وأحداث عن المؤرخين، وأن كتبه بلغة عامية.^{٢١} وقد أفادني كتاب بدائع الزهور في علاقات المماليك مع الفرنج في أواخر الدولة المملوكية، وغارات الصليبيين المتكررة على سواحل بلاد الشام وتحرشهم بالتجار ونهب مراكبهم، مما كان له الأثر السيء على النصارى داخل البلاد، وخاصة طائفة الرهبان الفرنسيين في القدس، وذلك من أجل الضغط على تلك القوى للتخفيف من غاراتها وفكك الأسرى من المسلمين.

١٨- العلمي الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣م، ص ٣٠٠-٣١٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، العلمي الحنبلي، الأنس الجليل.

١٩- العلمي الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٨، ٣٥١.

٢٠- عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ص ١٥٥، ١٦١.

٢١- ابن إياس، تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م، المقدمة، ص ٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن إياس، بدائع الزهور.

٧- كتاب «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» لشمس الدين محمد بن علي بن محمد بن طولون الصالحي، المتوفى سنة (٩٥٣هـ/١٥٤٦م). عاصر ابن طولون أواخر الدولة المملوكية وأوائل الدولة العثمانية وهو بالنسبة إلى دمشق كابن إياس بالنسبة إلى القاهرة. كان يكتب ما يسمعه ويشاهده من أخبار دمشق في تلك الفترة الهامة، وهذه هي قيمته الحقيقية. وقد اعتمد في الفترات السابقة لعهد على مؤلفات بعض المؤرخين الكبار كعبد القادر النعيمي والعلاء البصروي، وكتابه هذا سجل حضاري لمجريات الأمور في دمشق إذ يصور الحياة العامة اليومية في دمشق وكأن الإنسان يشاهدها. فيحدثنا عن أخبار الحكام والقضاة والعلماء والتجار وأصحاب الأسواق من كل الملل والطوائف الدينية. كما يحدثنا عن العلاقات الاجتماعية بين هذه الطوائف كمشاركتها في إقامة الزينة للأمراء والحكام وإشترار أهل الذمة في إستقبالهم عند قدومهم إلى البلد. كما يتحدث عن الأسعار والأمور الإقتصادية وأخبار السطو والنهب، وكان لا يستثنى طبقة من طبقات الشعب إلا ويتحدث عنها. وعلى العموم يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التاريخية الموثوقة عن أخطر مراحل تاريخ دمشق^{٢٢}.

ج- كتب التراجم:

١- كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لموفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي، المتوفى سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م). وهو من أطباء العرب المعروفين وأدبائهم. ولد في مدينة دمشق، وكان والده أمير الكمالين فيها، وكانت القاهرة في عهده منتهى السبل وملتقى العلماء، والدولة الأيوبية في عزها ومجدها وسؤدها. فسافر إلى هناك والتحق في البيمارستان الناصري الذي أنشأه صلاح الدين واتصل هناك بالسلطين والوزراء، فالف مؤلفه هذا أمين الدولة وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب^{٢٣}. وهو من أحسن كتب التراجم تكلم فيه عن الأطباء العرب والعجم والهنود والمغرب وأطباء مصر والشام كل قطر على حده. وقد اعتمدت عليه في دراستي عن أطباء أهل الذمة في العصر الأيوبي، ومكانتهم في

٢٢- ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان تاريخ مصر والشام. ج ٢، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة. دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٤م، المقدمة ص ١٦-٢٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان.

٢٣- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، ١٩٦٥م. المقدمة ص ٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء. الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ١٩٧.

عالم الطب وعلاقاتهم بملوك الأيوبيين ووزرائهم، والاقطاعات التي منحوها إياهم، والصلوات التي توافرت لهم، والمؤلفات الطبية التي صنّفوها، فضلاً عن إبراز المكانة الاجتماعية المرموقة التي تمتع بها الأطباء الذميون في المجتمع الشامي آنذاك.

٢- كتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لشهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود المعروف بابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م). العسقلاني الأصل ثم المصري المولد والنشأة. تلقى علومه في القاهرة ودمشق. وزار العديد من مدن الشام، وبرع في الفقه والعربية والقراءات والحديث والتاريخ والتراجم، وكتابه الدرر الكامنة معجم كبير ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجري. إذ يقول «...جمعت فيه تراجم من كان في المائة الثامنة من الهجرة النبوية من ابتداء سنة إحدى وسبعمئة إلى آخر سنة ثمان مائة من الأعيان، والعلماء، والملوك، والأمراء والكتاب، والوزراء، والأدباء، والشعراء...»^{٢٤}. وغالب ما ورد فيه مما شاهده أو أخذه من الذين رجع إليهم، أو وجده بخط من يثق بهم من مشايخه، أمثال ابن الفرات وابن دقماق والمقريزي والعيني. وقد استفدت من تراجمه في الإطلاع على شخصيات موظفي النصارى واليهود وأطبانهم وما امتلكوه من ثروات وإقطاعات.

٣- كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» لشهاب الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عثمان المعروف بالسخاوي، المتوفى سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٦م). من أشهر تلاميذ ابن حجر إذ لازمه صغيراً فحبب إليه دراسة الحديث والتاريخ والتراجم وبرع في الفقه والعربية والقراءات. وحظي برعاية استاذة وتأثر بكتابته، وكتابه هذا يعتبر إكمالاً لكتاب الدرر الكامنة، إذ ترجم فيه لمشاهير القرن التاسع الهجري من النساء والرجال^{٢٥}. وعلى الرغم من إقدام السخاوي على تجريج معظم من ترجم له في الضوء اللامع، إلا أنه يعتبر من أهم مؤلفات السخاوي. وليس له نظير في كتب التراجم الإسلامية، ففيه يرتفع

٢٤- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦م. ص٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة.

٢٥- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج١، بيروت، دار مكتبة الحياة. د.ت. المقدمة ص٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، السخاوي، الضوء اللامع.

السخاوي إلى أسمى ضروب الإبتكار في التصوير والتحليل والعرض^{٢٦}. وقد استفدت منه في التعرف على الشخصيات الكثيرة لأهل الذمة الذين خدموا في دواوين الأمراء في منطقة بلاد الشام، وما نعموا به من إقطاعات وإنعامات من قبل السلاطين والأمراء.

د- كتب الجغرافية والرحلات:

تحتل كتب الرحلات مكانة هامة في ثبت المصادر التي تتضمن الكثير من المعلومات عن البلدان والأقاليم والشعوب في مختلف العصور. كما أنها تلقي ضوءاً على جوانب شتى في المجتمعات، وتعدنا ب ذخيرة طيبة من المعلومات التي نفتقدها في الكتب السياسية والتاريخية، فكتب الرحلات على الرغم مما يتخللها من نقائص وهفوات، وما يشوبها أحياناً من مبالغات وأخذ الأمور بشكلها السطحي الظاهر. إلا أنها ترقى أن تكون من المصادر الأصلية، ومن بين هذه الكتب التي اعتمدت عليها في إعداد هذه الدراسة:

١- كتاب «رحلة بنيامين» للرحالة اليهودي بنيامين بن يونه التطيلي، المتوفى في القرن السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي. الذي زار بلاد الشام وبلاد العالم الإسلامي واستغرقت رحلته من ٥٦١-٥٦٩هـ/ ١١٦٥-١١٧٣م. وكان بنيامين هذا وجيهاً من وجهاء اليهود في قشتاله. بل تاجراً تعنيه الشؤون الاقتصادية بدلالة الاهتمام الكبير الذي أبداه بالأحوال التجارية والإقتصادية. والملاحظ في أخبار بنيامين أنه يعنى عناية خاصة بأخبار اليهود في كل مكان يمر به فيذكر عددهم وأعمالهم وأحوالهم عامة. ثم يعطينا أسماء كبارهم ورجال الدين منهم. كما إهتم بذكر أعمال اليهود وصناعاتهم وتجاراتهم، فذكر لنا أن اليهود في انطاكية وصور يعنون بصناعة الزجاج^{٢٧}، كما وصف لنا أحوال السامريين في نابلس^{٢٨}. وتناول أخبار دمشق وأعطاهم حظاً كبيراً من عنايته، وأشار إلى أنه كان فيها أكبر تجمع يهودي في تلك الفترة^{٢٩}. والخلاصة أن بنيامين رحل للتعرف على أحوال اليهود في

٢٦- عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ص ١٢٥، ١٢٧.

٢٧- التطيلي، رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، بغداد، مطبعة الشرق، ١٩٤٥م، ص ٨٧، ٩٢ وسيشار له فيما بعد هكذا، التطيلي، الرحلة.

٢٨- التطيلي، المصدر نفسه، ص ١٠٤.

٢٩- التطيلي، المصدر نفسه، ص ١١٢.

العالم وأنه أجاد كل الاجادة في التعريف، فهو يلهج بالثناء على ما شاهده في بلاد المسلمين عامة من تسامح تجاه قومه اذا ما قارنهم بما كانوا عليه في أوروبا من ضيق واضطهاد.

٢- كتاب «معجم البلدان» لشهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي، المتوفى سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م). أخذ أسيراً وهو حدث من بلاد الروم، وحمل إلى بغداد فاشترته تاجر اسمه عسكر الحموي فنسب إليه وقيل له ياقوت الحموي، ثم راح مولاه يشغله بالأسفار في متاجره، فاستفاد برحلاته الكثيرة فوائد جغرافية عديدة يسرت له تأليف هذا الكتاب.^{٢٠} وكتابه هذا مصنف ضخمة ولا يُعد معجماً جغرافياً فقط، وإنما هو أيضاً كتاب تاريخ وأدب ومرجع من أعظم المراجع التي يمكن الإعتماد عليها. ولم يقصر نفسه على العالم الإسلامي فحسب بل وزع إهتمامه بالسوية على العالم الإسلامي والشرق الأقصى وعلى أوروبا الشرقية والشمالية، وهو من أفضل المصنفات العربية في العصور الوسطى.^{٢١} أمدني بأسماء العديد من المدن والقرى التي غلب عليها السكان النصارى واليهود. كما أمدني بمعلومات وفيه عن الديارات النصرانية في بلاد الشام، وما تمتلكه تلك الديارات من الأراضي الزراعية وأنواع المزروعات التي يهتم الرهبان بزراعتها، والنذور التي كانت تقدم لبعض تلك الديارات من النصارى والمسلمين على السواء.

٣- كتاب «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» لعز الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم المعروف بابن شداد، المتوفى سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م). وهو كاتب منشيء بليغ وسفير ووزير سياسي، شارك في الحياة السياسية والإقتصادية والعمرانية. عاصر أواخر الدولة الأيوبية في بلاد الشام وقيام دولة المماليك، حيث عمل وزيراً للسلطان الظاهر بيبرس وأهداه هذا الكتاب. وكتابه الأعلاق الخطيرة أوسع ما كتبه العرب في تاريخ الشام وأجمع ما تركوه في هذا الباب. فالكتاب يضم بين دفتيه طبوغرافية بلاد الشام ودروبها ومسالكها ورسم المدن والقرى، والكور والجبال، إضافة إلى تاريخ الأحداث التي تغلبت على هذه

٢٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م، المقدمة، ص ٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، ياقوت الحموي، معجم البلدان.

٢١- كراتشوفسكي، أغناطيوس يوليا نوقتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج ١، ترجمة صلاح الدين هاشم، مراجعة أيفور بلياييف، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، ١٩٦٣م، ص ٣٢٥، ٣٤٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي.

المنطقة، فهو كتاب تاريخ وجغرافية، وأدب وفن^{٢٢}. أخذ ابن شداد عن تاريخ دمشق لابن عساكر، وأضاف إليه وزاد عليه، فجمع كل ما قيل عن هذه البلاد من المصادر المكتوبة وما تناقلته الأحاديث والأقوال ورتبها ترتيباً زمنياً حتى أصبح كتابه شاملاً لكل ما قيل حول هذه البلاد، وكأنه موسوعة موجزة لها^{٢٣}. وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء، الجزء الأول تحدث فيه عن مدينة حلب مسقط رأسه وعن قنسرين وأمراء حلب. والجزء الثاني تحدث فيه عن دمشق ومدن الشام الجنوبية وفلسطين والجزء الثالث وهو الخاص بالجزيرة^{٢٤}.

وقد أفدت منه كثيراً في دراستي عن المزارات المقدسة لدى اليهود والنصارى. والكنائس والديارات الموجودة في دمشق وجنوب بلاد الشام، وأن المطلع على كتاب ابن شداد وتعداده للكنائس الكثيرة في هذه البلاد ليرى الدليل القوي على التسامح الديني الذي نعم به أهل الذمة عبر العصور الإسلامية.

هـ. كتب الحسبة:

١- «كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة» لعبد الرحمن بن نصر الشيزري، المتوفى سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م). عاصر المؤلف السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وقضى معظم حياته في بلاد الشام. ولعله وضع كتابه في الحسبة بناء على طلب السلطان صلاح الدين لمساعدة الدولة الأيوبية في مراقبة أرباب الحرف والصنائع^{٢٥}. ويعتبر كتابه هذا أصلاً لكتب الحسبة من بعده، ككتاب «معالم القربة في أحكام الحسبة» لابن الأخوة المتوفى سنة (٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، لاتفاق الكتاب معه إلى درجة كبيرة. وثمة ميزة أخرى لهذا الكتاب، الاهتمام بمراقبة أهل الذمة، وربما كان سبب هذا الاهتمام أن القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي تخللته منازعات

٢٢- ابن شداد، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ٢، ق ١، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٦م، المقدمة ص ١٠-١١، ٢٠-٢٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن شداد، الأعلام الخطيرة.

٢٣- ابن شداد، المصدر نفسه، ج ٢، ق ٢، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٦٢م، مقدمة، ص ٢٥.

٢٤- كراتشو فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ج ١، ص ٢٧٠.

٢٥- الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، بإشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٦م. المقدمة. وسيشار له فيما بعد هكذا، الشيزري، نهاية الرتبة.

كثيرة في أجزاء عديدة من العالم الإسلامي، وخاصة الحروب الصليبية. فأصبح يخشى مملأة الذميين في البلاد الإسلامية للصليبيين، لا سيما وأن أرباب الحرف والصنائع كانوا في معظمهم من أهل الذمة^{٢٦}. وقد أورد في كتابه الشروط والقيود التي كان على أهل الذمة الإلتزام بها مستمداً ذلك مما جاء في الشروط العمرية.

ثانية المصادر الأوروبية:

١- كتاب زيارة إلى الأراضي المقدسة في مصر، وسيناء، وفلسطين، وسورية سنة ١٣٨٤م لجموعة الرحالة فرسكو بالدي وجوسي وسيجولي.

Frescobaldi, Gucci, and Sigoli, Visit to the holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384.

ترجم هذا المصدر من الإيطالية إلى اللغة الانجليزية، وقد بدأ هؤلاء الرحالة رحلتهم من البندقية واتجهوا رأساً إلى الاسكندرية. ومن القاهرة سافروا مع قافلة إلى سيناء وعرجوا على دير القديسه كاترين ثم إلى فلسطين^{٢٧}. وفي خلال الرحلة إهتم هؤلاء الرحالة الثلاثة بوصف الأماكن المقدسة لدى النصارى في كل من مصر وسيناء وفلسطين وسوريا، وقدموا لنا شرحاً تفصيلياً عن تلك الأماكن، بالإضافة إلى ذكر المدن والقرى التي يسكنها النصارى والغلات الزراعية التي تشتهر بها. كما قدموا لنا وصفاً كاملاً عن الزيارة إلى كنيسة القيامة. إذ قدم لنا فرسكو بالدي وصفاً وافياً لأقسام كنيسة القيامة وعن مقدار الضريبة التي أخذت منه عند دخوله إليها^{٢٨}. بالإضافة إلى ذكر الأماكن المقدسة الأخرى التي يزورها الحجاج في فلسطين. كما أشار جوسي إلى احتفالات اليهود بصومهم الأكبر في مدينة الخليل.

٢- رحلة هنري ماندرييل من حلب إلى القدس سنة ١٦٩٧م

The Journey of Henry Maundrell, from Aleppo to Jerusalem, A.D. 1697.

وكتاب سير جون مانديفل ما بين ١٣٢٢-١٣٥٦م

The Book of Sir John Mundevelle, A.D. 1322-1356.

٣٦- الشيزري، نهاية الرتبة، المقدمة.

٣٧- زيادة، نقولا، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى. القدس، الكلية العربية، ١٩٤٣م. ص ١١١. وسيشار له فيما بعد هكذا، زيادة، رواد الشرق العربي.

٣٨- Frescobaldi, Visit to the holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384, translated from the Italian by F.R. Theophilus Bellorini, Jerusalem, Franciscan Press, 1948, p. 76-77.

وسيشار له فيما بعد هكذا، Frescobaldi, Visit to the holy places.

وقد نشرها الكاتب الانجليزي ثوماس رايت (Thomas Wright) مع مجموعة أخرى من الرحلات في كتاب واحد تحت عنوان: «رحلات مبكرة إلى فلسطين»
Early Travels to Palestine.

وقد تناول كل منهما ذكر الأماكن المقدسة في فلسطين وبلاد الشام. والغلات الزراعية التي تنتجها الأراضي التي يمرون بها، وعن سكان تلك المناطق ان كانوا من المسلمين أو النصارى أو اليهود أو السامرة. وقد حوى كتاب جون (يوحنا) ماندفيل كثيراً من الأساطير التي يزعم أنه رآها ولم يكن لها وجود، وذلك لأنه نقل عن مصادر مختلفة أخباراً وقصصاً متنوعة حشاها في كتابه. إلا أننا نستطيع أن نعتمد الصور التي أعطانا إياها عن الشرق العربي لدرجة كبيرة. إذ لاحظ الكاتب رايت (Wright) أن المؤلف كان في مصر سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م، بدليل ذكره للسلطان الأشرف الصغير علاء الدين كجك ٢١ صفر ٧٤٢هـ - ١٠ شوال ٧٤٢هـ/١٠ آب (أغسطس) ١٣٤١م - ٩ آذار (مارس) ١٣٤٢م^{٢٩}.

هذا وقد نالت فلسطين من عنايته الحظ الاوفى فذكر مدنها وسكانها وأشار إلى ان السامرة كانوا يلقون على رؤوسهم قطعة قماش حمراء، والمسلمين بيضاء والنصارى زرقاء واليهود صفراء. وقال أنه يوجد في دير صهيون مقبرة داود حسب ما يعتقد اليهود، كما ذكر حائط المبكى الذي يقول عنه اليهود أنه هيكل سليمان وقال أنه إعتقاد خطأ، لأن هيكل سليمان دمر زمن طيطس الروماني سنة ٧٠م^{٣٠}. كما أشار إلى إهتمام السلطات الإسلامية بحفظ المقدسات المسيحية، من ذلك الحائط الذي بنوه حول القبر المقدس في كنيسة القيامة لحفظ حجارة القبر من التلف^{٣١}.

هذه نبذة بسيطة لتحليل بعض المصادر التي استفدت منها في اعداد هذا البحث، بالإضافة إلى عشرات المصادر والمراجع الأخرى التي لا تقل أهمية عن هذه المصادر التي عرضت لها في هذه الدراسة.

٢٩- زيادة، رواد الشرق العربي، ص ١٠٧.

٤٠- Maundevill, The Book of Sir John Maundeville, A.D. 1322-1335. In Thomas Wright (ed.), Early travels to Palestine, London, 1848, p. 169.

- وسيشار له فيما بعد هكذا: Maundevill, The Book.

Maundevill, Ibid, p. 166.

٤١-

الفصل الأول

التسمية ولمحة تاريخية

- ١- أهل الذمة في اللغة والتشريع
 - أ- الذمة لغة واصطلاحاً
 - ب- أهل الذمة في القرآن الكريم والسنة
- ٢- لمحة تاريخية عن أحوال أهل الذمة قبل العصرين الأيوبي والمملوكي

(٩)

أهل الذمة في اللغة والتشريع

١- الذمة لغة واصطلاحاً

الذمة لغة:

الذِّمُّ نقيض المدح ذمُّ يذمه ذمّاً ومذمّة فهو مذموم، والمذمة بالفتح الملامة، وهي من الذم. والمذمة بالكسر من الذمّ، ويقال أذهب عنك مذمتهم بشيء. أي أعطهم شيئاً فإن لهم ذمّاماً. والذمة من الذمّ، وتعني الحق والحرمة، والجمع أذمة، والذمة العهد والكفالة وجمعها ذمّام، وفلان له ذمة أي حق^١.

والذمّام والذمّامة، الحرمة والكفالة، قال الأختل: (الطويل)
لا تنشدونا من أخيك ذمّامة ويُسلم أصداء العوير كفيلاً^٢

والذمّام: هو كل حرمة تلزمك إذا ضيعتها المذمة. أي الحق والحرمة التي يذم مضيعها، ومن ذلك يسمى أهل العهد أهل الذمة، ورجل ذمي معناه رجل له عهد يأمن به على ماله وعرضه ودينه. ويسمى العهد ذمّاماً لأن الإنسان يذم على إضاعته منه^٣.

١- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم. (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، ج ١٢، بيروت، دار صادر، ١٩٨٦م، ص ٢٢٠-٢٢٥. وسيشار له فيما بعد هكذا. ابن منظور، لسان العرب. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م)، القاموس المحيط، ج ٤، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للطباعة الأميرية سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص ١١٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، الفيروز آبادي، القاموس المحيط.

٢- ابن منظور، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٢١. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٤.

٣- ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا. (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، ج ٢، تحقيق عبدالسلام هارون، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، ص ٢٤٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن فارس، مقاييس اللغة. ابن منظور، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٢١. أبو جيب، سعدي، القاموس الفقهي، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢م، ص ١٢٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، أبو جيب، القاموس الفقهي.

وسمي أهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم^٤.

- الذمة اصطلاحاً:

- يطلق الفقهاء ألفاظاً متعددة واستعمالات كثيرة على الذمة، إلا أن القصد منها واحد، فتطلق الذمة على:
- الذات والنفس: ومنه قولهم ثبت المال في ذمته، وبرئت ذمته، لأن النفس والذات محل الذمة^٥.
- العهد: وفي التنزيل العزيز «لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة»^٦ فالذمة هنا العهد والإل الحلف^٧.
- الأمان: وفي الحديث الشريف «ذمة المسلمين واحدة»^٨ أي أمانهم، فإذا أمن شخص من المسلمين واحداً من الكفار، حرّم على غيره التعرض له سواء كان الشخص المسلم رجلاً أو امرأة، حراً أو عبداً، شريفاً أو وضيعاً، لأن المسلمين كنفس واحدة^٩.

٤- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٢، تحقيق محمد الطناحي و طاهر الزاوي، القاهرة، دار الفكر، ط ٢، ١٩٧٩م، ص ١٦٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، الزحيلي، محمد مصطفى، الإسلام والذمة، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، معاملة غير المسلمين في الإسلام، ج ١، عمان، المجمع الملكي، ١٩٨٩م، ص ١١٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، الزحيلي، الإسلام والذمة.

٥- أبو جيب، القاموس الفقهي، ص ١٣٨.

٦- سورة التوبة، آية ٩.

٧- ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ٢٢٢. أبو جيب، المرجع السابق، ص ١٣٨.

٨- أحمد، الإمام أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس (ت ٢٤١هـ/٨٢٩م)، مسند الإمام أحمد، ج ٢، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر د.ت، ص ٢١١. وسيشار له فيما بعد هكذا، أحمد، مسند البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صحيح البخاري، ج ٤، القاهرة، دار احياء الكتب العربية د.ت، ص ١٦٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، البخاري، صحيح، ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م)، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، تأليف ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الاسلامي، ١٩٨٦م، ص ١٠٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن ماجه، سنن.

٩- أبو جيب، المرجع السابق، ص ١٣٨.

- عقد الصلح والمهادنة: ومنه الحديث الشريف «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا^{١١} ذمتكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله»^{١٢}.
- الكفالة، العهد والضمان، ولهذا أطلق على المعاهدين من أهل الكتاب ومن جرى مجراهم أهل الذمة. والذمي هو المعاهد الذي أعطي عهداً يأمن به على ماله وعرضه ودينه بدفعه الجزية^{١٣}.
- الحق والحرمة: ومنه الحديث الشريف «من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله»^{١٤}.

ب- أهل الذمة في القرون الكريم والسنة:

النظام الإسلامي نظام متكامل للحياة والمجتمع فقد نظم علاقة المسلمين بربهم، وعلاقة المسلمين بعضهم بعضاً، وعلاقة المسلمين مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.

وأنزل الله الكثير من الآيات القرآنية التي تبين طريقة التعامل مع أهل الكتب السماوية فيما يخص عقيدتهم. قال تعالى: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون»^{١٥}. وقوله تعالى: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون»^{١٥}. وقوله تعالى: «لا ينهاكم

١٠- تخفروا: من الإخفار، وهو نقض العهد، الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج ٢، ص ٢٢.

١١- الترمذي، أبو عيسى محمد بن سورة، (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م). الجامع الصحيح أو سنن الترمذي، ج ٥، تعليق عزت عبيد الدماس، حمص، مطابع الفجر الحديثة، ١٩٦٧م. ص ٢٢٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، الترمذي، الجامع الصحيح.

١٢- ابن فارس، مقاييس اللغة، ج ٢، ص ٢٤٦. الفيروز أبادي، المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٥. ابن منظور، لسان العرب، ج ١٢، ص ٢٢١. أبو جيب، المرجع السابق، ص ١٣٨.

١٣- أحمد، مسند، ج ٥، ص ٢٢٨. أبو جيب، المرجع السابق، ص ١٣٨.

١٤- سورة آل عمران، آية ٦٤.

١٥- سورة العنكبوت، آية ٤٦.

الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين»^{١٦}.

كما أن الإسلام لا يكره الناس على اعتناقه، بل يخيرهم بين الدخول في الإسلام، وبين البقاء على دينهم. تنفيذاً لقوله تعالى: «لا إكراه في الدين»^{١٧}. وقوله تعالى لرسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، «لست عليهم بمسيطر»^{١٨}.

وبهذه التعليمات السمحة سار الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، في معاملته مع أهل الكتاب إلى أن جاءت السنة الثامنة للهجرة/ستمائة وتسعة وعشرون ميلادية، والتي توج بها الرسول، صلى الله عليه وسلم، جهاده بفتح مكة^{١٩}. فوفدت إليه القبائل، منهم من يريد أن يعلن إسلامه، ومنهم من يرغب في البقاء على دينه في ديار الإسلام، فنزل القرآن الكريم بأول آية يشرع فيها عقد الذمة وأخذ الجزية^{٢٠}. قال تعالى: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»^{٢١}.

١٦ - سورة الممتحنة، آية ٨.

١٧ - سورة البقرة، آية ٢٥٦.

١٨ - سورة الغاشية، آية ٢٢.

١٩ - البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م، ص ٥٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، البلاذري، فتوح البلدان.

٢٠ - الزحيلي، الإسلام والذمة، ص ١٢٣.

٢١ - سورة التوبة، آية ٢٩. عن يد لها تاويلان؛ أحدهما: عن قدرة وغنى. الثاني: أن يعتقدوا أن لنا في أخذها منهم بدأ وقدرة عليهم. ولصاغرون تاويلان؛ أحدهما: أذلاء مستكينين. والثاني: أن تجري عليهم أحكام الاسلام. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م. ص ١٨٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، الماوردي، الأحكام السلطانية.

وكان أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران^{٢٢}. وجاء في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، الذي أعطاه لأهل نجران «... ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم، وأرضهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دنية ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يُعشرون ولا يبطأ أرضهم جيش، ومن سال منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين...»^{٢٣}.

وكما أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم، الجزية من نصارى نجران أخذها من اليهود، وبعث معاذاً إلى اليمن وطلب منه أن يعقد الجزية لمن لم يسلم من اليهود والنصارى وأن يعطيهم الذمة ويأخذ من كل محتلم ديناراً أو قيمته من المعافري^{٢٤}.

٢٢ - ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام، (ت ٢٢٤هـ/٨٢٨م)، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، دار الفكر للطباعة والنشر، ط ٣، ١٩٨٨م، ص ٣٦. وسيشار إليه فيما بعد هكذا، ابن سلام، الأموال، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، ج ٨، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م، ص ٢٧١. وسيشار له فيما بعد هكذا، الشوكاني، نيل الأوطار.

نجران: بالفتح ثم السكون، في مخاليف اليمن من ناحية مكة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٦٦.

٢٣ - أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، (ت ١٩٢هـ/٨٠٧م)، كتاب الخراج، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، ص ٧٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، أبو يوسف، الخراج، ابن سلام، المصدر السابق، ص ١٨٢. الحيدر أبادي، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤١م، ص ٨١. وسيشار له فيما بعد هكذا، الحيدر أبادي، مجموعة الوثائق السياسية.

٢٤ - ابن سلام، المصدر السابق، ص ١٣١. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م)، زاد المعاد، ج ٣، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرئؤوط، دمشق، مكتبة المنار الإسلامية، ١٩٧٩م، ص ١٥٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد.

- المعافري: شباب تكون في اليمن. ابن قيم الجوزية، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٦. وهذا دليل على أن الجزية غير مقدرة الجنس ولا القدر.

وعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه قال: أخبرني عبدالرحمن بن عوف أن الرسول صلى الله عليه وسلم، أخذ الجزية من مجوس أهل هجر^{٢٥}. أي عاملهم معاملة أهل الكتاب.

وسمى المسلمون أهل الكتاب الذين دفعوا الجزية بأهل الذمة. أي هم المعاهدون الذين قبل منهم دينهم على أنه دين منزل، من النصارى واليهود ومن جرى مجراهم من المجوس والصابئين والسمارة. وشملهم الإسلام بالأمان وصانهم بالعهد والمواثيق^{٢٦}. وقد روي عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أحاديث كثيرة، أوصى بها بأهل الذمة. قال: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقتة أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»^{٢٧}. كما روي عن نافع عن ابن عمر قال: آخر ما تكلم به النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «احفظوني في ذمتي»^{٢٨} ومن نكث شيئاً من شرائطهم «فقد برىء من ذمة الله وذمة رسوله»^{٢٩}.

كذلك أقرّ الفقهاء حماية أهل الذمة ما داموا في دار الإسلام بكل وسيلة ممكنة من كل عدوان يقع عليهم. وفي هذا يقول الماوردي: «ويلتزم لهم، يعني أهل الذمة، ببذل الجزية حقان: أحدهما الكف عنهم، والثاني: الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين»^{٣٠}. ومن وصايا أبي يوسف إلى الخليفة هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م. «... وقد ينبغي يا أمير المؤمنين، أيدك الله، الرفق بأهل ذمة نبيك.. ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ من أموالهم إلا بحق وجب عليهم...»^{٣١}.

٢٥ - أبو يوسف، الخراج، ١٢٩، الشوكاني، نيل الأوطار، ج ١، ص ٥٩، البخاري، صحيح، ج ٢، ص ١٣١.

٢٦ - الماوردي، الأحكام السلطانية، ١٣٧.

٢٧ - أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م)، سنن أبي داود، ج ٣، راجعه وضبط حواشيه محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، دار احياء السنة النبوية، د.ت. ص ١٧١. وسيشار له فيما بعد هكذا، أبو داود، سنن. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، السنن الكبرى، ج ٩، بيروت، دار المعرفة د.ت. ص ٢٠٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، البيهقي، السنن.

٢٨ - الماوردي، المصدر السابق، ص ١٨٣.

٢٩ - الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٩٥.

٣٠ - الماوردي، المصدر السابق، ص ١٨٣، الحيدر آبادي، المرجع السابق، ص ٩٣، ٩٤.

٣١ - أبو يوسف، المصدر السابق، ص ١٢٤-١٢٥.

والشرط الأساسي لعقد الذمة هو الجزية. والجزية في اللغة من جزي يجزي إذا قضى^{٣٢}. قال تعالى: «واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده»^{٣٣}، والجزية من الجزاء ومعناه المكافأة على الشيء، قال تعالى: «لَتُجْزَى كل نفس بما تسعى»^{٣٤}. والجزية ما يؤخذ من أهل الذمة وهي تدل على الجزاء، كأنها جرت عن قتله^{٣٥}.

ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرار، وأعفي منها النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والأرقاء^{٣٦}. وقال بعض الفقهاء إن دفعها واجب على الرهبان إن كانوا ذوي غنى وتجارة ويسار، فإن ادعوا الفقر وأقسموا يميناً جائزة اعفوا منها^{٣٧}.

٣٢ - ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ١٤٣.

٣٣ - سورة لقمان، آية ٢٣.

٣٤ - سورة طه، آية ١٥.

٣٥ - ابن منظور، المصدر السابق، ج ١٤، ص ١٤٣.

٣٦ - أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٢. قدامة، أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادي، (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م)، نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمود ياسين الزبيدي، العراق. دار الرشيد، ١٩٨١م، ص ٢٢٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، قدامة، نبذة من كتاب الخراج. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٨٢. السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد، (ت ٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، كتاب المبسوط، ج ١٠، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٨٦م، ص ٧٩. وسيشار له فيما بعد هكذا. السرخسي، المبسوط. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، تحقيق صبحي الصالح، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦١م، ص ٤٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة. أرنولد، سير توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م، ص ١٥٧. وسيشار فيه فيما بعد هكذا، أرنولد، الدعوة إلى الإسلام.

- Shorter Encyclopaedia of Islam, edited by H.A.R. Gibb and J.H. Kramers, Leiden: E.J. Brill, 1974, P. 91.

وسيشار له فيما بعد هكذا، Shorter Ency... of Islam

٣٧ - أبو يوسف، المصدر السابق، ص ١٢٢. ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩. ابن تيمية، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس (ت ٨٠٢هـ/١٤٠٠م)، الاختيارات الفقهية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة للنشر، ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م، ص ٣١٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن تيمية، الاختيارات الفقهية.

ويشترط مع الجزية إلتزام أحكام النظام الإسلامي العام، لأن هذا من سيادة الدولة على أرضها^{٣٨}. ومن امتنع لزوم الأحكام أو قاتل المسلمين أو زنا بمسلمة أو أصابها بنكاح أو فتن مسلماً عن دينه أو قطع الطريق على مسلم، أو أوى المشركين أو دلهم على عورات المسلمين، أو ذكر الله ورسوله ودينه بما لا يجوز ذكره انتقضت ذمته وقتل في الحال وغنم ماله^{٣٩}.

أما مقدار الجزية فأقلها دينار خالص أو قيمته في كل سنة، ولا يجوز أن ينقص عنه، ويستحب أن يؤخذ من الغني أربعة دنانير، ومن المتوسط ديناران ومن الفقير دينار واحد^{٤٠}. ويجب أخذ الجزية مرة واحدة في آخر السنة^{٤١}. وإذا تم عقد الذمة وأعطى أهلها الأمان ثبت لهم الحقوق التالية:

- أ - حماية أنفسهم وأموالهم وأعراضهم من أن يعتدى عليها مسلم أو غيره.
- ب - لهم ما شرطوه لأنفسهم في عقد الذمة.
- ج - إذا غزا العدو بلاد المسلمين فغنم شيئاً من أموال أهل الذمة، ثم أظهر الله المسلمين على عدوهم، واستردوا هذه الأموال، فعليهم إعادتها إلى أصحابها.
- د - لهم الحق بالمحافظة على عقائدهم وحماية كنائسهم وبيوت صلواتهم.
- هـ - لهم الحق بممارسة عاداتهم التي لا تتعارض مع آداب الإسلام العامة^{٤٢}.

٣٨ - قلعجي، محمد رواس، موسوعة فقه عمر بن الخطاب، بيروت، دار النفائس، ط ٣، ١٩٨٦م. ص ١٤٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، قلعجي، موسوعة فقه عمر.

٣٩ - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٣٨. ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي، (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان وصديق المطيعي، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م. ص ٩٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الأخوة، معالم القربة، قلعجي، المرجع السابق، ص ٤١٤-٤١٥.

٤٠ - الماوردي، المصدر السابق، ص ١٨٤. ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله، (ت ٧٣٣هـ/١٣٢٢م)، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، قطر، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط ٣، ١٩٨٨م. ص ٢٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن جماعة، تحرير الأحكام.

٤١ - ابن جماعة، المصدر نفسه، ص ٢٥. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٣٦.

٤٢ - قلعجي، المرجع السابق، ص ٤١٤-٤١٥. الحيدر أبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٩١-٩٥. الزحيلي، الإسلام والذمة، ص ١٢٨.

هذا وقد شجع الإسلام على إقامة العلاقات الاجتماعية والودية مع أهل الزمة حتى لا يشعروا بأنهم جماعات منعزلة داخل المجتمع الإسلامي، فأحلّ تبادل الأطعمة معهم^{٤٢}، قال تعالى: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حلّ لهم»^{٤٣}.

ودعا إلى عيادتهم أثناء المرض، وتعزيتهم في مصابهم، وتهنئتهم في أفراحهم^{٤٤}، وجواز معاملتهم في البيع والشراء ومشاركتهم في التجارة^{٤٥}.

٤٢ - ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الزمة، ج ١، ج ١، ص ٦٥.

٤٤ - سورة المائدة، آية ٥.

٤٥ - ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٠. ابن تيمية، الاختيارات الفقهية، ص ٣١٨. قاسم، قاسم عبده، أهل الزمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص ٣١. وسيشار له فيما بعد هكذا، قاسم، أهل الزمة في مصر.

٤٦ - ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢)

لمحة تاريخية عن أحوال أهل الذمة قبل العصرين الأيوبي والملوكي

- هي فترة الفتوحات العربية الإسلامية:

يعتبر القرنان الأول والثاني الهجريين/السابع والثامن الميلاديين، ذروة للحركات والمذاهب الدينية المسيحية، فمن المعروف أنه منذ القرن الثاني الميلادي، قامت خلافات كبرى بين المسيحيين حول قضايا أساسية تتعلق بالأصول العقائدية مثل طبيعة المسيح، ومعنى الشركة المقدسة والعلاقة بين الأتانيث الثلاثة، وكانت هذه الخلافات سبباً في ظهور الكنائس المسيحية المختلفة^{٤٧}.

وقد أدت تلك الخلافات إلى عقد المجامع الدينية، ففي سنة ٤٥١م عقد المجمع الخلقدوني الذي دعا إليه الامبراطور البيزنطي مرقيانوس أو مركان (Marcin) ٤٥٠-٤٥٧م. بسبب قول جماعة من رجال الكنيسة يتزعمهم ديسقورس (Discours) بطرك كنيسة الإسكندرية أن المسيح جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين، وطبيعة من طبيعتين، ومشينة من مشينتين^{٤٨}. وقد انتهت قرارات المجمع إلى عزل ديسقورس ونفيه وتخريج مذهب عام وشامل هو المذهب الملكي أو المركاني أو الملكاني، الذي يقول بأن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية^{٤٩}. وقد أحدثت تلك

٤٧- عطية، جورج، الجدل الديني المسيحي الإسلامي في العصر الأموي وأثره في نشوء علم الكلام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، ص ١، عمان، ١٩٨٩م، ص ٤٠٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، عطية، الجدل الديني.

٤٨- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٢٨١، قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٢٤، عاشور، سعيد عبدالفتاح، أوروبا العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ط ٨، ١٩٨٥م، ص ٥٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، عاشور، أوروبا العصور الوسطى. أرشولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧١.

٤٩- أرشولد، المرجع نفسه، ص ٧١، عاشور، المرجع السابق، ص ٥٥، قاسم، المرجع السابق، ص ٢٤.

القرارات ثورة دينية، نتج عنها الكنيسة اليعقوبية^{٥٠} أو المونوفيزتية (Monophysit)، وهم القائلون بالطبيعة الواحدة، وقد تعرض اليعاقبة للاضطهاد من جانب الإمبراطورية البيزنطية^{٥١}.

ثم جاء هرقل ٦١٠-٦٤١م وحاول معالجة الانشقاق في الكنيسة لتوحيد الكلمة فتقرر إتخاذ صيغة جديدة للتوفيق بين المذاهب المختلفة، وهذه الصيغة هي المعروفة بالـمونوثليزية التي تقر بالطبيعتين الإلهية والبشرية في السيد المسيح، مع فعل واحد ومشينة واحدة. غير أن هذه المحاولة لم تلق الكثير من القبول وخاصة من البابا^{٥٢}.

وفي هذا الجو المشبع بالانقسامات الدينية والاضطهادات، دخل المسلمون بلاد الشام فاتحين فأدركوا منذ البداية أن أمان الناس على أنفسهم وأموالهم هو أول ما يجب أن يشيع في نفوس السكان، وأن يملا عليهم أفاقهم حتى يعيشوا في أجواء مسالمة لا يفسدها الخوف والقلق لكي تتوافر لهم الثقة بأصحاب الدعوة والاعجاب بما يؤمنون به^{٥٣}.

ومن أجل هذا كان أول ما تستند إليه كتب الصلح المختلفة أن يعطي القائد أو الخليفة الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم مع الاشتراط عليهم بدفع مبلغ معين من المال (الجزية)، جاء هذا في كتاب الصلح الذي كتبه

٥٠- اليعقوبية: نسبة إلى أحد زعمائها وهو يعقوب البراذعي (Jacob Baradeus). أو إلى ديسقورس بطرك كنيسة الاسكندرية، الذي كان اسمه في العلمانية يعقوب وربما يكون الاسم نسبة إلى أحد تلاميذه الذي كان اسمه يعقوب. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٨٢. المقرئزي، المراعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئزية، ج ٢، بقلم محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار التحرير للطبع والنشر عن طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ/١٨٥٢م، ص ٥٢٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، المقرئزي، الخطط. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٢٤.

٥١- عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ص ٥٥. قاسم، المرجع السابق، ص ٢٤. خماش، نجده، الشام في صدر الاسلام، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٧م، ص ١٣٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، خماش، الشام في صدر الاسلام.

٥٢- سعيد بن البطريق، أفيتشيوس (ت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي). كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م، ص ١٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، سعيد بن البطريق، التاريخ المجموع. رنسيمن، ستيفن، الحروب الصليبية، ج ٢، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨م، ص ٤٧٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، رنسيمن، الحروب الصليبية. حتى، فيليب. مختصر تاريخ لبنان، ترجمة فؤاد نصار، مراجعة محمود زائد. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨م. ص ١٤٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، حتى، مختصر تاريخ لبنان.

٥٣- خماش، المرجع السابق، ص ١٢٧.

عبدالرحمن بن غنم على لسان نصارى أهل الشام للخليفة عمر بن الخطاب عند فتح مدينة دمشق سنة ١٤هـ/٦٣٥م^{٥٤}. «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبدالله أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا أنكم لما قدمتم علينا سالناكم الامان لانفسنا، وذراريننا، وأموالنا وآل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجد ما خرب منها وأن لا نمنع كنائسنا أن لا ينزلها أحد من المسلمين ... ولا نعلم أولادنا القرآن ... ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ... ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ... وأن نجز مقادير رؤوسنا ... وأن نشد الزنانيير على أوساطنا وأن لا نظهر صليباً وكتباً في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم ... شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا.... فإن نحن خالفناه فلا ذمة لنا ولا عهد وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل الشقاق والمعاندة»^{٥٥}.

٥٤- البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٨.

٥٥- ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله، (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وأرديها وأهلها، ج ١، صورة من نسخة مكتبة الظاهرية بدمشق وكمل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش واستنبول ووضع فهرس التراجم والموضوعات الشيخ محمد بن رزق الطرهوني، دمشق، دار البشير للنشر، د.ت، ص ٢٧١-٢٧٢، وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، الشيزي، نهاية الرتبة، ص ١٢٠-١٢٢، ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٤٠-٤١، ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ٢، ص ٦٥٩-٦٦٠، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٢٥٧، آل تقي الدين، محمد أديب بن محمد، منتخبات التواريخ لدمشق، ج ١، تقديم كمال الصليبي، بيروت، منشورات دار الأفاق الحديثة، ١٩٧٩م، ص ٥٩، وسيشار له فيما بعد هكذا، آل تقي الدين، منتخبات التواريخ، قلججي، موسوعة فقه عمر، ص ٤٠٨، تروتون، أ.س، أهل الذمة في الاسلام، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٦٧م، ص ٢-٤، وسيشار له فيما بعد هكذا، تروتون، أهل الذمة، أرنولد، الدعوة إلى الاسلام، ص ٧٥-٧٦، مع ملاحظة وجود بعض التغيرات الطفيفة بين مختلف النصوص التي أوردها هذه المصادر والمراجع وغيرها.

والجدير بالذكر أنه أطلق على هذه الشروط اسم «الشروط العمرية» أو «العهد العمري»، وظل هذا العهد بصورته التقليدية مجهولاً طوال القرنين الأولين للهجرة، ولم يبدأ ظهوره بالشكل النهائي إلا في أواخر القرن الثاني الهجري/ السابع الميلادي. وقد اختلف الباحثون في صحة نسبها فمنهم من يعتقد بصحة نسبها إلى الخليفة عمر بن الخطاب لا تساقها مع روح الشريعة الإسلامية ومع الاعتقاد بكثرة الإدراج عليها من قبل الفقهاء المتأخرين. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٢٧. ومنهم من يشك في نسبتها إلى الخليفة عمر بن الخطاب وينسبها إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز، تروتون، أهل الذمة، ص ٢٨، حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ترجمة كمال اليانجي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢م، ص ١٠٠، وسيشار له فيما بعد هكذا، حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين.

وسواء صحت نسبتها إلى الخليفة عمر بن الخطاب أو الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فأنها أصبحت فيما بعد شروطاً التزم بها أهل الذمة في حياتهم العامة والخاصة. ولا سيما في أوقات الاضطرابات والشدة، آل تقي الدين، منتخبات التواريخ، ج ١، ص ٥٩.

وجاء هذا الأمان أيضاً في كتاب عمرو بن العاص لأهل غزة وسبسطية ونابلس، وكتاب أبي عبيدة لأهل بصرى وحمص وبعلبك^{٥٦}. وكتاب شرحبيل بن حسنة لأهل طبرية وفي كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى أهل بيت المقدس، وقد جاء في العهد المعطى لأهل بيت المقدس أن عمراً «... أعطى أهل إيليا أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيعها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم...»^{٥٧}. كما أجاب عمر طلب قبيلة تغلب النصرانية في بلاد الشام بدفع الصدقة مضاعفة، مفضلين إياها على دفع الجزية لكي لا يكونوا في مصاف الأعداء^{٥٨}.

وكانت الجزية في الشام في بادئ الأمر جريباً من الحنطة وديناراً على كل شخص، ثم وضعها عمر بن الخطاب على أهل الورق أربعين درهماً وعلى أهل الذهب من الذكور البالغين أربعة دنانير، ومدين من الحنطة وثلاثة أقساط من الزيت وذلك في الشام والجزيرة^{٥٩}، وإيواء المسافرين من المسلمين لمدة ثلاثة أيام^{٦٠}. أما أبو عبيدة

٥٦ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٨.

٥٧ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت ٢٣١٠هـ/١٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، ط ٢، ١٩٦٧م، ص ٦٠٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، الطبري، تاريخ الرسل والملوك. الحيدرآبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

٥٨ البلاذري، المرجع السابق، ص ١٨٦. أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٧. يعلق دانييل دينيت على هذه الحادثة بقوله: «أن هذا يؤيد النظرية في أن الفلاحين فحسب كانوا يؤدون ضريبة الرأس في عهد الروم، وأن ضريبة الرأس كانت تعتبر علامة الصغار والهوان، وكان ملك غسان لا يؤدي ضريبة الرأس إلى الروم، مما يثبت أن الجزية التي فرضت على أهل الذمة أنها لم تكن علامة الهوان والصغار لأنها فرضت على جميع الأفراد دون استثناء وكانت تسقط عن الشخص إذا رضي أن يقاتل في صفوف المسلمين». الجزية والإسلام، ترجمة فوزي جادالله، مراجعة إحسان عباس، بيروت، مكتبة الحياة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٠م، ص ١٠٨-١٠٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، دينيت، الجزية والإسلام.

٥٩ البلاذري، المصدر السابق، ص ١٣١.

٦٠ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٢٤٦.

فقد صالح أهل الشام بأن فرض عليهم جزية مسماة لا تزيد عليهم إن كثروا ولا تنقص إن قلوا، وقدرها دينار واحد على الرأس وشيء من الطعام، كما أن البعض كان يدفع بما يتناسب وحالته المادية^{٦١}.

أما فيما يتعلق بنقضايا أهل الذمة المدنية والدينية، فقد ظلت مرتبطة برؤسائهم الروحيين الذين كانوا مسؤولين عنهم أمام الخليفة^{٦٢}.

وبالنسبة إلى القواعد المتعلقة بالملابس فلم يكن ثمة ضرورة، أثناء الفتح لزام أهل الذمة بلبس معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، فكان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة، وكان النصارى واليهود يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو إلزام. على أن الحاجة استلزمت هذه فيما بعد حين أخذ العرب المسلمون بحظ من التمدن إذ عملت الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم في ملابسهم والتشبه بهم في ثيابهم^{٦٣}.

وفيما يتعلق بنشاط أهل الذمة الاقتصادي، فقد ظلوا يمارسون أنشطتهم الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، مقابل ما كانوا يدفعونه من ضريبة نصف العشر على أموال التجارة الخارجية والخراج على زروعهم وثمارهم^{٦٤}.

أما الجندي وحمل السلاح، فكانوا يمنعون منها فيما إذا اشترط عليهم ذلك، فقد استعان الرسول الكريم بصفوان ابن أمية وهو مشرك في غزوة حنين ٨هـ/٦٢٩م^{٦٥}.

٦١- ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٢٤٦.

يذكر ستيفن رنسيمان بهذا الخصوص بأن الضرائب التي كان يتقاضاها الخليفة حتى مع الجزية كانت أقل بكثير من التي كان يفرضها الامبراطور.

- Runciman, Sir Steven, The Historic Role of The Christian Arabs of Palestine, Britain: Longman For the University of Essex, 1970, p.9.

وسيشار له فيما بعد هكذا: Runciman, The Historic Role.

٦٢- تروتون، أهل الذمة، ص ٨٧، Raunciman, Op, Cit. ٩.

٦٣- ارنولد، الدعوة الى الاسلام، ص ٧٣.

٦٤- ابو يوسف، الخراج، ص ١٣٥، ابن سلام، الأموال، ص ٤٧٥. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٨٧. الفراء، ابو يعلى محمد بن الحسين، (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، الأحكام السلطانية، تصحيح محمد حامد الفقي، مصر، مطبعة مصطفى البابي، ط ٢، ١٩٦١م، ص ١٦٣. وسيشار له فيما بعد هكذا، الفراء، الأحكام السلطانية.

٦٥- الشافعي، أبو عبدالله محمد بن ادريس (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م)، الأم، ج ٤، بيروت، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م، ص ٢٧٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، الشافعي، الأم.

وفي المعاهدة التي أبرمها سراقا وابن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على أرمينية، اشترط عليهم أن يشتركوا إلى جانب المسلمين في قتالهم بدل الجزية^{٦٦}.

وبخصوص النظام الإداري، فقد ظلت الرومية اللغة السائدة في الدواوين في مصر وسورية^{٦٧}، واحتفظ المسلمون بالموظفين الأهليين، وذلك لأنه لم يكن لديهم في تلك الآونة رجال مدربون يحلون محل هؤلاء الموظفين^{٦٨}.

أما من حيث العلاقات الاجتماعية، فلم يعيش أهل الذمة منعزلين عن المسلمين ولكنهم سكنوا مع المسلمين في دور واحدة، فعند قسمة المساكن في دمشق بين أهلها بعد الفتح، كان يترك الرومي في الأعلى والمسلم في الأسفل لئلا يضر المسلم بالذمي^{٦٩}. كما كانت لهم أسواق مشتركة شريطة ألا يبيعوا فيها الخمر والخنازير^{٧٠}.

- في العصر الأموي،

كانت العلاقات مع أهل الذمة في العصر الأموي تتسم بالتسامح والانفتاح، فقد استمر أهل الذمة بمزاولة أعمالهم الإدارية، فالمصادر العربية تشير إلى أن معاوية بن أبي سفيان ٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م استخدم سرجون بن منصور الرومي على الديوان^{٧١}، وطبيبة النصراني ابن أثال على خراج حمص^{٧٢}.

٦٦- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص ١٥٦. «وعلى أهل أرمينية.... ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفروا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً، على أن يوضع الجزاء عن أجاب...» الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٢٦٢.

٦٧- البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٩٦.

٦٨- حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ٢٢.

٦٩- ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٦، هذبه ورتبه الشيخ عبدالقادر بدران، بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٩٧٩م، ص ٦٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق.

٧٠- أبو يوسف، الخراج، ص ١٨٨.

٧١- ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن هبيرة، (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٧٧م، ج ٢٨٨، وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن خياط، تاريخ، الطبري، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٢٠.

Shorter Ency of Islam, p. 440.

٧٢- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب (ت بعد سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، ج٢، تقديم محمد صادق بحر العلوم، النجف، المكتبة الحيدرية، ط٤، ١٩٧٤، ص ٢١١. وسيشار له فيما بعد هكذا، اليعقوبي، تاريخ.

ومع ان الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م قام بتعريب الدواوين إلا ان هذا لا يعني ان الأمويين لم يستخدموا الكتاب من أهل الذمة، فقد أورد ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول «أن عبد الملك منع الكتاب النصاري ان يكتبوا الدفاتر بالرومية ولكن بالعربية»^{٧٢}. ولا شك أن عملية التعريب هذه قد دفعت بالكثير من أهل الذمة إلى تعلم اللغة العربية حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بوظائفهم.

وفي عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز ٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م كره ان تكون يد الذمي هي العليا، فكتب إلى ولاته بعزل الكتاب النصاري وتولية كتاب من المسلمين بدلاً منهم حيث قال لهم: «... فلا تولين أمور المسلمين أحداً من أهل ذمتهم...»^{٧٤} والواقع أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز كان شديد التمسك بتطبيق ذلك المبدأ في جميع نواحي الدولة الإسلامية، إلا أن الخلفاء من بعده استمروا في اتخاذ الكتاب من أهل الذمة، فقد كان من كتاب الخليفة هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م، ثاذري بن أسطين النصراني الذي قلده ديوان حمص^{٧٥}. كما واشتهر في العصر الأموي العديد من أطباء أهل الذمة كالطبيب ابن أثال النصراني طبيب الخليفة معاوية^{٧٦}، وتيا ذوق وثاودون طبيبا الحجاج بن يوسف الثقفي^{٧٧}.

٧٢- ابن العبري، مختصر الدول، ص ١١٣.

٧٤- ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالواحد الشيباني، (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ج ٤، مراجعة محمد دفاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م. ص ٢٣١. وسيشار له فيما بعد هكذا. ابن الأثير، الكامل.

٧٥- الجهشيارى، ابو عبدالله محمد بن عبدوس، (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م)، كتاب الوزراء والكتاب، حققه ووضع فهرسه مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨م، ص ٦٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، الجهشيارى، الوزراء والكتاب.

٧٦- البعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١١.

٧٧- الجهشيارى، المصدر السابق، ص ٢٧. ابن العبري، المصدر السابق، ص ١١٣.

وكثيراً ما يرد في مجال الأدب ذكر نصراني ذاع صيته بين المسلمين وهو الشاعر الأخطل^{٧٨}، وكان واحداً ممن اصطفاهم الخليفة يزيد بن معاوية ٦٠-٦٤هـ/٦٨٠-٦٨٣م، لمنادمته في لهوه. وقد مكنته مكانته الشعرية من أن يرقى فيلازم الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان يدخل على الخليفة دون إذن، وهو مرتد عباءة من الحرير وقد تدلى من عنقه صليب ذهبي والخمره تقطر من لحيته^{٧٩}.

ومع بدايات العصر الأموي اختفت تقريباً تلك المجادلات اللاهوتية بين الكنائس المختلفة، وحلت محلها دراسات فلسفية وتاريخية، وأخذت الأدبيات الجدلية تهدف إلى الدفاع بشكل ظاهر أو خفي عن الديانة المسيحية أمام الديانة الإسلامية التي انتشرت سريعاً بين سكان بلاد الشام^{٨٠}. وكان من أبرز من دافع عن المسيحية، القديس يوحنا الدمشقي^{٨١}. الذي ألف عدداً من الروائع الأدبية من أهمها كتاب «ينبوع الحكمة» ولعل مادته مستوحاة من المناظرات التي كانت تجري في قصر الخليفة^{٨٢}.

هذا وقد حافظ خلفاء بني أمية على كنائس أهل الذمة وفقاً لما ورد في العهود المختلفة فعندما هدمت الزلازل جانباً من بيعة الرها، أمر الخليفة معاوية بن أبي

٧٨ - الأخطل: هو غياث بن غوث بن الصلت الطارقي، والأخطل لقب غلب عليه. كان نصرانياً من أهل الجزيرة، الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م)، كتاب الأغاني، ج ٨، مصور عن طبعة دار الكتب، القاهرة، دار أحياء التراث العربي، د.ت، ص ٢٨٠، ٢٨٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، الأصفهاني، الأغاني.

٧٩ - الأصفهاني، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٩٤-٢٩٩.

٨٠ - عطية، الجدول الديني، ص ٤٠٩.

٨١ - القديس يوحنا؛ ولد بدمشق نحو سنة ٦٧٦م من عائلة لها صلتها القوية بالدولة الأموية، حصل جده على مركز مرموق في عهد معاوية، وورثه ابنه والد يوحنا فتولى هذا المركز. أما يوحنا فقد كانت علاقاته قوية بيزيد بن معاوية ٦٠-٦٤هـ/٦٨٠-٦٨٣م. وعمل بالإدارة زمناً طويلاً، اعتزلها في بداية حكم هشام بن عبد الملك، وانقطع للرهبنة في دير مار سابا في فلسطين. توفي نحو سنة ٧٥٦م. عطية، المرجع السابق، ص ١٤. حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٦٦. الدبس، المطران يوسف إلياس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، ج ٥، بيروت، المطبعة العمومية، ١٩٠٢م، ص ٢٦٦-٢٦٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، الدبس، من تاريخ سورية.

٨٢ - عطية، المرجع السابق، ص ١٤. حتى، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦٦.

سفيان بترميمها وإعادتها إلى سابق عهدها^{٨٢}. كما أمسك معاوية عن إضافة كنيسة مار يوحنا إلى الجامع الأموي عندما رفض النصارى ذلك. ثم جاء الخليفة عبد الملك وبذل مالا كثيراً لكي يتخلوا عنها ولكنهم رفضوا^{٨٤}. فلما كان الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م كثر المسلمون وضاق بهم المسجد فعرض الوليد على النصارى أن يبني لهم كنيسة حيث شاؤوا. وبذل لهم مالا مضاعفاً، إلا أنهم أصروا على رفضهم فهددهم بهدم كنيسة مار توما لأنها لم تكن بالعهد، ازاء ذلك وافقوا على هدمها وهدمت الكنيسة وضيقت إلى المسجد الأموي^{٨٥}.

وهكذا نرى أن عدم بناء أو إحداث كنائس جديدة والتي نصت عليها بعض المواثيق والعهود لم تكن موضع التنفيذ دائماً. وتشير المصادر إلى أن بعض الديارات في بلاد الإسلام كانت متنزهات جميلة تجذب إليها الزوار وعابري السبيل لا سيما من الأمراء و حاشيتهم، كدير مرّان بظاهر دمشق الذي كان الخليفة يزيد بن معاوية قد اتخذه متنزهاً له^{٨٦}. ودير بونّا (يوحنا) بجانب غوطة دمشق الذي أقام به الوليد بن يزيد يوماً^{٨٧}. ودير البخت^{٨٨} وقد سمي بذلك لوجود بخت لعبد الملك بن مروان كانت هناك^{٨٩}.

٨٢ - ترتون، أهل الذمة، ص ٤١.

٨٤ - سعيد ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص ٣٩. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ١، ص ٥١، ترتون، أهل الذمة، ص ٢٨.

٨٥ - سعيد ابن البطريق، المصدر السابق، ص ٤٢. ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق ج ١، ص ٢٠١، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ١، ص ٥٥. ترتون، أهل الذمة، ص ٣٩.

٨٦ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٢٤. العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ١، باب ٦، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٥م. ص ٣٥٥، وسيشار له فيما بعد هكذا، العمري، مسالك الأبصار.

٨٧ - ابن شداد، المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٢٧٩-٢٨١. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢.

٨٨ - البخت: الأبل الخراسانية. الشابشتي، ابو الحسن علي بن محمد، (ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م)، كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٥١م، ص ١٣٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، الشابشتي، الديارات.

٨٩ - الشابشتي، المصدر نفسه، ص ١٢٧. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٧، العمري، المصدر السابق، ج ١، باب ٦، ص ٣٤٩.

هذا وقد تخلل العصر الأموي بعض الفترات العصبية التي تحملها أهل الذمة، ففي عهد الخليفة عمر بن العزيز، أصدر مراسيم عدة بشأن ملابس الذميين، حيث حرّم عليهم لبس العمام أو التشبه بالمسلمين في ثيابهم كما منعهم من استعمال السروج وأن يركبوا على جنب واحد من الحمار ومنع نساءهم من استعمال الرواحل حين ركوبهن الجمال، ومنعهم من الظهور في الأماكن العامة إلا مفروقي الناصية، وألا يلبسوا قباء ولا يمشوا بزنا من جلد، ومنعهم من حمل السلاح^{٩٠}. ومن وجد في بيته سلاح نهب، كما أخذ الجزية من الرهبان، فكانت أول جزية تؤخذ من الرهبان^{٩١}. ومع ذلك فإن عمر بن عبدالعزيز رغم شدته على أهل الذمة نجده ينصفهم في حقوقهم، فقد استردّ لهم عدة كنائس وبيع كان المسلمون قد وضعوا أيديهم عليها، حيث استردّ لهم بيعة كان الخليفة معاوية أقطعها لبني نضر في مدينة دمشق^{٩٢}. واستردّ ضيعة لذمي من أهل حمص، كان الوليد بن عبد الملك قد أقطعها لابنه العباس^{٩٣}. كما أمر عماله ألا يقدموا على هدم شيء من الكنائس وبيوت النار، وأن لا يأذنوا بإقامة أخريات جديدة^{٩٤}.

٩٠ - أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٧، ١٢٨، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٢٧٦. ابن الجوزي، الامام ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز، تعليق نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤م. ص ١١٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز.

Ye'or, Bat, The Dhimmi: Jews and Christian under Islam, translated from french by David Maisl and Others, Rutherford: Fairleigh Dickinson University Press, 1985, p. 169.

وسيشار له فيما بعد هكذا،

Ye'or, The Dhimmi.

Hirschler, Pal, The Social Isolation of Ahl Adh-Dimma, Memorial Book, Budapest, 1949, p. 82. In Eliyahu Ashtor, (ed.), The medieval near east: Social and Economic History, London, Variorum Press, 1948.

وسيشار له فيما بعد هكذا، Hirschler, The Social Isolation of Ahl Adh-Dimma.

Shorter Ency... of Islam, p. 440.

٩١ - ابن سلام، الأموال، ص ٢٥. المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٢٩٢. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٤٣.

Shorter Ency... of Islam, p. 92.

٩٢ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٠، ابن عساكر، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٤.

٩٣ - ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ١٢٦.

٩٤ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٦، ص ٥٧٢.

ومن المضايقات التي تعرض لها أهل الذمة زمن الأمويين، أن الخليفة يزيد بن عبد الملك أمر بكسر الأصنام والتماثيل ومحو الصور والايقونات من الكنائس. وذلك ضمن حملة عامة شملت كل أنحاء الدولة الإسلامية، تماماً كما حدث في الدولة البيزنطية^{٩٥}. وقد أثرت العلاقات العدائية بين العرب وبيزنطة على طبيعة علاقات المسلمين بأهل الذمة وخاصة النصارى أتباع المذهب الملكي، فقد كان يقيم في المنطقة الجبلية شمال سورية قوم يدعون المردة أو الجراجمة^{٩٦}، وكان هؤلاء يعدون الروم من معاقلهم بالرجال والجنود النظاميين افكانوا شركة في جانب العرب. إلى أن تمكن الوليد بن عبد الملك من القضاء نهائياً على خطر هؤلاء المردة حيث هاجم سلمة بن عبد الملك هؤلاء العابثين، وافتتح عاصمتهم وهلك بعضهم وهاجر البعض الآخر إلى بلاد الروم (بيزنطة) ومنهم من بقي في البلاد فاشترط عليهم أن يحاربوا مع المسلمين وفي المقابل لا تؤخذ منهم الجزية^{٩٧}.

٩٥ - في سنة ١٠٨هـ/٧٢٦م أصدر الامبراطور ليو الايسوري ٩٩-١٢٤هـ/٧١٧-٧٤١م مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس. عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م، ص ١٠١. وسيشار له فيما بعد هكذا، عمران، الامبراطورية البيزنطية. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٣٤.

٩٦ - الجراجمة، نسبة إلى بلدتهم جرجومة على جبال اللكام. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٢٣. أما عن أصل المردة أو الجراجمة فيذكر فيليب حتي ما يلي: بعد الفتح الإسلامي جندت بيزنطة لغزو العرب برأ وبحراً مرتزقة من بلدة في جبل اللكام تدعى جرجومة، فأخذ الجراجمة يشنون الغارات على بلاد الشام ويتسللون إلى لبنان، وبما أنهم كانوا خشنين وجبليين ونصارى فقد وجدوا الجو ملائماً في شمال لبنان، واندمجوا مع السكان الأرميين فيه وصاروا يعرفون بالمردة (المتمردين) أي العصاة لتعرضهم للعرب وعدم الخضوع لأوامر بيزنطة. ثم التحقت فيما بعد بجماعة الجراجمة والأرميين جماعة من سورية يعرفون بالموارنة وكان هؤلاء من أتباع الراهب مارون. وبعد وفاته نزح تلاميذه إلى قلعة على نهر العاصي، على أثر خلاف مع كنيسة الروم الأرثوذكس وفي مركزهم الجديد اعتنق مذهبهم كثيرون ثم نزحوا إلى شمال لبنان واندمجوا بالطائفة المسيحية وأطلقوا عليها إسم الطائفة المارونية. مختصر تاريخ لبنان، ص ١٠٩.

وهناك رأي آخر يقول: أن المردة والجراجمة والموارنة ثلاثة أسماء لمسمى واحد. فالاسم موارنه هو الاسم الديني الدال على مذهب القوم. والاسم جراجمة هو الاسم الجغرافي الدال على عاصمتهم جرجومة في جبال اللكام. والاسم مردة، يدل على أنهم مرقه من شعب عرف بهذا الاسم في سوريا وبلاد فارس منذ الأموريين أي منذ الألف الثالث ق.م. ولازمهم هذا الإسم حيث حلت عشائهم في لبنان وسورية والعراق وجبال اللكام وأرمينية. ضو، الأب بطرس، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، ج ٣، بيروت، دار النهار للنشر، ط ٢، ١٩٧٧م، ص ٢١٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، ضو، تاريخ الموارنه.

٩٧ - البلاذري، فتوح البلدان، ١٦٥.

- في العصر العباسي:

طراً طارئاً، جديد في هذا العصر وهو إشتداد نعمة أهل الذمة بسبب التدابير الصارمة التي فرضت عليهم وعلى جميع أهالي بلاد الشام من قبل الخلافة الجديدة، ففي سنة ١٤١هـ/٧٥٩م وفي عهد الوالي صالح بن علي بن عبدالله بن العباس لجأت جماعة من نصارى لبنان إلى السلاح تفادياً لمصادرات جديدة تنزل بهم فعمد صالح إلى الانتقام منهم فشرّد أهالي القرى الجبلية مع أن الكثيرين منهم من لم يساهموا في الفتنة مما أثار غضب الفقهاء المسلمين على تصرفه^{٩٨}.

وتبدأ معاملة الذميين بصورة أشد عنفاً، منذ عهد الخليفة هارون الرشيد وذلك رداً على اعتداءات البيزنطيين المتكررة فأمر بهدم الكنائس بالشفور وأوجب على الذميين أن يلبسوا لباساً معيناً^{٩٩}. ففرض على النصارى لبس الزنار وأن تكون قلانسهم مضربة، وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب، وكان أول من منعهم من ركوب الخيل كما منعت نساؤهم من ركوب الرواحل^{١٠٠}.

٩٨ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٧.

رفع الامام عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي الفقيه المشهور في بعلبك وفي بيروت احتجاجاً الى الحاكم وكان مما قاله: «... وقد كان من اجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن معالماً لمن خرج على ضروبه، فممن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم الى قراهم، ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى «أن لا تزر وازرة وزر أخرى» وهو أحق ما وقف عنده واقتدي به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فانه قال: «من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقتة فأنا حجيجه...» ابن سلام، الأموال، ص ١٦٦-١٦٧، البلاذري، المصدر السابق، ص ١٦٧.

الآية التي وردت في النص من سورة الأنعام، آية ١٦٤.

٩٩ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٣٢٤.

Runciman, the Historic Role, p.9. Shorter Ency ... of Islam, p. 440

١٠٠ - أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٧.

Hirschler, The Social Isolation of Ahl Adh - Dimma, P. 76.

فقد تجشم أهل الذمة هذه المتاعب وخاصة النصارى، بسبب ما ارتكبه الامبراطور البيزنطي نقفور الأول ١٨٦-١٩٦هـ / ٨٠٢-٨١١م، من غدر وتخريب جعل إسم النصراني مفضاً الى هارون الرشيد^{١٠١}. إلا أن كثيراً من هذه التدابير لم توضع موضع التنفيذ وخاصة عندما بدأت العلاقات بالتحسن بين الغرب والشرق على أثر الصداقة التي قامت بين الامبراطور شارلمان والخليفة هارون الرشيد^{١٠٢}.

وفي عهد الخليفة المتوكل ٢٢٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م، استطال كتاب أهل الذمة على المسلمين مما أثار الاستياء في نفوسهم، فرفعوا الأمر إلى الخليفة، فأصدر المتوكل مرسوماً سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م. ألزم فيه أهل الذمة بلبس الطيالس العسلية والزنانير وركوب البغال والحمير، وألا يظهروا في أعيادهم شعاراتهم، ومنعهم من قراءة الصلوات في الشوارع، وأن يجعلوا على أبوابهم صور أشكال مميزة، كما أمر بطردهم من الأعمال الديوانية، وهدم جميع الكنائس والبيع الحديثة، وعومل اليهود نفس المعاملة^{١٠٣}. وبذلك كان الخليفة المتوكل أول من حدد ألوان ملابس الذميين، فعند ذلك الوقت، أصبح اللون الأصفر علامة للتمييز بين ملابس أهل الذمة وملابس المسلمين^{١٠٤}.

ولم تكن هذه القيود مطبقة في كل الأوقات ففي خلافة المقتدر ٢٩٥-٣٢٠هـ / ٩٠٨-٩٣٢م، عاد أهل الذمة إلى سابق عهدهم ورجعوا إلى سالف قوتهم،

١٠١ - أرنولد، الدعوة إلى الاسلام، ص ٩٥.

١٠٢ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٦٨. خوري، شحادة ونقولا، خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، القدس، ذن، ١٩٢٥م، ص ٥٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، خوري، تاريخ كنيسة اورشليم.

Conder, C.R, The City of Jerusalem, London: John Murray, 1909, p. 250.

وسيشار له فيما بعد هكذا، Conder, The City of Jerusalem

١٠٣ - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٥-٢٢٦. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٩٦. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٣٩٦. ومآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج ٣، تحقيق عبدالستار فراج، بيروت، عالم الكتب، دت، ص ٢٢٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، القلقشندي، مآثر الإنافة، تروتون، أهل الذمة، ص ١٩٦.

Hirschler, The Social Isolation of Ahl Adh-Dimma, p. 86. Runciman, The Historic Role, p.9, Yc'or, the Dhinnmi, pp. 185-186.

Hirschler, Op, Cit, p. 86.

كما عاد العمال النصاري الى ما كان بأيديهم من الوظائف. فتذمر بعض المسلمين من ذلك مما دعا الخليفة إلى إصدار مرسوم سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م أمر فيه بإسقاط النصاري واليهود من الخدمة ما عدا الطب والجهيذه (الصيرفة)^{١٠٥}. ومع ذلك فقد تمتع النصاري في العصر العباسي بالنفوذ العظيم والسلطة الكبرى بسبب مساهمتهم بنقل العلوم المختلفة من الفارسية واليونانية والسريانية إلى العربية، وقد لعب السريان دور الوسيط في حركة النقل هذه^{١٠٦}. كما خدم الكثيرون من أطباء أهل الذمة الخلفاء العباسيين، ومن أشهر أطبانهم بختيشوع وجيورجس بن بختيشوع طبيب الخليفة

١٠٥ - القرطبي، عريب بن سعد، (ت٢٦٦هـ/٩٧٦م)، صلة تاريخ الطبري، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص ٢٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، القرطبي، صلة تاريخ الطبري. ابن قيم الجوزية، احكام أهل الذمة، ج ١، ص ٢٢٤. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٣٦٨. ومآثر الانافة، ج ٢، ص ٢٢٢. ابو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي، (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، صورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢م، ص ١٦٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة.

Fischel, Walter J, Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Ismal, London; Royal Static Society, 2nd ed, 1968, p. 7.

وسيشار له فيما بعد هكذا، Fischel, Jews in the Economic and Political life

١٠٦ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٧٤. كان حنين بن اسحق من أعظم مترجمي العصر ومن أبرز شخصياته، اقامه الخليفة المأمون ١٩٨-٢١٨هـ/٨١٢-٨٣٢م قياً على بيت الحكمة. ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم، (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٠م، ص ١٧٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ابن العبري، مختصر الدول، ص ١٤٤.

Conder, The City of Jerusalem, p. 255. Shorter Ency- of Islam, p. 440.

كما اشتهر عدد آخر من المترجمين النصاري أمثال قسطنطين لوقا، وتوفيل الرهاوي. أنظر النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بالوراق، (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)، كتاب الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، ١٩٧١م، ص ٣٥٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، النديم، الفهرست. ابن القفطي، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم، (ت ٦٤٨هـ/١٢٤٨م). أخبار العلماء بأخبار الحكماء، بيروت، دار الآثار للطباعة والنشر، د.ت. ص ١٧٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن القفطي، أخبار الحكماء.

المنصور^{١٠٧}، ١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م، وجبرائيل بن بختيشوع طبيب الخليفة الرشيد^{١٠٨}، ويوحنا بن ماسويه النصراني الذي خدم الخلفاء منذ الخليفة الرشيد إلى الخليفة المتوكل^{١٠٩}، وسنان بن ثابت بن قرة الصابي الذي عينه الخليفة المقتدر لاختيار من يريد ممارسة الطب، فلم يعد في قدرة أحد مزاولة المهنة دون تفويض منه^{١١٠}.

أما اليهود في بلاد الشام فقد كانوا في تلك الفترة خاضعين دينياً لرئيسهم الديني المسمى بـ (رأس الجالوت) المقيم في بغداد، وذلك بحكم أن بلاد الشام كانت من ولايات الدولة العباسية، فقد ولاه الخليفة على جميع أبناء ملته القاطنين في كافة البلاد الخاضعة للخليفة^{١١١}. وقد تمتع اليهود بممارسة طقوسهم الدينية دون قيد أو شرط، فكانوا يذهبون بأعداد كبيرة إلى بيت المقدس لإداء مراسم الحج^{١١٢}.

وكانت أكثر الأعمال رواجاً لدى اليهود هي الصيرفة والتجارة حتى أصبحوا من أصحاب الثروات العظيمة، وكان تجارهم على صلة دائمة مع تجار يهود الغرب الذين كان يطلق عليهم اسم الرهدانية أو الراذانية^{١١٣}. حيث قدم لنا ابن خردادبه وصفاً شيقاً لرحلة هؤلاء التجار بقوله: «... سلك تجار اليهود الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجية (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي (البحر الأحمر)

١٠٧- النديم، الفهرست، ص ٨٠، ٤١٢. ابن العبري، مختصر الدول، ص ١٢٤.

١٠٨- ابن العبري، المصدر نفسه، ص ١٣٠.

١٠٩- ابن القفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٩٤. ابن العبري، المصدر السابق، ص ١٣١.

١١٠- ابن العبري، المصدر السابق، ص ١٥٨، ١٦٢. ثرثون، اهل الذمة، ص ١٨٢.

١١١- التطيلي، الرحلة، ص ١٦٢.

١١٢- ناصر خسرو، ابو معين القيادياني المروزي، (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م)، سفر ثامة المسمى رحلة ناصر خسرو، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط ٢، ١٩٧٠م، ص ٧٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، ناصر خسرو، سفر ثامة.

١١٣- الرهدانية أو الراذانية: نسبة إلى نهر الرودانوس (الرون) الذي يسميه العرب (رودنه) حيث كان يقيم هناك جماعات من اليهود. التطيلي، المصدر السابق، ص ١٦، هامش رقم (٢).

من القلزم الى الجار (ثغر المدينة) وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني (القرفة) وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي (البحر المتوسط) فربما عدلوا بتجارتهن إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك، وإن شأؤوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون دجلة إلى الأبله ومن الأبله إلى عُمان والسند والهند والصين وكل ذلك متصل ببعضه ببعض»^{١١٤}.

وهكذا نستطيع القول بأن أهل الذمة عاشوا في كنف الدولة العباسية متمتعين بكافة حقوقهم وحريتهم الدينية ووصل بعضهم إلى مناصب عليا في دواوين الدولة وإن تعرضوا لبعض المضايقات أحيانا، فقد كان ذلك بسبب الظروف الخارجية والداخلية للدولة.

وقد نال أهل الذمة في بلاد الشام الرعاية من قبل الطولونيين والأخشيديين والحمدانيين، فعملوا في التجارة والصناعة، والأعمال الإدارية والطب والهندسة وأصابوا ثراءً عظيماً^{١١٥}. ومما تجدر ملاحظته أن سيف الدولة الحمداني ٢٣٣-٢٥٦هـ/٩٤٤-٩٦٧م كان يعطف على النصاري حيث يذكر عنه أنه قلماً مرّ بدير مارت ماروثا، الذي يقع على سفح جبل جوشن المطل على حلب إلا نزل به

١١٤ - ابن خرداذبه، (ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله، (ت. ٣٠٠هـ/٩١٢)، المسالك والممالك، نشره دي غويه، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩م. وبذيله كتاب الفراج وصناعة الكتابه لابي الفرج قدامة بن جعفر، ص ١٥٣. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن خرداذبه، المسالك والممالك، التطيلي، الرحلة، ص ١٦. ترتون، أهل الذمة، ص ١٠١. هايد، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ١، ترجمة أحمد محمد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص ١٤٠-١٤٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، هايد، تاريخ التجارة.

Conder, The City of Jerusalem, p. 264. Stillman, Norman, The Jews of Arab Lands, Philadelphia: The Jewish Publication Society of America, 1979, p. 163.

وسيشار له فيما بعد هكذا، Stillman, The Jews of Arab Lands.

١١٥ - البلوي، ابو محمد عبدالله بن محمد المديني (ت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، المكتبة العربية، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ص ١٨١، ١٨٢، ٣١٩، ٣٢٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، البلوي، سيرة أحمد بن طولون.

وعطف على رهبانه^{١١٦}. كما كان بينه وبين بطريرك انطاكية صداقة قوية حتى أن البطريرك كان يتوسط عنده لبعض شيوخ ورجال انطاكية من المسلمين^{١١٧}.

كما كان لليهود أيضاً مكانة خاصة في الدولة الاخشيدية، فقد استطاع اليهودي الشهير أبو الفرج يعقوب بن كلس أن يحوز على ثقة كافور الاخشيدي وعقد لصالحه عدة صفقات تجارية حتى عرف باسم (تاجر كافور) ولا بد أنه تولى وظيفة تحمل معها السيطرة على الادارة المالية في الدولة^{١١٨}.

- في العصر الفاطمي،

يعتبر العصر الفاطمي العصر الذهبي لاهل الذمة، إذ لم يجدوا في سلطة الفاطميين ما يضايقهم^{١١٩}. فقد احرزوا من المكانة والنفوذ ما تمكنوا بواسطته أن يفيدوا اخوانهم في الدين، فقد استوزر الخليفة العزيز ٣٦٥-٣٨٩هـ/٩٧٥-٩٩٦م اليهودي أبو الفرج يعقوب بن كلس بعد أن أعلن إسلامه، وجعله المسؤول الأول عن كل

١١٦ - الانطاكي، يحيى بن سعيد، (ت ٤٥٨/١٠٦٥م)، تاريخ الانطاكي أو صلة كتاب اوتيا المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م، ص ١٢٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، الانطاكي، تاريخ الانطاكي، الغزي، كامل بن حسين، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج ١، حلب، المطبعة المارونية، د.ت، ص ١٩٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، الغزي، نهر الذهب، ثرتون، اهل الذمة، ص ١٢٥.

١١٧ - الانطاكي، المصدر السابق، ١٢٧، ١٢٩.

١١٨ - الانطاكي، المصدر السابق، ص ١٧٢. ابن القلانسي، ابو يعلى حمزه بن اسد بن علي، (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) ذيل كتاب تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م، ص ٣٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق.

Fischel, Jews in the Economic and Political Life, P. 47. Mann, Jacob, The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs, Vol. 1, London: Oxford University Press, 1969, p.17.

Mann, The Jews under the Fatimid Caliphs. وسيشار له فيما بعد هكذا.

Ye'or, The Dhimmi, p. 78.

Ye'or, Ibid, p. 78.

مملكته في مصر والشام إلى الجزيرة الفراتية^{١٢٠}. وبعد وفاته قلّد العزيز الوزارة لعيسى بن نسطورس وعيّن منشأ اليهودي (منسه بن ابراهيم) إبن الفرار والياً على الشام، ومال كل منهما إلى أبناء ملته وعينوهم في مناصب الدولة^{١٢١}. مما أثار حقد الأهالي المسلمين واشتكوا للخليفة، فأمر الخليفة العزيز برّد الدواوين والاعمال إلى الكتاب المسلمين وقبض على منشأ وعزل إبن نسطورس إلا أنه عاد وعفا عن إبن نسطورس^{١٢٢}.

وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م، تمكن الكثير من أهل الذمة في أعمال الدولة «حتى صاروا كالوزراء»^{١٢٣}، وتفننوا في آذى المسلمين^{١٢٤}. فأنظر الحاكم تعصباً ضد أهل الذمة، ففي سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م، أمر النصاري بشد الزنار واليهود بتعليق كرات خشبية ثقيلة على شكل العجل الذي عبّده^{١٢٥}. كما أمرهم بلبس السواد وذلك تحقيراً للعباسيين، ومنعهم من ركوب الخيل، وأصبح اللون الأسود في عهده علامة للتمييز بين ملابس أهل الذمة

١٢٠ - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢.

Fischel, Jews in the Economic and Political Life, p. 65. Goitein, S.D., Amediterranean Society, Vol, 2, Berkeley: University of California Press, 1971, p. 377.

Goitein, Amediterranean Society. وسيشار له فيما بعد هكذا.

١٢١ - الانطاكي، تاريخ الانطاكي، ص ١٧٦. أبو شجاع. محمد بن الحسين عبدالله بن ابراهيم الملقب ظهير الدين الروذراوري، (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، ذيل كتاب تجارب الأمم، ج ٢، اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ.ف. أمدروز، مصر، التمدن الصناعية، ١٩١٦م. ص ١٨٦. وسيشار له فيما بعد هكذا. أبو شجاع. ذيل تجارب الأمم. ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٣٣.

Fischel, Op. Cit, pp. 62-64. Goitein, Op. Cit, Vol, 2, p. 352.

١٢٢ - ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ١٢٣. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٤، صورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م، ص ١٤. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٥٢. Fischel, Op. Cit, p. 64.

١٢٣ - المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٥٤١.

١٢٤ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٩٦ ومآثر الانافة، ج ٢، ص ٢٣٤.

١٢٥ - الانطاكي، المصدر السابق، ص ١٩٥. أبو شجاع، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨٧. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٥، ص ٤٠٩. حسن، حسن ابراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٤، ١٩٨١م، ص ١٦٥. وسيشار له فيما بعد هكذا. حسن، تاريخ الدولة الفاطمية.

وملابس المسلمين^{١٢٦}. ثم بدأت سياسته المتشددة تظهر بعد ذلك بثلاث سنوات، فهدم بعض الكنائس وبيع جميع ما فيها في الأسواق^{١٢٧}. كما أمر بتخريب كنيسة القيامة في بيت المقدس. وأمر اليهود والنصارى إما أن يسلموا أو يسيروا إلى بلاد الروم^{١٢٨}.

ونتيجة لهذه الاضطهادات تحول عدد كبير من أهل الذمة إلى الإسلام، كما هاجر عدد كبير من النصارى إلى الأراضي البيزنطية وإلى بلاد الحبشة، كما جرى اتخاذ مثل هذه الاجراءات ضد اليهود وكنسهم^{١٢٩}. ونالت هذه الاضطهادات أيضاً أصحاب المناصب والوزراء السابقين من المسلمين غير الشيعة^{١٣٠}.

إلا أن الخليفة الحاكم رجع عن سياسته المتشددة هذه ضد أهل الذمة قبل موته، ففي سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م صار للنصارى واليهود مطلق الحرية، فبادر نحو ستة آلاف شخص من الذين تحولوا إلى الإسلام حديثاً بالعودة إلى ديانتهم الأصلية، واستعادت الكنائس ما صودر من أملاكها والغني المرسوم الذي يقضي بارتداء أهل الذمة ثياباً مميزة^{١٣١}.

١٢٦- Hirschler, The Social Isolation of Ahl-Adh-Di mma, p. 77, 81, 82.

١٢٧- الانطاكي، تاريخ الانطاكي، ص ١٨٧، المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٥٤١. حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٦٥. Conder, The City of Jerusalem, p. 259.

١٢٨- الانطاكي، المصدر السابق، ص ١٩٥. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٦٧. ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٥٠. ابن العبري، مختصر الدول، ص ١٨٠. أبو الحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٧٨. السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن، (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي وشركاه، ١٩٦٧م، ص ٦٠٢. وسيفشار له فيما بعد هكذا، السيوطي، حسن المحاضرة. العارف، عارف، المسيحية في القدس، القدس، مطبعة دير الروم الارثوذكس، ١٩٥١م. ص ٢٢١. وسيفشار له فيما بعد هكذا، العارف، المسيحية في القدس.

١٢٩- الانطاكي، المصدر السابق، ص ٢٠٢. المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٤٢. ونسيهان، الحروب الصليبية، ج ١، ص ٦١. Runciman, The Historic Role, p. 9.

١٣٠- الانطاكي، المصدر السابق، ص ١٩٧. حسن، المرجع السابق، ص ١٦٥.

١٣١- الانطاكي، المصدر السابق، ص ٢٢١-٢٢٢. ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨، ص ٥٠.

Runciman, Op, Cit, p. 9. Conder, Op, Cit, p. 252.

وفي بداية خلافة الظاهر ٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢١-١٠٣٦م. نشبت الثورات الداخلية التي قام بها القرامطة^{١٣٢}، والحركات الاستقلالية من قبل بعض الأمراء العرب^{١٣٣}، مما انعكس أثره سلباً على أهالي البلاد. فتعرض أهل الذمة إلى المضايقات وفرض الضرائب^{١٣٤}، كما قام القرامطة بهدم عدة كنائس للنصارى في الرملة وعسقلان وقيسارية^{١٣٥}.

وبعد القضاء على هذه الثورات، عاد أهل الذمة يتمتعون بحرياتهم الدينية وتقلدوا الوظائف الإدارية، ومنصب الوزارة، وتفاخروا في ركوب البغال الرائعة وضايقوا المسلمين في أرزاقهم واستولوا على الأحباس والأوقاف الشرعية واتخذوا العبيد من المسلمين^{١٣٦}. كما عقد الخليفة الظاهر مع الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثالث ٤١٩-٤٢٦هـ/١٠٢٨-١٠٣٤م سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م إتفاقية أجاز فيها للإمبراطور أن يتولى عمارة كنيسة القيامة، وتجديد بقية الكنائس سوى ما كان قد عمل

١٣٢- القرامطة: حركة من حركات الشيعة الاسماعيلية، لقبوا بهذا الاسم نسبة الى أحد رؤسائهم وهو حمدان بن قرمط، كان مركزها في البداية مدينة واسط، ثم انتقل مركزها الى مكان قرب الكوفة أطلقوا عليه اسم (دار الهجرة) ثم انتشرت في البحرين وتضخمت، ودخلوا في عدة حروب مع الدولة العباسية. ابن الجوزي، القرامطة، تحقيق محمد الصباغ، دمشق، المكتب الاسلامي، ط ٤، ١٩٧٧م، ص ص ١٤-١٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الجوزي، القرامطة.

١٣٣- في سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م قام ثلاثة ثوار ضد الخليفة الظاهر وهم: حسان بن مفرج بن الجراح حاول احتلال المنطقة الممتدة من الرملة الى مصر واسترداد سلطان آل جراح في الرملة. وصالح بن مرداس بن كلاب ومحاولته في الاستيلاء على حلب. وسنان بن عليان وهدفه الاستيلاء على دمشق. وفي سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٠م قضى الظاهر على هذه الثورات. ابن الاثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٩. Mann, The Jews Under the Fatimid Caliphs, Vol, 1, pp. 157-159.

١٣٤- Mann, Ibid, Vol, 1, p. 160.

١٣٥- خوري، تاريخ كنيسة اورشليم، ص ٦٠.

١٣٦- المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١٢٢. ولمزيد من الاطلاع على ما مدى ما وصل اليه أهل الذمة في تلك الفترة انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢ وما بعدها. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٢، ١٥٣. حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ص ٢٠٢-٢١٦. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٥٤.

Fischel, Jews in the Economic and Political life, p. 69, Mann, Op, Cit, Vol. 1, p. 220.

مسجداً^{١٣٧}، وتجددت المعاهدة بينهما سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م. غير أن ما جرى فعلاً من إعادة بناء الكنيسة إنما قام به الامبراطور قسطنطين التاسع ٤٣٤ - ٤٤٦هـ/ ١٠٤٢-١٠٥٤م. وللإشراف على سير العمل صار للموظفين البيزنطيين حرية السفر إلى بيت المقدس^{١٣٨}. وأضحى للنصارى السيطرة التامة في المدينة مما أثار امتعاض المسلمين من سكان البلاد والرحالة^{١٣٩}. وهذا ما ذكره أيضاً الكتاب الغربيون حيث أشاروا إلى تفوق عدد النصارى في بيت المقدس^{١٤٠}، وكثرة اليهود في الرملة والقدس وصفد وطبرية^{١٤١}.

- في فترة الصراع الصليبي:

بقدوم الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م تعرض النصارى إلى إجراءات انتقامية من قبل السلطات السلجوقية في الشمال والفاطميين في الجنوب لئلا يمالئوا الصليبيين^{١٤٢}. حيث بادر بعض النصارى بالفعل بالترحاب بالغزاة على إعتبار أنهم اخوانهم في الدين لكن هؤلاء الوافدين لم يعض عليهم وقت قصير حتى مارسوا ضغطاً وتحكماً عليهم أشد من المسلمين^{١٤٣}، ونظروا اليهم على أنهم هراطقة خارجين على الدين المسيحي الصحيح^{١٤٤}.

١٣٧- الانطاكي، تاريخ الانطاكي، ص ٢٤٣. ثرتون، أهل الذمة، ص ٥٧.

١٣٨- المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٥٣٧. رنسيمن، الحروب الصليبية، ج ١، ص ٦٢.

Runciman, The Historic Role, p. 9.

١٣٩- ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٥٣.

١٤٠- رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ٤١٦. Runciman, Op. Cit, p. 85.

١٤١- Mann, The Jews Under the Fatimid Caliphs, Vol, 1, p. 155.

١٤٢- العارف، المسيحية في القدس، ص ١٦٥. رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٦١.

١٤٣- الشارثري، فوشيه، تاريخ الحملة الى القدس من سنة ٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥م - ١١٢٧م، ج ١، ترجمة زياد العسلي، عمان، دار الشروق، ١٩٩٠م. ص ٧٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، الشارثري، تاريخ الحملة الى القدس. رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٠٧، ٣١٦، ٣٥٠، ٤١٥. خان، ظفر الاسلام، تاريخ فلسطين القديم، بيروت، دار النفائس، ١٩٧٩م، ص ١٧٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، خان، تاريخ فلسطين القديم. Runciman, Op. Cit, p. 9.

١٤٤- الشارثري، المصدر السابق، ج ١، ص ٧٠. حيث يذكر فوشيه في كتابه تاريخ الحملة الى القدس أن قواد الغرنج أرسلوا الى البابا اوريان كتاباً ذكروا فيه: «... لقد أخضعنا الكفار (المسلمين)، وأما الهراطقة من الإغريق والأرمن والسوريين اليعاقبة فلم نستطع أن نخضعهم ... نسأل أن تحضر أنت وتدمر بسلطتك كل الهراطقات». ص ٧٠.

ففي فلسطين، قبلت الفئات النصرانية الشرقية الخضوع لهيئة الكنيسة اللاتينية لما تعرض له كبار رجال الدين لديهم من النفي والتشريد أثناء استيلاء الصليبيين على البلاد^{١٤٥}. إلا أن العلاقات بدأت بالتحسن في زمن الملك بغدوين الأول ٤٩٥-٥١٢هـ/١١٠١-١١١٨م حيث عمل على إعادة رجال الدين الأرثوذكس إلى كنيسة القيامة وأجاز لهم مباشرة شعائرهم الدينية^{١٤٦}. كما شجع النصارى الوطنيين من اليونان والكرج والأرمن واليعاقبة السوريين والنساطرة على الهجرة من البلاد المجاورة إلى مملكة بيت المقدس^{١٤٧}. حيث عرف هؤلاء بالنصارى المشرقيين لقدمهم من شرقي القدس^{١٤٨}. كما شجع المصاهرة بين الفرنج والنصارى الوطنيين فظهر جيل جديد أطلق عليه اسم طبقة البولانية (Poulains)^{١٤٩}. وفي سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م ألفى الملك بغدوين الثاني ٥١٢-٥٢٦هـ/١١١٨-١١٣١م. جميع الضرائب على كل من شاء أن يحضر مواد تجارية إلى بيت المقدس. كما حرص الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول (كومنين) ٥٢٨هـ-٥٣٨هـ/١١٤٢-١١٨٠م، على المحافظة على علاقاته الحسنة مع الفرنج

١٤٥- خوري، تاريخ كنيسة اورشليم، ص ٧١. العارف، المسيحية في القدس، ص ٥٣.

يذكر العارف: أن البطريرك الشرقي سمعان قرأ إلى جزيرة قبرص ومن هناك بعث بكتاب استغاثة إلى البابا فند فيه أعمال الصليبيين ومما جاء في رسالته وهكذا طرد أباطنا الصليبيون الأتراك السلاجقة البرابرة من اورشليم ولكنهم ويا للأسف ظهروا أكثر توحشاً وأعظم استبداداً وظلماً من أولئك حتى أنهم طردوا أصحاب الرأي المستقيم من بيوتهم وكناثسهم..... المسيحية في القدس، ص ٥٣.

١٤٦- William of Tyre, A history of Deeds Done Beyond the Sea, Vol, 1, translated and annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krey, New York: Columbia University Press, 1943, p. 414, 516.

وسيشار له فيما بعد هكذا، William of Tyre.

١٤٧- غوانمه، يوسف درويش، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٣م. ص ٢٤٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، غوانمه، دراسات. وتاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، عمان، دار الحياة، ١٩٨٢م. ص ١٢٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، غوانمه، نيابة بيت المقدس. William of Tyre, Op, Cit, vol, 1, p. 507.

١٤٨- ابن القفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٤٨. علي، محمد كرد، خطط الشام، ج ١، بيروت، ط ٢، ١٩٦٦م، ص ٣١. وسيشار له فيما بعد هكذا، علي، خطط الشام.

١٤٩- الشارثري، تاريخ الحملة إلى القدس، ج ١، ص ٢١٨، ونسيمان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٦٤.

Runciman, The Historic Role, p. 12.

مما أفاد النصارى الارثوذكس داخل البلاد^{١٥٠}. والدليل على ذلك ما أجراه من اصلاحات في الكنيستين الكبيرتين كنيسة القيامة، وكنيسة المهد^{١٥١}، وأصبح لجميع الطوائف الشرقية الحق بأن تقيم صلواتها داخل كنيسة القيامة^{١٥٢}.

أما في أنطاكية ولوجود جالية يونانية قوية، وخوف الفرنج من أن يعيل النصارى الارثوذكس (الملكانيين) إلى بيزنطة قام بوهمند الأول ٤٩٧-٤٩٨هـ/ ١١٠٢-١١٠٤م بطرد البطريرك وتعيين بطريرك لاتيني مكانه. وقد أدى هذا العداء الصريح بين اليونانيين واللاتين إلى ضعف الامارة^{١٥٣}.

وكان في مدينة طرابلس وضواحيها اكبر الكنائس المنشقة، حيث تبع سكانها النصارى (الموارنة) المذهب المونوثليتي الذي يقر بالطبيعتين للمسيح مع فعل واحد ومشينة واحدة^{١٥٤}. ولم يكن في بلاد الشام طائفة أقرب إلى الصليبيين من الطائفة المارونية^{١٥٥}. وكانت هذه الطائفة بمواقعهم الحصينة ومهارتهم في الرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارق وقدرتهم على تجنيد ٤٠ ألف مقاتل مصدر خطر على

١٥٠- الشارثري، تاريخ الحملة الى القدس، ج ٢، ص ١٨٩. William of Tyre, Op, Cit, vol, 1, p. 537.

١٥١- رنسيمن، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٥١.

١٥٢- العارف، المسيحية في القدس، ص ٥٤.

١٥٣- رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٧٤، ج ٢، ص ٥١٦.

١٥٤- سعيد بن البطريق، التاريخ المجموع، ص ١٢، رنسيمن، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥١٧. حتي، مختصر تاريخ لبنان، ص ١٠٩، ١١٢. William of Tyre, Op, Cit, vol, 2, p. 458.

أما المدافعين عن المارونية أمثال يوسف الدبس فقد ادعوا لكنيستهم الاستمرار للكنيسة الجامعة التي تقر بمذهب الملكانية أي طبيعتين للمسيح مع مشينتين. ويذكر أن الذين انشقوا هم فئة قليلة وليس كلهم وينفي قول وليم الصوري بأنهم بقوا خمسمائة سنة منحرفين عن الديانة الصحيحة تابعين مذهب المشينة الواحدة وذلك لأن وليم نقل أشياء كثيرة من تواريخ سعيد بن البطريق، بطريرك الملكية في الإسكندرية وهذا لم يكن مدققاً في تواريخه بل أدخل عليها حكايات كثيرة وربما أموراً تخالف رأي المؤلفين. كما ينفي يوسف الدبس رواية سعيد بن البطريق أن القديس مارون هو منشئ المارونية باتباعه مذهب المشينة الواحدة. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ١٧٢، ٢٠٤. ضو، تاريخ الموارنة، ج ٢، ص ٤٥٧.

١٥٥- حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٦٠.

العرب والمسلمين^{١٥٦}. لذلك حرص الفرنج على مراعاة شعورهم، والرفق بهم، لما قدموه لهم من مساعدات اثناء قدومهم إلى البلاد^{١٥٧}. وفي حوالي سنة ٥٧٦هـ/١١٨٢م وافق الموارنة على قبول سيادة البابا شريطة أن يظلوا محافظين على شعائرهم وتقاليدهم السريانية^{١٥٨}، فمنحوا جميع الحقوق الكنسية والمدنية التي كانت لأبناء الكنيسة الكاثوليكية^{١٥٩}. ومنحهم مقبرة الصليب في كنيسة القيامة وأربعة مذابح أخرى في كنائس مختلفة^{١٦٠}.

أما بالنسبة للأرمن في إمارة الرها، فقد كانت العلاقات معهم عدائية في البداية إلا أن هذه العلاقات تحسنت فيما بعد، واعترف عدد كبير من أساقفتهم بسيادة البابوية وشهد جماعة منهم مجامع الكنيسة اللاتينية، وتغاضوا عما في عقائد اللاتين من أمور لا تقرها الكنيسة اليونانية^{١٦١}.

أما السوريون اليعاقبة فكانوا أول الأمر من أشد الناس عداوة للصليبيين، وكانوا يؤثرون الحكم الإسلامي، ثم حدث بعد سقوط الرها سنة ٤٩٩هـ/١٠٩٨م أن تم الوفاق بينهم وبين أمير أنطاكية اللاتيني، والسبب في ذلك اشتراكهم فعلاً في كراهية بيزنطة^{١٦٢}.

١٥٦- العمري، مسالك الأبحار، ج ١، باب ٦، ص ١٢٢. William of Tyre, Op. Cit, vol, 2, p. 459.

١٥٧- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٥٥. الشدياق، طنوس، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١، وضع مقدمته وفهارسه فؤاد أفرام البستاني، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٢٠٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، الشدياق، أخبار الأعيان، ضو، تاريخ الموارنة، ج ٢، ص ٤٤٠. حتي، مختصر تاريخ لبنان، ص ١٢٩، ١٤٤. William of Tyre, Op. Cit. vol 2, p, 459.

١٥٨- William of Tyre, Op. Cit, vol, 2, p. 458.

١٥٩- حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٦٠.

١٦٠- العارف، المسيحية في القدس، ص ١٤٨.

١٦١- رنسيमान، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥١٨.

١٦٢- رنسيमान، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٥١٩.

أما اليهود فقد تناقص عددهم في الامارات الصليبية بسبب ما تعرضوا له من المذابح الرهيبة على أيدي الصليبيين^{١٦٣}. وقد قدم لنا الرحالة اليهودي الاندلسي بنيامين التطيلي الذي زار بلاد الشام ما بين ٥٦١-٥٦٩هـ/١١٦٥-١١٧٣م احصائية ديموغرافية لأعداد اليهود، فوجد في بيت جبريل يهوديان^{١٦٤}. وفي الرملة ثلاثمائة يهودي وفي عكا مائتي يهودي وفي اللد يهودي واحد. أما في عسقلان فقد وجد مائتي يهودي وفي طبرية نحو مائة يهودي^{١٦٥}. أما بيت المقدس فقد وجد فيها نحو مائتي يهودي يقيمون في حي مجاور لبرج داود يعملون في معمل للصياغة يستأجره اليهود من حاكم بيت المقدس سنوياً، حيث كانت هذه المهنة تنحصر فيهم دون غيرهم، أما بيت لحم فكان فيها أحد عشر يهودياً^{١٦٦}. وكانت دمشق تمثل اكبر تجمع يهودي في بلاد الشام حيث كان فيها ثلاثة الاف يهودي^{١٦٧}، وفي انطاكية عشرة يهود يحترفون صنع الزجاج، ووجد في اللاذقية نحو مائتي يهودي، وفي جبيل نحو مائة وخمسين يهودياً، وفي بيروت خمسين يهودياً^{١٦٨}، وفي صيدا عشرين يهودياً وفي صور أربع مائة يهودي منهم من يحترف صناعة الزجاج ومنهم من يمتلك السفن التي تجوب البحار^{١٦٩}. أما نابلس فقد وجد فيها نحو الالف من السامريين^{١٧٠}.

١٦٣- عن هذه المذابح انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٧. ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ١٩. غوانمه، دراسات، ص ٢٤٣. وثيابة بيت المقدس، ص ١٢٢. رنسيمنان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٤٢٧، ٤٦٩. وانظر ايضاً: William of Tyre, Op, Cit. vol, 1, p. 372. ومن هذه المذابح على سبيل المثال: أنهم جمعوا اليهود في معبدهم واحرقوه عليهم. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٧. خان، تاريخ فلسطين القديم، ص ١٧٠.

Setton, Kenneth M., A History of the Crusades, Vol. 1, edited by Kenneth Setton and Harry W. Hazard, Madison: University of Wisconsin, 2nd ed, 1969. p. 337.

وسيشار اليه فيما بعد هكذا. Setton, A History of the Crusades.

١٦٤- التطيلي، الرحلة، ص ١٠٦. غوانمه، دراسات، ص ٢٤٣.

١٦٥- التطيلي، المصدر السابق، ص ٩٣، ١٠٦، ١١١.

١٦٦- التطيلي، المصدر السابق، ص ٩٩، ١٠٤.

١٦٧- التطيلي، المصدر السابق، ص ١١٢. غوانمه، المرجع السابق، ص ٢٤٣.

١٦٨- التطيلي، المصدر السابق، ص ٨٧-٨٩.

١٦٩- التطيلي، المصدر السابق، ص ٨٩.

١٧٠- التطيلي، المصدر السابق، ص ١٠٤.

وكما سمح بغدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس للمسلمين والنصارى بالعودة إلى البلاد، سمح لليهود بالعودة وممارسة التجارة واعفائهم من الضرائب المفروضة على التجارة المصدرة والمستوردة^{١٧١}. ومارس اليهود شعائرهم الدينية وحياتهم الخاصة، دون تدخل من جانب السلطات اللاتينية، وكانوا يحجون إلى مقدساتهم لقاء ضريبة يدفعونها^{١٧٢}. ومع ذلك فقد ظل لليهود من الأسباب القوية ما يجعلهم يؤثرون حكم العرب المسلمين الذين أحسنوا اليهم دائماً في معاملتهم وأظهروا الرفق بهم^{١٧٣}.

أما أحوال أهل الذمة في بقية بلاد الشام في هذه الفترة فقد ولد وجود الصليبيين في البلاد ردة فعل قوية لدى المسلمين، ونظروا نظرة إستياء للنصارى الشرقيين. فأخذ الأتابك^{١٧٤} عماد الدين زنكي، الذي كان مجاوراً لإمارتي الرها وانطاكية الصليبيتين يعد العدة ويقوي جيشه لاسترجاع البلاد من أيدي الصليبيين واستطاع بقوة وبسالة أن يحقق بطولات وانتصارات ضد الفرنج في شمالي البلاد. وتوجت انتصاراته بفتح إمارة الرها حيث دخلها في جمادى الآخرة سنة ٥٢٩هـ/تشرين ثاني ١١٤٤م^{١٧٥}. حيث انهارت أسوار المدينة وتدفق المسلمون إلى الداخل وأجهزت عساكر زنكي على الألوف من الناس، ثم دخل زنكي فامر بالكف عن

١٧١- William of Tyre, Op, Cit, vol, 1, p. 537. Margoliouth, D.S, Cairo, Jerusalem and Damascus,

Three Cheif Cities of the Eageyption Sultans, London: Chatto and Windus, 1907, p. 203.

وسبشار له فيما بعد هكذا: Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus.

١٧٢- التطيلي، الرحلة، ص ٩٦.

١٧٣- رنسيمان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥١٨-٥١٩.

١٧٤- الأتابك: وهو أتابك العساكر، وأصله أتابك ومعناه الوليد الأمير. وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، القلقشندي، صبح الاعشى، ص ١٨. وأتابك لفظ تركي معناه مربى الملك. رمضان، أحمد، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مصر، مؤسسة روز اليوسف، ١٩٧٧م، ص ٥٢. وسبشار له فيما بعد هكذا، رمضان، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام.

١٧٥- ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٩. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ١٠، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م. ص ١١٢. وسبشار له فيما بعد هكذا، ابن الجوزي، المنتظم. ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢٣١. أبو الفداء، المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين، (ت ٧٢٢هـ/١٣٢١م)، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، كفر الطماعين، المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٥هـ/١٩٠٣م، ص ١٠. وسبشار له فيما بعد هكذا، أبو الفداء، المختصر. غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، عمان، دار الفكر، ط ٢، ١٩٨٢م، ص ٧٤. وسبشار له فيما بعد هكذا، غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية.

القتل ورد كل ما نهب إلى أصحابه وأظهر الفرق بالسكان^{١٧٦}. وأبقى على حياة النصارى الوطنيين بينما قرر قتل الفرنج، وجعل للنصارى من الأرمن واليعاقبة واليونانيين قدراً من الاستقلال الذاتي، ولم يمس كنائسهم بسوء، بل جرى تشجيعهم على دعوة اخوانهم في الدين إلى النزوح إلى المدينة والاقامة فيها^{١٧٧}.

وبعد وفاة عماد الدين زنكي (٥٤١هـ/ ١١٤٦م)، خلفه على حكم الأجزاء الغربية من مملكته وهي إمارة حلب ابنه الملك العادل نور الدين محمود ٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦-١١٧٣م. وعلى أثر توليه الحكم حاول جوسلين أمير الرها، استعادتها بمساعدة الأرمن في الداخل، إلا أن المحاولة فشلت وقتل جميع مدبريها من الأرمن، وقام نور الدين بابعاد جانب من السكان حتى خلت المدينة من أهلها^{١٧٨}، وأحل مكانهم ثلاثمائة أسرة يهودية حيث كان اليهود على استعداد لمساندة المسلمين ضد النصارى^{١٧٩}.

وبعد فشل الحملة الصليبية الثانية ٥٤٢هـ/ ١١٤١م لاسترداد الرها^{١٨٠}. أتيحت الفرصة أمام نور الدين للعمل على توحيد الإمارات الإسلامية، وبعد أن دانت له الأقطار الشامية بالطاعة، تفرغ للسياسة الداخلية، وجمع علماء المسلمين وبطاركة النصارى وعلماءهم من اليعاقبة والملكية والنسطورية وغيرهم في مجلس واحد، وجدد معهم شروطاً مستمدة من الشروط العمرية والإلتزام بها والجري على مقتضاها^{١٨١}.

١٧٦- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٣١، غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٧٤.

١٧٧- رنسيمن، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٣٨١، ٣٨٢.

١٧٨- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٢، ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٤١-٣٤٢.

١٧٩- رنسيمن، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٨٥.

١٨٠- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٥٤.

١٨١- آل تقي الدين، منتخبات التواريخ، ج ١، ص ٦٠.

الفصل الثاني

الدولة وأهل الذمة

- ١- سياسة الأيوبيين والمماليك الدينية نحو أهل الذمة
 - أ- رجال الدين ورؤساء الطوائف.
 - ب- الرهبان والكنائس والأديار.
- ٢- الإلتزامات المالية المترتبة على أهل الذمة.
 - أ- الجزية (الجوالي).
 - ب- الضرائب الإضافية.

(١)

سياسة الأيوبيين والمالِك الدينيّة نحو أهل الدّمة

١- رجال الدين ورؤساء الطوائف:

كان للنصارى في بلاد الشام بطركان، بطرك لطائفة الملكية، وبطرك لطائفة اليعاقبة، وكل منهما يختص بالنصارى التابعين له في المملكة، وهو المسؤول أمام السلطان عن تصرفات أبناء طائفته، وعليه التوسط بينهم وبين الدولة. وكانت كل طائفة تختار بطركها دون تدخل من جانب السلطان^١ ومع ذلك نجد السلطان أحياناً يتدخل في انتخابات البطرّك عند الضرورة^٢. كأن يحدث نزاع على تعيين البطرّك، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه شاع آنذاك بيع المناصب الكنسية إلى القسيسين ورجال الدين الذين لم يكونوا أكفاء لتلك المناصب^٣.

أما اليهود فقد كان يرأسهم واحد من الرّبانيين- أكبر طوائف اليهود- وهو يحكم على أبناء الطوائف اليهودية الثلاثة: (الرّبانيون- القِراؤون- السامرة) والقضاء بينهم على مقتضى دينهم^٤، وكان يطلق عليه اسم النّاغذ^٥. ويذكر ترتون أنه أصبح للسامرة رئيس خاص بهم ابتداء من سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م^٦.

١- زيادة، نقولا، دمشق في عصر المالِك، بيروت، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٦م، ص ١٦٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، زيادة، دمشق في عصر المالِك، عاشور، سعيد عبد الفتاح، «الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية»، مجلة عالم الفكر، الكويت، أبريل، مايو- يونيو، ١٩٨٠م، مج ١١، عدد ١، ص ٩٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية.

٢- Shorter Ency...of Islam, P. 440.

٣- أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٢٨. جوستاف، أ. ثون جرونباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، دار مصر للطباعة، ١٩٥٦م، ص ٢٣٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، جوستاف، حضارة الإسلام.

٤- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص ٣٧٩.

٥- Goitein, Amediterranean Society, vol, 2, p. 23.

٦- ترتون، أهل الدّمة، ص ٩٢.

إلا أن ابن فضل الله العمري المتوفى سنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م) يذكر في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف وصية رئيس السامرة.^٧ كما يذكر القلقشندي أيضاً المتوفى سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م) في كتابه صبح الأعشى وصية رئيس السامرة.^٨ وهذا يدل على أن للسامرة رئيس خاص بهم قبل سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م التي ذكرها ترتون في كتابه، ولم تسعفنا المصادر عن تحديد التاريخ الذي أصبح للسامرة رئيس خاص بهم، وكان رئيس السامرة يقيم في مدينة نابلس وله نائب مقيم في دمشق.^٩

أما مرسوم التولية (قرار التعيين) لبطرك النصارى ورئيس اليهود فقد كان يصدر في الأغلب عن النواب وأحياناً عن السلطان مباشرة، تثبیتاً للبطريرك المنتخب واعترافاً من الدولة به.^{١٠} وهذا يشير إلى أن الدولة كانت تعتبرهم موظفين رسميين لديها. وكان التوقيع الخاص بهم، يبتدئ عادة بالتقرير المعتاد عن موقف الدولة العادل من أهل الذمة، «...ومن شيمنا الشريفة الوصية بأهل الكتاب...».^{١١} ثم موقفها من هذه الطائفة أو تلك لما لها من مكانة وفضل لدى الدولة.^{١٢} ثم تحدد مهام الوظيفة والوصايا التي يجب أن يلتزم بها. ومن أهم الوصايا التي كانت توجه لبطرك الملكية هي: القادب بالصفات الحسنة كالمسامحة والإحتمال والصبر على الأذى وعدم الإستكثار من متاع الدنيا والعمل على الصلح بين المتحاكمين لأن الصلح سيد الأحكام، وأن ينقي صدور إخوانه من الغل لأنه رأس جماعته والكل تابع له، وأن يتنزه عن أموال جماعته وإياه أن يتخذها تجارة مربحة، وأن لا يقدم منهم إلى رتبة إلا من استصلحه، وإليه أمر الكنائس والبيع، وعليه أن يتفقدوها في كل وقت ويرفع ما فيها من الشبهات، ويحذر رهبان الديارات من جعلها

٧- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، مطبعة العاصم، ١٣١٢هـ/١٨٩٤م، ص ١٤٤ (وصية رئيس سامرة). وسيشار له فيما بعد هكذا، العمري، التعريف بالمصطلح الشريف.

٨- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٨٦ (وصية رئيس السامرة).

٩- القلقشندي، المصدر نفسه، ج ٤، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص ٢٠١. زيادة، دمشق في عصر المماليك، ص ١٦٤.

١٠- القلقشندي، المصدر السابق، ج ١٢، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص ٥.

١١- القلقشندي، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٩٦. (نسخة توقيع لبطرك اليعاقبة).

١٢- القلقشندي، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٨١ (نسخة توقيع برئاسة اليهود) و ص ٢٨٧، (نسخة توقيع لبطرك الملكية).

مصيدة للمال، وأن يتجنبوا الخلوة فيها بالنساء، وأن لا يؤوي إليه أحداً من الغرباء القادمين بما يريب، ولا يكتم ما أطلع عليه عن المسامع الشريفة السلطانية، ولا يخفي كتاباً يرد عليه من أحد الملوك، أو يكتب جواباً، ويتجنب البحر وما يرد منه من مظان الريب.^{١٢}

ومن ضمن الوصايا أيضاً أنه المسؤول عن أبناء طائفته وهو الوسيط بينهم وبين الدولة «... ويستدعي لهم من الدولة أعظم محافظة...» ويأخذهم بالدعاء لهذه الدولة في جميع صلواتهم.^{١٣} ويقال في وصية «بطرك اليعاقبة» جميع ما تقدم في وصية بطرك الملكية إلا أنه يقال له بدل قوله «وليتجنب البحر» «وليتوق ما يأتيه سرّاً من تلقاء الحبشة»^{١٤} لأن جميع نصارى الحبشة من أتباعه.^{١٥}

أما جملة الوصايا التي كانت تصدر لرئيس اليهود ورئيس السامرة تطلب منه أن يكون أكبر الكهنة وأعلم الأحرار، عارفاً بأمر دينه، حسن السياسة، حسن الأخلاق، مشهوراً بالوجاهة والنباهة، ذا عبرانية حسنة ودراسة لكتب أهل ملته على ما فيها من التغيير، مستوعباً لكل أمور طائفته صغيرها وكبيرها. وأن يلزم أتباعه بما يلزمهم من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين يقيمون في البلاد، كدفع الجزية والإلتزام بشعارهم الأصفر وعدم مضايقة المسلمين، وله ترتيب طبقات أهل ملته، والحديث في جميع كنائسهم (كنسهم)، من غير تجديد متجدد، أو إحداث قدر زايد عليها، وليحكم في أنكتهم ومواريتهم.^{١٦}

وكان يسبغ على رؤساء طوائف أهل الذمة، ألقاب معينة دلالة على احترام الدولة لهم، فكانت الألقاب التي تطلق على رئيس اليهود هي: «الرئيس، الأوحد، الأجل، الأعز، الأخص، الكبير، شرف الدواوين، فلان»^{١٧}. وأما ألقاب بطرك النصارى فكانت على طريقتين:

١٢- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٥. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ١٠٠، ٢٨٩.

١٤- القلقشندي، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٨٧.

١٥- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٨. القلقشندي، المصدر السابق، ج ١١، ص ١٠٠، ٣٩٩.

١٦- القلقشندي، المصدر السابق، ج ١١، ص ٣٩٠.

١٧- العمري، المصدر السابق، ص ١٤٢. القلقشندي، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٨٤-٢٨٦.

١٨- القلقشندي، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٨٩.

الطريقة الأولى: «البطرك المحتشم، المبجل، فلان، العالم بأمور دينه، المعلم أهل ملته، نذر الملة المسيحية، كبير الطائفة العيسوية، المشكور بعقله، عند الملوك والسلاطين، وفقه الله»^{١٩}.

والطريقة الثانية: «مجلس القسيس، الجليل، الروحاني، الخطير، المتبتل، ابن المطران، الناصب، الخاشع المبجل، قدوة دين النصرانية، فخر الملة العيسوية، عماد دين المعمودية، جمال الطائفة الفلانية، صفوة الملوك والسلاطين، فلان أدام الله تعالى بهجته»^{٢٠}. وفي المقابل فقد حرص رؤساء الطوائف الدينية على توثيق علاقاتهم بالسلطات الحاكمة عن طريق إظهار مراسيم الولاء والإحترام لكل سلطان جديد^{٢١}.

ومن الجدير بالذكر أنه رغم الوصايا الشديدة التي كانت تصدرها السلطات إلى رؤساء طوائف اليهود والنصارى لإنصاف رعاياهم والرفق بهم وحفظ أموالهم عن طريق عدم إرهابهم، إلا أن هؤلاء الرؤساء كانوا في بعض الأحيان يسيئون إلى رعاياهم ويظلمونهم، ونستدل على ذلك من رسائل الرباني عبيدا- الذي تولى رئاسة الطائفة اليهودية في القدس سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م- التي أظهرت الظلم الذي لحق باليهود من قبل رؤسائهم السابقين، إذ ذكر أن سلفه قد باع الساحات والبيوت التي كانت تعود ملكيتها إلى معبد ناحوم، والتي كانت سكناً لأرامل الإشكناز في المدينة، ولم يبق منها إلا ساحة واحدة لا تكاد تكفي لأولئك الأرامل، ويضيف في رسائله بأن رؤساء الطائفة السابقين غالوا في فرض الضرائب على اليهود وكانوا ظالمين في أحكامهم لذا كانوا يفرضون ضرائب جديدة في كل أسبوع على أفراد الطائفة في القدس، وكل من لا يدفع يسلم عليه غير اليهود حتى يدفع^{٢٢}.

١٩- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨٧ ص ٢٨٩.

٢٠- القلقشندي، المصدر نفسه، ونفس الجزء، ص ٢٨٩.

٢١- تروتين، أهل الامة، ص ١٦١.

٢٢- الإشكناز: أساس هذه الكلمة اسم لأحد أحفاد نوح، وقد أطلقت على أحد الشعوب التي ورد ذكرها في سفر التكوين، وفي كتب الريانيين، وفي العصور الوسطى كانت تطلق على يهود ألمانيا بشكل خاص، وعلى يهود أوروبا الغربية بشكل أعم. الموسوعة الفلسطينية، ج ١، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية بإشراف محمد شفيق غريال، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٢٥٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، الموسوعة الفلسطينية، نعيسه، يوسف، يهود دمشق، دار المعرفة، ١٩٨٨م، ص ٤٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، نعيسه، يهود دمشق.

٢٣- صالحية، محمد عيسى، حطين وعين جالوت واليهود في القدس-منظور تاريخي يهودي- بحث ألقى في ندوة حطين، بمناسبة مرور ثمانية قرون على موقعه حطين، الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٢م، ص ١٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، صالحية، اليهود في القدس.

Adler, ELkan Nathan, Jewish Travellers, London, published by Gorge Rout Ledge and Sons, L.T.D, Broad way house, Carter Lane, p. 235-242, Adler, Jewish Travellers. وسيشار له فيما بعد هكذا.

وحدث أن رفض أحد اليهود دفع هذه الأتاوات فيوقع تحت التهديد والإرهاب، حتى أنه أثر الدخول في الإسلام، واغتازت أمه من قسوة زعماء الطائفة على إبنتها فأسلمت هي كذلك، وأوقفت بيتها الواقع في الحي اليهودي ليكون مسجداً للمسلمين^{٢٤}.

وفي سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م إرتد جماعة من النصارى في أنطاكية وضواحيها ودانوا بالإسلام، وذلك لسوء تصرف البطررك آنذاك، فقد أصاب المنطقة مجاعة شديدة فاضطر جماعة منهم إلى نقض الصوم، فأنفذوا كبارهم يستأذنون البطررك فأبى ذلك، فألحوا في الطلب، ولما يئسوا من تلبية طلبهم تحالفوا مع الإسلام وأسلموا وعرفوا (بالحمية)^{٢٥}.

ب- الرهبان والكنائس والأديرة:

من الشروط التي اشتمل عليها «العهد العمري» عدم استحداث كنائس جديدة، وألا يجددوا ما خرب وما هدم وما اندثر منها. ومع هذا فإننا نجد أن السلطات الحاكمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والملوكي أبدت قدراً كبيراً من التساهل إزاء تطبيق هذه الشروط، إذ انتهجوا سياسة التسامح الديني إزاء الكنائس وسمحوا لهم بتعمير وتجديد كنائسهم، مع ما كانت تتعرض له الكنائس والأديرة أحياناً للنهب والتدمير في أوقات الحروب وموجات الغضب والإضطراب. خاصة وأن المنطقة كانت مسرحاً للحروب الصليبية، التي كان من أثارها زيادة التعصب الديني واشتداد النقمة على النصارى داخل البلاد.

وأن مجرد بقاء الأعداد الكبيرة من الكنائس والأديرة المنتشرة في شتى أنحاء بلاد الشام ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الدول الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم^{٢٦}.

٢٤- ظاظا، حسن، القدس مدينة الله أم مدينة داود. الاسكندرية، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٠م، ص٣١. وسيشار له فيما بعد هكذا. ظاظا، القدس مدينة الله أم مدينة داود.

٢٥- أرملة السرياني، القس إسحق، «في البطريركية الإنطاكية»، مجلة المشرق، بيروت-أب ١٩٢٣م. السنة ٢١، عدد ٨، ص٥٩٦. وسيشار له فيما بعد هكذا. أرملة السرياني، في البطريركية الإنطاكية.

٢٦- أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٩٩.

ولتوضيح سياسة الدولة الدينية إزاء الرهبان والكنائس والأديرة، سنتناول بالبحث كنائس وأديرة بيت القدس كمثال على ذلك، لكونها المدينة المقدسة لدى جميع الطوائف النصرانية واليهودية وإليها حجبهم وتعبدتهم. كما كان يعيش في المدينة المقدسة جماعات دينية تمثل سائر المذاهب النصرانية مثل الأرثوذكس، والسريان، والأرمن، والكرج، والأقباط، والأحباش، والكاثوليك، بالإضافة إلى طائفة اليهود^{٢٧}.

وتتجلى سياسة صلاح الدين الدينية إزاء الكنائس في أعظم مظاهرها عند فتحه لبيت المقدس في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ١٢ تشرين أول (أكتوبر) ١١٨٧م. ومع أنه رد المساجد التي حولها الصليبيون كنائس إلى المسلمين وأزال ما بها من آثار نصرانية^{٢٨}، وحول كنيسة صندحنة (أم مريم عليها السلام) إلى مدرسة للفقهاء الشافعية (المدرسة الصلاحية)^{٢٩}، إلا أنه لم يأخذ هو أو رجاله شيئاً من محتويات كنائس القدس ولم يمس كنيسة القيامة بأية أضرار بالرغم من أن بعضهم أشار عليه بهدمها إلا أنه أعرض عن ذلك، لكنه أمر بإغلاقها مدة ومنع النصاري من زيارتها وعاد

٢٧- التطيلي، الرحلة، ص ٩٨. رنسيان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٤٧٢. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٨٢. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ١٢٠-١٢٢.

٢٨- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٣٧، ١٤١، ١٤٣. ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٥٧. البنداري، قوام الدين بن الفتح بن علي بن محمد، (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)، سنا البرق الشامي، ج ١، تحقيق فتحية النبراوي، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م، ص ٣١٥. أبو شامة، الروشتين، ص ١١٤. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٢، تحقيق جمال الدين الشبالي، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٧م، ص ٢١٧. وسيشار له فيما بعد هكذا. ابن واصل، مفرج الكروب. شافعي، سلام، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والأيوبي ٤٦٧-٦٤٨هـ/ ١٠٧٤-١٢٥٠م، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢م، ص ٢٤٧، وسيشار له فيما بعد هكذا. شافعي، أهل الذمة في مصر. رنسيان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٥٦.

٢٩- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٤٥. أبو شامة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٤. ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠٧. ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد، (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م). تنمة المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ ابن الوردي، ج ٢، تحقيق أحمد البدرائي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٠م. ص ١٥٩. وسيشار له فيما بعد هكذا. ابن الوردي، تنمة المختصر. العارف، عارف، الفصل في تاريخ القدس، ج ١، القدس، مطبعة المعارف، ١٩٦١م، ص ٢٣٦. وسيشار له فيما بعد هكذا. العارف، الفصل في تاريخ القدس. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ٣٧.

بعدها وفتح أبوابها أمام جميع طوائف الرهبان، وترك للنصارى حرية التعبد فيها، وقرر على من يرد إليها من الفرنج قطيعة يؤدونها^{٢٠}. وكان إغلاق كنيسة القيامة كي يحافظ عليها وعلى ذخائرها، فعندما انتهى القتال سرعان ما أعاد فتحها ليمارس النصارى شعائرهم الدينية كالمعتاد، وأقر لها أربعة قسوس لينهضوا بخدمة القبر المقدس «ولم يكلفهم الغرامة...»^{٢١}.

كما أعاد للرهبان الروم الأرثوذكس دير مار يوحنا المعمدان الذي كان الصليبيون قد حولوه إلى مستشفى ومقرًا لفرسان القديس يوحنا (الاسبتارية)^{٢٢} سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م^{٢٣}. كما ردّ إلى الأقباط أملاكهم ومنها الدير الملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الشرقية وسموه بدير السلطان^{٢٤}.

وقد أشار ريتشارد قلب الأسد ملك الإنجليز في إحدى رسائله التي سبقت صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م مشيداً بعطفه على الرهبان قائلاً: «...وأن جماعة من

٢٠- البنداري، سنا البرق الشامي، ج١، ص ٢١٦. المقرئزي، السلوك، ج١، ق١، تحقيق محمد مصطفى زياده، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٦م، ص ٩٧.

٢١- العماد الاصفهاني، المصدر السابق، ج١، ص ٢١٧. ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، نشر اسحق أرملة السرياني، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٥٣م، عدد ٤٧، ص ٤٤٧، وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن العبري، تاريخ الدول السرياني.

Setton, A History of the Crusades, vol. 1, P.617.

٢٢- فرسان القديس يوحنا أو الاسبتارية (knights of the Hospital) تأسست هذه الجماعة من فرسان الصليبيين عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، كان هدفها الأول هو علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم، ولكنهم تحولوا فيما بعد الى أغراض عسكرية، ونذروا أنفسهم لمحاربة المسلمين، وقد أصبحوا مصدر قوة كبيرة لمملكة بيت المقدس في أول الأمر، وكانوا يدينون بالطاعة للبابا مباشرة، وكان رمزهم الصليب الأبيض. حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ٢٣٧، غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص ١١٢، هامش رقم (٤٧).

William of Tyre, Op, Cit, vol,2, P. 242.

٢٣- العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، ص ٢٤٠.

٢٤- العارف، المسيحية في القدس، ص ١٢٨.

The Encyclopaedia of Islam, Vol. V, Edited by C.E. Bosworth and others, Leiden: E.J. Brill, 1979, P.

92. The Ency... of Islam.

وسيشار له فيما بعد هكذا

الرهبان والمنتفعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت بها...»^{٢٥}، وبعد إتمام الصلح إستقبل صلاح الدين هيوبرت والتر أسقف سلسزبوري ووافق على طلبه بأن عين اثنين من القسس اللاتين وإثنين من الشمامسة اللاتين في كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة^{٢٦}.

وقد نعم أهل الذمة بسياسة التسامح الديني تجاه كنائسهم ورهبانهم في عهد خلفاء صلاح الدين، ففي سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٥م وأثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر، سار الملك المعظم عيسى إلى القدس وخرّب أسوارها خوفاً عليها، وأشار عليه بعض المتشددين من علماء المسلمين بهدم كنيسة القيامة، إلا أنه رفض ولم يسمح بذلك^{٢٧}. وفي سنة ٦١٨هـ/ ١٢١٩م سمح الملك المعظم عيسى بناء على طلب أخيه الملك الكامل محمد صاحب مصر، للقديس فرنسيس وأتباعه من الرهبان الفرنسيين سكان^{٢٨} بالإقامة في مقر متواضع فوق جبل صهيون ينقطعون فيه للعبادة^{٢٩}، وفي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٢٠م ألت إليهم سدانة كنيسة القيامة واطلق عليهم لقب حماة

٢٥- ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣١٩.

٢٦- رنسيمان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٤١. لي سترانج، ج، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمارة، عمان منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٧٠م. ص ١٨٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، لي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي.

٢٧- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٠٤. رنسيمان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٨٠.

٢٨- الرهبان الفرنسيين سكان: تنتسب هذه الطائفة الى مؤسسها فرنسيس الأسيسي ١١٨٢-١٢٢٦م الذي نشأ في اقليم أسيسي (Assisi) في شمال إيطاليا وصار يدعو الناس لأن يحيا حياة المسيح عليه السلام بما فيها من بساطة وزهد. وتجمع حوله كثير من الاتباع تحولوا على مر الزمان الى جماعة ديرية على نسق الجماعة الدومينكانية، وهؤلاء الرهبان يلقبهم المقدسيون برهبان أبي حبل لأنهم كانوا يلقون قطعاً من الحبل على أوساطهم. وفي سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٢م أصدر البابا هونوريوس الثالث المرسوم البابوي الذي اعترفت فيه الكنيسة الكاثوليكية بمقتضاه بطائفة الرهبان الفرنسيين سكان، وعلى مر الزمان اكتسبوا بالأراضي المقدسة صفة سياسية فاقت وطغت على صفتهم الدينية حيث كانوا يمثلون أمم الفرنج مجتمعة. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٩٢-٩٥. دراج، أحمد، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م، ص ٢٠-٢٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، دراج، وثائق دير صهيون، العارف، المسيحية في القدس، ص ٧٢ والمفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ٥٢.

٢٩- دراج، المرجع السابق، ص ٢٢. السيد، المرجع السابق، ص ٢٢. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٢٦٦.

القبر المقدس^{٤٠}. وبعد أن إسترد الملك الصالح نجم الدين أيوب بيت المقدس وطرد الخوارزمية سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م أظهر قدراً كبيراً من التسامح الديني إزاء طوائف الرهبان، واستطاع الرهبان الفرنسيون في هذه السنة أن يحصلوا على حق توليهم الأماكن المقدسة فوق جبل صهيون وعلى وجه التخصيص على صهيون وقاعة الحواريين^{٤١}. كما أرسل السلطان في نفس السنة إلى البابا أنوسنت الثالث يتأسف له عما لحق بكنيسة القيامة من أضرار على يد الخوارزمية ويعدّه بإعادة ترميمها وتسليم مفاتيحها لأشخاص مخلصين من قبله لا يفتحونها إلا للحجاج^{٤٢}.

وخير دليل على صحة ما انتهجه ملوك الأيوبيين من تسامح ديني تجاه الرهبان والكنائس شهادة عيشويابه الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧هـ-٦٥٧هـ/١٢٤٩-١٢٥٨م عن أحوال النصارى في بلاد الشام حيث قال: «...إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قسيسينا وقديسينا، ويمدون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا...»^{٤٣}.

أما أماكن العبادة اليهودية فقد نعمت بنفس سياسة التسامح الديني طيلة العصر الأيوبي ولم تتعرض لأية قيود، بل أن أماكن عباداتهم انتعشت في العصر الأيوبي فقد نالوا طيلة عهد صلاح الدين دعماً وحماساً لإعادة وترميم معابدهم الدينية ومراكزهم التعليمية^{٤٤}. كما كان للعلاقة الوطيدة التي نشأت بين ملوك الأيوبيين وبين رؤساء اليهود في مصر، أثر على أحوال اليهود في بلاد الشام^{٤٥}، فقد أحسن الملك العادل إلى اليهود الوافدين إلى البلاد الذين فرّوا من إنجلترا سنة ٦٠٨هـ/١٢١٠م وسمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة يهودية^{٤٦}.

٤٠- شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٢٦٧.

٤١- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٢٥. شافعي، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

٤٢- Conder, The city of Jerusalem, p. 315.

٤٣- ترتون، أهل الذمة، ص ١٥٩.

٤٤- Goitein, Amediterranean Society, vol. 2, p.137.

٤٥- خان، تاريخ فلسطين القديم، ص ١٧٦. شافعي، المرجع السابق، ص ٢٦٩.

٤٦- السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٠١. خان، المرجع السابق، ص ١٧٨. رنسيما، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٤١.

أما في العصر المملوكي فقد كانت سياسة سلاطين المماليك إزاء ترميم الكنائس والأديرة نابعة من قواعد الشرع الإسلامي وكانت دوماً تسمح لهم بترميم كنائسهم وأديرتهم وفقاً للقاعدة الشرعية. كما حرص السلاطين على إصدار المراسيم التي تحفظ حقوق الرهبان وإعفائهم من الضرائب وحمايتهم من أي اعتداء يقع عليهم.

وقد حرص الرهبان أنفسهم مع بداية عهد كل سلطان على استصدار مرسوم عام يحمل إسمه وتوقيعه ويقرر ما سبق أن منحه لهم أسلافه من السلاطين من امتيازات وحقوق وإعفاءات^{٤٧}. ففي أول صفر ٧٠٩هـ/ ١١ تموز (يوليو) ١٣٠٩م أصدر السلطان الظاهر بيبرس مرسوماً عاماً يقرُّ للرهبان بدير صهيون في بيت المقدس من امتيازات وإعفاءات وحقوق^{٤٨}. وفي ١ جمادى الأولى ٧١٠هـ/ ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٣١٠م أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً عاماً يقرُّ ما للرهبان في دير صهيون من امتيازات وحقوق^{٤٩}. وفي ٢ رجب ٧٧٦هـ/ ٧ كانون أول (ديسمبر) ١٣٧٤م، أصدر السلطان شعبان بن حسين مرسوماً عاماً يقرُّ لهم من امتيازات على غرار المراسيم السلطانية السابقة، ومنع من يقصدهم بضرر ما داموا قائمين بما يجب عليهم من الحقوق الديوانية^{٥٠}. وفي عهد السلطان برقوق ٧٨٤-٧٩٢هـ/ ١٣٨٢-١٣٨٩م. صدرت عدة مراسيم لصالح الرهبان الفرنسيين بالقدس الشريف ففي ٩ شوال ٧٩٠هـ/ ١١ تشرين أول (أكتوبر) ١٣٨٨م أصدر السلطان برقوق مرسوماً عاماً إلى الولاة والنواب والشادين والمتصرفين بالطرقات المصرية والشامية يتضمن إعلامهم أنه كتبت للرهبان بكنيسة دير صهيون مراسيم مطلقة بمنع من يتعرض إليهم بما جرت لهم عادة من قديم الزمان^{٥١}. وفي ١٩ ذي القعدة ٧٩٠هـ/ ١٩ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٣٨٨م صدر مرسوم عام أيضاً إلى الأمراء والولاة والنواب والشادين والمتصرفين بالطرقات المصرية والشامية يتضمن أن ناظر قمامة (القيامة)^{٥٢} يمنع

٤٧- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٤٤.

٤٨- دراج، المرجع نفسه، ص ٤٨، وثيقة رقم (٩) المنشورة في فهرس كستلاني.

٤٩- دراج، المرجع نفسه، ص ٤٨، وثيقة رقم (١٠) المنشورة في فهرس كستلاني.

٥٠- دراج، المرجع نفسه، ص ٤٨، وثيقة رقم (٢٥) في فهرس كستلاني ورقم (١) نشر ريشاني، العارف، المسيحية في القدس، ص ٧٣.

٥١- دراج، المرجع نفسه، ص ٤٨، وثيقة رقم (٢) نشر ريشاني.

٥٢- قمامة: أطلق على كنيسة القيامة هذا الإسم لأن اليهود دفنوا خشبة الصليب وجعلوا فوقها القمامات والنجاسات فاستعظمت هيلانة أم قسطنطين ذلك عند مجيئها الى القدس واستخرجتها وغسلتها وغشتها بالذهب، وبنت مكانها كنيسة وهي المسماة الآن قمامة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٨٥.

الرهبان من زياراتها ويخرجهم من القدس لقطع مصانعتهم، ومن ثم يقرر المرسوم منع الناظر وغيره من التعرض إليهم بغير سبب وإجرائهم في ذلك على جاري عاداتهم إذا قاموا بما عليهم من حقوق سلطانية^{٥٢}. وفي ٢٠ شوال ٧٩٧هـ/ ١٠ آب (أغسطس) ١٣٩٤م أصدر السلطان برقوق أيضاً مرسوماً خاصاً بالسماح لطائفة الفرنج بالقدس الشريف، بعمارة ما تهدم وبلي من الأخشاب والرصاص بمعد سيدنا عيسى ببيت لحم^{٥٣}. وفي ١٤ ربيع الآخر ٧٩٩هـ/ ١٥ كانون ثاني (يناير) ١٣٩٧م أصدر السلطان برقوق مرسوماً خاصاً بالسماح للفرنج الواردين لزيارة كنيسة القيامة من بناء دير بالرملة كمقر لهم ينزلون به عند قدومهم للبلاد والوصية بهم وكف الأذى عنهم^{٥٤}. وفي ١١ محرم ٨٠٠هـ/ ٤ تشرين أول (أكتوبر) ١٣٩٧م. صدر مرسوم خاص بالسماح للرهبان باصلاح ما تهدم من مساكنهم داخل كنيسة القيامة^{٥٥}. وفي سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م أصدر السلطان فرج بن برقوق مرسوماً خاصاً لعمارة مهد عيسى ببيت لحم. ومرفق به محضر رسمي من مشايخ المسلمين بالقدس والنائب بوجوب عمارة كنيسة بيت لحم^{٥٦}.

أما ما كتبه المؤرخون بخصوص عمارة كنيسة بيت لحم ففي سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م وصل الفرنج إلى يافا -الذين استأذنوا السلطان الناصر فرج في العام الماضي لما دخل القدس ان يجددوا عمارة كنيسة بيت لحم- ومعهم عجل وصناع واخشاب فأخرجوا المرسوم الذي معهم واستدعوا الصناع للعمل بالأجرة فأتاهم عدد من العمال وبدؤوا في إزالة الأوعار من الطريق، ووسعوا الطريق بحيث تسع لعشرة أفراس متواكبين ولم تكن تسع غير فارس واحد وأحضروا معهم دهناً إذا وضعوه على الصخر سهل قطعة، فلما رجع الناصر إلى دمشق عرفه نصحاؤه بسوء نية الفرنج، فكتب إلى كاشف

٥٢- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٤٩. لم يشر إليها كستلاني كما أنه سقطت من مجموعة الوثائق التي نشرها ريشاني. العارف، المسيحية في القدس، ص ٧٤.

٥٤- دراج، المرجع السابق، ص ٤٩، ٥٠. وثيقة رقم (٤) نشر ريشاني.

٥٥- دراج، المرجع السابق، ص ٥١، وثيقة رقم (٧) نشر ريشاني.

٥٦- دراج، المرجع السابق، ص ٥٢، وثيقة رقم (٢٩) و (٢٠) في فهرس كستلاني.

٥٧- دراج، المرجع السابق، ص ٥٢، وثيقة رقم (١٣) نشر ريشاني وأرقام الوثائق (٢٥-٢٩) في فهرس كستلاني.

الرملة^{٥٨} بمنعهم من ذلك والقبض عليهم وعلى من معهم من الصناع والآلات والسلاح والدهن وختم على مخازنهم ومعهم ما رسم به السلطان، إلا أن السلطان أفرج عنهم في العام التالي وسمح لهم بعمارة الكنيسة^{٥٩}.

وفي عهد السلطان برسباي ٨٢٦هـ-٨٤٢هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م تمتع الرهبان الفرنسيون بكامل حقوقهم وصدرت عدة مراسيم لصالحهم ففي شوال ٨٢٩هـ/أب (أغسطس) ١٤٢٥م أصدر السلطان مرسوماً خاصاً إلى النائب والحاكم والقضاة وولاة الأمور بالقدس الشريف يتضمن اعلامهم الموافقة على السماح لرهبان دير صهيون بالقدس الشريف بعمارة كنيسة دير صهيون على النحو الشرعي^{٦٠}. وفي سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م صدر مرسوم خاص إلى نواب السلطنة الشريفة بالشام وحلب وطرابلس وحماة وصفد وغزة والقدس الشريف وذلك بناء على قصة رفعها إليه شفويةً حضرة الموقر الكبير القديس جمال الطائفة العيسوية عماد دين النصرانية رئيس أهل الملة الصليبية قديس ماء المعمودية الراهب (رئيس دير صهيون وبيت لحم وعين كارم)^{٦١} والرهبان المقيمون والواردون إلى القدس الشريف يثبت ما أقره الملوك السابقون لهم وملخصه، أن يرثوا موتاهم من الرهبان وأن يدفنوهم حيث يشاؤون وأن يأكلوا ما يشتهون، وأن يشتروا العنب الذي ينفعهم بصنع شرابهم لا سيما ما فاض عن حاجة المسلمين، وأن لا توضع العراقيل في الذهاب والاياب وأن لا يلزموا ضريبة وأن يدخلوا كنيسة القيامة من غير كلفة^{٦٢}.

٥٨- كاشف الرملة: اتسعت نيابة بيت المقدس فاشتملت على كل من الرملة ونابلس والخليل، أما الرملة فقد كانت في موضع نزاع بين نيابة غزة ونيابة بيت المقدس. ففي أحيان تتبع غزة وفي أحيان أخرى تكون تابعة للقدس. ولكن في أواخر دولة المماليك الثانية صدر مرسوم يضم كشف الرملة إلى نيابة بيت المقدس. العليمي الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٣٧٣، ٣٧٤. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ٥٨.

٥٩- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، انباء القمرب بأبناء القمرب، ج ٦، طبع باعانة وزارة المعارف الهندية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٨٦م، ص ٢٣٢، وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن حجر العسقلاني، انباء القمرب، المقريزي، السلوك، ج ٤، ق ١، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣م. ص ١٤٣-١٤٤. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٢١.

٦٠- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٥٤، وثيقة رقم (٤٣) في فهرس كستلاني.

٦١- هذا اللقب الذي أطلق على رئيس رهبان الفرنسيين يدل على ازدياد نفوذهم الديني، الأمر الذي ترتب عليه زيادة ممتلكاتهم. دراج، المرجع السابق، ص ٣٧.

٦٢- المعارف، المسيحية في القدس، ص ٧٤.

ومن ضمن المراسيم التي صدرت في عهد برسباي وثيقة عبارة عن محضر شرعي تاريخه ١١ جمادى الآخرة ٨٤١هـ/ ١٠ كانون أول (ديسمبر) ١٤٣٧م وفتوى شرعية تاريخها ١٢ رجب ٨٤١هـ/ ١١ كانون ثاني (يناير) ١٤٣٨م وثلاث محاضر شرعية تواريخها ١٥، ١٦، ١٧ رجب ٨٤١هـ/ ١٤، ١٥، ١٦ كانون ثاني (يناير) ١٤٣٨م وكلها مرسومة من السلطان برسباي وملخصها، بناء على أمر قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية، بدر الدين العيني يشهد الموقعون على هذا المحضر من أهالي القدس بمعاينة حالة كنيسة عليّة صهيون، وما لحق بها من ضرر بعد الاقرار بأن هذه الكنيسة يتوارثونها جماعة بعد جماعة. وملحق بهذا المحضر فتوى أصدرها قاضي القضاة بدر الدين العيني بخصوص تجديد الرهبان لعمارة كنيسة عليّة صهيون، وملحق بها أيضاً عدة محاضر شرعية تشهد بأنه بعد الكشف على ما تم من بناء الدير والكنيسة ان جاء ذلك مطابقاً لما سمع به^{٦٣}.

كذلك سمح السلطان جقمق ٨٤٣-٨٥٦هـ/ ١٤٢٩-١٤٥٢م للرهبان الفرنسيين بعمارة ما تهدم من ديرهم ففي ١١ صفر ٨٥١هـ/ ٢٩ نيسان (ابريل) ١٤٤٧م صدر مرسوم خاص من نائب السلطنة بالقدس إلى ناظر الحرمين الشريفين بمعاينة ما تهدم من حوائط دير صهيون وتمكين الرهبان من تكملة بناء ما هدم من ديرهم على حكم الشريعة المطهرة^{٦٤}. كما أصدر مرسوماً آخر في ٢١ ذي الحجة/ ٢٨ شباط من نفس العام بالموافقة على تمكين رئيسة الراهبات من اعادة بناء الحائط المتهدم بدار النسوة التابعة لراهبات الفرنج^{٦٥}.

كما كان الرهبان بالقدس أحياناً يقومون بتقديم الرشوة إلى بعض القضاة المسلمين ليستصدروا فتاوى منهم للسماح لهم بإعادة بناء وترميم كنائسهم، فيذكر مجير الدين العليمي الحنبلي أنه في سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م هدمت الزلازل بالقدس

٦٣- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٥٥-٥٦، وثيقة رقم (٤٥) المنشورة في فهرس كستلاني، وثيقة رقم (١٨) نشر ريشاني. والمماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦١م، ص ١٦٤-١٦٦، ملحق رقم ٤، وسيشار له فيما بعد هكذا، دراج، المماليك والفرنج.

٦٤- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٥٧، وثيقة رقم (٢١) نشر ريشاني. والمماليك والفرنج ص ١٧٢-١٧١ ملحق رقم ٦، العسلي، كامل، وثائق مقدسية تاريخية، ج ١، عمان، الجامعة الاردنية، ١٩٨٣م، ص ٦٣. وسيشار له فيما بعد هكذا، العسلي، وثائق مقدسية تاريخية.

٦٥- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٥٨، وثيقة رقم (٢٤) نشر ريشاني. والمماليك والفرنج، ص ١٧٦-١٧٧، ملحق رقم ٨.

كنيسة مجاورة لكنيسة القيامة، فدفع الرهبان من أجل ذلك مالا كثيراً فسمح لهم القاضي الحنفي بإعادة البناء على صورته القديمة^{٦٦}.

وفي عهد السلطان خشقدم ٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م صدر مرسوم عام لصالح رهبان دير صهيون في ٢٨ صفر ٨٦٩هـ/٣٠ تشرين أول (أكتوبر) ١٤٦٤م وملخصه، أن لا يكلفوا ولا يلزموا بكلفة ولا تسفير إلا أن كان لهم اسماً، ويمكنوا من دفن موتاهم، والسماح لهم بشراء العنب ونقله من دير إلى دير ومن كنيسة إلى كنيسة ويمكنوا من التوجه إلى بلادهم، وإعفاء الرهبان من الضريبة عند دخولهم كنيسة القيامة، وتمكين رئيس دير صهيون من إقامة اثنين وثلاثين أو أربعين راهباً بكنيسة القيامة، والسماح لهم بإعادة ما تهدم من مساكنهم، وأن لا يجبروا بفتح ديورتهم ببيت لحم وكنائسهم ببيت لحم وعين كارم إلا برضاهم، ولا تمنع الصدقة الواردة لهم، ولا يعارضوا في جميع مزاراتهم وإذا اعتدى أحد من طوائف الفرنج على أحد من المسلمين في البر والبحر لا يلزم الرهبان بذلك، ولا يتعرض للرهبان الواصلين إلى ميناء يافا، ولا يغصبهم أحد من المكارية على الركوب إلا برضاهم، أو الترجمة لهم إلا أن كان بيده مرسوم شريف ولا يمكن أحداً من طوائف النصارى من الدخول إلى أماكنهم إلا برضاهم^{٦٧}.

وكان الرهبان يتعرضون أحياناً للاعتداء من قبل الفلاحين والأعراب فتصدر المراسيم السلطانية بكف هؤلاء عنهم، ففي ١٣ رمضان ٨٧٠هـ/٣٠ نيسان (أبريل) ١٤٦٥م صدر مرسوم خاص من السلطان خشقدم إلى الفلاحين بقرية بيت لحم بعدم التشوش على الرهبان بدير صهيون بالقدس الشريف^{٦٨}.

ولم يكتف الرهبان بترميم وإعادة بناء ما تهدم، بل أحدثوا الكنائس الجديدة، ففي سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م أحدث النصارى المقيمون بدير صهيون كنيسة بظاهر القدس الشريف بالقرب من الدير زعموا أن مكانها مقام السيدة مريم عليها السلام، واحكموا بناءها وأصبحت كنيسة محدثة في الإسلام. وكان المساعد لهم نائب القدس بمال بذلوه له^{٦٩}.

٦٦- العلمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٢٦٣-٢٦٤.

٦٧- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٥٩، وثيقة رقم (٥٦) في فهرس كستلاني ووثيقة رقم (٢٥) نشر ريشاني. وهناك صورة عن نسخة المرسوم كاملاً، ص ١٠٤-١١٣ ملحق رقم (٢) من نفس المرجع.

٦٨- دراج، المرجع نفسه، ص ٦٠، وثيقة رقم (٢٦) نشر ريشاني، العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج ١، ص ٦٤.

٦٩- العلمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٤٥.

كما ظلت المراسيم السلطانية تصدر لصالح الرهبان حتى اواخر العصر المملوكي ففي ٤ ذي الحجة ٩٠٠هـ/ ٢٧ آب (أغسطس) ١٤٩٤م اصدر السلطان قايتباي مرسوماً خاصاً يقضي باعفاء الرهبان من دفع موجب الخفر^{٧٠}. وفي ٢٠ جمادى الاولى ٩٠١هـ/ ١٦ فبراير (نيسان) ١٤٩٥م اصدر مرسوماً آخر باعفائهم من موجب السلطان^{٧١}.

كما وصل إلى القدس سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م مرسوم من السلطان قانصوه الغوري يفيد بأن ناظر الخانقاه الصلاحية أخبره بأن كنيسة القيامة انهدم منها ركن ملاصق للخانقاة وأن الخانقاة ربما تتداعى إلى السقوط بسبب ذلك، ويقضي المرسوم إلى الناشب وناظر الحرمين الشريفين أن يقفا ويحررا ذلك التحرير الشافي بحضور المهندسين والمعمارية ورد الجواب على ذلك، فجاء المرسوم بالسماح بعمارة ما تهدم من كنيسة القيامة، فلما قرىء المرسوم ماج أهل القدس وأطلقوا لسانهم في منع ذلك، إلا أن القضاة كتبوا على محضر، أن ما أنهي صحيح وأنه إذا لم يعمر هذا الخسف وقعت الخانقاة، وكانوا قبل ذلك قد امتنعوا بأن الانهاء باطل، ويقال أن النصارى في بيت المقدس بذلوا في سبيل ذلك ستمائة دينار فرقّت على الناس^{٧٢}.

٧٠- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٦٢. وثيقة رقم (٦٥) في فهرس كستلاني.

- موجب الخفر: ضريبة يدفعها الحاج مقابل اشراف السلطات على خفرهم وحمايتهم من المخاطر التي قد يتعرضون لها في الطريق. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٤٩. دراج، المرجع السابق، ص ٧٣، ٧٤.

٧١- دراج، المرجع السابق، ص ٦٢. وثيقة رقم (٦٦) في فهرس كستلاني.

- موجب السلطان: ضريبة يدفعها الحاج مقابل السماح له بالزيارة الاولى لكنيسة القيامة وعين لها موظف خاص سمي شاد متحصل قمامة وكانت هذه الضريبة تؤخذ على الرأس ويطلب من متوليها الرأفة بالضعفاء وغير القادرين من القسس والرهبان. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٢٢٣. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٠٦. دراج، المرجع السابق، ص ٧٣.

٧٢- البصروي، علاء الدين علي بن يوسف احمد الدمشقي، (ت ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، تاريخ البصري، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر الماليك، تحقيق اكرم حسن العلبي، دمشق، دار المأمون للتراث، ١٩٨٨م، ص ٢٤٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، البصروي، تاريخ، دراج، المرجع السابق، ص ٦٣. وثيقة رقم (٦٩) في فهرس كستلاني. العلبي، اكرم حسن، دمشق بين عصر الماليك والعثمانيين، دمشق، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، ١٩٨٢م، ص ٨٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، العلبي، دمشق بين عصر الماليك والعثمانيين.

وفي ١٤ ربيع الثاني ٩٠٩هـ/ ٧ تشرين أول (أكتوبر) ١٥٠٢م صدر مرسوم خاص من السلطان قانصوه الغوري بالسماح للرهبان الفرنسيين ببناء دير بالرملة^{٧٣}.

هذا ولم تقتصر المراسيم على طائفة الرهبان الفرنسيين فحسب فقد نعمت الطوائف النصرانية الأخرى بمثل هذه الحقوق وصدرت عدة مراسيم في صالحهم. ففي ١١ ذي القعدة ٨٢٤هـ/ ٨ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٤٢١م صدر مرسوم من السلطان سيف الدين ططر ٨٢٤-٨٢٤هـ/ ١٤٢١-١٤٢١م بأن للسريان سبعة أنفار يدخلون القيامة، ويأمر بأجرائهم على عاداتهم والوصية بهم في الطرق والإحسان اليهم^{٧٤}. وفي ١٤ شعبان ٨٢٥هـ/ ٤ آب (أغسطس) ١٤٢٢م أصدر السلطان برسباني مرسوماً مضمونه إعفاء الرهبان السريان والوارنة من الضريبة حين زيارتهم القدس وكنيسة القيامة وجميع المزارات والطرق، ويوصي ببطريرك السريان في القدس الشريف والبلاد الشامية^{٧٥}. كما صدر مرسوم آخر في نفس التاريخ مضمونه تأييد مراسيم السريان القديمة بالقدس بعدم معارضة أرباب المواريث الحشرية^{٧٦}، ووراثه الميت منهم^{٧٧}.

وفي سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م برز مرسوم السلطان الملك الظاهر جقمق بإبطال الضمان الذي كان يؤخذ من رهبان دير الأرمن مار يعقوب بالقدس، والذي كان وكيل بيت المال بالقاهرة أبو الخير بن النحاس قد أحدثه، واختتم المرسوم بعبارة «عليه

٧٣- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٦٢، وثيقة رقم (٧٢) في فهرس كستلاني. العليبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص ٨٥.

٧٤- العارف، المسيحية في القدس، ص ١٢٢. العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج ١، ص ٦٩.
جمع المراسيم التي تخص طائفة السريان، يوسف اسطفان السرياني، بأمر من غبريل انطون، مطران السريان بالقدس سنة ١٩٢٥م. وقد اقتبسها عن السجلات المحفوظة بدير مار مرقس بالقدس، أقدمها عهداً يرجع تاريخه الى سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م وآخرها الى عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م. ونشرها عارف العارف في كتابه المسيحية في القدس، وسميت بوثائق اسطفان. العارف، المسيحية في القدس، ص ١٢٢.

٧٥- العارف، المرجع السابق، ص ١٢٤. العسلي، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٩.

٧٦- المواريث الحشرية: هي مال من يموت وليس له وارث خاص. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٣٢.

٧٧- العارف، المرجع السابق، ص ١٢٤. العسلي، المرجع السابق، ج ١، ص ٧٠.

لعنة الله من أحدث ضمناً أو جدد مظلمة^{٧٨}. وفي ١٧ جمادى الآخرة ٨٨٤هـ/ ٧ أيلول (سبتمبر) ١٤٧٩م صدر مرسوم من السلطان قايتباي بالسماح لمطران السريان ورهبانهم أن يسيروا على عاداتهم القديمة من حيث الزيارات بالقدس الشريف^{٧٩}. كما أصدر مرسوماً آخر في ١٢ شعبان ٨٨٦هـ/ ٨ تشرين أول (أكتوبر) ١٤٨١م بمنع من يتعدى على دير السيدة التابع للسريان^{٨٠}.

وفي عهد السلطان الغوري ومن أجل تحقيق العدالة والمساواة بين جميع الطوائف المسيحية بالقدس أصدر السلطان مرسومة المؤرخ في ٩ محرم ٩١٩هـ/ ١٧ آذار (مارس) ١٥١٣م الذي ينص على إعفاء طوائف الرهبان والرهبانيات الملكانية واليعاقبة والجورجان والحبوش والروم والقبط من دفع الرسوم المقررة التي كانت تجبى منهم عند دخولهم فلسطين سواء في يافا أو في غزة أو في اللد أو في الرملة، وعند زيارتهم لكنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المقدسة كما نص المرسوم على أن لا يتعرض أحد لموتاهم ولا لتربتهم التي يدفنوا بها وأن لا يطالبوا بدفع موجب أو أية اتاوات ومقررات وأن لا يتعرض لهم بأذى أو مكروه، وألا يحدث عليهم حادث أو يجدد عليهم مظلمة. ونقش هذا المرسوم على بلاطه ألصقت على باب كنيسة القيامة^{٨١}.

ولم يكن اليهود في القدس أقل استمتاعاً بالحرية والعدالة في ظل دولة سلاطين المماليك إذ نهج المماليك نهج أسيادهم الأيوبيين في حسن معاملتهم لليهود فلم يمنعهم من حرية التعبد وإقامة شعائرهم الدينية ففي سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م وصل

٧٨- غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٠٥، السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٩.

Van Berchem, Max, *Materiaux Pour Um Corpus Inscription Um Arabicarum, Deuxième Partie Syrie Du Sud, Tom Deuxième-Jerusalem "Haram"*, 1927, Vol, 2, pt, 2, Fast, 1, p. 332.

٧٩- وسيشار له فيما بعد هكذا،
Drory, Joseph, *Jerusalem in the Mamluk Period, Jerusalem: The Jerusalem Cathedra, Studies in the History, Archaeology, Geography and Ethnography of the Land of Palestinianians*, 1981, p. 212.

٨٠- وسيشار له فيما بعد هكذا،
Drory, *Jerusalem in the Mamluk Period*.

٧٩- العارف، المسيحية في القدس، ص ١٢٤، العسلي، وثائق مقدسية وتاريخية، ج ١، ص ٧٠.

٨٠- العارف، المرجع السابق، ص ١٢٤، العسلي، المرجع السابق، ج ١، ص ٧٠.

٨١- دراج، المماليك والقرن، ص ١٥٤، ووثائق دير صهيون، ص ١١٤-١١٥، ملحق رقم (٣)، غوانمه،

نيابة بيت المقدس، ص ١٢١-١٢٢. Van Berchem, Op, Cit, vol, 2, Fast, 1, p. 378.

إلى القدس الرابي موشيه بن نحمان وأعاد إحياء الشعائر الدينية بها وبني كنيساً يحمل إسمه (معبد ناحوم) كما وصلت إلى القدس جماعات يهودية بناء على دعوته^{٨٢}.

والى الرابي أبرهام ياري الصباغ ينسب ترميم معبد اليهود على جبل الزيتون الذي كان مبنياً من رخام المرمر الأحمر والأخضر المزركش، ويفهم من المصادر اليهودية ان ياري نفسه كان قد قدم رشوة باهظة للحاكم المملوكي دون أن يذكر اسمه أو مكان توليته، حتى سمح له بالبقاء بالقدس وتوليته رئاسة المعبد^{٨٣}. وفي سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م وصف الرحالة اليهودي اسحق بن شيلو حال اليهود في القدس فقال «أن اليهود في القدس يعيشون في سعادة وراحة ويمارس كل واحد منهم عبادته بكل حرية، والسلطة الحاكمة عادلة وعظيمة»^{٨٤}. كما تمتع اليهود في بيت المقدس بنفوذ قوي لدى السلطات بسبب ما لديهم من ثروات طائلة ففي سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٣م حدث نزاع بين اليهود والمسلمين بالقدس حول كنيس اليهود الموجود في حارتهم، فقد كان بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين دار من جملة أوقاف اليهود، وكان يتوصل إلى المسجد من زقاق طويل مستطيل من جهة القبلة، وتهدمت الدار نتيجة الأمطار وأصبح الطريق إلى الشارع من جهة الغرب أقرب للمصلين، فقصد المسلمون الاستيلاء على الدار المتهدمة فامتنع اليهود عن ذلك، ورفعوا أمرهم للقضاة وتبين ان الدار من جملة أوقاف اليهود وأن الحق لهم. واحتج المسلمون على ذلك، وقد ثبت لدى القضاة ان الكنيس محدث في دار الاسلام، فأغلقوه ومنعوا اليهود من التعبد فيه^{٨٥}. ولكن اليهود في بيت القدس بزعماء كبيرهم يعقوب رفعوا أمرهم إلى السلطان في القاهرة فأمر السلطان قايتباي بعض العلماء في القاهرة للنظر فيه، فحدث خلاف بينهم وبين قاضي الشافعية في بيت المقدس الذي منع اليهود من كنيسهم، إلا ان السلطان ارسل مرسوماً في سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م إلى ناظر الحرمين

٨٢- السيد، القدس في العصر المملوكي. ص ١٠٢. صالحية، اليهود وفي القدس، ص ١٠.

The Jewish Encyclopedia, Vol, 7, New York: Ktav Publishing House, 1964, p. 12.

وسيشار له فيما بعد هكذا: The Jewish Ency

٨٣- صالحية، المرجع السابق، ص ١٤. نقل عن:

Abraham Yaari, Igroth Eretz, Yistcal, Tel-eviv, Gazit, 1943, pp. 47-50.

٨٤- Adler, Jewish Travellers, p. 133. The Jewish Ency ..., vol, 7, p. 132.

٨٥- العلمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٢٠٠، ٢٠١. غوانمه، نياية بيت المقدس، ص ١٢٢.

السيد، المرجع السابق، ص ١٠٧. The Jewish Ency ..., vol, 7, p. 133.

لتمكين اليهود من كنيسهم وعدم معارضتهم، فمكنوا منه^{٨٦}. وقد أشيع في القدس أن اليهود بذلوا مبلغاً كبيراً من الدنانير الافرننية إلى الخزائن الشريفة حتى مكنهم من كنيسهم، ولما ورد ذلك لمسامع السلطان، أمر باعادة النظر في الأمور والتحقق من مسألة الكنيس^{٨٧}. فعقد القضاة مجلساً آخر واحتدم النقاش واستطاع القاضي الشافعي ان يثبت وجهة نظره بحدوث الكنيس في دار الإسلام بالشهود وأصدر أمره بمنع اليهود من كنيسهم مرة أخرى. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل توجه بعض العلماء إلى الكنيس وأمروا بهدمه، فهدموا غالبه، فتوجه اليهود للسلطان في القاهرة^{٨٨}. فأرسل السلطان الأشرف قايتباي مرسوماً بالقاء القبض على القاضي الشافعي وبعض العلماء الذين ساندوه وأرسلوا إلى القاهرة فأهانهم السلطان وأمر بضربهم^{٨٩}. ثم دعا الأمير يشبك بن مهدي الداودار الكبير لعقد مجلس حضره القضاة الأربعة في الديار المصرية وبعض العلماء، ودار البحث في أمر الكنيس، وقد استعمل الداودار يشبك سلطاته واستخدم القوة لإرهاب الحضور، فأفتى بعض العلماء في الديار المصرية بجواز إعادة الكنيس أما قضاة القدس فأمر السلطان بعزلهم ومنعهم من سكن القدس^{٩٠}.

ونتيجة لهذه الفتاوي التي حصل عليها اليهود، تقدموا بطلب إلى السلطان بتمكينهم من إعادة كنيسهم، وكان أكبر المساعدين لهم الأمير يشبك الداودار الكبير بسبب ما بذلوه له من أموال طائلة^{٩١}. وأخيراً تمكن الأمير يشبك من اقناع السلطان

٨٦- العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٠٤. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٢٢.

٨٧- العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٥. غوانمه، المرجع السابق، ص ١٢٢.

The Jewish Ency....., vol, 7, p. 133.

٨٨- العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٧. غوانمه، المرجع السابق، ص ١٢٣.

٨٩- العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٧، ٣٠٨. ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٠٢. أبو الفلاح، شهاب الدين عبدالحى بن العماد الحنبلي، (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٨، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الافاق الحديثة، د.ت. ص ٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، أبو الفلاح، شذرات الذهب. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٢٤.

٩٠- العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٩، ٣١٠. ابن اياس، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٢. غوانمه، المرجع السابق، ص ١٢٤. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٠٧.

٩١- العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٢. غوانمه، المرجع السابق، ص ١٢٤.

بإعادة كنيسهم فأصدر مرسوماً بذلك، فشرعوا في إعادة بنائه في ١١ ربيع الآخر ٨٨٠هـ/ ١٥ آب (أغسطس) ١٤٧٥م وسمى اليهود ذلك اليوم (عيد النصر)^{٩٢}.

وهكذا فمن خلال استعراض ما جاء في هذه المراسيم والوثائق نخرج بحقيقة هامة لا تدع مجالاً للشك وهي أن أبناء الطوائف النصرانية المختلفة واليهود قد تمتعوا بالحرية الدينية في ظل حكم سلاطين المماليك، كما سمح لهم بترميم كنائسهم وأديرتهم وإعادة ما تهدم من بنائها بل وبناء كنائس وأديرة جديدة، مما يدحض أقوال بعض الكتاب الغربيين الذين أسبغوا صفة الإضطهاد الديني على فترة حكم المماليك والاعتداء على الكنائس والأديرة ومصادرة أملاكها ونهبها وحرقها وفرض الضرائب على الرهبان^{٩٣} وتمييزهم لطوائف النصارى الشرقيين عن النصارى الغربيين^{٩٤}. مركزين في كتاباتهم على أوقات الحروب والثورات والاضطرابات. ففي هذه الحالات كانت السلطات المملوكية ترى نفسها مضطرة للقبض على الرهبان الفرنسيين والتهديد بشنقهم وغلق كنيسة القيامة أمام قسوة الأحداث التي تتعرض لها كوسيلة من وسائل الضغط السياسي^{٩٥}.

يتضح لنا أيضاً من خلال هذه الوثائق والمراسيم أن عملية بناء وترميم الكنائس كلياً أو جزئياً كانت تتم ضمن شروط ومراحل معينة، ففي المرحلة الأولى يرفع قصة (طلب) بذلك إلى السلطان من الجهة الدينية القائمة عليه ويستلزم إرفاق الطلب بمحضر شهادة -بعد المعاينة والتحرير- من مشايخ وفقهاء المدينة بالطلب المنهى إلى السلطان، ويوضح في محضر الشهادة مسألة البناء ووجوب ترميمه بسبب صيرورته للهدم^{٩٦}.

٩٢- العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٢١٢، ٢١٣. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٢٤.

The Jewish Ency ..., vol, 7, p. 133.

٩٣- Runciman, The Historic Role, p. 12. Ye'or, The Dhimmī, p. 71.

٩٤- Drory, Jerusalem in the Mamluk period, p. 212.

٩٥- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٦٧. وسأتناول هذه النقطة بالبحث والتفصيل في فصل العلاقات الخارجية وأثرها على أهل الذمة داخل البلاد.

٩٦- دراج، المرجع السابق، ص ٥١، وثيقة رقم (٧) نشر ريشاني (....مرفق به محضر رسمي من مشايخ المسلمين....).

وفي المرحلة الثانية يصدر السلطان مرسوماً خاصاً^{٩٧} وليس عاماً^{٩٨} لنائب القدس وناظر الحرمين الشريفين والولاة والعمال والمتصرفين في المدينة يرسم لهم فيه بتمكين الجهة الدينية من ترميم وإصلاح ما تهدم، حتى إذا ما إنتهى العمل أبلغ السلطان بذلك^{٩٩}. ثم يطلب السلطان في المرحلة الثالثة من الفقهاء والمشايع معاينة ما جدد وهل كان مطابقاً لأصله القديم أم أحدث فيه تجديد أو زيادة أو توسعة أو علو أو غيرها من الأمور فإذا ما شهد الفقهاء بالمعاينة طوي الأمر والا جرى هدم ما اعتبر أحداثاً مخالفاً بالشروط العمرية^{١٠٠}.

وكانت المعاينة تتم بطريقة دقيقة إذ يؤمر المهندسون بكشف ذلك بحضور العدول ويرفع المهندسون تقريراً مفصلاً عن حالة البناء يتضمن طوله وعرضه وارتفاعه وسمك الطبقة الجبسية التي تغطي أسطحته وعدد قطع قرطه وتحديد مواضع الخراب فيه. ويظل الأمر مقبولاً عند المسلمين ما دام الأعمار يتم بدقة وفق الشروط العمرية دون التعدي عليها^{١٠١}.

٩٧- المرسوم الخاص يعالج موضوعاً معيناً يخصهم أو شكوى معينة رفعت الى السلطان للنظر فيها. دراج، وثائق دير صهيون، ص ٤٣.

٩٨- المرسوم العام، يقرر كل ما استقر عليه الأمر بشأنهم في عهود السلاطين. دراج، المرجع نفسه، ص ٤٣.

٩٩- دراج، المرجع نفسه، ص ٥٤ وثيقة رقم (٤٢) في فهرس كسلاني (....مرسوماً خاصاً الى النائب والحكام والقضاء...).

١٠٠- دراج، المرجع نفسه، ص ٥٦، ٥٥. وثيقة رقم (٤٥) في فهرس كسلاني (.... بعد الكشف على ما تم من بناء الدير...).

١٠١- البصروي، تاريخ، ص ٢٤٤. (...ويحرر ذلك التحرير الشافي بحضور المهندسين والمعمارية...). صالحية، النصاري في القدس، الكتاب التذكاري، الكويت، جامعة الكويت، ١٩٨٨م، ص ١٥، ١٦، وسيشار له فيما بعد هكذا، صالحية، النصاري في القدس.

(٢)

الالتزامات المالية المترتبة على أهل الدمة

١- الجزية «الجوالي»:

من المعروف أن الجزية كانت الشرط الأساسي في عقد الدمة، وكان يتولى جبايتها في العصرين الأيوبي والمملوكي ناظر يعين من جهة السلطان بتوقيع شريف ويساعده موظفون آخرون من شاد وعامل وشهود^{١٠٢}، ويشترط في شاد الجوالي أن يكون ذا عزم وقوة وصاحب هيبة يستخلص الحق من أهله^{١٠٣}.

وكانت الجزية على زمن الدولة الأيوبية على ثلاث طبقات، عليا وهي أربعة دنانير وسدس الدينار على كل رأس في السنة، ووسطى وهي ديناران وقيراطان، ودنيا وهي دينار واحد وربيع دينار وحبثان^{١٠٤} من دينار. ويضاف إلى جزية كل شخص درهمان وربيع عن رسم الشاد والمباشرين^{١٠٥}. وكانت العادة جارية باستخراجها في

١٠٢- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، شرح وتعديل محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص ٥٣.

١٠٣- القلقشندي، المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٣٠٦.

١٠٤- حبة: هي وزن حبة الشعير العربية، وفي الأعم الأغلب تعتبر الحبة وزن عمله لا وزن بضاعة فحبة الذهب تساوي ٧٠٦ ر. غم وحبة الفضة تساوي ٦٢ ر. هذا في العراق وإيران. أما في مصر وسورية حبة الفضة تساوي $\frac{1}{10}$ من الدرهم = ٤٩٥ ر. غم. هنتس، فالتر، المكايل والاوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م، ص ١٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، هنتس، المكايل الإسلامية.

أما ما ذكره القلقشندي: أنه عندما كانت المعاملة بالفلوس الصغار كان الدرهم ياسوي ٦٤ فلساً وكل أربعة فلوس منها تساوي حبة. وبعد سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، راجت الفلوس الجدد في الديار المصرية وصار كل ٢٤ فلساً بدرهم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨٧.

١٠٥- ابن مماتي، القاضي الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد بن مليح، (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، كتاب قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٤٣م، ص ٣١٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن مماتي، قوانين الدواوين. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٣. و مائر الانافة، ج ٢، ص ١١٧.

أول السنة الهجرية أي في بداية شهر محرم ثم صارت تستخرج في أيام ذي الحجة في نهاية كل سنة^{١٠٦}.

هذا وقد أورد القلقشندي نصاً لكتاب صادر عن ديوان الخلافة ببغداد للسلطان الكامل محمد بن العادل أبي بكر (ت ٦٣٥هـ/١٢٣٧م) بخصوص الجزية يذكر فيه المطالبة بادائها في أول السنة، «واستيفائها منهم على حسب احوالهم بحكم العادة في الثروة والمسكنة ...»^{١٠٧}.

وكان يتحصل للدولة من الجزية أموال كثيرة، فقد ذكر المقرئزي أن مجموع الجزية بلغ عام ٥٨٧هـ/١١٩١م مائة وثلاثين ألف درهم^{١٠٨}.

أما في العصر المملوكي فيذكر النويري أنها كانت تجمع سلفاً وتعجيلاً في غرة السنة، وكانت تجبى في بعض الاقاليم قبل السنة بشهر أو شهرين، تورق قلماً مستقلاً بذاته بعد الهلالي وقبل الخراجي، وسبب تأخيرها عن الهلالي^{١٠٩} وتقدمها على الخراجي لأن المشهور بين الفقهاء أن جبايتها تجب شهرياً، كما أن الجزية تلزم من يموت أثناء العام أو يسلم، بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو موته^{١١٠}.

وفي سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، كتبت أسماء أهل الذمة وقررت عليهم الجزية على قدر احوالهم، على الغني أربعة مدنانير، والوسط ديناران، والفقير دينار واحد^{١١١}، ويذكر القلقشندي أن أعلاها خمسة وعشرون درهماً وأدناها عشرة دراهم، وكانت تجبى معجلة في شهر رمضان^{١١٢}. ويقول المقرئزي أن الجزية صارت تعرف في أيامه

١٠٦- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٢٠.

١٠٧- القلقشندي، مآثر الانفاة، ج ٢، ص ١١٧.

١٠٨- المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١٩٩.

١٠٩- المال الهلالي: اصطلاح أطلق في العصرين الأيوبي والمملوكي على ضرائب التراخيص الاجبارية على الدكاكين والحمامات العامة والطواحين... الخ وكانت تلك الضرائب تجبى شهرياً حسب التقويم القمري (الهجري). المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١٠٧.

١١٠- النويري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٨، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت، ص ٢٤١. وسيشار له فيما بعد هكذا، النويري، نهاية الأرب، قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٧٠، ٧١.

١١١- ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٧، ص ٧٣. ابن أبياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٥.

١١٢- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٢٠.

(بالجوالي) ^{١١٣} وتستخرج سلفاً وتعجيلاً في غرة السنة، وانها قلت جداً لكثرة إظهار النصارى للإسلام ^{١١٤}.

أما طريقة جباية الجزية (الجوالي) فكانت تتم على النحو الآتي، ففي البداية يعد شاد الجوالي كشوفاً بأسماء أهل الذمة من اليهود ثم يثني بالسامرة ويثليث بالنصارى وترتب الأسماء أبجدياً لتسهيل مهمة الموظف، فإذا أخذت الجزية من أحدهم كتب له بها إيصال شطبته عن إسم من أداها، وإذا عاد أحد النازحين إلى البلد ولم يكن قد أدى الجزية أخذت منه، أما إذا كان قد دفعها واحضر الإيصال الدال على ذلك نقل المبلغ إلى حساب تلك البلدة. كما كان على رئيس اليهود وبطرك النصارى أن يكتبوا سنوياً إلى مباشر الجوالي (الناظر) قوائم-عرفت باسم الرقاع- بأسماء المقيمين في البلاد من أبناء طوائفهم وقد عرفوا باسم «الرواتب»، وعرف الوافدون باسم «الطواري» وكانت هذه الرقاع تحوي أيضاً أسماء الصبية الذين لم يبلغوا الحلم وسموا بـ «النوابت»، ويتحدد في آخر الرقاع أسماء من أهدى إلى الإسلام أو مات أو سافر واسم البلد الذي سافر إليه، وكانت تلك الرقاع بمثابة إقرار ممن صدرت عنه بصحة مضمونها ^{١١٥}. وفي بعض الأحيان كان يقوم بتلك المهمة موظف آخر غير رئيس اليهود والبطرك يدعى «حاشر اليهود» أو «حاشر النصارى» حيث يعرف بأسماء الذميين الواردة في الديوان ^{١١٦}.

١١٣- الجوالي: جمع جالية وتطلق على أهل الذمة، وقد قيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب. ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة، وإن لم يجلو عن أوطانهم، البقلي، محمد، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٣م، ص ٩٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.

١١٤- المقرئزي، الخطط، ص ١٩٩. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٦٨. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٢٦. زربا، فريال بدوي، الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير بإشراف د. مصطفى الحيارى، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٨١م، ص ١٩١. وسيشار له فيما بعد هكذا، زربا، الحياة الاجتماعية في دمشق.

١١٥- النويري، نهاية العرب، ج ٨، ص ٢٤١. قاسم، المرجع السابق، ص ٦٩. غوانه، نيابة بيت المقدس، ص ١٠٤.

Ziadeh, Nicola, Urban Life in Syria, Beirut: American University Press, 1953, p. 116.

وسيشار له فيما بعد هكذا: Ziadeh, Urban Life.

١١٦- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٠.

وكان للشاميين في مصر مكاتب خاصة يدفعون الجزية فيها، فنجد في وثائق الجنيظة معلماً كان يدرس في إحدى قرى مصر، فكان عليه ان يذهب كل عام إلى القاهرة ليدفع ما عليه من ضريبة أو جعلية (الجزية) الشام في مكتب الشاميين^{١١٧}. وفي حالة سفر الشخص لمدة طويلة كان أهله يتعهدون بدفع ما عليه من الجزية^{١١٨}. وفي بعض الأحيان يحاول بعضهم تقديم رشوة إلى الحاشر مثال ذلك الشخص الذي كان مقيماً في البلاد سابقاً ثم سافر للخارج وأقام هناك لمدة أربع سنوات أو أكثر، فعند عودته يحاول مع الحاشر كي يسجله كأنه قادم جديد (طاريء) وليس مقيماً إقامة دائمة^{١١٩}. وكان أهل الذمة عند وصول ناظر الجوالي إلى البلد يهرعون للسلام عليه ويستقبلونه أحسن استقبال ويوقدون له الشمع^{١٢٠}.

أما حصيلة الجزية (الجوالي) المستخرجه من اليهود والنصارى فكان يحمل منها قدر معين إلى بيت المال، ويفرق الباقي بين رواتب القضاة وأهل العلم^{١٢١}. فكثيراً ما نقرأ في بعض المصادر عن رواتب القضاة هذه العبارة «..... وقرر له في الجوالي راتباً.....»^{١٢٢}، وأحياناً تكون مرصدة للقيام ببعض الأعمال العمرانية، مثال ذلك ما يرويه لنا المقرئ من أنه في سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م رسم السلطان المنصور قلاوون ان تكون جوالي أهل الذمة بالقدس وبلد الخليل وبيت لحم وبيت جالا مرصدة لعمارة

١١٧- Goitein, Amediterranean Society, Vol, 2, P. 385. And Studies in Islamic History and Institutions, Leiden: E.J. Brill, 2nd ed, 1968, p. 189.

وسيشار له فيما بعد هكذا، Goitein, Studies in Islamic History.

١١٨- Goitein, Amediterranean Society, vol, 2, p. 383.

١١٩- Goitein, Ibid, Vol, 2, P. 385.

١٢٠- ابن الصيرفي، علي بن داود بن إبراهيم المعروف بالخطيب الجوهري، (ت. ٩٠٠هـ/١٤٩٦م)، انباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠م، ص ٣٣٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الصيرفي، انباء الهصر.

١٢١- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٣.

١٢٢- السخاوي، محمد بن عبدالرحمن بن محمد، (ت. ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت، ص ٢٤٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، السخاوي، التبر المسبوك.

بركة في الخليل^{١٢٣}. وبعد الروك^{١٢٤} الناصري الذي أمر به السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م وزعت الجوالي على إقطاعات الأمراء وغيرهم، حيث أصبح نصارى ويهود كل بلد يدفعون جاليتهم إلى مقطع تلك البلدة^{١٢٥}. وعند تغيير الإقطاعات كانت الجوالي تجبى شهرياً وفقاً للتقويم القمري (الهجري) فيأخذ صاحب الإقطاع الأول بقدر ما مضى من العام، بينما لا يستحق المقطع الجديد إلا بقدر ما تبقى من العام، وإذا بقي الإقطاع فترة دون صاحب، تورد حصيلة الجوالي فيه إلى الديوان السلطاني^{١٢٦}. وكان أهل الذمة يتهربون من دفع ضريبة الجوالي، وكان يحدث ذلك بتدبير من كبار موظفي أهل الذمة، فالمقريزي يقول: «وصاروا يتنقلون في القرى ولا يدفعون من جزيتهن إلا ما يرون، فقل متحصل هذه الجهة بعد كثرته»^{١٢٧}. مما دفع مقطعو كل جهة إلى مصالحة من بها من النصارى على بعض الجوالي، ويقول المؤرخ النويري نقلاً عن وصفهم بأنهم «...بعض العدول شهود الدواوين، أن الفرد من أهل الذمة كان يدفع جزية قيمتها أربعة دراهم أو نحوهما، وكانت ستة وخمسين درهماً حين كانت الجوالي جارية في الخاص السلطاني...»^{١٢٨}.

١٢٣- المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٣، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط ٢، ١٩٧٠م، ص ٧١٢. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٢٦.

١٢٤- الروك: كلمة قبطية كانت تستعمل في عملية قياس الأرض وحصرها في سجلات وتشمينها لتقدير الخراج وفقاً لدرجة خصوبتها. طرخان، إبراهيم علي، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م، ص ٢٢١. وسيشار له فيما بعد هكذا، طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة.

١٢٥- المقريزي، السلوك، ج ٢، ق ١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، ١٩٤١م، ص ١٦٩ والخط، ج ١، ص ١٦٥. الأسدي، محمد بن محمد بن خليل، (ت بعد سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبدالقادر طليمات، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م، ص ١٩٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، الأسدي، التيسير والاعتبار.

١٢٦- النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٤١. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٧١، السيد، المرجع السابق، ص ٢٢٧.

١٢٧- المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٦٥.

١٢٨- قاسم، المرجع السابق، ص ٦٩. نقلاً عن نهاية الأرب، للنويري، ج ٣، مخطوط. Little, Donald, History and Historiography of the Mamluks, London: Variorum Reprints, 1986, p. 561.

وسيشار له فيما بعد هكذا، Little, History of the Mamluks.

وكان السلطان يتدخل أحياناً لإبطال ذلك الاجراء في بعض المناطق، ففي سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م صدر مرسوم من السلطان الأشرف شعبان بن حسين ٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٧م، بإبطال ما هو مقطع من الجوالي بقرية مجدل فضيل التابعة لمنطقة الخليل التي كانت ترسل للأمير سعد الدين مسعود بن محمد السراي أحد أمراء العشروات في دمشق، حيث انتزع هذا الحق من خدام الحرم الشريف، وإعادة المتحصل من الجوالي في القرية إلى خدام الحرم الشريف^{١٢٩}. وفي سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م أمر السلطان الأشرف برسباي بتخصيص فائض الزيت والجوالي صدقة برسم عمارة المسجد الأقصى والصخرة الشريفة وأوقافهما^{١٣٠}. وفي سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م أصدر السلطان خشقدم مرسوماً بشأن تخصيص جوالي قرية طيبة من أعمال القدس على مصالح الصخرة الشريفة^{١٣١}.

ونستدل من بعض الحوادث أن قيمة الجزية كانت تؤدي مصالحة عن مجموع أهل الذمة بمقتضى اتفاق محدد، بغض النظر عن درجة ثراء الافراد. ففي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م تعجل نائب دمشق الأمير سيف الدين بيدمر من أهل الذمة جزية العام الآتي^{١٣٢}. وفي سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م ذكر الرباني عبيدا انه كان يجبي من اليهود في القدس جزية جماعية تبلغ أربعمائة دوكة^{١٣٣}. ويذكر انه في الفترة التي كان فيها موجوداً في القدس كانت هذه الضريبة الجماعية ملغاة وكانت تؤخذ من كل واحد على حدة^{١٣٤}. وقد جاء في الموسوعة اليهودية ان الذي فرض تلك الضريبة الجماعية هو

١٢٩- العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج ١، ص ١٨٢. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٩٣.

١٣٠- Van Berchem, Corpus Inscription Um Jerusalem, Vol, 2, Fast, 1, p. 323.

١٣١- العسلي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٩٠.

١٣٢- الذهبي، ابو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز، (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، ذيل العبر في خبر من غير، ج ٤، تحقيق ابو هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م. ص ١٩٠. وسيسار له فيما بعد هكذا، الذهبي، ذيل العبر.

١٣٣- الدوكا: دنائير من ضرب البندقية، والاسم نسبة الى ملكهم الذي اسمه (الدوك) وكل دينار منها يساوي تسعة عشر قيراطاً ونصف من المصري، ومنها الافرنتي والدينار السوري او المشخصة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٠٨. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ٩٩.

١٣٤- Adler, Jewish Travellers, p. 248.

السلطان قايتباي^{١٣٥}. وعلى هذا يكون السلطان قايتباي هو الذي فرضها ثم ألغاه عنهم^{١٣٦}.

وفي حالة عدم دفع الجزية المقررة يغلق الكنيس أو الكنيسة ويمنعوا من الصلاة إلى أن يدفع المبلغ^{١٣٧}، وإذا لم يدفع شخص ما ترتب عليه من جزيته يوضع تحت الترسيم لمدة أيام إلى أن يدفع ما عليه وإذا لم يدفع يودع في السجن حتى يؤدي ما عليه^{١٣٨}. ويذكر ابن حجر العسقلاني في حوادث سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م أن الدولة اهانت النصارى اهانة بالغة في استخراج الذهب الذي قرر عليهم وفاء الجزية الماضية^{١٣٩}. ولا شك أن ذلك كان بسبب تدهور الحالة الاقتصادية للدولة المملوكية وحاجتها للاموال فتشددت في جمع الضرائب بل فرضت ضرائب على أهل الذمة لم تعرف من قبل.

ب- الضرائب الإضافية:

وهناك ما يشير إلى وجود مكوس أخرى غير الجوالي كانت تجبى من أهل الذمة، من هذه المكوس مكس يعرف برسم نفقة الأجناد، فيذكر المقرئ أن السلطان الظاهر بيبرس فرض في السنة الثالثة من حكمه وهي سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م على أهل الذمة بالقدس ديناراً على كل شخص برسم نفقة الأجناد^{١٤٠}، إلا أن السلطان المنصور قلاوون أبطل ذلك سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م^{١٤١}. وكان يفرض أحياناً على أهل الذمة الإلتزام

-١٣٥-

The Jewish Ency ..., Vol, 7, p. 133.

١٣٦- يذكر الدكتور أحمد دراج في كتابه المالك والفرنج من ٤٥ أن السلطان جقمق ٨٤٣-٨٥٦هـ/١٤٣٩-١٤٥٣ أصدر في السنة الأولى من حكمه مرسوماً ألغى فيه الضريبة الجماعية عن اليهود. وذلك اعتماداً على ما ذكره عبيداً. ولكن بالرجوع إلى المصدر الأصلي وجدنا أن الرباني عبيداً لم يحدد ذلك بالضبط. وبالمقارنة مع ما ذكرته الموسوعة اليهودية أن السلطان قايتباي الذي فرض الضريبة وجدنا أن إلغاء الضريبة كان أيضاً زمن السلطان قايتباي وليس السلطان جقمق.

١٣٧- الغزى، نهر الذهب، ج ١، ص ٢٠٣.

-١٣٨-

Goitein, Amediterranean Society, Vol, 2, p. 372.

١٣٩- ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٧، ص ١٨٩. المقرئ، السلوك، ج ٤، ق ١، تحقيق، سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٢م، ص ٢٩٠.

١٤٠- المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٦٤. والخط، ج ١، ص ١٠٦. Shorter Ency .. of Islam, p.44١.

١٤١- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيمن العلاني، (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ج ٢، تحقيق محمد كمال عز الدين، مصر، عالم الكتب، ١٩٨٥م، ص ١٠٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن دقماق، الجواهر الثمين، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٤.

بالأموال التي احترقت أو أبيدت من قبلهم، ففي سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م، شب حريق بدمشق وذهبت فيه أموال ونفوس واحترقت المنارة الشرقية للجامع الأموي والقيسارية التي في الجهة الغربية من المسجد، وقد أقرت طائفة من النصارى بدمشق بفعله، فصلب تنكز^{١٤٢} نائب السلطنة أحد عشر رجلاً وأخذ منهم ألف ألف درهم تعويضاً لما احترق، وأسلم ناس منهم^{١٤٣}، إلا أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عارض ذلك وطلب منه المال الذي أخذه منهم^{١٤٤}. وفي سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م رمى شاد الدواوين الأمير ناصر الدين بن أقبغا على نصارى الشوبك^{١٤٥} القمح سعر

١٤٢- الأمير تنكز: هو الأمير الكبير سيف الدين أبو سعيد نائب السلطنة بالشام في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تزوج السلطان ابنته وزوج أولاد تنكز بناته، وعظم شأنه وهابه الأمراء بدمشق ونواب الشام، كان رجلاً عاقلاً عادلاً ذا حرمة. قتل في سجنه سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. الصلبي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، تحقيق جاكين سوبك وعلي عمارة، فيسبادان، فرانز شتاينر، ط ٢، ١٩٨٢م. ص ص ٤٢٠-٤٣٥. ابن شاکر الكتبي، محمد بن أحمد، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م). فوات الوفيات والذيل عليها، ج ١، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣م. ص ص ٢٥١-٢٧٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا، ابن شاکر الكتبي، فوات الوفيات. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٤، تحقيق احمد ابو ملح وأخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٩٨٨م، ص ١٨٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا، ابن كثير، البداية والنهاية. ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن محمد، (ت ٩٥٢هـ/١٥٤٦م). اعلام الوری بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الكبرى، تحقيق محمد احمد دهمان، دمشق، دار الفكر ط ٢، ١٩٨٤م. ص ص ٤٠-٤١. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن طولون الصالحي، اعلام الوری.

١٤٣- ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٤، ص ١٨٩. ابن حبيب، الامام بدر الدين الحسن بن عمر، (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، درة الاسلاك في دولة الاتراك. ج ٢، (مخطوط)، صور من مكتبة بودليان اكسفورد، مجموعة مارش رقم ٣٨١. ويوجد نسخ عنها على ميكرو فيلم في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية، شريط رقم ٥٣٣، ورقة ١٩٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن حبيب، درة الاسلاك. وتذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيّة، ج ٢، تحقيق محمد أمين، مزاجعة سعيد عبدالفتاح عاشور، مصر، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م، ص ٢١٣. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن حبيب، تذكرة النبيه، المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٢م، ص ٤٩٧. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ٣٩٧.

١٤٤- المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٩٧. Margolioth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p.250.

١٤٥- الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم، قرب الكوك بوادي موسى. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٧.

الإردب^{١٤٦} سبعة وعشرون درهماً، وقطع مصانعتهم واخذ منهم عشرة آلاف درهم، فأمر السلطان الظاهر برقوق بالقبض عليه ومعاقبته ومصادرته بمبلغ أربعمائة ألف درهم^{١٤٧}. وفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م شب حريق بدمشق لم ير أحد مثله في ذلك الزمان، إحترق فيه سوق الوراقين والمئذنة الشرقية للمسجد الأموي ودهشة للنساء ودهشتين للرجال وراح فيه اموال كثيرة للناس ونساء ورجال وأطفال، فرسم السلطان الظاهر برقوق بأن يؤخذ من اليهود في مدينة دمشق ألف الف درهم بعد أن أقرروا بفعلتهم^{١٤٨}. وفي سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م أصدر السلطان جقمق مرسوماً أبطل فيه ما على الذمة بالقدس الشريف من الخدمة والقدرم عند حضور نائب جديد أو عند إلباسه خلعة وأن يكون ناظر الحرمين الشريفين متكلماً عليهم وأن لا يكلفوا سوى الجزية الشرعية^{١٤٩}. وفي سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م أصدر السلطان جقمق أيضاً مرسوماً بإبطال الضريبة التي تؤخذ من رهبان دير الأرمن بالقدس الشريف الذي كان وكيل بيت المال بالقاهرة أبو الخير النحاس قد أحدثها عليهم^{١٥٠}. ويذكر ابن اياس ان

١٤٦- الإردب، يضم أربعة وعشرين صاعاً، أو ست وبيات، والصاع يساوي ٢٧٥١ غم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥١٢، هامش رقم (٢).

١٤٧- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم، (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، تاريخ الدول والملوك، نشر باسم تاريخ ابن الفرات، ج ٩، ق ٢، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت، المطبعة الاميركانية، ١٩٣٨م، ص ٢٦٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، غوانمه، التاريخ الحضاري الشرقي الاردن في العصر المملوكي، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٨٢م، ص ١٤٢، ١٤٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، غوانمه، التاريخ الحضاري.

١٤٨- ابن مصري، محمد بن محمد، (ت بعد ٨٠٠هـ/١٣٩٧م)، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم بيرتر، بركلي، جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٣م، ص ١١٧-١٢٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن مصري، الدرة المضيئة.

١٤٩- غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٠٤. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٠٨.

Van Berchem, Corpus Inscription um Jerusalem, Vol, 2, pt 2, Fast, 1, p. 150.

١٥٠- غوانمه، المرجع السابق، ص ١٠٤. العارف، المسيحية في القدس، ص ٨٠١. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٩.

Van Berchem, Op, Cit, vol, 2, pt,2, Fast, 1, p.332. Drory, Jerusalem in the Mamluk Period, p. 212.

ويذكر ان السبب في أخذ الجزية من الرهبان انه كان بعض النصارى يحتالون للتخلص من دفع الجزية بلبس الصوف والانتماء الى بعض الديارات، وفي ايام الملك الظاهر بيبرس كثر امثال هؤلاء الرهبان وعلم السلطان بجلية أمرهم فأمر ان تؤخذ الجزية من كل راهب لا يكون منقطعاً بدير ولا تكون له شهود ثقات على صدق رهبانيته، فانتهز الجباة هذه الفرصة لا يذاء الرهبان وفرض الضرائب عليهم، الزيات، حبيب، الديارات النصرانية في الاسلام، مجلة المشرق، بيروت، تموز-آب، ايلول ١٩٢٨م، العدد ٣٦، ص ٤٠٣. وسيشار له فيما بعد هكذا، الزيات، الديارات النصرانية.

السلطان الأشرف قايتباي صادر اليهود والنصارى مرتين في أيامه^{١٥١}، فهرب بعضهم وأسلم بعضهم^{١٥٢}. وفي سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م صودر جميع أهل دمشق وحاراتها وأهل الذمة بمبلغ عشرين ألف دينار، وحدث للناس بلاء كبير من جراء ذلك^{١٥٣}.

يتضح من الامثلة السابقة ان المتاعب المالية التي واجهت أهل الذمة في بلاد الشام كانت تتم في نطاق إجراءات مالية عامة تشمل كل طبقات الشعب أحياناً، كما كانت تحدث في أحيان أخرى نتيجة لبعض مظاهر الإضطراب التي يسببها أهل الذمة مثل الحرائق والفتن، وفي بعض المرات كانت نتيجة لحاجة الدولة إلى الأموال بسبب ظروفها الاقتصادية الصعبة وخصوصاً عندما كانت تستعد لقتال أعدائها خارج البلاد لتغطية تكاليف الأجناد المرسله. أو تكون نتيجة لتعسف الولاة والنواب والسلطين وحاجتهم للأموال، وكثيراً ما كان بعض السلطين يعارضون هذا الإجراء ويعيدون الأمور إلى سابق عهدها.

١٥١- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٢١.

١٥٢- ابن قاضي شهبه، ثقي الدين ابو بكر محمد بن احمد، (ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م). تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق عدنان درويش، دمشق، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٧٧م، ص ٤٢٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن قاضي شهبه، تاريخ.

١٥٣- ابن طولون الصالح، اعلام الوري، ص ١٦٤.

الفصل الثالث

النشاط الإقتصادي لأهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي

١. النشاط الزراعي.
٢. النشاط الصناعي.
 - أ. صناعة البناء.
 - ب. صناعة الزجاج.
 - ج. الصياغة والتكفيت.
 - د. صناعة الحرير.
 - هـ. صناعة النسيج والبسط.
 - و. صناعة الخمر.
٣. النشاط التجاري.
 - أ. التجارة الداخلية.
 - ب. التجارة الخارجية.

(١)

النشاط الزراعي

أسهم الملاك الزراعيون والفلاحون من أهل الذمة بنصيب وافر في النشاط الزراعي في بلاد الشام. ودفع هؤلاء الملاك الزراعيون الخراج على ما تحت أيديهم من أرض وما تنتجه أراضيهم من غلات ومحاصيل زراعية^١.

كما تأثر أهل الذمة بسياسية الدولة الزراعية في العصر الأيوبي والمملوكي. فكان التوقيع الخاص بالاقطاع في العصر الأيوبي يأمر المقطع بضرورة الأمر بالمعروف واتباع العدل وعدم أخذ الرشوة وحسن الجوار^٢. كما كانت التواقيع الصادرة عن الدولة لرؤساء أهل الذمة توصيهم باتباع العدل وعدم الجور على ما تحت أيديهم من رعايا، «... فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى، وغروهم بالتدبير لا تذوى، ومقاصدهم لا يمازجها شك ولا شكوى...»^٣.

كما كان الملوك والسلاطين بالمرصاد لكل من تسوّل له نفسه بالاعتداء على أراضي الأديرة والكنائس وغلاتها، وخاصة من قبل البدر الأعراب والفلاحين وإيقاع أكبر العقوبات بهم. مما جعل الملاك يشعرون بالأمان والإطمئنان على ممتلكاتهم، وزيادة انتاجهم. فإذا اعتدي عليهم كانوا يسارعون بالشكوى إلى السلطان فيصدر السلطان لتوّه مرسوماً يحفظ حقوقهم وكف أيدي العابثين عنهم، ففي منشور صادر من ديوان الملك العادل بتاريخ ١٦ محرم ٥٩٢ هـ/ ٢١ تشرين أول (ديسمبر) ١١٩٥ صدر لصالح رهبان دير سانت كاترين^٤. «... بأن لا يفسح للعربان ولا لغيرهم. من الموافقين

١- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٨٨. ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص ١٠٢. حتي، مختصر تاريخ لبنان، ص ١٠٤.

٢- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٣٢.

٣- القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ١١، ص ٢٨١. (توقيع صادر برئاسة اليهود).

٤- دير سانت كاترين: وهو من الآثار البيزنطية الخالدة في شبه جزيرة سيناء. بني بأمر الامبراطور جستنيان ٥٢٧ - ٥٦٥م وزوجته الامبراطورة ثيودورا، وبقيام حركة الفتوح العربي الاسلامي أصبح الدير يخضع للسلطات العربية الاسلامية، والدير مبني من الحجر الاسود وهو ما يزال شاخصاً حتى اليوم. نسيم، جوزيف، «دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي، المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين بسيناء»، مجلة أداب الاسكندرية، مج ١٨، ١٩٦٤م. ص ١٧٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، نسيم، دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي.

والمخالفين في الأديان في اهتضامهم...»^٥.

وأحيانا كان يحدث أن يطلب العربان مقاسمة رهبان دير سانت كاترين في كرومهم ونخيلهم وغيرها من الزروع، من ذلك وثيقة مؤرخة في ٥ ذو القعدة ٥٩٥هـ/ ١١ آب (أغسطس) ١١٩٨م. صادر عن ديوان العادل بمصر «بأن لا يعرضوا في كرومهم ونخيلهم وزرعهم بأضرار ولا مقاسمة ولا احتجاز، ولا اقتطاع شيء من ذلك بوجه من وجوه الاجبار... وتكف عنهم اسباب المساءة العائدة بضريرهم...»^٦.

وثمة نوع آخر من النزاع -تكشف عنه تلك الوثيقة- كان يحدث بين الرهبان والمجاورين لديهم، الذين كانوا يطلبون السكن معهم أو تخزين غلاتهم في ديرهم. ومما جاء فيها: «...وأن لا يلزموا رهبان الدير بمساكنة غيرهم ولا تخزين غلة ولا غيرها في ديرهم...»^٧. وأحيانا أخرى يطالب العربان بمشاركة رهبان الدير في الأرض الزراعية والوديان الخضراء التي في ايديهم وما تغله من غلال، فيلجأ الرهبان كعادتهم إلى السلطات المختصة في مصر لحسم الأمر، من ذلك منشور يرجع إلى سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م جاء فيه: «الى كافة المقطعين والنواب والمتريدين باجرائهم (أي رهبان الدير) في النخل المذكور أسوة ما هو بيدهم من النخل وغيره، واعفائهم من طلب المشاطرة...»^٨. وفي منشور بتاريخ ١٣ رمضان ٨٧٠هـ/ ٢٩ نيسان (أبريل) ١٤٦٥م. صدر مرسوم من السلطان المملوكي خشقدم إلى الفلاحين بقرية بيت لحم «... أن الرهبان بدير صهيون بالقدس الشريف أنهم لنا أئمة فقراء الحال ومتسببون ومقيمون بالدير المذكور وانكم تشوشوا عليهم بالضرر والأذية وأخذ ما تجدوه معهم من طعام وعنب وغيره وأضر ذلك بحالهم فیتقدموا بعدم التعرض إلى الرهبان بقول أو فعل... ولا يأخذوا منهم شيئا وكف أسباب الأذى والضرر عنهم والوصية التامة بهم قولا واحدا وأمرأ جازماً...»^٩.

٥- نسيم، دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي، وثيقة رقم (١١)، ص ١٨٦.

٦- نسيم، المرجع نفسه، وثيقة رقم (١٢)، ص ١٨٦.

٧- نسيم، المرجع نفسه، نفس الوثيقة، ص ١٨٦، ١٨٧.

٨- نسيم، المرجع نفسه، وثيقة رقم (١٥)، ص ١٨٦.

٩- العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج ١، ص ٦٤.

كما أن الملاك والفلاحين من أهل الذمة استفادوا كثيرهم من أهل البلاد من الاعفاءات المالية التي كانت تحدث في عهد السلاطين. ففي سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤م خرج السلطان صلاح الدين إلى دمشق فنودي بدمشق «بإطابة النفوس وإزالة المكوس»^{١٠} وعندما فتح السلطان حلب سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣م أطلق المكوس والضرائب وسامح أهلها بأموال عظيمة^{١١}. وعندما تم له فتح حمص سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦م، أسقط المكوس أيضا عن أهلها^{١٢}. كما طهر الملك العادل أيضا ولايته من المكوس والمظالم^{١٣}.

كما حرص سلاطين المماليك أيضاً على إزالة مثل هذه المكوس والمظالم ففي سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨م أسقط السلطان السعيد ابن الظاهر بيبرس ٦٧٦ - ٦٧٨ هـ/١٢٧٧ - ١٢٧٩م عن أهل الشام ما قرره الملك الظاهر على البساتين في كل سنة^{١٤}. كما أبطل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م عدة حوادث^{١٥} منها ما

- ١٠- ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٠. المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٨٥.
- ١١- العماد الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ج ٥، تحقيق قالح حسين، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٨٧م، ص ١٣٢. ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٧. علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٦٣.
- ١٢- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩١.
- ١٣- سبط بن الجوزي، شمس الدين ابو المظفر يوسف بن غزا أوغلي، (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م)، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، ج ٨، ق ٢، الهند، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٢م، ص ٥٩٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان. بيبرس الدوادار، ركن الدين بيبرس المنصور الدوادار، (ت ٢٧٥ هـ/١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة من كشف الظنون، (مخطوط)، ج ١٠، صُور عن مخطوطة بجامعة ييل (Yael) رقم ٧٥٨، مجموعة لاندبيرج ويوجد نسخة عنه على ميكروفلم في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية ورقمه (٢٠). ورقة ١٢٢.
- وسيشار له فيما بعد هكذا، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة.
- ١٤- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٧م، ص ٦٥.
- ١٥- الحوادث: جمع حدث وهي المكوس التي لا تستند الى سند شرعي أو ابتداء بعض التجديدات في الحكومة والإدارة. دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ج ٢، ترجمة محمد سليم النعيمي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨١م، ص ٩٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، دوزي، تكملة المعاجم العربية.

تجدد على الغلة ببلاد الشام وسامح ما تأخر من البواقي^{١٦} بأرض مصر والشام^{١٧}. وفي سنة ٩٦٣هـ/١٢٩٣م أبطل مكساً في دمشق حيث كان يؤخذ على باب الجابية على كل حمل قمح خمسة دراهم^{١٨}. وفي سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م كتب مرسوم بمسامحة أهل الشام بالبواقي لإستقبال سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م وتلاه مرسوم آخر بإعفاء الفلاحين من السخر وإبطال مقرر الأقصاب^{١٩}. وفي سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م أبطل السلطان محمد بن قلاوون مكس الغلة وكان المتحصل منها مبلغاً كبيراً سبب ضيقاً على الفلاحين، فكان يؤخذ من ثمن كل غرارة^{٢٠} ثلاثة دراهم ونصف^{٢١}. وفي سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م أبطل السلطان سيف الدين أبي سعيد ططر ما يجبي من فلاحي الضياع لنائب القدس في كل سنة مبلغ أربعة آلاف دينار^{٢٢}. وفي سنة ٨٨١هـ/١٤٧٦م ألغى السلطان الأشرف قايتباي المظالم في جبل القدس والخليل من الإقامة والمكوس المفروضة على البضائع الجلوبة^{٢٣}.

أما عن أملاك وأراضي الكنائس والأديرة فقد تحدث الرحالة والجغرافيون والمؤرخون عن كثرة الأراضي الزراعية والبساتين التي كانت حول الأديرة، والتي كانت في حوزة الكنائس، فعلى سبيل المثال. دير الطور بين طبرية واللجون حول

١٦- البواقي: ما يتأخر عند الناس من مال الخراج وغيره، المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٩٥. هامش رقم (٣).

١٧- المقرئزي، المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٧٩٥.

١٨- المقرئزي، المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٧٩١.

١٩- ابن حبيب، تذكرو النبيه، ج ٢، ص ٥٨. المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٣٦.

٢٠- الفرارة: مكيال دمشقي للحنطة وتعني الفرارة حرفياً العدل من صفوف أو شعرة. وهي تتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مداً دمشقياً. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨٨. هنتس: المكايبيل والأوزان الإسلامية، ص ٦٤.

٢١- المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٢٥٤. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ١٠١، علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٦٥.

٢٢- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٧٢.

٢٣- Van Berchem, Corpus Inscription Um Jerusalem, vol. 2, pt.2, p.149.

٢٤- غوانمة، الموضع السابق، ص ١٠٢.

٢٥- Van Berchem, Op. Cit, vol. 2, pt. 2, Fast, p.153.

كروم يعتصرونها. وعين تنبع بها الماء^{٢٤}. وكان لدير مارت ماروثا بظاهر حلب على سفح جبل جوشن بساتين جليلة ومباقل وفيه نرجس وبنفسج وزعفران^{٢٥}، أما دير كفتون ببلاد طرابلس فكان به ماء جار وله حوض كبير مملوء من شجر النارج يحمل نارجيه إلى طرابلس، ويباع ويرتفق بثمنه الرهبان^{٢٦}. وكان دير صليبيا بدمشق المطل على الغوطة كثير البساتين والمياه^{٢٧}. أما دير صيدنايا في شمال دمشق فكان له بستان به ماء جار وعليه أوقاف كثيرة وله مغلات واسعة^{٢٨}. وكان دير بونا بجانب غوطة دمشق يقع في أنزه مكان له رياض مشرفة، وأنهار متدفقة، وأشجار كثيرة^{٢٩}. أما دير سمعان بنواحي دمشق فيقع في موضع نزه محدقة به البساتين^{٣٠}. كما يشرف دير مران بالقرب من دمشق على مزارع الزعفران والرياض الحسنه^{٣١}.

وإضافة إلى أملاك الكنائس والأديرة فقد أشار المؤرخون والجغرافيون بأن هناك قرى ونواحي كثيرة كان غالبية سكانها من النصارى أو اليهود. كبلدة الشوبك فهي

٢٤- الشابشتي، الديارات، ص ١٣٢. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢، ص ٥٢٠. العمري، مسالك الأبصار، ج ١، باب ٦، ص ٣٢٦.

٢٥- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣١. العمري، المصدر السابق، ج ١، باب ٦، ص ٣٢٢. الزيات، الديارات النصرانية، ص ٣٢٠.

٢٦- العمري، المصدر السابق، ج ١، باب ٦، ص ٣٢٢. علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٣٧. الزيات، المرجع السابق، ص ٣٢٠.

٢٧- ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ٢، ق ١، ص ٢٧٧. العمري، المصدر السابق، ج ١، باب ٦، ص ٣٤٩.

٢٨- العمري، المصدر السابق، ج ١، باب ٦، ص ٣٤٩.

٢٩- ابن شداد، المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٢٧٨. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٢. آل تقي الدين، منتخبات التواريخ، ج ٢، ص ١٠٥٥.

٣٠- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥١٧. آل تقي الدين، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠٥١. وهناك دير سمعان بظاهر انطاكية وآخر بنواحي حلب بين جبل بني عليم والجبل الأعلى. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥١٧.

٣١- ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج ٢، ق ١، ص ٢٧٩. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢٣. آل تقي الدين، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠٥١. علي، المرجع السابق، ج ٦، ص ٣٦. الزيات، المرجع السابق، ص ٣٢٠.

«بلد صغير كثير البساتين وغالب ساكنيه من النصاري^{٣٢}» والكرك^{٣٣}، «كانت ديراً يتديره الرهبان ثم كثروا وكبروا بناءه وأوى اليهم من يجاورهم من النصاري فقامت لهم به أسواق ودرت لهم معاش...»^{٣٤} وعلى بعد ٤٠ ميلاً من دمشق تقع قرية إسمها ساردان (ساردناك) وهي صيدنايا يكثر فيها النصاري ولا يسكنها المسلمون، حولها بساتين من الكرمة^{٣٥}، وقد أطلق عليها الشيخ عبد الغني النابلسي أرض الراهب إشارة إلى نصرانية القرية^{٣٦}. وكفر دبين وهي قلعة على نهر العاصي، والمرزبان قرية كبيرة من قرى حلب وأهل هذه النواحي وفلاحوها من الأرمن^{٣٧}. كما كثر الأرمن على جبال اللكام^{٣٨}. وهو من أعمر جبال الشام وأكبرها وأكثرها

٣٢- أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق م. رينود وماك كوكين دي سلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م، ص ٢٤٧. Maundevill, The Book, p.181.

٣٣- الكرك: بفتح أوله وثانية، اسم لقلعة حصينة جداً في أطراف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيله وبحر القلزم وببيت المقدس، وهي على سن جبل عال تحيط به الأودية من كل جهة إلا من جهة الربض. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٢.

٣٤- ابن شداد، الاطلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٦٩، ٧٠. العمري، مسالك الألبصار، ج ١، باب ٦، ص ١٣٥. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦١.

٣٥- Frescobuldi, Visit to the Holy Places, p.84. Maundevill, Op, Cit, p190.

٣٦- ابن النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل بن عبد الغني، (ت ١١٤٣هـ/١٧٢٠م). الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض مراد، دمشق، دار المعرفة، ١٩٨٩م، ص ٩٨ وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن النابلسي، الحقيقة والمجاز، الزيات، حبيب، خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، ج ٢، دمشق، مطابع الف باء للأديب، ١٩٨٢م، ص ١٠١ وسيشار له فيما بعد هكذا، الزيات، خزائن الكتب في دمشق.

٣٧- ابن الشحنة، محمد بن محمود بن الشهاب غازي بن أيوب بن المحب أبو الفضل بن الشحنة الحلبي، (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبدالله الدرويش، دمشق، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م، ص ١٦٧، ١٧١. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الشحنة، الدر المنتخب.

٣٨- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن محمد، ت (٩٢٧٥-٩٩٨٥)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تقديم غازي طليمات، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٠م، ص ١٧٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، المقدسي، أحسن التقاسيم.

ثماراً^{٣٩}. وذكر ياقوت أن عمّ هي قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية بين حلب وإنطاكية كل من بها اليوم نصارى^{٤٠}. وقرية بيت ماما، إحدى قرى مدينة نابلس بفلسطين أهلها سامرة^{٤١}. ومن القرى التي يسكنها النصارى أيضاً نذكر: بيت جالا وهي من قرى فلسطين أهلها من أصحاب الزنار يزرعون الكرمة^{٤٢}. وقرية شرافات قرب بيت المقدس أهلها كلهم نصارى ليس فيها مسلم، وحرفة أهل القرية عصر العنب وبيعه^{٤٣}. أما قرية يبرود بالقرب من دمشق بين حمص وبعليك فتشتهر بكنائسها وبساتينها الكثيرة وفواكهها اللذيذة ومياهها الجارية^{٤٤}. يعمل أهلها بالفلاحة، ويجمعون الشبج (نبات سهلي مر الطعم طيب الرائحة) ويحملونه إلى دمشق ويبيعونه للذين يوقدون الأفران^{٤٥}. أما قارا فهي قرية كبيرة بين حمص ودمشق، بها عيون جارية يزرعون عليها وأهلها كلهم نصارى^{٤٦}.

وعلى قمم جبال لبنان شاهد الرحالة الهولندي راوولف ليونهارت أعداداً وفيرة من القرى على جانبي الطريق، معظمها مأهولة بالنصارى من السريان وغيرهم...

٣٩- الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس (ت. ٥٦٠هـ/١١٦٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ٥، نابلي، روما، معهد الدراسات الشرقية، د.ت، ص ١٧٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، الإدريسي، نزهة المشتاق.

٤٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٥٧.

٤١- ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٢٢.

٤٢- زايد، محمود، رحلة برتراندون دي لا بوركير إلى فلسطين ولبنان وسورية سنة (١٤٣٢م)، د.م، دن، ١٩٦٢م، عن مجلة الأبحاث، السنة ١٥، ج ٢، ١٩٦٢م، ص ٣٠٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، زايد، رحلة دي لا بوركير.

٤٣- العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ١٤٧. أبو الفلاح، شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٣١.

٤٤- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٢٧. الزيات، خزائن الكتب في دمشق، ج ٤، ص ١٦٢.

٤٥- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٠٠.

٤٦- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، (ت ٦٦٤هـ-١٢٦٧م)، تذكرة الأخبار في إتفاقات الأسفار المشهور برحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٦٤م، ص ٢٣٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن جبير، الرحلة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩٥. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٢٩.

قدموا له خموراً من الأعناب التي تنمو فوق تلك الجبال^{٤٧}. وقد أشار إلى ذلك من قبل ويليم الصوري عند كلامه عن الموارد حيث قال: كانت أعداد الموارد أكثر من أربعين ألفاً، يعيشون في جبل البترون وطرابلس وعلى قمم جبال لبنان^{٤٨}. أما الرها فالغالب على أهلها دين النصارى^{٤٩}. وجوبر وهي قرية تقع شرقي دمشق كان يسكنها اليهود^{٥٠}. أما المنطقة الممتدة بين سبسطية والقدس فكان يسكنها كثير من اليهود^{٥١} ومدينة نابلس التي لا توجد السمرة إلا فيها^{٥٢}.

هذا وقد انتجت أراضيهم والأراضي الموقوفة على الديارات والكنائس والبساتين الملحقة بها، كثيراً من الغلات والمحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها بلاد الشام، فقد اهتم النصارى واليهود بزراعة الزيتون^{٥٣}، إذ انتشرت زراعته في معظم القرى وأنحاء البلاد الشامية في الجبال والأودية والسواحل^{٥٤}، وكانت نابلس أكثر

٤٧- لبونهارت، راوولف، رحلة المشرق الى العراق وسوريا وفلسطين في ١٩٨١هـ/١٥٧٢م، ترجمة سليم التكريتي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨م، ص. ٥٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، لبونهارت، رحلة المشرق.

٤٨- William of Tyre, Op, Cit vol 2, p. 459.

٤٩- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص. ٢٠٠.

٥٠- دارفيو، الفارس لوران. وصف دمشق في القرن السابع عشر (١٦٦٠-١٧٠١م)، ترجمة أحمد أبيس، دمشق، دار المأمون للتراث، ١٩٨٢م، ص. ١٠٠. وسيشار له فيما بعد هكذا دارفيو، وصف دمشق.

٥١- Maundevill, The Book, P. 183.

٥٢- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥٦. ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مصر، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط ٢، ١٩٣٩م، ص ٣٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الوردي، خريدة العجائب.

Maundevill, Op,Cit, p.183.

٥٣- العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج، ص ٤٦٢.

٥٤- الإدريسي، المصدر السابق، ص ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٢. غوانمة، دراسات، ص ٩١. والتاريخ الحضاري، ص ٧٩. متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٩٦٧م، ص ٣١. وسيشار له فيما بعد هكذا، متز، الحضارة الإسلامية.

بلاد الشام زيتوناً، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق^{٥٥}. كما كان نصارى الكرك والشوبك يتاجرون مع سكان جزائر الغول (لعلها جزائر تيران) يبيعونهم الزيت والزيتون والزبيب ويشتررون منهم السمك المقدس^{٥٦}. وقد أشار المؤرخون والجغرافيون إلى خصوبة هذه المنطقة فهذا فوشيه الشارترى يقول: في قبلي بيت المقدس واد طيب غني بثمرات الأرض^{٥٧}. أما ما قاله القزويني، يقع وادي موسى قبلي بيت المقدس وهو واد كثير الزيتون^{٥٨}. كما كثرت زراعة أشجار الزيتون في المنطقة التي تقع بين جبل الزيتون ووادي القدرين في منطقة القدس^{٥٩}. وكان غالب سكان هذه المناطق من النصارى^{٦٠}. كما زرع الزيتون في الأراضي التابعة للأديرة والكنائس، فمثلاً كان دير المصلبة في مدينة القدس في غابة من أشجار الزيتون والكروم^{٦١}.

٥٥- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، بيروت، دار التراث، ١٩٦٨م، ص ٥٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة.

٥٦- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، المكتب التجاري للنشر والتوزيع، ١٩٧٠م، ص ١٣٠-١٣١. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن سعيد، كتاب الجغرافيا.

٥٧- الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٠٩.

٥٨- القزويني، القاضي زكريا بن محمد بن محمود، (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، د.ت، ص ٢٧٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، القزويني، آثار البلاد، الباكوي، عبدالرشيد صالح بن نوري، (ت ١١٠٢هـ/١٦٩٠م)، تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، تعليق ضياء الدين يونيا توف، موسكو، إدارة التحرير الرئيسة للآداب الشرقية، ١٩٧١م، ص ٦٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، الباكوي، تلخيص الآثار.

٥٩- العلمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٦.

٦٠- Manudrell, Henry, The Journey of Henry Manudrell from Aleppo to Jerusalem, A.D. 1696, in Thomas Wright (ed) Early Travels in Palestine, London, 1848. P.471.

Maundrell, The Journey وسيشار له فيما بعد هكذا،

٦١- العمري، مسالك الأبصار، ج ١، باب ٦، ص ٢٤٠. علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٣٦.

ومن الزراعات التي اهتم بها أهل الذمة على وجه الخصوص الكروم لأن المسلمين كانوا لا يهتمون كثيراً بزراعة الكروم^{٦٢}، ومع ذلك فكان بعض المسلمين الذين يعيشون بالقرب من النصارى يزرعون له لكي يستفيدوا ببيعه لهم^{٦٣}. فانتشرت زراعة الكروم في أنحاء مختلفة من بلاد الشام فكانت هناك مساحات كبيرة من الأراضي التي يمتلكها أهل الذمة من النصارى واليهود قد زرعت بالكروم، فالمنطقة الممتدة بين بيروت ودمشق على سفوح الجبال وعلى جانبي السهل كانت مليئة بمزارع الكروم^{٦٤}. كما اشتهرت القرى التي على قمم جبال لبنان والتي كان معظم سكانها من النصارى بزراعة أشجار الكروم. وكانوا يصنعون منها الخمرة الجيدة^{٦٥}. وذكر الرحالة جوسية (Gucci) الذي زار منطقة بلاد الشام مع مجموعة من الرحالة الآخرين عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٨م أن منطقة غزة كان فيها كثير من الكرمة، وكان اليهود يصنعون منها الخمرة الجيدة ويضعونها في جرار من الزجاج^{٦٦}. وتشير المصادر إلى كثرة أشجار الكروم في المنطقة المحيطة بالقدس، حتى أطلق على جبل بيت المقدس أو جبل طورزيتا جبل الخمر لكثرة ما يزرع عليه من أشجار الكروم^{٦٧}. وسميت إحدى قرى الرملة بقرية العنب لكثرة ما يزرع فيها من الكروم^{٦٨}. ويحدثنا مجير الدين الحنبلي عن كروم القدس بقوله: «وبظاهر القدس الشريف من كل جهة كروم بها أنواع الفواكه من العنب والتين والتفاح وغيره...»^{٦٩}، أما كروم الخليل فكانت تحيط بالمدينة من كل جانب وفيها أنواع الفواكه وأعظمها العنب^{٧٠}.

٦٢- ليونهارت، رحلة المشرق، ص ٨٢.

٦٣- السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٩٤.

٦٤- زايد، رحلة دي لا بوركير، ص ٣٢٠.

٦٥- ليونهارت، المصدر السابق، ص ٥٠.

٦٦- Gucci, Visit to the Holy Places, p,122.

٦٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٢، العليمي الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٦١.

٦٨- ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٥.

٦٩- العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٩.

٧٠- العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨١.

كما كثرت زراعة كروم العنب في بساتين الأديرة والكنائس وخصصت مساحات كبيرة من الأراضي الملحقة بها لزراعتها، فلا يكاد يخلو بستان دير من أديرة النصارى من أشجار الكروم. فقد حرص الرهبان أنفسهم على غرس أشجاره في بساتين الأديرة لسد حاجاتهم منه سواء للأكل أو تصنيعه خمراً أو زبيباً^{٧١}. ومن الجدير بالذكر أنه لم تفرض أية قيود على زراعة العنب في العصرين الأيوبي والمملوكي، وأن كانت أحياناً تفرض بعض القيود على بيع الخمر وتداولها مما يؤثر بلا شك على زراعته حيث كانت تتعرض الكروم للحرق، ففي سنة ٨٢١هـ/١٤٢٠م أحرق الأمير يشبك^{٧٢} نائب حلب الكروم بقلعة كركر^{٧٣} أثناء حصاره لها^{٧٤}.

وكثرت زراعة قصب السكر في المناطق التي يغلب على سكانها النصارى، فقد أشار معظم الجغرافيين والرحالة إلى أن منطقة طرابلس ونواحيها كانت تشتهر بوفرة غلالها وكثرة بساتينها التي تحف بالمنطقة كالسياج، وكان قصب السكر من أشهر مزارعات هذه البساتين بالإضافة إلى الأشجار الأخرى كشجر الجوز واللوز والرمان وأشجار البرتقال والليمون والتفاح ومختلف الأزهار والكروم، وبعض أشجار النخيل^{٧٥}. ومن قصب السكر كان يصنع السكر الطرابلسي الذي ذاع شهرته في العصور الوسطى^{٧٦}. كما كثرت زراعة قصب السكر في منطقة الأغوار الممتدة بين بحيرة طبرية في الشمال إلى البحر الميت جنوباً، فياقتوت الحموي يقول: «ضياح

٧١- الزيات، الديارات النصرانية، ص ٢٢.

٧٢- الأمير يشبك: هو يشبك المشد اشتراه السلطان المؤيد لشيخ وهو نائب طرابلس بألف دينار، ثم ترقى عنده إلى أن أعطاه تقدمه ألف ثم نيابة طرابلس ثم نيابة حلب، وكان فارساً شجاعاً بنى في حلب مسجداً وتربة ومكتب أيتام توفي سنة (٨٢٤هـ/١٤٢١م). السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٧٩.

٧٣- كركر: حصن قرب ملطية بينها وبين آمد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٢.

٧٤- المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٤٥٦.

٧٥- ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٧، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٢٧٢، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٥٢. الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤٩. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٦٢. ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٢٦٣. ليونهارت، مرحلة الشرق، ص ٢٣.

٧٦- ليونهارت، رحلة المشرق، ص ٢٣. سالم، عبدالعزيز، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦٦م، ص ٢٨٠. وسيفشار له فيما بعد هكذا، طرابلس الشام.

الأردن يسقيها نهر الأردن الصغير، وأكثر مستغلتهم السكر ومنها يحمل إلى سائر بلاد الشرق^{٧٧}. وقد كثرت زراعته بوجه خاص في غور الصافي قرب الكرك^{٧٨}، وفي أريحا^{٧٩}، وفي منطقة القُصير (الشونة الشمالية)^{٨٠}. وبلغ سكر غور الصافي من الجودة حداً حتى عرف بأسواق فلورنسا والدول الغربية (بسكر مونتريال) أو سكر الكرك والشوبك^{٨١}. ومن المرجح أن زراعته وصناعته راجت على أيدي النصارى لأن السكان النصارى كانوا الأغلبية في هذه المناطق.

ومن المزروعات التي حرصت الديرية على أن يكون من جملة مزروعاتها نبات الزعفران، وهو نبات زهره أحمر مائل إلى الصفرة ذكي الرائحة ويسمى أيضاً بالكركم أو الورس أو العصفور ويستخدم في الصباغة والدواء والطيب^{٨٢}. كما كانت العادة أن يتخلق الناس بالزعفران في بعض المواسم والأعياد والأفراح وقد ظلت هذه العادة باقية حتى أوائل القرن العاشر للهجري/السادس عشر الميلادي^{٨٣}. ففي سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م تماثل السلطان خشقدم للشفاء، فضربت البشائر في ذلك اليوم بالقلعة وتخلق جماعة السلطان بالزعفران^{٨٤}. ولشدة الطلب عليه راجت تجارته، وكان يلقي رواجاً كبيراً في الأسواق، ومن أجل هذا الرواج حرص الرهبان على زراعته في

٧٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٧.

٧٨- ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٢. غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ١٠٦.

٧٩- Frescobaldi, Visit to the Holy Places, p. 79.

٨٠- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٧. غوانمة، المرجع السابق، ص ١٠٨.

- القُصير: بالغور من أعمال الأردن. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٧.

٨١- غوانمة، المرجع السابق، ص ١٠٦. رنسيما، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٠٢.

٨٢- أبو القاسم الغساني، محمد بن إبراهيم الشهير بالوزير (ت في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي)، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، تحقيق محمد العربي الخطابي، بيروت، دار العربي، ١٩٨٥م، ص ١٠٨، وسيشار له فيما بعد هكذا، أبو القاسم الغساني، حديقة الأزهار. غوانمة، المرجع السابق، ص ٨١، الزيات، الديارات النصرانية، ص ٣٢٨.

٨٣- الزيات، المرجع نفسه، ص ٣٢٨.

٨٤- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤٥٤.

الأراضي التابعة للأديرة والكنائس^{٨٥}. كدير مران في دمشق الذي كان مشرفاً على مزارع الزعفران^{٨٦}، ودير مارت ماروثا بظاهر حلب وكان من جملة مزروعاته الزعفران^{٨٧}، كما اشتهرت منطقة جادية وهي إحدى قرى البلقاء بزراعته واليها ينسب الجادي وهو الزعفران^{٨٨}، أما استعمالاته الطبية أو العلاجية فهو قابض ومحلل يقوي الأحشاء وشربه يحسن اللون وهو محلل للأورام منوم إذا سقي في الشراب، ويجلو البصر، ويسهل التنفس، ويقوي النفس إلا أنه مُصدع يضر بالرأس^{٨٩}.

هذا ويبدو أن أراضي وأمالك أهل الذمة قد زرعت بباقي المحاصيل الزراعية الأخرى التي اشتهرت بها بلاد الشام عامة، وأسهمت بنصيب وافر في الانتاج الزراعي في البلاد الشامية.

٨٥- الزيات، الديارات النصرانية، ص ٣٣٨.

٨٦- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٥٢.

٨٧- ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢١.

٨٨- الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٢٨هـ/١١٣٦م)، كتاب الامكنة والمياه والجبال، تحقيق ابراهيم السامرائي، بغداد، مطبعة السعدون، ١٩٦٨م، ص ٦٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، الزمخشري، كتاب الامكنة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٢. غوائمه، التاريخ الحضاري، ص ٨١.

٨٩- النويري، نهاية الارب، ج ١١، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، د.ت، ص ٢٤٧. ابو القاسم البغستاني، حديقة الازهار، ص ١٠٩.

(٢)

النشاط الصناعي

كان لأهل الذمة في بلاد الشام دور كبير في المجال الصناعي ومارسوا الكثير من الصناعات والحرف التي كان لها شهرة بالغة في الأسواق المحلية والخارجية. حتى أن بعض الصناعات اقتصرت عليهم انفسهم، فالجتمع الاسلامي إمتاز بالحرية المهنية وسياسة التسامح الديني التي تمتع بها أهل الذمة آنذاك من قبل الملوك والسلاطين وخصوصاً في العصرين الأيوبي والمملوكي^{٩٠}. هذا مع العلم بأنه لم توجد في ذلك العصر نقابات منظمة تنظيمياً دقيقاً. فقد جرت العادة في العصور الوسطى ان يكون لأهل كل حرفة نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين الناس. ويكون لهم شيخ أو رئيس يرأسهم ويقف على مشاكلهم، يرجعون إليه في كل ما يهمهم لا سيما الوساطة بينهم وبين الحكومة، ولما كان دخول أي فرد جديد في حرفة من الحرف من شأنه ان ينافس اصحابها الأصليين، فإنهم كانوا لا يدربون احداً على طرق صناعتهم إلا ان يكون قد أتى ليحل محل أحدهم وفي هذه الحالة يقبل بشروط يتفقون عليها^{٩١}.

ومن ناحية أخرى كان لمجموعات الطوائف المختلفة تفضيل خاص لمهنة محددة دون سواها، تخصصوا بها وانتقلت من الأب إلى الابن، ومن جيل إلى جيل، وهكذا قضت الظروف لابناء الحرفة الواحدة ان يتقنوها اتقاناً تاماً^{٩٢}.

٩٠. Goitein, Studies in Islamic History, p. 266.

٩١.

٩١- منيمه، سارة، «التكوين الوظيفي للمدينة الإسلامية»، مجلة الفكر العربي، دمشق، تشرين اول (اكتوبر)-تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٨٢م، عدد ٢٩، السنة الرابعة، ص ١٤٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، منيمه، التكوين الوظيفي، عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، ص ٩٥.

٩٢- كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الاسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية، ترجمة بدر الدين القاسم، بيروت، دار الحقيقة للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٧٧م، ص ١٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، حتي، تاريخ سورية

ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٨٩. Goitein, Op, Cit, p. 261.

ومن أهم الصناعات التي برع فيها أهل الذمة، وبرزوا فيها وفي الاشتغال بفنونها وصناعاتها ما يلي:

١- صناعة البناء:

يبدو أن الأرمن بصفة خاصة قد اشتهروا بنشاطهم المعماري، وامتازوا ببراعتهم المهنية وطرزهم وأنماطهم، واليهم يرجع الفضل في بناء الكثير من المساجد والمدارس وإقامة التحصينات الحربية كالحصون والقللاع وأسوار المدن في مصر والشام في العصرين الأيوبي والملوكي^{٩٣}. ولم يقتصر البناء على طائفة الأرمن من النصارى فحسب، بل برع فيها أيضاً أعداد أخرى من أبناء طوائف النصارى الوطنيين^{٩٤}، فكان غالب البنائين من النصارى إلا نادراً^{٩٥}. كما أشارت بعض المراجع إلى أن اليهود قد ساهموا أيضاً في أعمال البناء^{٩٦}.

وقد ترك هؤلاء البنّاءون في بلاد الشام عدداً من الصروح المعمارية المتميزة ما زال بعضها باقياً لوقتنا الحاضر، كالمساجد الجامعة التي قامت في جميع المدن الشامية، مرتفعة بمآذنها المربعة أو المتعددة الاضلاع، والاضرحة الفخمة ذات الواجهات المتعددة الألوان، والقبة الرقيقة المزينة بالتصاوير، والمدارس والربط والزوايا وقنوات المياه والأسبلة^{٩٧}. واتخذت العناصر المعمارية مظاهر زخرفية مثل المقرنصات كما استخدمت الألواح الرخامية والفسيفساء والمنحوتات الجصية والحجرية^{٩٨}. ونتيجة لنشاط عملية البناء نشطت عملية قطع الحجارة من المحاجر

٩٣- رثيمان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٦٣٥. رمضان، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، ص ١٩٨.

٩٤- بريجز، مارتن، س، «فن العمارة»، ترجمة زكي محمد حسن. في: تراث الاسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، كريستي ارنولد بريجز، ترجمة زكي محمد حسن، دمشق، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م. ص ١٥٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، بريجز، فن العمارة.

٩٥- القاسمي، محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية، ج ١، تحقيق ظافر القاسمي، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٨م. ص ٥١. وسيشار له فيما بعد هكذا، القاسمي، قاموس الصناعات الشامية.

٩٦- Ye'or, The Dhimmi, p. 68.

٩٧- سوفاجية، جان، دمشق الشام، ترجمة أفرام البستاني، تحقيق أكرم العلبي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٦م، ص ٤١. وسيشار له فيما بعد هكذا، سوفاجيه، دمشق الشام.

٩٨- ديماند، م.س، الفنون الاسلامية، ترجمة احمد عيسى، القاهرة، دار المعارف، ط ٣، ١٩٨٢م، ص ١٠٨، ١٠٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، ديماند، الفنون الاسلامية.

الكثيرة التي انتشرت في المناطق الشامية والتي كان يستخرج منها انواع كثيرة من الحجارة والرخام ذات الالوان المختلفة، وقد كان العمال يجدون مشقة في قطع الاحجار لضخامتها^{٩٩}.

هذا وقد رافق البناؤون والحجارون الحملات العسكرية للاشتراك في عمليات الهدم والاحراق ولاستخدامهم في بناء الحصون والمعقل^{١٠٠}.

ب- صناعة الزجاج:

تقدمت صناعة الزجاج في بلاد الشام تقدماً ملحوظاً، وكان للصناع اليهود دور كبير في هذه الصناعة، حيث تخصص بعض يهود الشام في تصنيع الزجاج والاوراني الزجاجية^{١٠١} وكان بأيديهم معظم صناعة الزجاج^{١٠٢}.

فقد احتفظ زجاج صور بشهرته القديمة الراجعة إلى شفافيته غير العادية وتعود هذه الشهرة إلى وجود المواد الأولية كالبوتاس المستخلص من الرماد التي ينتجها البلد نفسه، ثم مهارة صناع الزجاج ومعظمهم تقريباً من اليهود^{١٠٣}. فهذا الإدريسي يشيد بزجاج صور بقوله: «وبها يعمل جيد الزجاج والفخار....»^{١٠٤}. كذلك اشار الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي عند كلامه عن يهود صور بأنه على أيديهم يصنع الزجاج السوري النفيس الشهير بالعالم^{١٠٥}. ويذكر أشتور أن أهالي البندقية الموجودون في صور تعلموا صناعة الاواني الزجاجية الفنية وأعمال التطعيم على يد

٩٩- ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٤، ٥٥. ابن صبرى، الدرة المضيئة، ص ٦٢، ٢٧١. غواتمه، التاريخ الحضاري، ص ١٢٣. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٩٨.

١٠٠- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٩. الغزى، نهر الذهب، ج ١، ص ١٠٩.

١٠١- Goitein, Studies in Islamic History, p. 261.

١٠٢- رنسيان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٤٧٣.

١٠٣- هايد، تاريخ التجارة، ج ١، ص ١٩٠. عبدالخالق، هتاء. الزجاج الاسلامي، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦م. ص ٩١. وسيشار له فيما بعد هكذا، عبدالخالق، الزجاج الاسلامي.

١٠٤- الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٦٥.

١٠٥- التطيلي، الرحلة، ص ٩٢.

الصناع اليهود^{١٠٦}. ولا جدال في أن حلب ودمشق كانتا أهم مراكز صناعة الزجاج في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر الرابع عشر الميلاديين وعدت منتجاتهما في طبيعة ما خلفته تلك الصناعة على الإطلاق^{١٠٧}. ويذكر ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) في وصفه لمدينة دمشق ما نصه: «...وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة...»^{١٠٨}. كما أشاد القزويني (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) بما في أسواق حلب من الاكواب والأواني الزجاجية التي صدرت منها إلى الاقطار الخارجية المختلفة^{١٠٩}.

وزاعت شهرة الأواني الزجاجية بدمشق، خصوصاً في عصر الدولة المملوكية فغمر صناع دمشق أسواق القاهرة بمفاخر إنتاجهم، كما اطلق اسم دمشق على كل ما صدر للبلاد الأوروبية من الأواني الزجاجية المذهبة والمطلية بالمينا^{١١٠}. واكبر مجموعة من التحف المذهبة والمطلية بالمينا في العصر المملوكي هي المصابيح والمشكاوات^{١١١} والزهريات والدلاء والاكواب^{١١٢}.

١٠٦- أشتور، أ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبدالهادي عيلة، مراجعة احمد سيانو، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر، ١٩٨٥م، ص ٤٠٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، أشتور، التاريخ الاقتصادي.

١٠٧- ديماند، الفنون الاسلامية، ص ٢٢٨.

١٠٨- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٨٦.

١٠٩- القزويني، اثار البلاد، ص ١٨٣، ١٨٤.

١١٠- المينا: كلمة فارسية أصلها مينه اي جواهر الزجاج، وهي اكاسيد معدنية تصير بمادة زجاجية وتطلى بها الأواني المعدنية والادوات لاثهار نقوشها وجمال رسومها فهي في المعدن كالقيشاني في الخزف، آل تقي الدين، منتخبات التواريخ، ج ٣، ص ١١٣٥.

١١١- المشكاوات: أغطية مصابيح كانت توضع بداخلها مسارج زيتية مثبتة بأسلاك في حافة الفطاء. وكانت هذه المصابيح تعلق بثلاث سلاسل من الفضة أو النحاس تتصل بمقابض ثابتة في زجاجها. كريستي، أ. هـ تراث الاسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، ترجمة زكي محمد حسن، دمشق، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م، ص ٥٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، كريستي، تراث الاسلام في الفنون الفرعية.

١١٢- ديماند، المرجع السابق، ص ٢٢٨-٢٤٢. كريستي، المرجع السابق، ص ٥٧.

ويوجد في المتحف البريطاني كأس يعود إلى فترة الحكم المملوكي، ويعتقد أنه من صنع أحد الفنانين النصاري لأن عليه رسوماً تمثل العذراء والمسيح والقديسين بطرس وبولس وعليه نقش باللغة اللاتينية^{١١٣}.

وعمل اليهود في صناعة الزجاج في المدن الشامية الأخرى كالخليل^{١١٤} وصيدا^{١١٥} وانطاكية^{١١٦}، كما تعاطى السامرة في نابلس صناعة الزجاج^{١١٧}. هذا وقد كان صناع الزجاج يصدرون ما يصنعونه إلى جهات بعيدة مما درت عليهم أرباحاً طائلة^{١١٨}.

ج- الصياغة والتكفيت:

كان معظم الصياغ من اليهود والنصارى، وكانوا يمتلكون المحلات في أسواق الصاغة في معظم مدن بلاد الشام لعرض ما تم صناعته من المصوغات^{١١٩}، وقد وظف الصياغ مهارتهم في استخدام الذهب والفضة في صنع الحلي والسروج والسيوف والمصاحف المذهبة والملابس الموشاة وغيرها من أدوات الترف والتحف التي رصعت بالأحجار الكريمة، ونقشت عليها زخارف جميلة تنم عن دقة الصنعة وجمال الفن، ورواج صناعة الذهب والفضة وتقدمها^{١٢٠}. فكان أكثر ارتزاقهم من الملوك والسلطين وأهل دولتهم^{١٢١}. كما امتلأت الأديرة والكنائس بالأواني المعدنية النفيسة، وخاصة تلك التي صنعت لاستعمالها في الطقوس الدينية وغالبيتها من الفضيات والمذهبات

١١٣- كريستي، تراث الاسلام في الفنون الفرعية، ص ٥٥.

١١٤- Frescobaldi, Visit to the Holy places, p. 68. Adler, Jewish Travellers, p. 133.

١١٥- حتي، مختصر تاريخ لبنان، ص ١٥٧.

١١٦- التطيلي، الرحلة، ص ٨٧.

١١٧- رنسيمن، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٤٧٣.

١١٨- هايد، تاريخ التجارة، ج ١، ص ١٩٠، رنسيمن، المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٠٣.

١١٩- الغزى، نهر الذهب، ج ١، ص ١٩٠، القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ٢، ص ٢٦٤. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٢٣. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٠٤. خان، تاريخ فلسطين القديم، ص ١٦٣. ترتون، أهل الذمة، ص ٢٢١. يوسف، عبدالدود محمد، «طوائف الحرف والصناعات أو طوائف الاصناف في حماة في القرن السادس عشر»، مجلة الجوليات الأثرية السورية، دمشق، ١٩٦٩م، مج ١٩، ص ٩٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، يوسف، طوائف الحرف والصناعات. Goitein, Studies in Islamic History, p. 261. Shorter Ency ... of Islam, p. 441.

١٢٠- حمن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٩٣. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ١٦٠.

١٢١- رمضان، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، ص ١٠٨. ترتون، أهل الذمة، ص ١٠٠.

التي أسالت لعاب الطامعين في العصرين الأيوبي والملوكي^{١٢٢}.

وبرع النصارى في صناعة تكفيت التحف المعدنية بالذهب والفضة، وذلك بأن تحفر الزخارف على سطح الأنية أو الحلية المراد زخرفتها حفراً عميقاً ثم يملأ هذا الجزء المحفور بالفضة أو الذهب أو المينا أو النحاس الأحمر^{١٢٣}. ومما زاد في نشاط هذه الصناعة هجرة الكثير من صناع التحف المعدنية من الموصل في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي على أثر الغزو المغولي لبغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م^{١٢٤}.

ومن القطع الهامة لدى المشتغلين بدراسة التحف الإسلامية عدد من الأواني ذات الموضوعات الزخرفية المسيحية يحمل بعضها أسماء بعض سلاطين بني أيوب. ومن هذه المجموعة طست من النحاس المكفت بالفضة محفوظ في بروكسل ويملكه دوج أرنبيرج (Arenberg) وعليه اسم الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر والشام ٦٣٨-٦٤٦هـ / ١٢٤٠-١٢٤٩م^{١٢٥}.

كما يوجد بمتحف الفنون الزخرفية في باريس قطعة أخرى ذات موضوعات مسيحية هي شمعدان عليه اسم صانعه داود بن سلامه الموصلية وتاريخ صناعته ٦٤٦هـ/١٢٤٨م. ويضم متحف فريزر للفن بواشنطن إناء من البرونز في غاية الفخامة تزيينه مناظر حياة المسيح وصور القديسين المحاربين إلى جانب الزخارف الأخرى التي نراها على الأواني الإسلامية^{١٢٦}.

وأنتجت بلاد الشام إبان العصر الملوكي روائع فنية من التحف المعدنية والتي بلغت غايتها في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهناك الكثير من هذه التحف المعدنية المكفته تكفيتاً انيقاً بالذهب والفضة تحمل اسم السلطان نفسه أو اسم أحد رجال بلاطه^{١٢٧}.

١٢٢- حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٩٢، شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ١٦٠.

١٢٣- غوانم، التاريخ الحضاري، ص ١١٨، كريستي، تراث الإسلام في الفنون الفرعية، ص ٢٦.

١٢٤- كريستي، المرجع نفسه، ص ٢٦.

١٢٥- ديماند، الفنون الإسلامية، ص ١٥٤.

١٢٦- ديماند، المرجع نفسه، ص ١٥٤.

١٢٧- ديماند، المرجع نفسه، ص ١٥٥، كريستي، المرجع السابق، ص ٣١.

إلا أن صناعة التكفيت بدأت في الاضمحلال منذ أوائل القرن التاسع الهجري
أواخر القرن الرابع عشر الميلادي نتيجة لغارة التتار على بلاد الشام بقيادة
تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م فقد نهب تيمور لنك المدن الشامية، ونقل خيرة من
كان فيها من الفنانين والصناع إلى سمرقند^{١٢٨}.

د - صناعة الحرير:

إشتغل اليهود في الأعمال الحريرية، ابتداء من تفكيك غزله إلى نسجه
وصباغته، وكانت هذه الصناعة متشعبة ذات تخصص عال، وكان اليهود منهمكين
فيها في كل أقطار البحر المتوسط، وربما يرجع السبب وراء مهارة اليهود في صنع
الحرير هو اتصال تجارهم المبكر مع الصين، بالإضافة إلى توفر تربية دودة القز في
البلاد الشامية^{١٢٩}.

وكانت المراكز الرئيسية لصناعة الحرير هي: دمشق، وانطاكية،
وطرابلس، وصور^{١٣٠}، بالإضافة إلى عكا، وبירות، واللاذقية^{١٣١}. كما اشتهرت دمشق
بأنواع الثياب الحريرية النفيسة العجيبة التي كانت تحمل «إلى كل الآفاق
والأمصار»^{١٣٢}، وقد حملت إسمها في العالم الغربي حيث أطلق عليها إسم الدمسك^{١٣٣}،
أو الدمسكي المشتق من (Damascus)^{١٣٤}. وكان التاجر الأوروبي القادم إلى دمشق

١٢٨- أبو الحسن، النجوم الزاهرة، ج١٢، صورة عن طبعة دار الكتاب، القاهرة، وزارة الثقافة
والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ص ٢٤٤-٢٤٥. حتي،
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ٢٩٦. سوفاجيه، دمشق الشام، ص ٤٢، كريستي،
تراث الإسلام في الفنون النوعية، ص ٣٣.

١٢٩- Goitein, Studies in Islamic History, p. 261.

١٣٠- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٩٠، ليونهارت، رحلة المشرق، ص ٢٢.

١٣١- ونسيهان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٠٣.

١٣٢- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٥، ص ٣٦٥.

١٣٣- العبادي، أحمد مختار «الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية»، مجلة عالم الفكر، الكويت،
ابريل -مايو- يونيو، ١٩٨٠م، ج ١١، عدد ١، ص ١٤٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، العبادي،
الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية.

١٣٤- كريستي، تراث الإسلام في الفنون الفرعية، ص ٦١.

يستطيع أن يشتري كميات كبيرة من الحرير وبسرعة تقدر بعدة آلاف من الدوكات.^{١٣٥}

وعندما استولى الصليبيون على انطاكية وجدوا من الغنائم بخلاف الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأواني الفاخرة، سجاجيد وأقمشة من الحرير الخالص^{١٣٦}. واشتغل في طرابلس عدد كبير من الصناع في صناعة نسج الحرير، فالمقريري يذكرون أنه عندما استولى السلطان المنصور قلاوون على طرابلس كان فيها أربعة آلاف نول تعمل بهمة ونشاط^{١٣٧}. كما شاهد الرحالة راوولف ليونهارت الذي زار طرابلس عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م أعداداً كبيرة من صانعي الحرير الذين يصنعون مختلف المطرايات الحريرية وهم يمارسون أعمالهم أمام حوانيتهم. فكان الواحد منهم حين يريد برم خيوط الحرير يمسك بخيطين يربط أحدهما بأحد قدميه، ثم يبدأ ببرمه وهكذا إلى أن ينتهي^{١٣٨}.

ويذكر أن النساء اليهوديات شاركن في صناعة الحرير في جميع مراحله العملية^{١٣٩}.

ولم تكتف الدولة بتشجيع مصانع الحرير التي كانت قائمة، انذاك، بل كانوا ينشئون المصانع الجديدة بحيث ظفروا في فترة وجيزة بمركز هام كانوا به زعماء تجارة الحرير في العصور الوسطى^{١٤٠}.

هـ- صناعة النسيج والبسط:

يأتي الكتان في الجانب الآخر من تجارة اليهود الدولية بالرغم من أنه لم يكن أقل أهمية من الحرير، إلا أنه لم يجتذب اليهود كثيراً، إلا في مراحل تصنيعه العالية النهائية، وكان نسج الكتان على الأقل في مراحله الأولى العمل الرئيسي لسكان البلاد النصارى^{١٤١}.

١٣٥- ليونهارت، رحلة المشرق، ص ٣٢.

١٣٦- هايد، تاريخ التجارة، ج ١، ص ١٩.

١٣٧- المقريري، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٧٤٨. سالم، طرابلس الشام، ص ٢٨٢.

١٣٨- ليونهارت، المصدر السابق، ص ٢٣-٢٤.

١٣٩- Adler, Jewish Travellers, p. 135, The Jewish Ency..., Vol,7, p.132.

١٤٠- كريستي، تراث الاسلام في الفنون الفرعية، ص ٦١.

١٤١- Goitein, Studies in Islamic History, p. 261.

كما اهتم اليهود بنسج القطن والصوف فذكر الرحالة اليهودي إسحق بن شيلو الذي زار فلسطين سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م أن اليهود هناك عملوا بتجارة القطن وكانوا يقومون بنسجه وصبغة بأنفسهم، كما شاهد إثنان من أغنياء اليهود الأسبان لهم مصانع قطن في مدينة الرملة^{١٤٢}. وكان يوجد في حلب معمل كبير لغزل القطن يدور على الماء وكان ابتداء تأسيسه على يد تجار من اليهود في حدود سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م^{١٤٣}. كما اشتهر يهود صفد بصنع المنسوجات الصوفية التي نشطت بقدم المهاجرين الإسبان أثر سقوط غرناطة سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م^{١٤٤}.

وكان من أهم أسباب تقدم النسيج في بلاد الشام كثرة الطلب على المنسوجات الشامية وتوفر خامات النسيج ومستلزماته، فالقطن كانت تكثر زراعته في المنطقة الممتدة بين بيروت ودمشق^{١٤٥}. وزرع القطن في منطقة طبرية^{١٤٦}، كما كان القطن الكثير يحمل من طرابلس^{١٤٧}، وزرع الكتان في سهول فلسطين^{١٤٨}.

ومهر النصارى بصناعة البسط سواء الحريرية أو الصوفية، حيث تركزت صناعة البسط في المناطق التي يكثر فيها النصارى. فاشتهرت الشوبك والكرك بطنائسها ذات الشهرة العالية في العالم الإسلامي. ونالت إعجاب الملوك والسلطين لنفاستها واحكام صنعاتها وجمال مظهرها^{١٤٩}. ففي سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م وفي عهد السلطان برقوق، وصلت اعداد من البسط الكركية إلى مصر لغرض دار العدل بقلعة

Adler, Jewish Travellers, p. 135,138.

١٤٢-

١٤٣- الغزى، نهر الذهب، ج١، ص ١٠٧.

١٤٤- الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليك، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢م، ص ١٤١. وسيشار له فيما بعد هكذا، الطراونة، مملكة صفد.

Frescobaldi, Visit to the Holy Places, P.88 .

١٤٥-

١٤٦- زايد، رحلة دي لابوركير، ص ٣١٨.

١٤٧- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٢٦٤.

١٤٨- رنسيان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٣.

١٤٩- غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ١١٣.

الجبل بالقاهرة^{١٥٠}. كما كانت انطاكية من أهم المراكز الرئيسية في صناعة البسط، فالصليبيون غنموا عند دخولهم إليها الكثير من ذخائرها من بينها البسط والسجاجيد الحريرية الغالية الثمن^{١٥١}، واشتهرت مدينة الرملة بفلسطين بصناعة السجاد، حتى أطلق اسم الرملة على السجاد الذي يصنع فيها حيث تجد في كثير من عقود الزواج التي وجدت في الجينيزه تأخذ العروس ... سجاده رملية^{١٥٢}، وتعتبر أعناك^{١٥٣} الواقعة الى الشمال من الأزرق^{١٥٤} في منطقة شرقي الاردن من أقدم المواقع التي اختلفت بالبسط ذات الرسوم والنقوش الجميلة والمنسوجات التي نسبت إليها^{١٥٥}.

و- صناعة الخمر:

تخصص النصارى واليهود بعصر العنب وبيعه^{١٥٦}، فقد أبيع لهم تناول الخمر وبيعها وشرائها شريطة عدم إظهارها^{١٥٧}. فاشتهرت أرياف بلاد الشام بعصر العنب وصنع الخمر لكثرة ما يزرع بها من كروم^{١٥٨}.

١٥٠- المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، الجمهورية العربية المتحدة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م، ص ٥٣. ابن الصيرفي، نزهة النفوس والبدان، ج ١، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م، ص ١١٤، وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الصيرفي، نزهة النفوس.

١٥١- هايد، تاريخ التجارة، ج ١، ص ١٩٠.

١٥٢-

Goitein, Studies in Islamic History, p. 266.

١٥٣- أعناك: بليدة من نواحي حوران من أعمال دمشق، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ١، ص ٢٢.

١٥٤- الأزرق: بلفظ اللون، ماء في طريق الحاج الشامي حيث تمر به طريق الحجاز وتمر به عن يمينه الطريق المؤدية الى العلا وتبوك. بينما تمر عن يساره طريق تيماء وخيبر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٦٨. البغدادي، صفى الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، مرصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، ج ١، تحقيق علي البجاوي، بيروت دار المعرفة، ١٩٥٤م، ص ٦٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، البغدادي، مرصد الاطلاع، لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص ٢١٦.

١٥٥- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٢. غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ١١٣.

١٥٦- ابو الفلاح، شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٣٠. زايد، رحلة دي لابوركير، ص ٢٠٨.

١٥٧- الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٢٩٤. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ٢، ص ٧٢٧.

١٥٨- الزيات، الديارات النصرانية، ص ٣٢٠.

كما كان الرهبان بالأديرة يعصرون الاعناب من بساتين الكروم الملحقة بها
ويصنعون النبيذ إلى جانب الزبيب، فكان المولعون من المسلمين بالشراب من أهل
الشأن والشعراء يغشون الأديار فيجدون صدوراً رحبة فيشربون ويطربون^{١٥٩}. ودليل
ذلك ما قاله ابن فضل الله العمري بدير الدواكيس الذي بشرقي القدس:

(البسيط)

أنخ بليل على دير الدواكيس وانصت إلى قرع هاتيك النواكيس
وانظر مع الصبح هاتيك الشموس ضحى وخل عنك رباطات النواميس
واسبأ مع الدير خمراً كلها ذهب كيلا نعدك في حزب المفاكيس^{١٦٠}

ولم ينفرد النصارى بعصر الخمر وبيعها بل سبقهم إلى الاتجار بها اليهود،
فكانوا يصنعون الخمر في بيوتهم ودور عبادتهم وبييعونها للرحالة وغيرهم^{١٦١}. إلا
أن الخمر النصرانية ولا سيما معتقات الأديار كانت هي المشهورة حيث تميز خمارو
النصارى باعتصارها وتميزوا بنظافة الأنية وحسن الملابس والاجادة في اختيار
الأشربة وتصنيعها^{١٦٢}.

وفي أحيان كثيرة كانت تفرض بعض القيود على بيع الخمر وتداولها مما كان
بلا شك يترك أثراً كبيراً على صناعته، وفي أحيان أخرى كانت ترفع تلك القيود
ويسمح بتداولها. وبنهاية عهد السلطان صلاح الدين (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) لم تعد هناك
أية رقابة على عصر الخمر وبيعها. ففي دمشق أقبل الملك الأفضل بن صلاح الدين
(ت ٦٢٣هـ/١٢٢٦م) على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته وضمن المزر^{١٦٣} والخمر

١٥٩- آل تقي الدين، منتخبات التواريخ، ج ٢، ص ١٠٥٦، علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٤٤، متر،
الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٤٧، ترتون، أهل الذمة، ص ١٧٠، الزيات، الديارات النصرانية، ص
٣٢.

١٦٠- العمري، مسالك الأبصار، ج ١، باب ٦، ص ٣٤٠.

١٦١- Adler, Jewish Travellers, p. 180. Gucci, Visit to the Holy Places, p. 122.

١٦٢- الزيات، المرجع السابق، ص ٣٢٢.

١٦٣- المزر: وهو الخمر المستخرج من الذرة ينبذ حتى يشتد. ابن تيمية، علاء الدين أبو الحسن علي
بن محمد (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، فتاوي الخمر والمسكرات، تحقيق محمد إبراهيم الحفناوي، طنطا،
دار البشير للثقافة، ١٩٨٨م، ص ١٩. وسيشار له فيما بعد هكذا. ابن تيمية، فتاوي الخمر
والمسكرات.

وكان المتحصل من ذلك من جهة دمشق خاصة مائة ألف دينار لكنه تاب وأزال المنكرات وأراق الخمر^{١٦٤}.

وفي عهد الملك العادل سيف الدين بن أيوب (ت ٦١٥هـ/١٢١٨م) طهر جميع ولايته من الخمر والخواطيء فأبطل الجميع، وأقام رجالاً على جبل قاسيون وجبل الشيخ وحول مدينة دمشق لمراقبة من يدخل دمشق بمنكر، حتى صار الناس يخفون زقاق الخمر داخل الطبول ويدخلون بها دمشق، أو يخرجون للضياع لشربها هناك^{١٦٥}. إلا أنه في عهد المعظم عيسى ابن الملك العادل (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦م) ردّ المكوس والخمر وما كان أبوه أبطله فانتشرت الخمارات والمواخير في عهده وازداد اقبال الناس عليه وقيل أنه ضمن الخمر بدمشق بثلاث مائة ألف دينار^{١٦٦}.

وفي أواخر العصر الأيوبي عاد الاهتمام بانتاج الخمر وزيادة اقبال الناس على معاقرتها ففي عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن الظاهر غازي صاحب دمشق الذي وليها سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كان الناس في هناء وبحبوحة من العيش، لكن مع إدارة الخمر والفاحشة وكان للشعراء دولة في أيامه^{١٦٧}.

وفي العصر المملوكي تعددت مراسيم اراقة الخمر خاصة عند انتشار الطواغين في البلاد فبرسم السلطان للمحتسب بكبس بيوت النصارى واليهود وكل من

١٦٤- سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٥٩٥. المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ١١٨.

١٦٥- سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ق ٢، ص ٥٩٥، أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين. نشره عزت العطار الحسيني، بيروت، دار الجيل، ط ٢، ١٩٧٤م، ص ٨٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، أبو شامة، الذيل على الروضتين. الصغدني، الوافي بالوفيات، ج ٢، تحقيق س. ديد رنغ، فيسبادن، فرانز شتاينر، ط ٢، ١٩٧٤م، ص ٢٣٥.

١٦٦- سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ق ٢، ص ٥٩٧. الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، حيدر آباد، مطبعة المعارف العثمانية، ١٣٢٧هـ/١٩١٨م، ص ٨٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، الذهبي، دول الاسلام، وتاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام من الهجرة الى سنة ٧٠٠هـ أو تاريخ الذهبي، (مخطوط)، ج ٢١، مؤر عن مخطوطة مكتبة بودليان، اكسفورد رقم ٢٠٥ مجموعة لود، ويوجد نسخة عنه على ميكروفيلم في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية رقم ٥٢٧، ورقة ١١٨٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، الذهبي، تاريخ الاسلام.

١٦٧- الذهبي، العبر في خبر من غير، ج ٢، تحقيق أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م، ص ٢٩٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، الذهبي، العبر.

يتعاطاها من المسلمين وبكسر ما عندهم من جرار الخمر^{١٦٨}. ففي بداية عهد السلطان الظاهر بيبرس أمر بإبطال ضمان الحشيش وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمر واراقتها في جميع سائر البلاد المصرية والشامية^{١٦٩}. وقام الشيخ خضر المهراني^{١٧٠}. بكبس بيوت النصاري واليهود في دمشق وإراقة ما عندهم من الخمر حتى كتبوا على أنفسهم بأنه لم يبق عندهم شيء^{١٧١}. وفي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م ضمن الخمر والزنا بدمشق وجعل عليه ديوان ومشد، فاحتج على ذلك جماعة من العلماء والصلحاء فأبطل بعد عشرين يوماً^{١٧٢} وبعد خروج غازان^{١٧٣} سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م ركب قبجق نائبه بالعصائب بالبلد وضمن الخمرات ومواضع الزنا وصار له على ذلك كل

١٦٨- ابن حجر العسقلاني، اتبء الغمر، ج ٨، ص ١٤٠، ١٤٩، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٧٦.

١٦٩- بيبرس الداودار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، (مخطوط)، ج ١٠ ورقة ١٠٥ب، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٦٨، ابو الحسن، النجوم الزاهرة ج ٧، صوره عن طبعة دار الكتب القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م، ص ١٥٤، المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٠٦ والسلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٢، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ٢٢٦.

١٧٠- الشيخ خضر المهراني: هو خضر بن ابي بكر بن موسى العدوي شيخ الظاهر بيبرس كان له مال ونفس مؤثرة مع سفة فيه، تغير عليه السلطان بعد شدة خضوعه له، وعقد له مجلساً ونسب اليه أمور لا تصدر عن مسلم، فأمر السلطان بحبسه الى أن توفي سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م). الصقاعي، فضل الله بن ابي الفخر، (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، تالي كتاب وفيات الاعيان، تحقيق جاكلين سوبله، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٧٤م، ص ٧٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، الصقاعي، تالي كتاب وفيات الاعيان، الذهبي، العبر، ج ٢، ص ٣١٧.

١٧١- الذهبي، تاريخ الاسلام، (مخطوط)، ج ٢١، ورقة ٨ب، ودول الاسلام، ج ٢، ص ١٢٢، والعبر، ج ٣، ص ٣١٧.

١٧٢- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣١١، زيادة، دمشق في عصر المماليك، ص ٢٠.

١٧٣- غازان: هو محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، كان بينه وبين السلطان الناصر عدة وقعات في بلاد الشام آخرها على شقحب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م كسر فيها كسره فاحشة وتوفي سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٤م). ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٩٥، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٤١٨، ٤١٩، غوانمة، التاريخ السياسي لشرقي الاردن، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٨٢، ص ١٤٨-١٥٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، غوانمة، التاريخ السياسي لشرقي الاردن.

يوم ألف درهم نقره^{١٧٤}. وبعد خروجه من البلد خرج الشيخ تقي الدين ابن تيميه وأصحابه على الخمرات فكسروا أواني الخمر وشقوا الظروف وأراقوا الخمر ففرح الناس^{١٧٥}. وفي سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م أبطل الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ٧٠٨-٧٠٩هـ/١٣٠٩-١٣١٠م ضمان الخمر من طرابلس وكذلك الزواني وخربت بيوتهم وكسرت آلاتهم^{١٧٦}. وفي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م كتب إلى دمشق بإبطال المقرر (الضريبة) على الخمر بساحل الشام واراقتها وتعويض الجند عنها^{١٧٧}. وفي سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م أمر النائب بدمشق بإبطال الخمرات وأن أهل الذمة لا يتجاهرون بالخمر، وأن من جلس منهم في حانوت ليشرّب يُحفر له حفيره ليجلس بها^{١٧٨}.

هذا وقد توالى طيلة العصر الأيوبي والمملوكي احتجاجات العلماء والفقهاء على شرب الخمر وتحرّمها ومعارضتها عن طريق مكافحة الخمر ومنع تقطيره والتحرّي على المشتغلين بعصيره^{١٧٩}، وبالرغم من تلك الاحتجاجات وحوادث اراقة الخمر إلا أن هذه الاقطاعات^{١٨٠} بقيت موجودة وبتأييد من بعض السلاطين والحكام،

١٧٤- ابن أبي الفضائل، المفضل، (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٧م)، النهج السديد والدّر الفريد فيما بعد ابن العميد ج ٢، باريس، ١٩٢٠م، ص ٦٦٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن أبي الفضائل، النهج السديد، المقرّبي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٨٩٦.
الدرهم النقرة: وهي الدراهم التي تكون ثلثها من الفضة والثلث من النحاس. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٠٩.

١٧٥- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٢، المقرّبي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٩٠.

١٧٦- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٢٩.

١٧٧- المقرّبي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٥٢.

١٧٨- ابن طولون الصالح، مفاكهة الخلان، ج ١، ص ٢٨٨، واعلام الوري، ص ٨٨.

١٧٩- ابن الأخره، معالم القربة، ص ١٩.

١٨٠- إقطاعات مكوس الخمر: تجاوزت المعاليك حدود الشرع الاسلامي، وإقطعوا المكوس والضرائب التي وجدت أساساً لتصرف لصالح الدولة، والمكوس التي كانت تقطع متعددة وشملت أحياناً جميع الضرائب في الدولة ومن هذه المكوس، مكس ضمان المزر ولم تقتصر هذه الضريبة على المزر وإنما فرضت على جميع أنواع الخمر. ضومط، انطون خليل، الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٠م، ص ١٠٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، ضومط، الدولة المملوكية.

فكان مجموع الضرائب التي تفرض عليها تدفع سنوياً للدولة^{١٨١}. وقد أشار إلى تلك الضريبة الرباني عبيدا الذي زار فلسطين سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م أنه كان يفرض على اليهودي الذي يصنع الخمرة ويتاجر بها مبلغ خمسين دوكة كغرامة تاديبية^{١٨٢}.

هذا وقد مهر أهل الذمة في صناعات أخرى نذكر منها: فن التصوير الذي أبدعوا فيه فزوقوا الحوائط والجدران بالزخارف والنقوش^{١٨٣}، والصناعات الخشبية الثقيلة منها والخفيفة^{١٨٤}، وصناعة الزيت والصابون^{١٨٥}، وصناعة الشمع والعسل^{١٨٦}. كما تخصص اليهود في أعمال الدباغة والصباغة^{١٨٧}، وفي صنع صناعات دقيقة مثل السروج والصناديق الخشبية وأقفال الأبواب والسكاكين والامواس والإبر وعصا الكحل^{١٨٨} وصنع الأحذية^{١٨٩}.

١٨١- لا بيدوس، ايرا، مدن اسلامية في عهد الماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، الاهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص ٢٨٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، لا بيدوس، مدن اسلامية.

١٨٢- Adler, Jewish Travellers, p. 134

١٨٣- حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٢٢.

١٨٤- السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٩٩. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ١٥٨. ديماند، الفنون الاسلامية، ص ١٢٢.

١٨٥- الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ١٠٧. آل تقي الدين، منتخبات التواريخ، ج ٣، ص ١١٤٢. السيد، المرجع السابق، ص ١٩٩. طريف، جورج فريد، مدينة حلب في العصر المملوكي. رسالة ماجستير باشراف دكتور نقولا زيادة، عمان الجامعة الاردنية، ١٩٧٧م، ص ١٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، طريف، مدينة حلب في العصر المملوكي.

١٨٦- السيد، المرجع السابق، ص ١٩٩. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ٤٦٢، ٤٦٥. القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ١، ص ١١٠.

١٨٧- التطيلي، الرحلة، ص ٩٩. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ١٢٣. لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص ٣٩. ونسيمن، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٤٧٣. جوستاف، حضارة الاسلام، ص ٢٢٤.

١٨٨- Goitein, Studies in Islamic History, pp. 257-258.

١٨٩- زيادة، رواد الشرق العربي، ص ١١. Adler, Jewish Travellers, p. 135. Ma'oz Mosh, Studies on Palestine During Ottoman Period, Jerusalem: The Magnes Press, 1975. pp. 107-108.

وسيشار له فيما بعد هكذا. Ma'oz, Studies on Palestine During Ottoman Period

(٣)

النشاط التجاري

١- التجارة الداخلية:

كان لأهل الذمة في بلاد الشام دورهم في التجارة الداخلية والخارجية طيلة العصورين الأيوبي والملوكي، حيث مارسوا مهنة التجارة بحرية تامة لتمتعهم بسياسة التسامح الديني من قبل ملوك وسلاطين الدولتين^{١٩٠}. فضلاً عن اهتمام الحكام بتنشيط التجارة عن طريق انشاء الوكالات^{١٩١} والفنادق والقياسر^{١٩٢} والخانات وتأمين طرق المواصلات والاهتمام بأحوال المدن والأسواق والموانئ وعقد الهدن مع الفرنج^{١٩٣}.

Goitein, Studies in Islamic History, p. 266, Ziadeh, Urban Life, p. 99.

-١٩٠-

١٩١- الوكالة: اقيمت الوكالات في معظم المدن الهامة في مصر والشام لخدمة (التجارة الخارجية). وأطلق عليها في دمشق (دار الطعم) ويتولاها شخص يدعى (شاد دار الطعم) يقوم بجبي المكوس من التجار ولايتها من النائب. وسميت مخزن التجار. فالتاجر الذي لا يصحب تجارته ولم يرتبط بصديق تاجر يقوم بأعماله، عليه خزن بضاعته لدى وكيل يهتم بتسويقها، فالوظيفة المزدوجة الخزن والتسويق هي من اختصاص دار الوكالة. وان حدث وامتلك الوكيل دار خاصة به فيطلق عليه (صاحب دار الوكالة). القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ١٩٣. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ٩٢.

١٩٢- القياسر أو القيساريات: أبنية تقوم بمهمة الأسواق، ويبدو أنها محرفة من الكلمة اللاتينية Caesarica أو Cesarie وظهرت في بلاد الشام قبل مصر وهي لا تختلف في وظيفتها عن الفنادق والخانات، وبها حوانيت تؤجر للتجار، وتقوم بجانب مهمة البيع والشراء بمهمة نزل وإقامة التجار وخزن بضائعهم وحفظ أموالهم. أما البيع فيها فيكون بالجملة والتجزئة معاً. ويبنى فوق هذه المؤسسات رباح، فيها عدة مساكن تؤجر لطوائف معينة من التجار أو لسكنى العامة. غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ٨٣، هامش رقم (١٩).

١٩٣- شقير، نعوم، تاريخ سيناء، مصر، د.ن، ١٩٦٦م، ص ٢٥٨. وسيشار له فيما بعد هكذا. شقير، تاريخ سيناء، غوانمة، دراسات، ص ٢٣٧. والتاريخ الحضاري، ص ٩٤. لبيدوس، مدن اسلامية، ص ٤٥.

وخير شاهد على أحوال التجارة في العصر الأيوبي ما رواه الرحالة ابن حبير عندما زار بلاد الشام في عهد السلطان صلاح الدين حيث قال: «... وأهل الحرب مشغولون بحربهم والناس في عافية... ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلباً وحرباً...»^{١٩٤}. ويحدثنا ابن واصل عن أحوال التجارة أيضاً بقوله: «... وكان أرناط صاحب الكرك قد هادن السلطان وسأله فأمنت الطريق بين مصر والشام... وتواصلت القفول حتى كان يمكن الذهاب والجاي...»^{١٩٥}. ونتيجة لهذا الأمن ترددت القوافل بين مصر والشام^{١٩٦}. وقد استمر هذا الأمان في العصر المملوكي حيث جاء في كتاب المقرئزي الخطط عند ذكره الطريق بين مصر والشام «... كانت الطرق إلى الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا أن المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء...»^{١٩٧}. وهكذا نشطت التجارة الداخلية وأسهم فيها المسلمون والنصارى واليهود على السواء^{١٩٨}، فكانت محلاتهم في الأسواق إلى جانب محلات المسلمين، حيث نستدل على ذلك من الكثير من الحوادث اليومية فقد جاء في كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون الصالحي المتوفي سنة (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) أن شيخ سوق الجوخيين^{١٩٩} عزز بعض أهل الذمة لتدليسهم في بيع الجوخ^{٢٠٠}. ويذكر في مكان آخر عن هجوم الحرامية على سوق

١٩٤- ابن حبير، الرحلة، ص ١٦٠.

١٩٥- ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٢، ص ١٨٥.

١٩٦- ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٤٢.

١٩٧- المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٢٥. شقير، تاريخ سيناء، ص ٢٥٨. غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ٩٤.

١٩٨- رنسيمن، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٧٢١.

١٩٩- سوق الجوخيين: سميت الأسواق في بلاد الشام نسبة إلى ما يباع فيها أو إلى من أسسها. فسوق الجوخيين هو السوق الذي يباع فيه أقمشة الجوخ، العلبي، ج ١، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص ٢٥١. نعيسة، يوسف، مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١١٨٦-١٢٥٦هـ/١٧٧٢-١٨٤٠م. ج ١، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٦م. ص ١٠٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، نعيسة، مجتمع مدينة دمشق.

٢٠٠- ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان، ج ١، ص ١٠٠. العلبي، المرجع السابق، ص ٢٥١.

جقمق^{٢٠١} وأخذهم سبع حوانيس للنصارى وغيرهم، ثم هجومهم على سوق البزورية^{٢٠٢} حيث أخذوا حانوتاً لمسلم.. وآخر إلى جنبه لنصراني^{٢٠٣}. وكان تجار أهل الذمة يسافرون ويتنقلون مع التجار المسلمين^{٢٠٤}، فكان التجار النصارى يرافقون ركب الحجاج إلى بلاد الحجاز إلا أنه لم يكن يسمح لهم بمصاحبة الحجيج إلى أبعد من مدينة العلا^{٢٠٥} التي كانوا يبايعون بها الحجاج الزاد وغيره^{٢٠٦}.

ونلاحظ تجمع أهل الذمة في المدن ذات المواقع التجارية الحساسة، فغالبية سكان الكرك والشوبك كانوا من النصارى^{٢٠٧}. وكان لهاتين المنطقتين في العصرين الأيوبي والملوكي أهمية تجارية فكانت نيابة الكرك حلقة الوصل ما بين مصر وبلاد الشام، حتى كانت تسمى الباب الشرقي لمصر. كما كانت تصل بين بلاد الشام وبلاد الحجاز وجنوب الجزيرة العربية^{٢٠٨}. بالإضافة إلى أن هذه المنطقة كانت الطريق الطبيعي لسير القوافل القادمة من الجزيرة العربية إلى سواحل الشام محملة بأطياب الهند والصين واليمن والحبشة والتي كانت تجد سوقاً نافقة في الغرب الأوروبي^{٢٠٩}. أما مدينة دمشق فكانت المستودع الكبير الذي ترد إليه

٢٠١- سوق جقمق: نسبة إلى السلطان الملوكي الظاهر سيف الدين جقمق الذي حكم من سنة ٨٤٣-٨٥٦هـ/١٤٣٨-١٤٥٢م، وبيع فيه الثياب والبز. العليبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص ٢٥١، نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ١٠٧.

٢٠٢- سوق البزورية: هو السوق الذي يباع فيه النباتات العطرية والمكسرات. العليبي، المرجع السابق، ص ٢٥٠، نعيسة، المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٧.

٢٠٣- ابن طولون الصالح، مفاكهة الخلان، ج ١، ص ٦٨.

٢٠٤- كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ١٠٢.

٢٠٥- العلا: يضم أوله والقصر وهو جمع العليا، وهو اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٤.

٢٠٦- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ١٠٨، غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ٨٧.

٢٠٧- ابن الغداء، تقويم البلدان، ص ٢٤٧، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٦.

٢٠٨- غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٦٢-٦٧، البخيت، محمد عدنان، مملكة الكرك في العصر الملوكي، د.م، د.ن، ١٩٦٧م، ص ٨٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، البخيت، مملكة الكرك.

٢٠٩- زيادة، نقولا، الجغرافيا والرحلات عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٢م، ص ٢٦٥، ٢٧١. وسيشار له فيما بعد هكذا، زيادة، الجغرافيا والرحلات.

منتجات الشرق كله بكميات هائلة^{٢١٠}، فكانت مركزاً تجارياً هاماً، وملتقى التجار من جميع الأفاق يحملون تجارتهم على ظهور الجمال والخيول فيأتي إليها التجار من الهند وفارس وأرمينية ومناطق أخرى^{٢١١}. وكان بها عدد كبير من التجار الأجانب^{٢١٢}. وأسواقها عامرة بجميع أنواع السلع المحلية والمنتجات الشرقية وهي من أحفل أسواق البلاد وأحسنها^{٢١٣}. وكان فيها أكبر تجمع لليهود حين زارها الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي ما بين ٥٦١-٥٦٩هـ/١١٦٥-١١٧٣م حيث وجد فيها ثلاثة آلاف يهودي^{٢١٤}. وكان معظمهم من التجار الكبار^{٢١٥}، كما كان فيها أعداد كثيرة من النصارى^{٢١٦}. أما أنطاكية فكانت من أهم مدن شمال بلاد الشام لأنها كانت واقعة على الطريق البري الكبير الممتد من الجزيرة الفراتية إلى ساحل البحر المتوسط، فكانت بضائع الشرق يتم نقلها إلى أوروبا من أنطاكية^{٢١٧}. وكان معظم سكان أنطاكية من النصارى اليونان والأرمن والسريان والارثوذكس وفئة قليلة من النساطرة^{٢١٨}، وبقيت مدينة أنطاكية مدينة تجارية حتى بعد أن تم فتحها على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، حيث أقيمت الأسواق بظاهرها وقصدها التجار من كل جهة^{٢١٩}. فحين زارها ابن بطوطة المتوفى سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) وجدها تزخر بعدد كبير من السكان كثيرة العمائر^{٢٢٠}.

٢١٠- هايد، تاريخ التجارة، ج ١، ص ١٨٤.

٢١١-

Maudeville, The Book, p. 190.

٢١٢- زايد، رحلة دي لا بوركير، ص ٣١٥.

٢١٣- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٦١. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٧٩، ٨٦.

٢١٤- التطيلي، الرحلة، ص ١١٢، غوانمة دراسات، ص ٢٤٢.

٢١٥-

Adler, Jewish Travellers, p. 245.

٢١٦-

Gucci, Visit to the Holy Places, p. 142.

٢١٧- رنسيهان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٦١١. Ziadeh, Urban Life, p. 46.

٢١٨- رنسيهان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٣.

٢١٩- ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبدالله بن رشيد الدين، (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، الرياض، د.ن، ١٩٧٦م، ص ٣٢٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر.

٢٢٠- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٦٩.

وفي أواخر العصر المملوكي تركز اليهود في مدينة صفد وأصبحت المركز الجديد للنشاط التجاري حيث يروي لنا طالب أيطالي سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م. أن صفار تجار اليهود في صفد كانوا يكسبون خمسة وعشرين دوكة في السنة، أي أنهم كانوا في بحبوحة من العيش^{٢٢١}. ونستطيع أن نتعرف على نشاطهم التجاري داخل المدينة من خلال ما كتبه موسى باسولا وهو ايطالي أيضاً سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٢م عن نمو التجارة في صفد فقال: «تجد هناك محلات كثيرة للملابس الصوفية والحريرية ومحلات البهارات بجميع فروعها تعود ملكيتها إلى اليهود، يحضرون الحرير والبهارات من دمشق ويبيعونه في المدينة، وبالسفن الشراعية يذهبون إلى بيروت لشراء الملابس وأشياء أخرى، وهناك أيضاً باعة يهود يتجولون في القرى لبيع الحرير وبضائع أخرى، ويشتررون القطن والخيوط والشمع عندما تكون الأسعار رخيصة ويبيعونها في الوقت المناسب، وهناك أيضاً يهود في الأسواق يبيعون الفواكه والخضار والزيت والحب وأشياء أخرى تجارية، وبشكل عام فالمنطقة تجارية أكثر من إيطاليا...»^{٢٢٢}، كما أشار إلى تعامل اليهود مع الاسماعيليين وحسن علاقاتهم فيما بينهم^{٢٢٣}.

وكان تجار أهل الذمة ينشطون في المواسم والأعياد تبعاً لنشاط التجارة في البلاد فقد أشارت المصادر التاريخية إلى قيام الأسواق الكبيرة وازدياد حركة البيع حول كثير من الكنائس والديارات في المناسبات الدينية والأعياد. ومن تلك الأسواق ما كان يرتبط بقدم الحجاج النصارى إلى مدينة القدس في المناسبات الدينية^{٢٢٤}. فكان يقام في الفناء الكبير أمام الباب الرئيسي لكنيسة القيامة سوق موسمي تباع فيه الحلي والمسابح والصور الخاصة بالقدسيين والتحف الشرقية، وقد زار الرحالة بيرو طاقور مدينة القدس سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م وحدثنا عن ذلك بقوله: «أن المسيحيين المحليين وبخاصة الروم كانوا يقومون بدخول الكنيسة ويبيعون الأطعمة للحجاج المسيحيين وكان يسمح لكثير من المسلمين والمسيحيين بدخول الكنيسة بعد إنهاء القداس لعرض بضائعهم على الحجاج كي يشتروا منهم بعض الهدايا والتحف

٢٢١- العليبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص ٢٧٣.

٢٢٢- Ma'oz, Studies on Palestine During Ottoman Period, p. 108.

٢٢٣- Ma'oz, Ibid p. 108.

٢٢٤- غوانمة، دراسات، ص ٢٢٥. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٠٨.

الشرقية»^{٢٢٥}. ويذكر الرحالة فيلكس فابري الذي زار فلسطين سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م عن هذه الأسواق ما يلي: «... عند وصولنا إلى مدينة يافا جاءنا تجار من الرملة والقدس ومعهم بضائع معطرة، وأقاموا هناك سوقاً ... وكانوا يحملون ماء ورد في قوارير ثمينة جاؤوا به من دمشق ... وكان البعض يحمل البلسم والمسك والصابون والحجارة الكريمة وقماش المسلمين الأبيض ... وفي القدس جاءنا الباعة من المسلمين والمسيحيين واليهود يحملون الخبز والطعام والماء...»^{٢٢٦} ومن المؤكد أنه كان يقام مثل هذه الأسواق في معظم كنائس وديارات بلاد الشام أيام المواسم والاحتفالات فيذكر ياقوت الحموي: «في جبل الطور المشرف على ظنبرية بيعة واسعة محكمة البناء موثقة الأرجاء يجتمع في كل عام بحضرتها سوق»^{٢٢٧}. وفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١م احترق سوق كنيسة مريم بدمشق من أوله إلى آخره وراح للناس فيه شيء كثير^{٢٢٨}.

وبالنسبة إلى أنواع التجارات التي اشتغل بها أهل الذمة، فإنهم عملوا في جميع أنواع التجارات المختلفة، إلا أننا نلاحظ وجود تجارات معينة تركزت في أيديهم، فقد سيطر تجار أهل الذمة على بيع السلع الثمينة كالجواهرات والمصوغات والرياش الثمينة والثياب الفاخرة^{٢٢٩}، وكانت تجارة الحرير سواء كان خاماً أو مصنوعاً من أهم نشاط سلع اليهود التجاري، وكانت الاقمشة المصبوغة تأتي على رأس قوائم السلع التي يتاجر بها اليهود^{٢٣٠}. واشتغل تجار أهل الذمة بتجارة الخمر وبيع المسكرات وكانوا هم الذين يسيطرون على صناعاتها وتجارها في الأرياف والمدن لأن بيع

٢٢٥- طافور، خوان دياز، (المتوفى حوالي سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٤م)، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، مصر، دار المعارف، ١٩٦٨م، ص ٤٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، طافور، الرحلة.

٢٢٦- زيادة، فيلكس فابري في فلسطين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، (فلسطين)، مج ٢، عمان، مطابع الجمعية العلمية الملكية، ١٩٨٢م، ص ١٩٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، زيادة، فيلكس فابري في فلسطين.

٢٢٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٧.

٢٢٨- ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١٧.

٢٢٩- رمضان، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، ص ١٠٦.

Goitein, Studies in Islamic History, p. 261.

-٢٣-

المسكرات كان محرماً على المسلمين بحكم الشريعة الإسلامية^{٢٣١}. وقد مهر اليهود في تجارة الرقيق فوجدوا دائماً في أسواق الرقيق في مدن البلاد الشامية^{٢٣٢}. ويذكر أن المسلمين تحللوا من الأفلات من حرمة الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان تاركين لليهود والنصارى هذا العمل^{٢٣٣}. واشتغل اليهود في بلاد الشام في الاتجار بالعملة وأعمال الصيرفة، ولقي عملهم في الفضة والذهب وفي دور سك النقود ترحيباً من الحكام والسلطين^{٢٣٤}. وقام الصيارفة والوكلاء في هذه الفترة مقام البنوك في كثير من الأعمال^{٢٣٥}، وبسبب ثرائهم أصبح لهم عند الحكام نفوذ وكلمة حتى كان الناس يرددون ما قاله الشاعر:

(المنسرح)

يَهُودُ هَذَا الزَّمَانِ قَدْ بَلَّغُوا	غَايَةَ أَمَالِهِمْ وَقَدُّ مَلَكُوا
الْمَالُ فِيهِمْ وَالْجَاهُ عِنْدَهُمْ	وَمِنْهُمْ الْمُسْتَشَارُ وَالْمَلِكُ
يَا أَهْلَ ذَا الْعَصْرِ قَدْ نَصَحْتُ لَكُمْ	تَهُودُوا فَقَدْ تَهَوَّدَ الْفَلَكُ ^{٢٣٦}

كما لعب الصيارفة دوراً حاسماً في تنفيذ السياسة المملوكية وعلى عاتقهم كانت تقع المسؤولية في تعيين النسب المتعلقة بالأسعار، وفي توزيع وجمع الأموال القديمة والحديثة بطرق سلسلة^{٢٣٧}، وتمكن نفر منهم أن يتقلد مناصب إدارية في الدولة نذكر منهم تاج الدين عبدالرزاق بن أبي الفرج الأرمني الذي أصبح حاكم قطية^{٢٣٨}.

-
- ٢٣١- شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ١٨٢.
Adler, Jewish Travellers, p. 147.
- ٢٣٢- نعيسة، يهود دمشق، ص ٢٦.
- ٢٣٣- متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٥٨.
- ٢٣٤- Goitein, Studies in Islamic History, p. 262.
- ٢٣٥- متز، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٢٢. ليونهارت، رحلة المشرق، ص ٣١.
- ٢٣٦- المغربي، عبدالقادر، «يهود الشام»، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٢٩م، ص ٩، ج ١١، ص ٦١٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، المغربي، يهود الشام.
- ٢٣٧- لابيدوس، مدن إسلامية، ص ٢٠٢.
- ٢٣٨- قطية: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما، وكانت المركز المصري على الحدود الشامية. باقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٧٨. لابيدوس، مدن إسلامية، ص ٢٠٢.

بعد ان عمل صرافاً فيها وظل يترقى في مراكز متعددة حتى اصبح حاكماً^{٢٣٩}. ولكي تتوثق روابط الصداقة بين السلطان وبين كبار الصيارفة، صاروا لا يدعون سلطاناً يدخل الشام أو والياً حتى يكونوا في استقباله، ففي سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م مر السلطان الأشرف قانصوه الغوري ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥١٦م بدمشق فنثر عليه معلم دار الضرب فيها صدقة اليهودي دراهم فضة جديدة اصطنعها لذلك^{٢٤٠}.

وكان للصيارفة وعمال الضرب طرق مختلفة في التلاعب بالعملة والحصول على أكبر قسط من الأرباح، فكان الصيارفة يسحبون من النقود المتداولة شيئاً من فضتها وذهبها وذلك ببردها بالمبرد أو القطع منها. فاخترع عمال الضرب طريقة لوقايتها وحفظها من السرقة فجعلوا حولها على دواثرها زنجيراً منمنماً فإذا سرق منه شيء من طرف النقود بالمبرد أو القطع انثلم النقد وعرف الناقص من غير الناقص من الدنانير، إلا ان الصيارفة أضافوا حيلة جديدة، إذ كانوا يغطسون نقود الذهب والفضة بمحاليل كيماوية ثم يأخذون ما انحل منها في الماء دون أن يظهر على النقود نقص أو برد^{٢٤١}. وفي أحيان أخرى يكون التلاعب من قبل عمال الضرب والصيارفة معاً وذلك عن طريق التلاعب في اوزان الفضة والذهب على اختلاف اشكالها، فكان معلم دار الضرب بدمشق يعقوب اليهودي، قد استباح أموال المسلمين فكان النصف ينكشف في ليلته ويصير في جملة الفلوس الحمر^{٢٤٢} واستمر الغش في معاملته طيلة مدة السلطان قانصوه الغوري إلى ان مات^{٢٤٣}. ومما قاله ابن طولون عنه: «إنه عدو الله وعدو المسلمين الذي أهلك النقدين...»^{٢٤٤}.

هذا وقد قدم كبار تجار أهل الذمة المعونات للسلطين عند احتياجهم إلى ذلك، فيخبرنا ابن الفرات انه في سنة ٧٩١هـ/١٢٨٨م، قدم تاجر نصراني من الشوبك ومد

٢٣٩- المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٢٦، لابيدوس، مدن اسلامية، ص ٢٠٢.

٢٤٠- ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان، ج ٢، ص ١٦، المغربي، يهود الشام، ص ٦٥.

٢٤١- المغربي، المرجع نفسه، ص ٦٥.

٢٤٢- الفلوس الحمر: وهي من النحاس الأحمر أو الأصفر ويعبر عنها بالعتق كل رطل منها بدرهم ونصف. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥١١.

٢٤٣- ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٨٩.

٢٤٤- ابن طولون الصالحي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥. العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص ٨٨.

يد المساعدة للسلطان برقوق ٧٨٤هـ-٨٠١هـ/١٢٨٢-١٢٩٨م وفي ذلك يقول: «...وحضر ايضاً إلى خدمة الملك الظاهر برقوق تاجر من نصارى الشوبك واجتمع بالملك الظاهر برقوق وقال له: عندي مائة الف دينار اعطيها لمولانا السلطان يفرقها على العسكر والجيوش ان احتاج اليها واذا فرغت واحتاجوا إلى غيرها أحضره وأنا وجميع مالي وأولادي يداً لمولانا السلطان...»^{٢٤٥}. وفي الجانب الآخر نرى ان بعض تجار أهل الذمة كانوا عوناً للفرنجة على المسلمين فقد احتال التاجر النصراني العفيف موسى الشوبكي في أيام دولة الملك المنصور قلاوون بتردده على عكا صادراً ووارداً إلى أن نقل إلى عكا كمية كبيرة من غلال السلطان وغلال بعض الأمراء، وكان ذلك اعانة منه إلى الفرنج^{٢٤٦}.

ومن الجدير بالذكر ان تصرفات أهل الذمة القانونية من بيع وشراء ورهن ودين كانت تتم امام احد القضاة المسلمين وكان الشهود في بعض الأحيان من المسلمين وفي أحيان أخرى كانوا من أهل الذمة^{٢٤٧}. وفي حالة إخلال احد بشروط البيع والشراء كان يمنع من ممارسة المهنة، ففي وثيقة بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى ٧٩٦هـ/٣٠ آذار (مارس) ١٣٩٣م منع ثلاثة من قصابين اليهود في القدس بعدم ذبح ذبائح للمسلمين لاخلالهم بشروط الذبح^{٢٤٨}.

٢٤٥- ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٩، ق ١، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، المطبعة الاميركانية، ١٩٣٦م، ص ١٤٠. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص ١٤٢. البخيت، مملكة الكرك، ص ٢٨.

٢٤٦- ابن الواسطي، غازي، (ت في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)، الرد على أهل الذمة، نشر في:

Journal of the American Oriental Society, vol, 41, U.S.A. Yal University press, 1921. p. 412.
وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الواسطي، الرد على أهل الذمة.

٢٤٧- ابراهيم، عبداللطيف، «من وثائق دير سانت كاترين: ثلاث وثائق فقهية»، مجلة آداب جامعة القاهرة، ايار (مايو) ١٩٦٣م، مج ٢٥، ج ١، ص ٩٧-١٠٠، وثيقة رقم (٢٧٧) تاريخ، جمادى الآخرة ٨٦٧هـ/٢٥ كانون اول (ديسمبر) ١٤٦٢م. وثيقة رقم (٢٠٦) تاريخ ٢٧ جمادى الآخرة ٨٦٥هـ/١١ شباط (فبراير) ١٤٦٠م. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابراهيم، ثلاث وثائق فقهية.

٢٤٨- المسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج ٢، ص ٧٨. وثيقة أشهاد رقم (٦٣٦). وصالحية، محمد عيسى، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت، الحولية السادسة. الكويت، ١٩٨٥م، ص ٧٧-٧٩. وثيقة رقم (٦٣٦). وسيشار له فيما بعد هكذا، صالحية، حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت.

ب- التجارة الخارجية:

كان لتجار أهل الذمة دورهم في مجال التجارة الخارجية في بلاد الشام وخصوصاً في العصرين الأيوبي والملوكي، فقد امتلك تجارهم المقومات والأسس التي تساعدهم على الاشتغال بالتجارة الدولية، فتوفر لديهم رأس المال الوفير، ومهروا في أعمال الاقتصاد وأصول التجارة وفنون الحساب، وتعدد اللغات الأوروبية^{٢٤٩}. وتشير وثائق الجنيزة إلى أن اليهود امتلكوا سفناً وسافروا بها، وكانوا يرسلون الحمولة بسفن تعود ملكيتها لليهود^{٢٥٠}. وقد أكد هذه الحقيقة الرحالة بنيامين التطيلي عند كلامه عن يهود صور بأنهم كانوا يمتلكون السفن التي تجوب البحار^{٢٥١}.

وتشير المصادر إلى أن ملوك وسلاطين الدولتين الأيوبية والملوكية شجعوا التجارة الخارجية عن طريق عقد الهدن والاتفاقيات التجارية مع الممالك الصليبية والدول الغربية^{٢٥٢}. وبعد طرد الصليبيين من البلاد، استمرت حركة التجارة الخارجية على الرغم من قيام البابوية بالدعوة إلى تحريم الاتجار مع السلطنة الملوكية وتوقيع عقوبة الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف أمرها^{٢٥٣}. فقد بادر بعض التجار الغربيين وبخاصة من المدن الإيطالية إلى تحسين علاقاتهم مع سلاطين الدولة الملوكية. فوقع البنادقة والجنويون اتفاقيات تجارية لاستمرار التبادل التجاري مع كل منهما^{٢٥٤}. ومع استقرار النظام الملوكي وعودة الصلات التجارية مع الغرب تزايدت أعداد هؤلاء التجار الأوروبيين في الموانئ والمدن الداخلية الشامية

٢٤٩- الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ٢٠٤. ليونهارت، رحلة المشرق، ص ٣١.

٢٥٠- Goitein, Jews and Arabs their Contacts Through the Ages, New York: Schocken Books, Inc, 5th

printing, 1970, p. 107.

وسبشار له فيما بعد هكذا، Goitein, Jews and Arabs Their Contacts

٢٥١- التطيلي، الرحلة، ص ١١٣.

٢٥٢- ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٨، ٢٨٣، ٢٧٩. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤٧،

٥٠، ٥٦، ٧٨، ٨٦. و ج ٨، ص ١٢٧. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥١٣.

٢٥٣- أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٨٧.

٢٥٤- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٧٥. (نسخة هدنة عقدت بين الملك الأشرف خليل بن الملك

المنصور وحاكم أرغون سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م، و صبح الأعشى، ج ٨، ص ١٢٧. (نسخة كتاب وارد من

دوج البنادقة ميكائيل سنة ٨١٤هـ/١٤١١م إلى السلطان فرج بن برقوق. أشتور، المرجع

السابق، ص ٣٩٣.

وكانت لهم خانات ووكالات وقناصل لرعاية شؤونهم التجارية^{٢٥٥}. وهكذا نشط دور تجار الجملة من المسلمين واليهود والنصارى، فصاروا يجوبون أنحاء العالم^{٢٥٦}. ويلاحظ الدور الكبير الذي كان لليهود في التجارة الخارجية لا سيما بين البلاد الإسلامية والبلاد الأوروبية حيث استقرت جاليات يهودية منذ قرون عديدة على امتداد الطرق التجارية في غرب أوروبا (الاشكنازيون)، والذين إنتشر أسلافهم على حوض البحر المتوسط أثناء العصور الوسطى، وظلوا على اتصال مستمر بأخوانهم في الدين في بيزنطة والبلاد العربية^{٢٥٧}. وقد انخرط قسم من تجار اليهود في تجارة الشرق ومارسوا تجارة التوابل في اليمن ومصر وبلاد الشام^{٢٥٨}. نذكر من هؤلاء التجار اليهود، الطبيب يوسف بن يحيى بن اسحق السبتي المغربي (ت ١٢٢٦/٦٢٣م) الذي كان طبيباً في فاس بالمغرب، وعندما ألزم اليهود بالاسلام أو الجلاء، كتم دينه وارتحل بماله إلى مصر، ومن ثم إلى الشام ونزل بحلب، وأقام فيها مدة ثم سافر عن حلب تاجراً إلى العراق، ودخل الهند وعاد سالماً بعد أن أثرى ثراءً كبيراً^{٢٥٩}. وعز الدين عبدالعزيز منصور الكولي توفي في الاسكندرية (سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م). كان أبوه يهودياً من حلب يعرف بالحموي، فأسلم وسافر ابنه عبدالعزيز بماله، وهو نحو خمسمائة الف درهم إلى بغداد، وعبر الهند ثم قدم مصر سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م ببضاعة قيمتها اربعمائة الف دينار^{٢٦٠}. وقام نصارى الشام أيضاً بدور هام في مجال التجارة الخارجية، مما در عليهم الارباح الطائلة، وقد اشار إلى ذلك ابن العبري، انه خرجت في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م قافلة كبيرة من التجار النصارى إلى بلاد الروم فوثب عليها ثلاثمائة فارس من التركمان واجهزوا على ثمانية من

٢٥٥- العلمي، الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٥٢. زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٢٠، غوانمه، دراسات، ص ٢٣٦. الطراونة، مملكة صفد، ص ١٧٦. زايد، رحلة دي لا بوركيير، ص ٣١٢.

Ye'or, The Dhimmis, p.80

٢٥٦- هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٤٠.

٢٥٧- رنسيهان، الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٠٧.

٢٥٨- اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٩٢. Adler, Jewish Travellers, p. 86.

٢٥٩- ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ٢٥٦-٢٥٧. ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٤٢-٢٤٣. ولفنسون، اسرائيل، موسى بن ميمون-حياته ومصنفاته، القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، ص ١١-١٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، ولفنسون، موسى بن ميمون.

٢٦٠- الذهبي، ذيل العبر، ج٤، ص ٣٧، المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص ١٣٢-١٣٣.

مشاهير تجار النصارى قرب مدينة هرقلية^{٢٦١} ونهبوا جميع بضائعهم وكان مع أحدهم وهو من أسرة عيسى بن الحصري مائة وعشرون ألف دينار صوري^{٢٦٢}.

كما عرف عن نصارى الشوبك والكرك بنشاطهم التجاري الكبير، وانتشارهم في كل البلاد من أجل الكسب والربح، حيث وجد من بينهم تجار في الطور^{٢٦٣} والسويس^{٢٦٤}، للتجارة، وامتلك بعض تجارهم العقارات والاملاك في الطور^{٢٦٥} وبعضهم كان يتاجر بالزبيب والزيت والزيتون مع تجار جزائر الغول الذين كانوا هم أيضاً يأتون إلى هناك للتجارة^{٢٦٦}. ووجد التجار الشاميون النصارى في المدن الصليبية على سواحل البحر المتوسط، فكان في مدينة عكا إلى جانب طائفة التجار الفرنجة عدد كبير من التجار النصارى واليهود^{٢٦٧}. ففي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م قتل في عكا اعداد كثيرة من التجار النصارى الشرقيين اثر هجوم القادمين الجدد من الصليبيين، وقتلهم التجار العرب فيها، فكانوا يقتلون كل من يلبس لباساً شرقياً دون تمييز بين مسلم أو نصراني^{٢٦٨}. هذا وقد شارك الرهبان النصارى في التجارة وامتلكوا المنشآت التجارية كالقياسر والوكالات. فتشير

٢٦١- هرقلية: ورد ذكرها باسم هرقله بكسر الهاء وفتح الراء، وهي مدينة في بلاد الروم فتحها الرشيد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٩٨. البغدادي، مرصد الاطلاع، ج ٣، ص ٤٥٦.

٢٦٢- ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٥٦م، عدد ٥، ص ٢٥٨.

٢٦٣- الطور: وهو على ساحل البحر الاحمر بين عقبة ايله وبين الديار المصرية، كثير الواصل اليه من اليمن بالبضائع المختلفة. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٣، ص ٥٢٧.

٢٦٤- السويس: على القرب من مدينة القلزم وهو اقرب الواصل الى القاهرة والفسطاط الا ان الدخول اليه نادر والعمدة على ساحل الطور. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٣، ص ٥٢٧.

٢٦٥- ابراهيم، ثلاث وثائق فقهية، ص ١٠١، وثيقة رقم (٢٨٥) بتاريخ ١١ ربيع الآخر ٨٨٢هـ/ ٢٤ تموز (يوليو) ١٤٧٧م. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص ٩٣.

٢٦٦- ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٣٠. البخيت، مملكة الكرك، ص ٢٨.

٢٦٧- هايد، تاريخ التجارة، ج ١، ص ١٨٨.

٢٦٨- عاشور، سعيد الحركة الصليبية، ج ٢، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ط ٤، ١٩٨٢م، ص ١١٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، عاشور، الحركة الصليبية. غوانمه، التاريخ السياسي لشرقي

الاردن، ص ١١٦. ١١٦. Setton, A history of the Crusades, Vol. 2, p. 594.

المصادر إلى دار الوكالة التي كان يمتلكها رهبان دير سانت كاترين في غزة^{٢٦٩}. كما اشار إلى ذلك بوضوح فيليكس فابري فذكر ان بعض رجال الدين قد اشتركوا في مساومات البيع والشراء التي كانت تحدث داخل كنيسة القيامة^{٢٧٠}.

هذا وقد تعرض تجار أهل الذمة إلى المظالم من قبل سلاطين المماليك، المتمثلة بسياسة الرمي والطرح^{٢٧١} التي شاعت شيوعاً ظاهراً في فترة حكم المماليك الجراكسة من ٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م، ففي فترة حكم السلطان فرج بن برقوق ٨٠٢هـ-٨١٥هـ/١٣٩٩-١٤١٢م أكثر وزراؤه من رمي البضائع على التجار ونحوهم بأغلى الأثمان، ففي سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م أكره تجار الصابون في نابلس والقدس والخليل والنصارى واليهود على شراء زيت الزيتون بثلاثة أضعاف السعر العادي فيما أعفى من ذلك عامة الناس^{٢٧٢}. وفي سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م أرسل السلطان الأشرف قايتباي مراسيم إلى نائب الشام يأمره بجمع أعيان التجار بها وسائر الناس ويفرض عليهم الاموال الجزيلة، كل واحد حسب مقامة، مساعدة للسلطان على خروج التجريدة المجهزة لقتال ابن عثمان^{٢٧٣}.

أما بالنسبة إلى البضائع التي نقلها هؤلاء التجار إلى بلاد الشام، فقد أحضروا من الشرق المنسوجات الحريرية والتوابل المختلفة كالقرفة والقرنفل وجوزة الطيب والزنجبيل والند والعاج والاحجار الكريمة والنباتات والاعشاب الطبية والدروع والسيوف والعطور والورق والحبر والجلود المدبوغة واللبن^{٢٧٤}. ومن الغرب جلبوا

٢٦٩- شقير، تاريخ سيناء، ص ٥١٤. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ١٨٢.

٢٧٠- زيادة، فيليكس فابري في فلسطين، ص ١٩٨.

٢٧١- الرمي والطرح: هو بيع السلع من قبل السلطات والامراء أو موظفين رسميين إلى تجار أو آخرين بسعر باهظ يفوق السعر المتداول في السوق وضد إرادة الشاري، وأحياناً تكون البضائع رديئة النوع. متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٣٩. لايبيدوس، مدن اسلامية، ص ١٠٠.

٢٧٢- العليمي الحنبلي، الانس الجليل، ج ٢، ص ٢٥٦، غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ٧٧ الامام، رشاد، القدس في العصر الوسيط، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٧م، ص ١٤٦، وسيشار له فيما بعد هكذا، الامام، القدس في العصر الوسيط، السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٢٧.

٢٧٣- ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٨١.

٢٧٤- ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٥٣. هايد، تاريخ التجارة، ج ١، ص ١٤٢. ونسيان، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦١١.

الرقيق والمعادن والاختشاب والجواري^{٢٧٥}. ونقلوا اليهم الكثير من السلع الشرقية فقد كان جزءاً كبيراً منها يصدر إلى الغرب بالإضافة إلى السلع التجارية المحلية مثل البلسم من أريحا، الزيت والصابون من نابلس والقدس والخليل، والنيلة من زُغَر^{٢٧٦} والسكر من الأغوار وطرابلس، الذي كان يصدر للأسواق الخارجية على شكل بلورات أو مسحوق والزجاج والحريز من دمشق، والبسط من أنطاكية ومصر^{٢٧٧}.

ونتيجة لهذه الحرية التي اعطيت لأهل الذمة في ممارسة جميع ألوان النشاط الاقتصادي والتجاري، فقد جمعوا الثروات الطائلة واثروا ثراء كبيراً، فهم على حد قول أبي عثمان النابلسي: «..... قد جمعوا بين تجارة البر والبحر والسواقي والزروع والجواهر وغير ذلك من أنواع المال.....»^{٢٧٨}.

٢٧٥- ابن خردادبه، المصدر السابق، ص ١٥٢. هايد، المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٢. ونسيان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦١١.

٢٧٦- زغر: قرية بمشارف الشام، وقيل زغر اسم بنت لوط عليه السلام، نزلت بهذه القرية فسميت باسمها. وزغر هذه في طرف البحيرة المنتنة في وادي هناك وهي من ناحية الحجاز. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤٢.

٢٧٧- غوانمه، دراسات، ص ٢٢٧، ونياية بيت المقدس، ص ٩٢، لايبيدوس، مدن السلامية، ص ٤٥.

٢٧٨- أبو عثمان النابلسي، أبو محمد عثمان بن إبراهيم (ت ٦٤١هـ/١٢٤٢م)، لمح القوانين في دواوين الديار المصرية، تحقيق س. بيكر. دمشق، مجلة المعهد الفرنسي، مج ١٦، ١٩٥٨-١٩٦٠م، ص ٧٣. وسيشار له فيما بعد هكذا، أبو عثمان النابلسي، لمح القوانين.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية لأهل الذمة

١. طوائف أهل الذمة في بلاد الشام.
٢. العلاقات الاجتماعية.
٣. القيود الاجتماعية.
٤. التعليم.

(١)

طوائف أهل الذمة في بلاد الشام

إنقسم النصارى في بلاد الشام إلى طائفتين رئيسيتين هما: اليعاقية والملكانيون، بينما انقسم اليهود إلى ثلاث طوائف رئيسية هي: الربانيون والقراؤون والسامرة.

وفيما يتعلق بطوائف النصارى فاليعاقبة هم القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح أي أن المسيح جوهر من جوهرين وأقنوم من أقنومين ومشينة من مشينتين، وبمعنى آخر أن المسيح هو الله بشكل إنسان. ومن ثم عرفوا بالمونوفيزيتيين. (Monophysite) ودعاهم خصومهم المعارضون لهم باليعاقبة نسبة إلى ديسقورس ثامن بطاركة كنيسة الاسكندرية لأن اسمه كان يعقوب قبل أن يصبح بطركا. وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب، وقيل أيضا بأن يعقوب كان تلميذ بطرك انطاكية وكان يثبت النصارى على مذهب ديسقورس، وكان كثير العبادة يلبس خلق البراذع فسمي يعقوب البراذعي^٢. وقيل هو يعقوب براديوس مطران الرها الذي توفي سنة (٥٧٨م)^٣.

١- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٨١. المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٥٢٨، حتى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٣٧. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٣٤. عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ص ٥٥. النقاش، زكي، أضواء توضيحية على تاريخ المارونية، لبنان، مطابع دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٧٠م. ص ٢١. وسيشار له فيما بعد هكذا، النقاش، آراء توضيحية على تاريخ المارونية.

٢- القلقشندي، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٢٨١. المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٥٢٩. قاسم، المرجع السابق، ص ٣٤.

٣- حتى، مختصر تاريخ لبنان، ص ١١٠.

وكانت طائفة اليعاقبة هي الغالبة في بلاد الشام، وكان علماءها أقطاب النشاط العلمي وأعلام حركة النقل العلمي في العصور الإسلامية^٤.

أما طائفة الملكانيين أو الملكانية أو الملكية وهم القائلون بأن للمسيح طبيعتين وجوهين ومشيتين اتحدت في اقنوم واحد وقوام الهي واحد، أي أن المسيح هو الله وإنسان في آن واحد، وتنسب هذه الطائفة إلى الامبراطور البيزنطي مرقيان ٤٥٠-٤٥٧ م، الذي دعا إلى عقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م، بسبب ما أثير من نزاع حول طبيعة المسيح، وتعذهب بمذهب الملكانية الروم والفرنجة ومن والاهم^٥. وقد لقبهم مخالفوهم بالملكيين من كلمة ملكا السريانية ومعناها الملك، وذلك ازدراء لهم لوقوفهم في صف الملك مرقيان^٦.

ولقبول هذه الطائفة بقرارات المجمع الكنسي فقد أحرزت وضعاً قانونياً، تفادت فيه الحرم الكنسي وحظيت فوق ذلك بحماية كنيسة الدولة البيزنطية^٧. وتمتعت بتأييد السلطة الحاكمة، إلا أنها بقيت ضعيفة ولم يتعد انتشارها شمالي بلاد الشام وفلسطين ومصر^٨.

أما الطوائف اليهودية فهي:

الربانيون (الربيون-الربانون) أو الناموسيون وهم جمهور اليهود المعروفون أكثر من غيرهم، وتعني كلمة ربانيم بالعبرية الامام الحبر أو الفقيه، وقد عربت هذه الكلمة إلى رباني وسمي أبناء هذه الفرقة ربانيين إشارة إلى اتباعهم تفاسير علماء

٤- حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٢٨-١٢٩.

٥- القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٣، ص ٢٧٩. المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٥٢٩. حتي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٤٢. النقاش، آراء توضيحية على تاريخ المارونية، ص ٢١. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٢٤. عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ص ٥٥. أرثولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧١.

٦- حتي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٤٢. النقاش، المرجع السابق، ص ٢١. الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غبريال، مج ٢، بيروت، دار نهضة لبنان للطباعة والنشر، ١٩٨١ م، ص ١٧٤٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، الموسوعة العربية الميسرة.

٧- حتي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٤٢.

٨- الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٧٤٢. حتي، المرجع السابق، ص ١٤٢.

اليهود وفقهائهم في التلموذ^٩ والمشنا^{١٠} وتقيّدوا بذلك حتى صار هذا الاسم سمة عامة لهم، وكانوا بعيدين عن العمل بالنصوص الإلهية إذ أباحوا تأويل نصوص التوراة^{١١}.

وكان اليهود يستشيرونهم في كل أمورهم، فكان رأيهم يمثل الحد الفاصل في تيار نقاش حول أمور الحياة الدينية والدنيوية، ويبدو أن هؤلاء، قد سيطروا على كل شيء في حياة اليهود وغرّتهم الحياة الدنيا فتكالبوا عليها ولهذا أنذرهم السيد المسيح بالويلات^{١٢}. فقال: «ويلكم انتم ايها النامسيون لأنكم تحملون الناس احمالا عسرة الحمل وانتم لا تمسون الاحمال بأحدى أصابعكم»^{١٣} كما ورد ذكرهم في القرآن الكريم في الآية التي تقول: «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء»^{١٤}.

والربانيون لا يعتقدون بقدر سابق، كالقدرية عند المسلمين، واستخدموا الحساب في معرفة تقويمهم وتواريخهم وأعيادهم بعد أن كانوا يعتمدون على التقويم القمري. (نظام الأهلة)^{١٥}. وكانوا على عداوة من القرائين ولا يتزوجون منهم ولا يدخلون

٩- التلموذ: كلمة عبرانية تعني التعليم، وهي مشتقة من التلمذة، ويعتبر التلموذ (السنة) في الشريعة اليهودية أو هو التوراة الشفوية التي نطق بها أو عمل بها كبار الأحرار ويتضمن التلموذ مجموعة من القوانين والأحكام والوصايا السياسية والحقوقية والمدنية والدينية عند اليهود مع شروحها، وكان يتم تداولها مشافهة ثم أصبح من المتعذر حفظها فقامت مجموعة من أحرار اليهود بتدوينها فظهر التلموذ. الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص ٥٧٢.

١٠- المشنا: قسم التلموذ الي قسمين المشنا: وهي مجموعة القوانين اليهودية السياسية والدينية والحقوقية. والجمارا: وهي مجموعة الشروح وحواشي تبسط قواعد المشنا ومراسم تطبيقها. الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص ٧٢.

١١- القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٢٦٠. المقرئزي، الخطط، ج٣، ص ٥٠٦. نعيسة، يهود دمشق، ص ١٠. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٠٩. صالحية، اليهود في القدس، ص ٢.

١٢- نعيسة، المرجع السابق، ص ١٠.

١٣- انجيل لوقا، اصحاح ١١، عدد ٤٦.

١٤- سورة المائدة، آية ٤٤.

١٥- الشهرستاني، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م). الملل والنحل، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨١م، ص ٩٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، الشهرستاني، الملل والنحل، القلقشندي، المصدر السابق، ج١٢، ص ٢٦١. قاسم، المرجع السابق، ص ١٠٩.

كنس بعضهم^{١٦}، ولكن مع مرور الزمن أصبحت علاقاتهم حسنة فيما بينهم، وصاروا يتزوجون من بعضهم البعض^{١٧}.

كان أبناء هذه الطائفة اليهودية اوفر عدداً من جميع الطوائف اليهودية الأخرى وكان منهم معظم أغنياء اليهود والموظفون والاداريون^{١٨}.

أما القراؤون، فقد اطلق عليهم اسم بنو مقرا، ومعنى مقرا الدعوة، أي أصحاب الدعوة وهم يحكمون نصوص التوراة ولا يؤمنون إلا بها ولم يعترفوا بغيرها من كتب اليهود، كما انهم لم يتقيدوا بما جاء في التلموذ، ولا يعتقدون في تاويل نصوص التوراة، ويعتقدون بسابق القدر كالأشعرية عند المسلمين، ويعتمدون على الاهلة في تقويم اعيادهم ومواسمهم مما اوجد بينهم وبين الربانيين فروقاً في هذه الناحية^{١٩}.

هذا وقد اتفق القراؤون والربانيون على استخراج ستمائة وثلاث عشرة فريضة من التوراة، كما اتفقوا على نبوة جميع الانبياء من بعد موسى، ويستقبلون صخرة بيت المقدس في صلاتهم، وأن الله كلم موسى من على طور سيناء^{٢٠}، ويتشدد القراؤون في حرمة السبت، وثمة خلاف بينهم وبين الربانيون في بعض المسائل الشرعية كالقصاص^{٢١}.

ويرجع البعض أصل هذه الفرقة إلى مؤسسها عنان بن داود المتوفى في حدود سنتي (١٧٤، ١٨٤هـ/ ٧٩٠، ٨٠٠م) الذي انشق عن طائفة الربانيين لعدم توليه منصب رئاسة اليهود في العراق، وكان ذلك في خلافة أبي جعفر المنصور، فوجد الخليفة في دعوة عنان فاتحة شغب وشحناء فسجنه، ثم اطلق سراحه على أن يجعل مقامه

١٦- المقرئزي، الخطط، ج٣، ص ٥٠٧.

١٧- Goitein, Amediterranean Society. Vol1, 2, p.7.

١٨- نعيسه، يهود دمشق، ص ١٠.

١٩- الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٩٥، القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٣، ص ٢٦٠، ٢٦١. المقرئزي، الخطط، ج٣، ص ٥٠٧. قاسم، اهل الذمة في مصر، ص ١١١.

٢٠- طور سيناء: هو اسم لجبل بقرب أيلة عند رأس بحر القلزم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٨.

٢١- القلقشندي، المصدر السابق، ج١٣، ص ٢٦١. قاسم، المرجع السابق، ص ١١١.

في فلسطين^{٢٢}. إلا أن بعض المصادر ذكرت أن العانانية والتي تنسب إلى عنان بن داود هي فرقة مستقلة من فرق اليهود غير فرقة أو طائفة القرائين وأرجعوا تاريخ نشأتها إلى فترة سابقة في التاريخ اليهودي^{٢٣}. هذا وقد أصبح القراؤون في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي يفوقون الربانيين عدداً^{٢٤}.

السامرة: عرفت طائفة السامرة بهذا الاسم لسكناهم مدينة شمرون وقيل لها سمرون وهي مدينة نابلس^{٢٥}. وهم اتباع السامري الذي أخبر الله عنه في القرآن، «وأضلهم السامري»^{٢٦} وجعلهم يعبدون العجل^{٢٧}، واختلف في أمر السامرة هل هم من اليهود أم لا فيذكر المقرئزي أنهم ليسوا من بني إسرائيل وإنما هم قوم أتوا من الشرق إلى فلسطين وتهودوا^{٢٨}. والقراؤون والربانيون ينكرون كون السامرة من اليهود واعتبروهم وثنيين ومشركين ومتعاونين مع أعداء اليهود وأطلقوا عليهم اسم (شومارنيم) ولكن السامريين حرفوا تلك الكلمة إلى (شمر نيم) أي المحافظين على الدين الموسوي^{٢٩}. كما أن بعض المصادر ذكرت السامرة كطائفة من طوائف اليهود^{٣٠}. ولم يمنع هذا الاختلاف فقهاء المسلمين من معاملتهم كأهل ذمة متى أقروا بدفع الجزية.

وتتألف السامرة من فرقتين: دوستانية وكوستانية، الدوستانية معناها الفرقة المتفرقة الكاذبة وتزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا، والكوستانية معناها الجماعة الصادقة، وهم يقرون بالآخرة^{٣١}. وللسامرة توراتهم الخاصة غير التوراة التي بيد

٢٢- التطيلي، الرحلة، ص ١٩١، ملحق رقم (١).

٢٣- الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٩٧. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٧٦.

٢٤- التطيلي، المصدر السابق، ص ١٩١، ملحق رقم (١).

٢٥- المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٨، نعيمة، يهود دمشق، ص ١٠.

٢٦- سورة طه، آية ٨٥.

٢٧- القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٢٧٠. العلي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص ٨١.

٢٨- المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٨.

٢٩- القلقشندي، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٧١. نعيمة، المرجع السابق ص ١١.

٣٠- الشهرستاني، المصدر السابق، ص ٩٨. Goitein, Amediterranean Society, Vol. 2, p.7.

٣١- الشهرستاني، المصدر السابق، ص ٩٨.

القرائين والربانيين، وهم ينفردون عن القرائين والربانيين بانكار أي نبوة من بعد موسى، ما عدا هارون ويوشع عليهما السلام، ويخالفونهم في استقبال صخرة بيت المقدس، ويستقبلون طور نابلس زاعمين انه الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام.^{٣٢}

والسامريون يستعظمون إستباحة يوم السبت كغيرهم من اليهود، ويزعمون انهم يطبقون اوامر التوراة حرفياً، ويجعلون الاعتماد على توراتهم التي بيدهم، وينكرون صحة تورااة القرائين والربانيين، ويحرمون اكل لحم الجدي مختلطاً بلبن أمه عملاً بما جاء في التوراة.^{٣٣} ويتشددون في أحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة، ولذا فأنهم لا يغسلون موتاهم ولا يحملونهم، وانما يستأجرون لهاتين العمليتين أناساً من المسلمين، لأن السامري عندهم لا يطهر من هاتين العمليتين الا اذا رش بعد عزله سبعة أيام بدماء بقرة مقررة الصفات، أما عن طهارتهم للصلاة فهي اقرب إلى وضوء المسلمين.^{٣٤} والسامريون كثيرون في مدن بلاد الشام واكثرهم يسكن في مدينة نابلس.^{٣٥}

وقد ورد ذكر طائفة اليهود المستعربة في سجلات محاكم دمشق آنذاك، ويعتقد أنها عرقية وليست طائفة دينية، بمعنى أنها تعود إلى أصول غير عربية جاءت إلى دمشق في فترة سابقة واستقرت بها واستعربت فاطلق عليها تلك التسمية تمييزاً لها عن بقية الطوائف اليهودية المحلية.^{٣٦} وكانت طائفة اليهود المستعربة تشكل اكبر الطوائف اليهودية في مدينة صفد وهي الوحيدة التي كانت موجودة قبل الهجرة اليهودية من اسبانيا والبرتغال سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م.^{٣٧}

٣٢- الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٩٨. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٢٧١. المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٥٠٨. العلي، دمشق، بين عصر المماليك والعثمانيين، ص ٨١.

٣٣- السفر الثاني (الخروج)، اصحاح ٢٢، ١٩.

٣٤- القلقشندي، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٧٢. رمضان، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، ص ٦١. علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٢١٧.

٣٥- المقرئزي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٠٩.

٣٦- نعيمه، يهود دمشق، ص ٩.

٣٧- الطراونه، مملكة صفد، ص ١٤١.

وظهرت ظاهرة مهمة لدى تلك الطوائف الدينية في بلاد الشام، وهي نزعة بارزة إلى الاجتماع معاً، والاستقلال بأحياء خاصة بهم في المدينة وقد بدأت هذه النزعة في العصور السابقة، إلا أنها تستمر في العصور التالية فالرغبة في الأمن والطمأنينة كانت تدفع الأقليات الدينية إلى تأليف جماعات متماسكة متضامنة أشد التضامن، ومن هنا فلم تخل مدينة من مدن الشام الهامة من وجود حارات خاصة للنصارى واليهود^{٣٨}.

وقد وزعت حارات أهل الذمة بحسب مذاهبهم وطوائفهم فهناك أزقة وحارات كانت خاصة بالربانيين والقرايين والسامرة من اليهود، ووجد نفس الشيء بالنسبة للنصارى اليعاقبة والملكانيين والموارنة وغيرهم^{٣٩}. وكانت المحلة أو الحارة تقسم بدورها إلى أزقة ودخلات غير نافذة، وتكون بيوتهم فيها على جانبي الطريق، ولها باب كبير يقفل عند الحاجة، وعليه حراس من أبنائها ولكل حارة شيخها من اليهود أو النصارى كان يمثل صلة الوصل بينهم وبين السلطات الحاكمة^{٤٠}، وكانت المحلة لا يدخلها إلا من كان له غرض فقد اصطحب شيخ حارة اليهود في حماة ثلاثة من يهود دمشق نزلوا في محله وطلب منهم كفلاء أن حصل منهم ضرر لأهل المحلة^{٤١}.

وهذا لا يعني أنهم كانوا درماً يعيشون في أحياء خاصة بهم، بل كان لهم بيوت متفرقة في معظم أحياء المدن^{٤٢}. كما كان غالب سكان بعض القرى الشامية من اليهود أو النصارى^{٤٣}، ومن الملاحظ أن النصارى واليهود كانوا يشاركون المسلمين في

٣٨- سوفاجية، دمشق الشام، ص ٣٦.

لم تكن فكرة عزل أهل الذمة عن المسلمين شائعة في العصور الإسلامية الأولى إلا أنها حدثت زمن الخليفة المتوكل ٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م حين أمر بوضع إشارات مميزة على بيوتهم. انظر، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٥، ٢٢٦. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٩٦.

Hirschler, The Social Isolation of Ahl Adh-Dimma, p. 87.

٣٩- نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٨١.

٤٠- نعيسه، يهود دمشق، ص ١٢.

٤١- البرغوثي، عبدود، «تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والإداري»، مستمد من سجل المحكمة الشرعية لعام ٩٨٩هـ/١٥٨١م، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشق، ١٩٦٩م، مج ١٦، ص ٧٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، البرغوثي، تاريخ حماة الاجتماعي.

٤٢- البرغوثي، المرجع نفسه، ص ٧٦.

٤٣- انظر فصل الحياة الاقتصادية لأهل الذمة، النشاط الزراعي.

ابنهم العيش في المدن على الحياة في الريف أو البادية^{٤٤}. وكانت منازلهم لا تختلف عن منازل المسلمين وقد جاء في إحدى وثائق المتحف الاسلامي في القدس وصف دار (ابن اللواتين) بحارة النصاري، وتشمل الدار على ثلاثة بيوت عقود، ومطبخ عقد، ومطهرة عقد، وصحن الدار يتكون من ساحة سماوية، وبهذه الساحة صهريج للماء وأشجار مختلفة الأجناس وتشمل الدار على قبو أرضي يتوصل اليه ضمن صحن الدار^{٤٥}، كما أشار أحد اليهود القادمين إلى القدس عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م إلى سعة بيوت اليهود في القدس وقال انها تتكون من خمسة إلى ستة غرف، وكانت تبني من الطوب والحجر ولا يستعملون الخشب في بنائها^{٤٦}. والوصفان لا يختلفان عن تقسيمات الدور الاسلامية في العصور الوسطى^{٤٧}.

٤٤- جوستاف، حضارة الاسلام، ص ٢٢٣.

٤٥- غوانمه، ثيابة بيت المقدس، ص ١٢٩.

٤٦- The Jewish Ency ..., Vol, 7. p. 133.

٤٧- بهنسي، عفيف، العمارة عبر التاريخ، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٧م، ص ١٧٢. وسيشار له فيما بعد هكذا بهنسي، العمارة عبر التاريخ.

(٢)

العلاقات الاجتماعية

عاش أهل الذمة الشاميين يهوداً ونصارى كجزء يرتبط ارتباطاً عضوياً بالكل الشامي، إذ لم يكن هنالك أي انعزال بين الجماعات ككل^{٤٨}. وقد شهد الواقع الاجتماعي في عصر كل من الايوبيين والمماليك واقع هذا الارتباط ولعل التسامح الديني هو الذي ساعد على اضعاف هذا الجو الاجتماعي الذي تسوده روح الإخاء بين جميع الطبقات السكانية على اختلاف مللهم ونحلهم^{٤٩}.

فكان هناك اختلاط يومي بين عناصر السكان، وكان التعاون المستمر قائماً بين الاهالي على مختلف الديانات، ووصل هذا التعاون إلى درجة المشاركة في كثير من الأعمال والمهن^{٥٠}. وكان اليهود يودعون بضائعهم مع المسلمين، أو مع القوافل التجارية المتنقلة بين المناطق المختلفة ونجد في وثائق الجنيزة ما يشير إلى ذلك فقد ورد في الخطاب التالي: «إذا كانت هنالك قافلة وكان يسافر فيها مسلمون مؤتمنون تكرم بارسال البضائع معهم...» فقد كان اليهود يلجأون إلى ذلك في بعض الحالات وخصوصاً أنهم لا يسافرون أيام السبت والعطلات^{٥١}. وكان المسلمون يشاركون جيرانهم الذميين مشاركة تامة في أفراحهم واتراحهم، فيأتون إلى جاره ليشاركوه في استقبال ضيوفه، فيقدمون له الهدايا حتى يظهر أمام ضيوفه بالمظهر اللائق، وكان النصارى واليهود يفعلون نفس الشيء مع جيرانهم المسلمين^{٥٢}، كما كانوا

٤٨- لا بيدوس، مدن اسلامية، ص ١٤٧.

٤٩- عاشور، الحياة الاجتماعية، ص ٩٦.

٥٠- Goitein, Studies in Islamic History, p. 151.

٥١- Goitein, Ibid, p. 302.

٥٢- علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٢٩٩، رمضان، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، ص ٢٠٩، المدني، زياد، مدينة حلب في العصر المملوكي الثاني، رسالة ماجستير بإشراف دكتور مصطفى الحباري، عمان، الجامعة الاردنية، ١٩٨٣م، ص ٢١٣، وسيشار له فيما بعد هكذا، المدني، مدينة حلب في العصر المملوكي.

يهادون بعضهم في المواسم والأعياد ففي خميس العهد الذي يحتفل به قبل عيد الفصح بثلاثة أيام جرت عادة النصارى أن يتهادوا في هذا العيد فيما بينهم وبين المسلمين، وقوام هداياهم السمك والعدس المصفى والبيض، وكان يعرف هذا العيد في بلاد الشام بخميس الأرز وخميس البيض^{٥٢}. وفي عيد الصليب الذي يحتفل به النصارى في الرابع عشر من أيلول احتفاءً باظهار خشبة الصليب على يد هيلانه ام قسطنطين، يظهر النصارى فيه الفرح بايقاد النار ورش الماء حولها ويشاركهم في لهوهم عوام المسلمين^{٥٣}.

وفي عيد الفصح وهو العيد الكبير عند النصارى، ذكر اسامه بن منقذ انهم كانوا ينزلون من حصن شيزر^{٥٤} للتفرج على النصارى في عيدهم^{٥٥}. وكانت النساء قبل يوم الأحد وهو اول ايام عيد الفصح يخرجن إلى البساتين ويمضين فيها سحابة يومين، ويفعلن مثل ذلك في يوم الاثنين الذي يلي عيد الفصح حيث يعتقدن ان من لم تخرج إلى النزهة في مثل هذه الايام لا تأمن الصداع ووجع الرأس^{٥٦}. كما ذكر لنا شيخ الربوة ما كان يفعله أهل حماة في هذا العيد بقوله: «في هذا العيد تبطل أهل حماة مدة ستة ايام اولها يوم الخميس الكبير وهو خميس العهد، وآخرها يوم الثلاثاء ثالث الفصح (الفصح) وتنتعش فيه النساء ويلبسن فيه الكساوي الفاخرة ويصنعن فيه البيض ويعملن أقراص الكعك، والمسلمون محتفلون فيه أكثر من النصارى^{٥٧}».

٥٢- ابن الحاج، ابو عبدالله محمد بن محمد العبدري القاسي، (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، المدخل إلى الشرع الشريف، ج ٢، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٩٧٢م، ص ٥٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن الحاج، المدخل، المقرئ، الخط، ج ١، ص ٤٩٨. متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٢٨٥. قاسم، اهل الذمة في مصر، ص ١٥١.

٥٤- ابن الحاج، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠. المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٩. تروتون، اهل الذمة، ص ١٢٢.

٥٥- حصن شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٨٢.

٥٦- اسامة بن منقذ، الأمير مجد الدين ابو المظفر اسامة بن مرشد بن علي (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م). كتاب الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، الرياض، دار الاصاله للثقافة والنشر، ١٩٨٧م. ص ١٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، اسامة بن منقذ، الاعتبار.

٥٧- علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٢٧٩.

٥٨- الدمشقي، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن أبي طالب الانصاري الملقب بشيخ الربوة، (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م). نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشره مهون بطرسبورغ، المطبعة الاكاديمية، ١٨٤٠م ص ٢٨٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، الدمشقي، نخبة الدهر.

واتخذت بعض الأعياد الخاصة بأهل الذمة طابعاً شبه قومي وشاركهم المسلمون الاحتفال به، مثل عيد النيروز وهو أول يوم في السنة عند السريان اليعاقبة، الذي يصادف في أول يوم من كانون الثاني ويسمى بالشام القلندس. فكان النصارى يظهرون فيه من الفرج والسرور وابقاد النار والمأكّل والمشارب وكان يساعدهم على ذلك كثير من عوام الناس وكثير من خواصهم^{٥٩}.

كما شارك المسلمون في بعض احتفالات النصارى ذات الطابع الديني الصرف، كعيد الميلاد، وهو اليوم الذي ولد فيه السيد المسيح عليه السلام. وكان النصارى يصنعون فيه نوعاً من العصيدة ويزعمون أن من يأكلها يتقي البرد طوال العام. ويحتفلون به بايقاد النيران ويلعبون بالجوز^{٦٠}. وكان أهل حماة كبيرهم وصغيرهم، جليلهم وحقيبرهم، جندهم وأميرهم يوقدون القناديل فوق الاسطحة، ومن القنب والشبح شيئاً عظيماً^{٦١}. وكان موسماً جليلاً تباع فيه الشموع المزينة والمصبوغة بالألوان الرائعة إذ كانت تباع في الأسواق والخوانيت ويشتريها عامة الناس مسلمين ونصارى^{٦٢}. أما عيد الغطاس وهو اليوم الذي عمد فيه المسيح بنهر الأردن، كان بعض المسلمين يشاركون النصارى عادة غمس أولادهم في الماء رغم شدة البرد بسبب ما اعتقدوه أن ذلك يقيهم المرض طوال حياتهم^{٦٣}.

كما شارك أهل الذمة المسلمين في أفراحهم في الأعياد، ففي عيد الفطر كان اليهود يعملون الكعك ويبيعونه للمسلمين^{٦٤}. هذا وقد كانت تتصادف أعياد أهل الذمة مع أعياد المسلمين فيحتفل الجميع بالعيد ويتبادلون التهاني والهدايا ففي سنة

٥٩- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، (ت ٢٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، طبعة بربيه دي مينار وبائية دي كرتاي، تحقيق شارل بلا، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٦م، ص ٣٣٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، المسعودي، مروج الذهب، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٥٨.

٦٠- ابن الحاج، المدخل، ج ٢، ص ٦١، متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٨٥. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٦٢.

٦١- الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٨١.

٦٢- المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٩٦. قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية، ص ٢٢٠.

٦٣- ابن الحاج، المصدر السابق، ج ٢، ص ٦١. المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٧.

٦٤- ابن الحاج، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨١.

٦٢٤هـ/١٢٢٦م اتفق عيد الفطر وعيد اليهود وعيد النصارى، وكان هذا من العجائب^{٦٥}.

وقد قيلت الأمثال في هذه الأعياد مثال ذلك «إذا جاء عيد بربراه^{٦٦} فليتخذ البناء زمارة» بمعنى أن يجلس المرء في بيته لأنه يكون وقت الأمطار. «وإذا جاء عيد قلندس فتدفاً واحتبس»^{٦٧}. كما ظهر تأثير هذه العلاقات واضحاً في عادات وتقاليد المجتمع الشامي آنذاك، فقد أشارت بعض المصادر العربية من أن بعض النساء المسلمات اعتدن عدم شراء السمك أو اكله أو ادخاله بيوتهن يوم السبت، كما أن بعض النسوة تعودن عدم دخول الحمام أو شراء الصابون وغسل الثياب يوم السبت أيضاً، وذلك تأثراً بالعادات اليهودية^{٦٨}. كما أن بعضهن كن لا يعملن في ليلة الأحد ولا في يومه^{٦٩}، وكان لاهل الشام في كل يوم من أيام الأسبوع المكان المفضل في نزعتهم فهناك نزهة السبت أو السبتيه، يذهبون فيها حيثما يشاؤون، غالباً إلى أماكن تجمع اليهود. أما يوم الأحد فيذهبون إلى أماكن تجمعات النصارى حيث يشاهدون فرح النصارى ولهوهم^{٧٠}.

وكان النصارى والمسلمون يترددون على حارات اليهود ومحلاتهم التجارية لقضاء حاجاتهم الشرائية نظراً لشهرة اليهود في التجارة والحرف اليدوية^{٧١}. كما كانت معابدهم متجاورة منها ما هو مقبل بابه على باب معبد الطائفة

٦٥- ابن النظيف، أبو الفضل محمد بن علي الحموي، (ت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) التاريخ المنصوري، تحقيق أبو العيد دودو، مراجعة عدنان درويش، دمشق، مطبعة الحجاز، ١٩٨١م، ص ١٥١، وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن النظيف، التاريخ المنصوري.

٦٦- عيد بربراه: يزعم النصارى أن بربراه كانت قديسة، ويصادف عيدها في أول الشتاء في اليوم الرابع من كانون أول. صالح بن يحيى، صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين، (ت ٨٤٠هـ/١٤٢٦م). تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، دار المشرق، ١٩٦٧م، ص ٩. وسيشار له فيما بعد هكذا. صالح بن يحيى، تاريخ بيروت. متر، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٨٥.

٦٧- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٥، ١٦٦.

٦٨- القزويني، آثار للبلاد، ص ١٥٣. ابن الحاج، المدخل، ج ١، ص ٢٧٢، ٢٧٣.

٦٩- ابن الحاج، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٣.

٧٠- القزويني، المصدر السابق، ص ١٩١. علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٢٩٩. نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٧٢٩.

٧١- المدني، مدينة حلب في العصر المملوكي، ص ١٩٥.

الأخرى^{٧٢}. وأحياناً اشتركوا في نفس المسجد، قال الحميري: «كان في عكا مسجد بقي محرابه على حاله، ودفع الأفرنج في شرقية محراباً لهم فالمسلم والكافر يجتمعان فيه فيستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه...»^{٧٣}. وكانت الحمامات مركزاً هاماً لاقامة العلاقات الاجتماعية، حيث كانت متخصصة لجميع سكان المدينة بطوائفهم المختلفة، فالنساء كن يجتمعن في الحمامات مسلمات ونصرانيات ويهوديات^{٧٤}. وتردد المسلمون على أديرة النصارى، فكانوا يتمتعون ويتنزهون ببساتينها الفسيحة، وقاعات شرابها الباردة، وكثيراً ما كان يقترن ذكر الأديرة بذكر الشراب في كلام بعض الشعراء^{٧٥}. ويذكر فيلكس فابري أن نواب القدس وبعض أعيانها كانوا يأتون إلى جبل صهيون للتنزه فإذا وصلوا إلى دير الرهبان الفرنسيين كان الأخوة يستضيفونهم لقضاء بعض الوقت، فيفرش لهم الرهبان الأرض بالسجاد ويضعون لهم الوسائد حيث يستلقون على الأرض ويقدمون لهم الكعك والفواكه والماء المثلج ويسألونهم عن أشياء كثيرة ويتحدثون فيما بينهم بشأنهم^{٧٦}.

كما كان أهل الذمة يشاركون المسلمين في بعض المناسبات ذات الطابع السياسي، كالخروج لاستقبال السلطان وتأييده عند قدومه إلى البلد، ففي سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م عندما قدم السلطان الظاهر بيبرس إلى الكرك خرج أهل الكرك لاستقباله، فحلف مقدمي المدينة وحلف نصارى المدينة بالانجيل^{٧٧}. وفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م دخل الأمير أيدغمش نائب السلطنة بدمشق وتلقاه الجيش بكامله

٧٢- الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ١٩٥.

٧٣- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٦. الحميري، أبو عبدالله محمد بن محمد، (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م). الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ٤١. وسيشار له فيما بعد هكذا، الحميري، الروض المعطار.

٧٤- ابن الحاج، المدخل، ج ٢، ص ٢٧.

٧٥- العمري، مسائل الأبصار، ج ١، باب ٦، ص ٢٤٠، ٢٤٩. آل تقي الدين، منتخبات التواريخ لدمشق، ج ٢، ص ١٠٥٦. متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٤٠٧. ترتون، أهل الذمة، ص ١٧٠. باشا، عمر، الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٩م، ص ٢٦١. وسيشار له فيما بعد هكذا، باشا، الأدب في بلاد الشام.

٧٦- زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٢٠٠.

٧٧- ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٦٤. العيني، بدرالدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى، (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حوادث وتراجم سنين ٦٤٨هـ-٦٦٤هـ/١٢٥٠-١٢٦٥م، تحقيق محمد أمين، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص ٣٥٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، العيني، عقد الجمان، البخيت، ملكة الكرك، ص ٢٧.

واحتفل الناس به، فأشعلوا الشموع وخرج أهل الذمة من اليهود والنصارى يدعون له ومعهم الشموع^{٧٨}.

وأكثر ما كانت تتقارب فيه المشاعر الانسانية في اوقات الاوبئة والطواعين والمجاعات وقلة الغيث فيخرج الناس في مواكب حاشدة، الامراء والفقهاء ومشايخ الصوفية ويشترك اليهود والنصارى في مثل هذه المواكب بكتبهم المقدسة، وقد أخبرنا الرحالة ابن بطوطة عن إحدى هذه المواكب بقوله: «شاهدت أيام الطاعون الاعظم بدمشق في اواخر شهر ربيع الثاني سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م اذ أمر ملك الامراء نائب السلطنة ارغون شاه امر منادياً ينادي بدمشق ان يصوم الناس ثلاثة ايام ولا يطبخوا بالسوق فصام الناس ثلاثة ايام متوالية. كان اخرها يوم الخميس ثم اجتمع الامراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم، وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعاً على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكوراً واناثاً، صفاراً وكباراً، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه ... وخفف الله تعالى عنهم....»^{٧٩}.

وهكذا كانت حالة الوفاق والمودة سائدة بين اصحاب الديانات، مغتربين بحسن الجوار، وليس ادل على ذلك ما يرويه إسحق بن شيلو الذي هاجر إلى بيت المقدس من اسبانيا سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م حيث ارسل رسالة إلى والده يخبره فيها عن احوال اليهود في المدينة فيقول فيها: «إن اليهود في القدس يعيشون في سعادة ويمارس كل واحد منهم عبادته بكل حرية، والسلطة الحاكمة عادلة وعظيمة ادام الله عزها وبقائها ولتبلغ ذروة مجدها واليهود في المدينة أغنياء لاشتغالهم بالتجارة وكل شيء، ولهم حوانيت ودكاكين ممتازة»^{٨٠}. وكان الرباني عبيدا الذي قدم إلى القدس سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م اكثر ايضاحاً في وصفه لحال اليهود في القدس فذكر: «ان اليهود في القدس ليسوا مضطهدين عند العرب، ولقد سافرت في جميع انحاء فلسطين طويلاً وعرضاً ولم يعترض طريقي احد، لان عرب فلسطين لطفاء وكرماء مع الاغراب وخاصة

٧٨- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢١٤.

٧٩- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٩٥-٩٦، زيادة، رواد الشرق العربي، ص ١٨٩.

٨٠- زيادة، المرجع نفسه، ص ١١٠. صالحية، اليهود في القدس، ص ٢٢.

مع الذين لا يعرفون لغتهم...» وذكر عبيدا «أن العرب الفلسطينيين إذا ما راوا اليهود مجتمعين مع بعضهم فأنهم لا يتأثرون لذلك ولا ينزعجون حتى لو قدر لأحد من اليهود أن يبرز في العلوم فمن السهل عليه الارتقاء بمنصب رئيس العرب واليهود في العلوم، فالوظائف لا يتولاها الا من كان مستحقاً لها دون الإلتفات إلى دينه وطائفته ويعيش جميع اليهود في البلاد بسلام...»^{٨١}.

ومع ذلك فقد كانت تشوب هذه العلاقات بعض المشاحنات والخلافات فتعكر صفوها، فتقع الفتن بين الطرفين نتيجة لتصرفات فردية، ولكن سرعان ما يعود الصفاء إلى سابق عهده، ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٦م فقد دخل التتار بجيش على رأسه الأمير كتيغا وسلمت البلد إلى أمير منهم يقال له ايل سيان وكان هذا يعظم دين النصارى فاجتمع به اساقفتهم وقسوسهم فعظمهم جداً وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولاً بسببه، كما ذهبت طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم الهدايا والتحف ورجعوا من عنده ومعهم امان من جهته، ودخلوا دمشق من باب توما ومعهم الصليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس وهم ينادون ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، ويذمون دين الاسلام وأهله ويرشون الخمر على وجوه الناس وثيابهم، فاجتمع قضاة المسلمين والشهود مع ايل سيان فأهانهم وطردهم وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم، فركب الناس هم عظيم^{٨٢}، ولم تعض ثلاثة أيام حتى جاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت، فهجم بعض المسلمين على كنيسة مريم في دمشق ونهبوا ما فيها واحرقوها وقتلوا جماعة من النصارى ونهبوا دورهم، واحترقت في هذه الفتنة دور كثيرة للنصارى، كما احرقوا كنيسة اخرى لليعاقبة، وهمت طائفة منهم بنهب اليهود، فنهب قليل منهم فمنعوا، لأنه لم يحدث منهم كما حدث من النصارى^{٨٣}. ولا شك ان الحروب الصليبية ايضاً كان لها نتائج على الصعيد الاجتماعي، اذ ساء المسلمون ما فعله نصارى الغرب من احتلال

٨١- صالحية، اليهود في القدس ص ٢٢. Adler, Jewish Travellers, p. 235, 249.

٨٢- ابو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٢٠٨. الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٢٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٢٢-٢٣٤. العيني، عقد الجمان، حوادث وتراجم سنين ٦٤٨-٦٦٤هـ/١٢٥٠-١٢٦٥م، ص ٢٤٢. ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٠-٨١. الصياد، فؤاد عبدالمعطي، المغول في التاريخ، ج ١، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٨٠م، ص ٨٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، الصياد، المغول في التاريخ. باشا، الادب في بلاد الشام، ص ٨٦. كاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ص ٢٥٥.

٨٣- ابو شامة، المصدر السابق، ص ٢٠٨. ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٢٤. المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٤٩٧ والسلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٢٢. ابو المحاسن، المصدر السابق، ج ٧، ص ٨١.

بلادهم ومهاجمة مدنهم وقتل أهلها وذبحهم بالمثلات، ووقوف بعض طوائف النصاري داخل البلاد إلى جانب هؤلاء الغزاة وهلّلوا بهم ودلوهم على مسالك الطرق على أساس أنهم اخوانهم في الدين^{٨٤}، فانزعت بذور الشك والمرارة في نفوس المسلمين تجاه النصاري الذين عاشوا دهرأ طويلاً في كنف المجتمع الاسلامي^{٨٥}.

ففي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وعندما كسر المعظم تورانشاه الفرنج على ثغر دمياط بالديار المصرية، دخل المسلمون كنيسة مريم بدمشق واحتفوا بالنصر وكادوا ان يخرّبوها، وكان بعض النصاري في مدينة بعلبك قد فرحوا حين أخذ الفرنج دمياط، فلما كانت هذه الكسرة سودوا وجوه الصور فأرسل نائب البلد اليهم فعاقبهم وامر اليهود بصفعهم زيادة في اهانتهم^{٨٦}. وفي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م عندما فتح الظاهر بيبرس قيسارية^{٨٧} وأرسوف^{٨٨} في الساحل الفلسطيني، أرسل النصاري الذين في عكا إلى القاهرة من تحيل باحراق عدة مواضع في مصر انتقاماً لما حدث للفرنج على يد المسلمين، وسرى الحريق إلى أطراف الريف وكتب الناصحون إلى السلطان الظاهر فأمسك النصاري واليهود واستعد لحرقهم في حفرة يلقون فيها وتدخل الأمراء لدى السلطان بعدم إحراقهم على أن يلتزموا بالاموال التي احرقت، وتم الاتفاق على دفع خمسمائة الف دينار^{٨٩}.

٨٤- ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٩٥، الشارترى، تاريخ الحملة الى القدس، ج ١، ص ٧٠. وشمسان، الحروب الصليبية، ج ١، ص ٣٠٧، ٣١٦، ٣٥٠، ٤١٥. خان، تاريخ فلسطين القديم، ص ١٧٢.

٨٥- قاسم، اثر الحروب الصليبية في العالم الاسلامي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، ١٩٨٧م. موسوعة الحضارة العربية، مج ٢، ص ١٦٢. وسيفشار له فيما بعد هكذا، قاسم، اثر الحروب الصليبية.

٨٦- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٩٠.

٨٧- قيسارية: بالفتح ثم السكون. بلد على ساحل بحر الشام تعد في اعمال فلسطين، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢١.

٨٨- أرسوف: بالفتح ثم السكون وضم السين المهملة. مدينة على ساحل بحر الشام، بين قيسارية ويفا، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٥١.

٨٩- ابن الواسطي، الرد على أهل الذمة، ص ٤١١. الذهبي، تاريخ الاسلام، (مخطوط)، ج ٢١، ورقة ٢ب، المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٦.

هذا مع العلم ان بعض طوائف النصارى في بلاد الشام دفعهم الشعور القومي الصادق إلى بذل العون إلى المسلمين ضد الغزاة الصليبيين، فعندما اشتد حصار صلاح الدين لبيت المقدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، اظهر النصارى الارثوذكس (الملكانيين) داخل المدينة عواطفهم مع المسلمين واعلنوا انهم يفضلون الحكم الاسلامي على سيطرة الفرنج اللاتين^{٩٠}.

كما قدم رجال الدين منهم خدمات جليلة من ذلك ما فعله الراهب الشوبكي الذي سافر إلى صقلية ليستقصي اخبار الامبراطور فردريك الثاني وحملته السادسة إلى الديار المقدسة لصالح الملك المعظم عيسى^{٩١}. وعندما تسلم الامبراطور فردريك الثاني بيت المقدس سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م نأت طوائف النصارى الشرقيين فيها عن السكن في المدينة وهاجروها مع المسلمين مبررين خوفهم بأن عودة الفرنج إلى المدينة لن يعود عليهم بالخير^{٩٢}.

وكان لتشدد بعض القضاة والفقهاء أثره في سوء معاملة أهل الذمة وتوتر العلاقات الإجتماعية، لما كان لهم من تأثير على بعض سلاطين الممالك، فقد كان للسلطان الظاهر بيبرس أحد الصلحاء وهو الشيخ خضر العدوي المهراني، ويعتقد فيه إلى درجة جعلت الشيخ يتصرف في البلاد المملوكية بما يريده، فكان «يحكم ولا يحكم عليه»^{٩٣}. وقد رأى النصارى واليهود على يديه كثيراً من الظلم، ففي سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م دخل بدمشق بصحبة الظاهر بيبرس وهجم على كنيس اليهود بدمشق ونهب منه ما لا كثيراً وأحرق التوراة، وحوّله مسجداً وأقام به ثاني يوم قراءة من القرآن ومد به سماتاً وأزدهم الناس في الكنيس، وسعى لليهود في ردها إليهم وإبقائها عليهم ولم يقبل ذلك^{٩٤}. ودخل هذا الشيخ مرة إلى كنيسة القيامة وقتل راهبها بيده، وانتهب ما فيها، ووهبه لأصحابه، كما هدم كنيسة المصلبة في القدس

٩٠- عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨١٢، ٨٢٠.

٩١- سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٦٤٧، غوانمه، التاريخ الحضاري، ص ١٤٢.

٩٢- رنسيهان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٣٢.

٩٣- ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ج٢، ص ٤٥٩.

٩٤- ابن شداد، الأعلام، الخطيرة، ج٢، ق١، ص ٢٧٤، الذهبي، تاريخ الاسلام، (مخطوط)، ج٢١، ورقة ١٩.

١٩- ابن أبي الفضائل، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥٩. ابن شاکر الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٤٠٥.

٤٠٥- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٨٠، ابو الحسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٦٢.

وهي للكرج وعملها زاوية. ووقعت منه أشياء كثيرة انكرت عليه ولما تحقق السلطان من سوء تصرفه أمر بسجنه ثم أمر باعدامه وكانت وفاته سنة (٦٧١هـ/١٢٧٢م)^{٩٥}.

كما تشدد بعض القضاة في مسألة إحداث الكنائس والمعابد، ففي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م وفي عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون تكلم جماعة من القضاة المسلمين في كنيس اليهود القرائين بدمشق وقالوا انها محدثة، وعملوا محاضر بذلك وأثبتوها وشهد بذلك جماعة، فورد مرسوم السلطان الملك الناصر بهدمها. وهدمت بحضرة العلماء والفقهاء والحجاب، وكان يوماً مشهوداً ألقى به الشعراء القصائد^{٩٦}.

وفي سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م حكم قاضي الشافعية بحلب كمال الدين ابو المعالي محمد بن الزملكاني بهدم كنيسة لليهود في حلب تعرف بكنيس مثقال أثبت انها محدثة، فهدمت وجعلت مدرسة ودعيت بالناصرية نسبة إلى السلطان الملك الناصر، وألقى بها القاضي الزملكاني درساً يتعلق بذلك واجتمع الناس عليه، وحضر القضاة والاكابر والأعيان وكان وقتاً مشهوداً^{٩٧}.

وفي سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٨م هدمت الزلازل قبة كنيسة للنصارى كانت مجاورة لكنيسة القيامة، وقد كان النصارى يجتمعون فيها ويرفعون اصواتهم فينزعج المسلمون الذين في قبة الصخرة، ولما تهدمت دفع النصارى مالاً لنائب السلطنة بالقدس والقاضي الحنفي الذي أذن لهم باعادة البناء المتهدم، ثم عرض النصارى مالاً على القاضي الحنبلي حتى لا يعارضهم فرفض بشدة وأرسل للسلطان الأشرف اينال سائلاً إياه باصدار مرسوم شريف في هدمها، وبعد مناقشات طويلة خاصة بين القضاة

٩٥- ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج ٢، ق ١، ص ٢٧٤. ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ج ٢، ص ٤٥٩. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٤٠٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٨٠. ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٦٢، الامام، القدس في العصر الوسيط، ص ١٠٢.

Drory, Jerusalem in the Mamluk Period, p. 210.

٩٦- ابن مصري، الدرّة المضيئة، ص ١٢٧. ابن حبيب، تذكرة النبوة، ج ٢، ص ١١٧.

٩٧- ابن الوردي، تتمة المختصر، ج ٢، ص ٤٠١. ابن حبيب، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٨. ابن الشحنة، الدر المنخب، ص ٧٢. المدني، تاريخ مدينة حلب في العصر المملوكي، ص ٢١٤.

تقرر أخيراً هدم ما استجد من بناء تلك القبة فهدمه العامة والمسلمون^{٩٨}، وفي سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٣م حدث نزاع بين اليهود والمسلمين في القدس حول كنيس لهم، وقد ثبت لدى القضاة أن الكنيس محدث في الاسلام، فأغلقوه ومنعوا اليهود من التعبد فيه، ولم يقف الامر عند هذا الحد بل توجه القاضي الشافعي وبعض العلماء إلى الكنيس وأمروا بهدمه. فرفع اليهود دعوى بذلك إلى السلطان قايتباي، فأرسل السلطان مرسوماً بالبقاء القبض على القاضي الشافعي وبعض العلماء الذين ناصروه، ثم دعا الأمير يشبك بن مهدي الداودار لعقد مجلس في حضرة القضاة الأربعة في القاهرة، فأقضى بعض العلماء بالديار المصرية بجواز إعادة البناء، فأصدر السلطان مرسوماً بإعادة الكنيس، وفي سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م أعاد اليهود بناء كنيسهم وسموا ذلك اليوم «عيد النصر»^{٩٩}.

ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال أن القضاة والفقهاء ورجال العلم المسلمين، قد وقفوا من أهل الذمة موقف العداء على الدوام، فلدينا من الشواهد ما يثبت غير ذلك، فقد كان بعض القضاة يرفضون مجازاة مشاعر العامة في اوقات الاضطرابات ويحكمون لصالح أهل الذمة، ففي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م عقد مجلس في دمشق بسبب أهل الذمة الذين أسلموا كرهاً، وقد كتب لهم جماعة من المفتين بأنهم مكرهون فلهم الرجوع إلى دينهم فعاد أكثرهم إلى دينهم^{١٠٠}. وحينما تغلب التتار على الشام سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م أسروا جماعة من المسلمين وأخرى من أهل الذمة، فذهب القاضي ابن تيمية إلى حاكمهم قطلوشاه^{١٠١} وكلمه في إطلاق سراح الأسرى، فأطلق أسرى المسلمين، ومنع أسرى أهل الذمة فأبى القاضي الرجوع إلا بإطلاق سراح أسرى أهل

٩٨- العليمي الحنبلي، الانس الجليل، ج ٢، ص ٢٦٣، ٢٦٤. الامام، القدس في العصر الوسيط، ص ١٣٤.

Drory, Jerusalem in the Mamluke Period, P. 210.

٩٩- العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٠-٣١٢. ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٠٢. ابو الفلاح، شذرات الذهب، ج ٨، ص ٨. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ١٢٣-١٢٤. الامام، المرجع السابق، ص ١٢٧.

The Jewish Ency..., vol. 7. p. 133.

١٠٠- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣١٣. Ziadeh, Urban Life, p. 100.

١٠١- قطلوشاه: مقدم التتار في موقعه شقيب، توفي (٧٠٧هـ/١٣٠٧م). ابو الحاسن، الدليل الشافعي على المنهل الصافي، ج ٢، تحقيق وتقديم فهم محمد شلتوت، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م، ص ٥٧٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابو الحاسن، الدليل الشافعي.

الذمة وحصل له ما أراد^{١٠٢}. وعندما استولى الفرنج على الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م جاء مرسوم السلطان الأشرف شعبان بن حسين إلى نائب السلطنة بدمشق بمسك النصارى بالشام وتغريمهم بربع أموالهم لعمارة ما خرب بالاسكندرية، وأهينت النصارى وأخرجوهم من بيوتهم، فاحتج بعض الفقهاء على هذه التصرفات وحضر ابن كثير الاجتماع الذي عقده القضاة مع النائب وقالوا بأنه لا يجوز أن يؤخذ من أهل الذمة ما لأفوق الجزية^{١٠٣}. وفي سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م سئل قاضي القضاة في دمشق تقي الدين أبو بكر بن زيد الحارثي عن دير قائم البناء تهدم من حيطانة المحيطة به هدماً أضرباً بأصحابه، فسمح لهم ببناء ما تهدم بالإضافة إلى بناء فرن وطاحونة، فطالبوا كانت الأرض مقرة في أيديهم فلم يبنوا^{١٠٤}. كما أصدر القضاة والفقهاء الفتاوى التي تسمح لأهل الذمة بإعادة بناء ما تهدم من كنائسهم وأديرتهم، فقد كانت عملية تجديد وترميم الكنائس لا تتم إلا بعد موافقة رسمية من فقهاء وقضاة المسلمين.

كما كان للحوادث الفردية التي تصدر من أهل الذمة والتي كانت تستفز مشاعر المسلمين وتلحق الأذى بهم أثر في توتر العلاقات فيما بينهم، ففي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون تعرض رجل نصراني من أهل السويداء^{١٠٥} بالشام إلى سب النبي وشهد عليه جماعة بذلك، فاجتمع الشيخان تقي الدين ابن تيمية والشيخ زين الدين الفارقي ودخلا على الأمير عز الدين أيبك

١٠٢- الصوا، علي، موقف الاسلام من غير المسلمين في المجتمع الاسلامي، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية (مؤسسة آل البيت) معاملة غير المسلمين في السلام، ج١، عمان، المجمع الملكي، ١٩٨٩م، ص ٢١٢. نقلاً عن مجموع فتاوى ابن تيمية، لعبد الرحمن العاصمي، وسيشار له فيما بعد هكذا، الصوا، موقف الاسلام من غير المسلمين. باشا، الادب في بلاد الشام، ص ٥٦.

١٠٣- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ٣٢٩-٣٣٠.

١٠٤- ابو الفلاح، شذرات الذهب، ج٧، ص ٣٣٧-٣٣٨.

١٠٥- السويداء، تصفير سوداء، قرية بحوران من نواحي دمشق، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٢٨٦.

الحموي^{١٠٦}. نائب السلطنة بدمشق فكلماه بأمر النصراني فاجابهما إلى احضاره ومعاملته بالشرع الشريف، وخرجا ومعهما خلق كثير من الناس، فاجار أمير السويداء النصراني وحماءه، ولم يعجب الشيخان موقف الأمير، فلما رأى الناس الأمير سبوه وشتموه ورجموه بالحجارة ووقعت خبطة قوية في البلد فأرسل الأمير عز الدين أيبك إلى الشيخين ابن تيمية وزين الدين الفارقي وأمر بضربهما بين يديه، وقدم النصراني وأعلن إسلامه، فعقد مجلساً بسببه، وأجازت الفقهاء حقن دمه لأنه أعلن إسلامه^{١٠٧}.

وثمة جماعة أخرى من نصاري الحبش قدر عددهم بثلاثة آلاف قدموا إلى زيارة كنيسة القيامة في سنة ٨٨٦هـ/١٤٦١م وبالفوا في إظهار شأنهم حيث لبس كبيرهم شاشاً أبيضاً وسار وأذياه مرفوعة بجواكين من ذهب وجلس على كرسي من ذهب أعد خصيصاً له، وأمر بضرب الناقوس ساعة الاذان فلم يسمع الاذان وغاية أمرهم أنهم يريدون إظهار دين النصرانية والمبالغة في ذلك ولما استنكر أحد المسلمين الأمر ونادى «يا للإسلام» تجمع النصاري عليه وقتلوه^{١٠٨}.

كما كان أهل الذمة أحياناً يقومون بأعمال تخريبية باشعال الحرائق في المدن والقرى كردة فعل للتضييق الذي كان يحدث عليهم وهدم كنائسهم، مما كان يؤثر أيضاً على العلاقات بينهم وبين المسلمين، ففي سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م عمّ حريق جميع المسجد

١٠٦- الأمير عز الدين أيبك الحموي المنصوري ثم الظاهري نسبه الاول الى الملك المنصور الأيوبي صاحب حماء ونسبته الثانية الى السلطان الظاهر بيبرس الذي طلبه من صاحب حماء فأرسله اليه وصار من خواصه واشترك مع الظاهر في حروبه ضد الفرنج في فلسطين تولى نيابة الشام سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م زمن الملك الاشرف بن الملك المنصور، وفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م عزله الملك العادل كتبها عنها وفي سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م زج بالسجن مع عدة امراء. ولما رجع الملك الناصر محمد الى السلطنة افرج عنه واستند اليه نيابة صرخد، توفي سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٣م). الصقاعي، تالي كتاب وفيات الاعيان، ص ١٦، ١٧. دهمان، أحمد، ولاية دمشق في عهد المماليك، دمشق، دار الفكر، ط ٢، ١٩٨١م. ص ٧٩-٨٠. وسيشار له فيما بعد هكذا. دهمان، ولاية دمشق.

١٠٧- الجزري، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن مجد الدين ابراهيم بن ابي بكر، (٧٣٩هـ/١٣٣٨)، حوادث الزمان وأنباؤها ووفيات الاكابر والأعيان من أبنائه، صورة عن مخطوطه محفوظة في مكتبة باريس تحت رقم ٦٧٣٩ AR، تعود إلى الدكتور نعمان جبران، ورقة ١٢١. وسيشار له فيما بعد هكذا، الجزري، حوادث الزمان، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٥٥.

١٠٨- ابن طولون الصالح، مفاكهة الخلان، ج ١، ص ٣٩.

الأموي وما حوله من الدهشات والروايات الشرقية والمنارة الشرقية للجامع وسوق الوراقين والنحاسين واللبادين واحترق للناس شيء كثير، وبقي نائب السلطنة تنكز يركب في المدينة ليلاً ويبعث الولاة للبحث عن الجناة، فوجدوا أن الحريق من فعل كبار النصاري في دمشق وكانت عدتهم عشرة أشخاص، وقالوا بأنهم اشعلوا الحريق لأجل ما جرى على أهالي مدينة سيبس^{١٠٩} على يد المسلمين، وكتبوا محاضرهم، واجتمع القضاة ونائب الشام وحكموا بقتل النصاري الذين فعلوا ذلك، وأن يؤخذ منهم أموال لتعمير ما أحرق فسمروا النصاري وضربت أعناقهم^{١١٠}. وبلغ ذلك مسامع السلطان الناصر فأرسل نائب السلطنة بصغد وقبض على تنكز واعتقله^{١١١} وفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م شب حريق في دمشق لم ير مثله في ذلك الزمان، فقد احترق سوق الوراقين والمئذنة الشرقية للمسجد الأموي، والاختفاين إلى باب الخطابة ودهشة للنساء ودهشتين للرجال. واحترق للناس فيه شيء كثير وأصبح أكثر التجار فقيراً لا يملك شيئاً واحترق فيه نساء ورجال وأطفال وامتد شرر النار ودخل الجامع الأموي واحترق منه أربع جسورة وظل الحريق مشتعلًا من الصباح حتى وقت الظهر^{١١٢}. وكان الحريق يوم السبت، وفيه ألقى القبض على أحد اليهود في أسفل الدرج عند الجامع، وسأله عن سبب خروجه يوم السبت، وأقر بأن الحريق من فعل اليهود فمسكوا أكابر اليهود حتى اختفى اليهود ولم يعد أحد منهم يظهر في دمشق، وجاء مرسوم السلطان الظاهر برقوق بأن يؤخذ من اليهود ألف ألف درهم لأجل بناء الجامع وتعميره وأن يخرجوا إلى خارج المدينة ويحول كنيسهم إلى مسجد^{١١٣}.

١٠٩- سيبس: سيبس العامة يقولون سيبس، وهي من أعظم مدن الثغور الشامية بين انطاكية وطرسوس، وهي قاعدة بلاد الأرمن، ذات أشجار وبساتين وبها قلعة حصينة، وكان استعادتها من الأرمن سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م في زمن الأشرف شعبان بن حسين فأصبحت نيابة مستقلة، ثم صارت تقدمه عسكر مضافة إلى حلب. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص ٣، ص ٢٩٧. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٣٩، ابن حجر العسقلاني، انباء الفهر، ج ١، ص ٩٧، طريف، مدينة حلب في العصر المملوكي، ص ١٥٧.

١١٠- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٨٩، ابن حبيب، درة السلاك، (مخطوط)، ج ٢، ورقة ١١٩٦. وتذكرة النبي، ج ٢، ص ٣١٣، ابن صصري، الدرة المضئية، ص ١١٨، المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٣٩٧. البصري، تاريخ، ص ٨٨-٩٠.

١١١- المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢، ق ٢، ص ٤٩٧، الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ٣٩٧. Margoliuth, Ciro, Jerusalem and Damascus, p. 250.

١١٢- ابن صصري، المصدر السابق، ص ١١٧.

١١٣- ابن صصري، المصدر السابق، ص ١٢٥.

كما كانت حالات الارتداد عن الاسلام تسبب أحياناً توتراً في العلاقات فقد أطلق على النصارى واليهود الذي اعتنقوا الاسلام لفظ المسألة أو المسلمة ومفرده مسلماني، والأسألة أيضاً ومفرده أسلمي^{١١٤}. وكانت عقوبة من أسلم وارتد عن إسلامه القتل^{١١٥}. ففي سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م ضربت أعناق النساء والرجال من النصارى الذين أسلموا ثم ارتدوا عن الاسلام، وانكر الناس، على قاضي القضاء المالكي لكونه ضرب أعناق النساء بين الرجال^{١١٦}. كما كان كثير من النصارى الذين أعلنوا إسلامهم يرتدون مرة أخرى ويختارون سفك دماهم تقريباً لله تعالى وندماً على ما فعلوا^{١١٧}.

ويجدر بنا أن نذكر أنه كان يقام إحتفال كبير في المسجد لمن يشهر إسلامه، فيأتي الشخص الذي يريد أن يسلم إلى الجامع يوم الجمعة وأثناء تأدية صلاة الجمعة والخطيب على المنبر يتلفظ الشخص بالاسلام أمام الناس ويقطع الخطيب خطبته بسببه وتقع ضجة في المسجد^{١١٨}. ففي سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م أسلم ديّان اليهود الطبيب اسحق بن يحيى الاسرائيلي هو وأولاده في دمشق فأكرموا اكراماً زائداً، وعمل في تلك الليلة في داره قراءة للفتحة ووليمة عظيمة حضرها القضاة والفقهاء^{١١٩}.

أما بالنسبة للعلاقات فيما بين أهل الذمة أنفسهم، فلم تكن العلاقات بين النصارى واليهود ودية، وذلك للعداوة التقليدية التي بينهم كما أنه ثمة عداوة كانت قائمة بينهما بسبب المنافسة بين الفريقين في التقرب إلى أصحاب السلطة والنفوذ في البلاد للحصول على مراكز في الدولة^{١٢٠}. ولكن هذا لم يمنع من نجدة اليهود للنصارى، لا سيما في أزمنة الشدة التي كانت تحيق أحياناً بطائفة دون أخرى، إذ كان اليهود يعيرون النصارى عماثهم الصنفاء كي يتمكنوا من اختراق الطرقات آمنين

١١٤- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٨٤٢، هامش رقم (١). قاسم أهل الذمة في مصر، ص ١٧١.

١١٥- أبو يوسف، الخراج، ص ١٧٩. المقرئزي، المصدر السابق، ج ٤، ق ٢، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٢م، ص ٨٨٤. ترتون، أهل الذمة، ص ٢١١.

١١٦- ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠.

١١٧- ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٢٠٨. المقرئزي، المصدر السابق، ج ٣، ق ١، ص ٢٧٣. و ج ٤، ق ٢، ص ٨٨٤.

١١٨- ابن الحاج، المدخل، ج ٢، ص ٢٧٨. العليبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٨٨.

١١٩- الذهبي، ذيل العبر، ج ٤، ص ٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢١.

١٢٠- قاسم، المرجع السابق، ص ٣٩. ترتون، المرجع السابق، ص ١٠٢.

من وثوب العامة عليهم^{١٢١}. كما كان للصراع حول ملكية بعض الأماكن المقدسة أثر في توتر العلاقات بين اليهود والنصارى، فقد نشأ بين اليهود والنصارى بالقدس منذ أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي نزاع حول تملك أحد الأماكن الدينية المقدسة فوق جبل صهيون، ويرتبط هذا النزاع بالقبو الأرضي من كنيسة عليّة صهيون والتي يملكها الرهبان الفرنسيون. وقد طالب اليهود بأحقّيتهم في أملاك القبو لوجود قبر سيدنا داود فيه، وتمكنوا من إخراجهم من أيدي الرهبان الفرنسيين في سنة ١٤٢٧هـ/١٨٢٣م زمن السلطان مؤيد شيخ سنة ١٢٢٣هـ/١٨٢٠م^{١٢٢}. إلا أنه أعيد للرهبان ثانية سنة ١٤٢٧هـ/١٨٢٣م زمن السلطان برسبائي^{١٢٣}، ولكن القبو أعيد بعد سنتين أي في سنة ١٤٢٩هـ/١٨٢٣م بسبب ما بذله أحد أغنياء يهود أوروبا الاشكنازي من أموال، فاقنع السلطان برسبائي بإعادة القبو لليهود. وقد أثار هذا القرار ثائرة النصارى في الغرب فأصدر البابا مارتن الخامس منشوراً بابوياً يحرم على المسيحيين نقل يهود أوروبا إلى الأراضي المقدسة على سفنهم مهدداً المخالفين منهم بحرمانهم من الكنيسة^{١٢٤}. وأخيراً رأى السلطان جقمق حسماً لهذا النزاع ومحافظة على قداسة المكان إخراج القبو من هاتين الطائفتين المتنازعتين، وأن تكون رعاية قبر نبي الله داود بيد المسلمين، وتم تحويل القبو إلى مسجد وإقامة قبلة فيه عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م، وبقي القبو مسجداً للمسلمين ومزاراً لكل من المسلمين والنصارى واليهود حتى أواخر العصر المملوكي^{١٢٥}.

وهكذا نستطيع القول بأن العلاقات بين المسلمين واليهود كانت أفضل مما هي بين النصارى واليهود، إذ لم يثر اليهود ما أثاره النصارى من الشعور السيء، فقد تبين أن اليهود والنصارى في مملكة صفد لم يجتمعوا في قرية واحدة، في حين اجتمع المسلمون واليهود والمسلمون والنصارى^{١٢٦}.

١٢١- المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٢٧، تروتون، أهل الذمة، ص ٧٨.

١٢٢- دراج، المعاليك والفرنج، ص ٣٧.

١٢٣- دراج، المرجع نفسه، ص ٣٤.

١٢٤- دراج، المرجع نفسه، ص ٣٤.

Drory, Jerusalem in the Mamluk period, p. 212. The Jewish Ency..., Vol, 7, pp. 132-133. Adler, Jewish Travellers, p. 243.

١٢٥- العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٩٨، ٢٥١. دراج، المرجع السابق، ص ١٤، ٣٤.

١٢٦- الطراونة، مملكة صفد، ١٤٢.

(٣)

القيود الاجتماعية

كان على أهل الذمة الالتزام ببعض الشروط والقيود في الملابس ومظاهر النشاط الاجتماعي، وتمثلت هذه القيود بلبس الغيار^{١٢٧} والزام النصارى باللون الأزرق واليهود باللون الأصفر وتحدد اللون الأحمر للسامرة. وعلى النساء الذميات أن يرتدين في أثناء وجودهن في الشوارع أقمشة زرقاء أو صفراء على رؤوسهن أو فوق صدورهن حتى يمكن تمييزهن بها عن زميلاتهن المسلمات، وكان من الضروري أن يرتدين أحزمتهن (الزئار) فوق الرداء الفوقاني الذي يطلق عليه الإزار، ولا بد أن يكون الحزام من ألوان متنوعة وفق اللون المخصص للطائفة، وخفين أحدهما أبيض والآخر أسود، ويكون في أعناقهن خاتم عندما يدخلن الحمام^{١٢٨}. كما فرض على الرجال أن يميزوا أنفسهم بصليب من الحديد أو الرصاص أو النحاس في رقابهم عند دخولهم الحمام، ويمنعوا من ركوب الخيل ويركبون البغال والحمير بالأكف عرضاً أي من جانب واحد. كما يمنعون من حمل السلاح والتقلد بالسيوف^{١٢٩}، ويمنع أهل الذمة من إظهار الصليبان في طرق وأسواق المسلمين وعدم ضرب النواقيس إلا ضرباً خفيفاً وأن لا يرفعوا أصواتهم بالقراءة أو رفع الندب على أمواتهم ولا يعلو بنيانهم على بنيان المسلمين، ولا يتصدرون في المجالس، ولا يذاحمون المسلمين في الطرقات، ويمنعون من

١٢٧- الغيار: نوع من الملابس تميز به أهل الذمة عن المسلمين في العصور الوسطى. ابن حبيب، تذكرة النبوة، ج ١، ص ٢٢٣. هامش رقم ١.

١٢٨- الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٠٦، ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٩٦. ابن قيم الجوزية، شرح الشروط العمرية، ص ١٠٠. ماير، ل. م، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة وتقديم عبدالرحمن فهمي محمد، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٥٢ م. ص ١٢٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، ماير، الملابس المملوكية.

١٢٩- الشيزري، المصدر السابق، ص ١٠٦، ١٠٧. ابن الأخوة، المصدر السابق، ص ٩٤، ٩٦. ابن قيم الجوزية، المصدر السابق ص ١٠٢، ١٠٤. Stillman, The Jews of Arab Lands, p. 271.

إظهار الضرر والخنزير^{١٣٠}. ولا يجوز بيع الجارية أو المملوك إذا كانا مسلمين لأهل الذمة^{١٣١}.

تلك هي بعض القيود الاجتماعية التي فرضت على أهل الذمة، وقد ورد بعضها في «العهد العمري» المنسوب إلى الخليفة عمر بن الخطاب، ويجدر بنا أن نكرر ما سبق ذكره من أن عهد عمر بصورته التقليدية والتي تناقلتها معظم المصادر العربية لم يبدأ في الظهور إلا في أواخر القرن الثاني الهجري، وسواء صحت نسبة العهد العمري إلى الخليفة عمر بن الخطاب أم لا فإن هذا العهد أو هذه الشروط المنسوبة إلى هذا الخليفة كانت هي الأساس التي فرضت بمقتضاها القيود على أهل الذمة فيما يتعلق بملابسهم ومظاهر حياتهم اليومية^{١٣٢}، وكان على المحتسب أن يراعي التزامهم بتلك القيود^{١٣٣}، كما حرص الحكام في وصاياهم لرؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة في أعقاب تعيينهم أن يلزموا أتباعهم بهذه القيود^{١٣٤}.

إلا أنه يمكننا الاستنتاج من تعدد المراسيم التي صدرت لأهل الذمة بهذه القيود أن الالتزام بها كان يخف تدريجياً بمرضي الوقت حتى ينسى أمرها بعد فترة.

ففي بداية عهد السلطان صلاح الدين تشدد في فرض القيود الاجتماعية على أهل الذمة حيث اشترك بعضهم مع أعدائه للاطاحة بحكمه، واتصلوا بالفرنج والاسماعيليه في الشام للاستعانة بهم^{١٣٥}. فيذكر المقرئزي أنه في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م نوذي بمنع أهل الذمة من ركوب الخيل والبغال من غير استثناء طبيب ولا كاتب^{١٣٦}. كما صدر عنه كتاب إلى والي الشام يوضح فيه المفاسد والمحرمات ويطلب منه منع

١٣٠- الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٠٧. ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٩٤، ٩٥، ٩٦.

Stillman, The Jews of Arab Lands, p.271.

١٣١- الشيزري المصدر السابق، ص ٨٤، ابن قيم الجوزية، شرح الشروط العمريّة، ص ٧٤.

١٣٢- قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٥٥.

١٣٣- الشيزري، المصدر السابق، ص ١٠٦، ١٠٧، ابن الأخوة، المصدر السابق، ص ٩٤.

١٣٤- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٢، ١٤٣، (وصية رئيس اليهود)، القلقشندي، صبح الأعمش، ج ١١، ص ٢٨٥، (وصية رئيس اليهود).

١٣٥- أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٢٢٠، ٢٤١، ٢٤٢. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٢١٧.

Ye'or, The Dhimmis, p. 71.

١٣٦- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٧٧.

الخمرة والرشوة^{١٣٧}. غير أن صلاح الدين عندما استتبت له الأمور في مصر وبلاد الشام، قرب أهل الذمة اليه وأدناهم وأنعم عليهم، وركبوا الخيول والبغال ولبسوا الثياب المبهجة بدليل أن طبيبه النصراني ابن المطران كان يلبس أغلى الثياب وأفخرها ويركب بمماليك ترك وكأنه وزير^{١٣٨}.

وفي سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م استقر الملك، العزيز بدمشق وأظهر العدل ومنع استخدام أهل الذمة في شيء من الخدم السلطانية، والزموا بلبس الغيار^{١٣٩}. وقد ألزم أهل الذمة في مصر والشام بركوب الحمير طيلة عهد السلطان العزيز عثمان والسلطان الملك العادل. إذ يسجل عبداللطيف البغدادي الذي زار مصر سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م في كتابه «الافادة والاعتبار» عند ذكره لأسماء الحيوانات في مصر ما يلي: «وهناك الحمير فارهة جداً وتركب بالسروج وتجري مع البغال والخيول النفيسة ولعلها تسبقها وهي مع ذلك كثيرة العدد، ومنها ما هو عال بحيث إذا ركب بسرّج اختلط مع البغلات، يركبه رؤساء اليهود والنصارى وبلغ ثمن الواحدة عشرين ديناراً إلى أربعين...»^{١٤٠}.

وفي عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب عاد أهل الذمة إلى الالتزام ببعض القيود التي فرضت عليهم. وسبب ذلك أن مسلماً ذهب إلى سوق التجار في القاهرة وشاهد اثنين من النصارى يرتديان ملابس أنيقة وكأنتهما من نبلاء المسلمين، ووصلت هذه الحقيقة إلى أذهان السلطان، فأصدر مرسوماً ألزم فيه النصارى بلبس الزنار وأن يضع اليهود والنصارى علامة تميزهم عن المسلمين^{١٤١}.

١٣٧- الشيزري، المنهج السلوك في سياسة الملوك، تحقيق علي عبدالله موسى، الزرقاء، مكتبة المنار، ط٢، ١٩٨٧م، ص ٥١. وسيشار له فيما بعد هكذا، الشيزري، المنهج السلوك.

١٣٨- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٥١، ٦٥٢. عيسى، أحمد، معجم الأطباء أو ذيل عيون الأنباء وطبقات الأطباء، مصر، مطبعة فتح الله البابي وأولاده، ١٩٤٢م، ص ١٣٥، ١٣٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، عيسى، معجم الأطباء.

١٣٩- المقرئزي، السلوك، ج١، ق١، ص ١٢٥.

١٤٠- البغدادي، موفق الدين أبو عبداللطيف يوسف بن محمد، (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)، كتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، تحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٣م، ص ٢٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، البغدادي، الافادة والاعتبار. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٢١٧.

١٤١- ابن الواسطي، الرد على أهل الذمة، ص ٤٠٣. Ye'or, The Dhimmi, p207.

كما خضعت الحريات الاجتماعية في العصر المملوكي من حين إلى آخر لبعض القيود، ولم تكن سياسة سلاطين المماليك بالنسبة إلى التشدد في إلزام أهل الذمة بالقيود الاجتماعية واحدة بل اختلفت ليناً وشدة، ففي عهد السلطان المنصور قلاوون يذكر المقرئ في عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م أن النصاري كانوا يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم ولا يجسر نصراني أن يحدث مسلماً وهو راكب، وإذا مشى فبذله، ولم يستطع أحد منهم أن يلبس ثوباً مصقولاً^{١٤٢}.

وفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م أمر الأمير كتبغا^{١٤٣} أن ينادى بدمشق في يوم عرفه أن لا يركب أحد من أهل الذمة خيلاً ولا بغلاً ومن رأى من المسلمين أحداً من أهل الذمة خالف ذلك فله سلبه^{١٤٤}.

أما في عهد الناصر محمد بن قلاوون فقد عومل أهل الذمة بأحسن مما عوملوا به من قبل، فعندما قلد الناصر محمد ابنه الأمير أحمد نيابة الكرك وكتب له تقليداً بذلك أوصاه خيراً بأهل الذمة وفي ذلك يقول: «وأهل الذمة فأوهم إلى كنف العدل الواسع، واحمهم أن تمتد إلى أنفسهم يد جان وإلى أموالهم يد طامع وأقم عليهم بأساً يحلُّ بهم إذا اعتدوا القواصم والقوارع، وأدم لهم مهابة تسدُّ من فساد الذرائع...»^{١٤٥}. فتمتعوا بكامل حقوقهم، وبدأ بعض فقهاء المسلمين يعلنون تذرهم من المبالغة في التراخي مع الذميين^{١٤٦}. وصادف في ذلك الوقت أن زار القاهرة وزير مغربي واسترعى نظره رجلاً يركب فرساً ويلبس ملابس بيضاء مصقولة ويسير في ركاب جماعة من المسلمين يتضرعون إليه ويقبلون رجليه وهو يعرض عنهم وينهرهم وهم يصيحون يا مولاي الشيخ بحياة ولدك النشور تنظر في جالنا، ولم يزد ذلك إلا تجبراً

١٤٢- المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٥٤٥. حسن، علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحرية، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، ١٩٦٧م، ص ٤٤٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، حسن، تاريخ المماليك البحرية، ماير، الملابس المملوكية، ص ١١٧. ترتون، أهل الذمة، ص ١٣٥.

Little, History of the Mamluks, p. 553

١٤٣- الأمير كتبغا: تسلطن في ١١ محرم ٦٩٤هـ/١٢٩٤م. وخلع في ٢٤ صفر ٦٩٦هـ/١٢٩٦م. كانون أول ١٢٩٦م. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٥٨. غوانمة، التاريخ السياسي لشرقي الأردن، ص ٢٣.

١٤٤- ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٦٠.

١٤٥- القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٢٧٧. غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ١٤٢.

١٤٦- ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٩٦، ٩٧.

وعتوا، فتساءل الوزير عمن يكون هذا الرجل الذي يحاط بكل مظاهر التبجيل والتعظيم، فلما علم أنه نصراني غضب وسار إلى القلعة حيث قابل الأمير سيف الدين سلاّر نائب السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير وقصّ عليهم ما رآه وهو يبكي، ووعظ الأمراء وحذرهم نقمة الله أن هم تمادوا في حسن معاملتهم، وبين كيف يعاملون أهل الذمة في المغرب ولا يمكنوهم من ركوب الخيل ولا يستخدمونهم في الجهات الديوانية، وأشار عليهم بضرورة الالتزام بالعهد العمري، وتأثر الملك الناصر والأمراء بكلام الوزير، وعقد مجلساً بحضور قضاة مصر وعلمائها وفقهائها ورؤساء النصارى واليهود، وأوضحوا فيه ما يجب على أهل الذمة الالتزام به، فاصدر السلطان في ٢٠ رجب ٧٠٠هـ/ ٢ نيسان (ابريل) ١٣٠٠م مرسوماً يقضي بالزام النصارى بلبس العمام الزرق واليهود العمام الصفرة والسامرة الحمر^{١٤٧}. وأغلقت الكنائس بمصر والقاهرة وسمرت أبوابها، والزموا بأن لا يركبوا إلا الحمير وأن يلف أحدهم إحدى رجله إذا ركب وأن لا تعلق منازلهم على منازل المسلمين، ورسم الا يستخدم أحد منهم في الجهات السلطانية ولا عند الأمراء وكتب بذلك إلى جميع الأعمال ليعمل بمقتضاه وأسلم بسبب ذلك كثير منهم^{١٤٨}.

وفي سابع شعبان يوم الاثنين من نفس العام وصلت أوامر السلطان بالبريد إلى دمشق وأذاعها النائب والقضاة وألبس أهل الذمة بالشام، اللون المخصص لهم النصارى الأزرق واليهود الأصفر والسامرة الأحمر، واستثنى أهل الكرك والشوبك من تلك القيود لأن غالبية سكانها كانوا من النصارى، فلم يغيروا العمام البيض^{١٤٩}.

١٤٧- العمري، مسالك الأبصار، (مخطوط)، ج ١١، ق ١، صورة عن نسخة مكتبة الاستانة، بدون رقم، ويوجد عنها نسخة على ميكروفيلم في قسم المخطوطات بجامعة اليرموك تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة، ورقة ١٧٥. الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٤٩. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٣٥٩. ابن حبيب، درة الاسلاك، (مخطوط)، ج ١، صورة عن نسخة مكتبة يودليان، اكسفورد، برقم ٢٢٣ مجموعة مارش، ويوجد نسخة عنه على ميكرو فيلم في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية برقم ٥٣٩، ورقة ١٢٠٦. وتذكره النبية، ج ١، ص ٢٢٣. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٣٧٧ ومآثر الإنافة، ج ٢، ص ١٢٢. المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٥٤٧. ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤٠٨. زربا، الحياة الاجتماعية في دمشق، ص ١٨٨.

Little, History of the Mamluks, p. 555. Ye'or, The Dhimmis, p. 193.

١٤٨- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٧٧، ابو الحسن، النجوم الزاهرة ج ٨، صورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م. ص ١٣٤.

١٤٩- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٦. المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥١٢. البخيت، مملكة الكرك، ص ٢٧. حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٤٥١. ماير، الملابس المملوكية، ص ١٢١.

كما كان للشوبك والكرك مكانة خاصة في وجدان الملك الناصر محمد لأنها ملاذ في الشدائد ومركز نفوذه القوي في وجه معارضيه وخصومه فلهذا كان يستثنيه من كل قرار جماعي^{١٥٠}.

واستغل الغوغاء من العامة هذه المراسيم ذريعة لنهب النصارى واليهود وسلبهم والتحرش بهم في الطرقات وداروا على دور أهل الذمة ومما وجدوه أعلى مما جاورها من دور المسلمين انزلوه عن مستواه، وأنزلوا مصطبة حانوت كل تاجر مجاوراً لحانوت مسلم، بحيث يكون المسلم أعلى منه^{١٥١}.

وفي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م أوعز الوزير ابن الخليلي إلى السلطان لاعتبارات مالية أن يسمح للنصارى واليهود بالعودة إلى إرتداء العمامم البيض مقابل سبعمائة ألف درهم، إلا أن القاضي ابن تيمية قام بتحريض السلطان على تأكيد وجوب أن يرتدي اليهود والنصارى اللون الأزرق والأصفر^{١٥٢} وفي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م أشعل النصارى عدة حرائق في القاهرة انتقاماً لما حدث لهم على أيدي المسلمين فثارت العامة ورفعوا الخرق الزرق وهم يصيحون لا دين إلا دين الاسلام، فخاف السلطان الفتنة فنودي بالقاهرة ومصر بمنع النصارى من لبس العمامم البيض ولبس العمامم الزرق، وألا يركبوا فرساً ولا بغلاً وأن يركبوا الحمير عرضاً، ولا يدخلوا الحمام إلا بجرس في أعناقهم ولا يتزياوا بزي المسلمين، وطردها من دواوين السلطان والامراء وأغلقت الاديرة والكنائس، وكتب بذلك إلى سائر الأعمال واعتنق عدد منهم الاسلام ليحتفظوا بوظائفهم وليتخلصوا من تلك القيود. وتجرأت العامة على النصارى بحيث صاروا اذا وجدوهم ضربوهم وعروهم ثيابهم فلم يتجاسر نصراني ان يخرج من بيته، ولم يتحدث في أمر اليهود، فكان النصراني اذا طراً له أمر يتزيا بزي اليهود ويلبس عمامة صفراء ليخرج لاداء حاجته^{١٥٣}. ومع اشتداد نقمة العامة استخدم السلطان الناصر نفوذه لمصلحتهم ووقف موقف الحزم من العامة ولم ير بدأ من تنفيذ القوانين بكل صرامة، ومما يدل على ذلك أن أحد الصوفيين المتعصبين رأى أحد المسلمين يقبل يد أحد كتاب السر النصارى بدمشق فهجم عليه وقتله، فأمر الناصر^{١٥٠}. غوانمة، دراسات، ص ٢٧، والتاريخ السياسي لشرقي الاردن، ص ١٤٤، ١٥٢، والتاريخ الحضاري، ص ١٤٢.

١٥١- ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٣٤، ١٣٥. حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٤٥٢.

١٥٢- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٥٦. ابن حبيب، درة الاسلاك، (مخطوط)، ج ١، ورقة ٢٢٢. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٧٦. ترتون، أهل الذمة، ص ١٣٦. ماير، الملابس المملوكية، ص ١١٨. Little, The History of the Mamluks, p. 559. Shorter Ency ... of Islam, p. 441.

١٥٣- ابن النوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٨٨، المقريزي، السلوك، ج ٢، ق ١. ص ٢٢٦، ٢٢٧. ترتون، المرجع السابق، ص ٧٨. The Ency... of Islam, Vol, V, p. 98.

بشأن هذا الصوفي وتعليق جسمه على باب المدينة غير مبال بصياح العامة وحماستهم لتخليصه^{١٥٤}.

والخلاصة أن الناصر محمد بن قلاوون أحسن معاملة أهل الذمة من بعد هذه الحوادث ولولا ما أبداه من الحكمة وما أظهره من الحزم بسبب ما بدر من العامة من عنث في تنفيذ تلك القوانين لتفاقمت حال أهل الذمة وعمت الفتنة وانتشرت الحروب الأهلية في كل أرجاء دولة الناصر^{١٥٥}.

وسار أولاد الناصر محمد وأحفاده على سياسة أبيهم في العطف على أهل الذمة، إلا أنه في عهد ابنه السلطان الصالح صلاح الدين صالح ٧٥٢-٧٥٥هـ / ١٣٥١-١٣٥٤م، وقعت بعض الحوادث التي أدت إلى أن يصدر السلطان سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م مرسوماً يشبه مرسوم سنة ٧٠٠هـ وكتب إلى جميع الأعمال بمصر وبلاد الشام أن لا يستخدم يهودي ولا نصراني في الخدم السلطانية إلا من أسلم، وأن يلزم من أسلم منهم بملازمة المساجد والصلوات الخمس والجمع، وأن مات شخص من أهل الذمة يتولى المسلمون توزيع تركته على ورثته إن كان له وارث، وأن لم يكن فليبيت المال^{١٥٦}، فأسلم بعدها كثير من

١٥٤- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، (ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٦م، ص ٨٥، وسيشار له فيما بعد هكذا، اليوسفي، نزهة الناظر، حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٤٥٨. زربا، الحياة الاجتماعية في دمشق، ص ١٩٠.

١٥٥- حسن، المرجع السابق، ص ٤٦١.

١٥٦- بالنسبة إلى تركات أهل الذمة بعد وفاتهم، حافظت السلطات الأيوبية والمملوكية عليها، فقد كان يتم حصر الأعيان بعد إذن القاضي، المسلم الشرعي، وحضور شهود من المسلمين، وكان لا يسمح لأحد بالاعتداء على أموالهم في حال وجود وارث لهم. فقد حدث بالقدس في ٢٥ صفر ٧٩٥هـ / ٦ كانون الثاني (يناير) ١٢٩٧م أن ختم وإلى المدينة على أموال يهودي توفي قبل أن يتأكد من وجود وريث له أم لا، وذلك بقصد الطمع والقبض على أمواله، فرفع شيخ المغاربة بالقدس إلى نائب السلطنة في دمشق يعلمه ذلك فأرسل النائب من يتحقق في الأمر ويرد حقوق ورثة اليهودي، العسلي، وثنائق مقدسيه تاريخية، ج ٢، ص ٩٠-٩٥. وثيقة رقم (٢٣٥) بتاريخ ٢٠ ذي القعدة ٧٩٥هـ / ٢٧ تموز (سبتمبر) ١٢٩٢م. وصالحية، حوليات كلية آداب جامعة الكويت، ص ٩٢-٩٣. نفس الوثيقة.

أهل الذمة^{١٥٧}. ويعلق المقرئزي على ذلك بقوله: «مكرأ منهم وخديعة حتى يستخدموا في المباشرات وينكحوا المسلمات، فتم لهم مرادهم واختلطت بذلك الانساب...»^{١٥٨}. ومن ضمن القيود المستجدة التي وردت في المرسوم، منع أهل الذمة من لف أكثر من عشر أذرع من القماش حول عماثهم^{١٥٩}. لأن اتجاه الزي الشائع (الموضة) في ذلك الوقت كان يعيل نحو تضخيم العماث على نحو أكبر فأكبر واتخذ النصراني واليهود نفس الاتجاه^{١٦٠}. ومن التطورات الأخرى التي حدثت بسبب تلك القيود فقد حددت قيمة الحمار الذي يركبه الذمي دون المائة درهم، ومنعت النساء الذميات من دخول الحمامات مع المسلمات، وتغير لون الخفين أحدهما أبيض والآخر أسود. بينما كان لون الخفين في عهد الخليفة الحاكم أحدهما أحمر والآخر أسود، كما ألزمت النساء اليهوديات بلبس رداء أصفر والنصرانيات بلبس رداء أزرق بعد أن كنّ في السابق يكتفين بوضع إشارة فقط على ملابسهن لتمييزهن عن المسلمات^{١٦١}.

١٥٧- الذهبي، ذبول العبر، ج٤، ص١٦٢. النويري الاسكندراني، محمد بن قاسم بن حمد، (ت بعد سنة ٧٥٥هـ/١٢٥٤م)، الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في رقعة الاسكندرية، ج٢، تحقيق اتين كومب واتم تحقيقه عزيز سوريال عطيه، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٩م، ص ٩٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، النويري الاسكندراني، الامام بالاعلام، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ٢٦٢. ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج٢، ص ٢٠٤. القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٣٧٨ ومآثر الانافة، ج٢، ص ١٥٧. ١٥٨- المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٨م، ص ٩٢٢. والخط، ج٢، ص ٥٠٠، حسن، تاريخ المعاليك البحرية، ص ٤٦١، حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ٢٦١.

١٥٨- المقرئزي، الخط، ج٢، ص ٥٠٠.

١٥٩- ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤، ص ٢٦٢. ابن دقماق، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠٤. القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٢٨٣.

١٦٠- ماير، الملابس المملوكية، ص ١١٨.

١٦١- ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤، ص ٢٦٢. ابن دقماق، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠٤. القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٢٨٣. ومآثر الانافة، ج٢، ص ١٥٨.

واستمرت القيود الاجتماعية تفرض على أهل الذمة طيلة العصر المملوكي، وإن وجدت فترات لم يلتزم بها الذميون بقيود الملابس، فلا يعني هذا أن المراسيم كانت ملغاة. وإن طبقت تماماً في بعض الأحيان فهذا يعني أن السلطان كان شديداً في غيرته الدينية، أو بسبب حدوث سخط من جانب العامة على الذميين، ففي سنة ٧٨٢هـ/١٢٨٠م ألزم أهل الذمة بركوب الحمير بالأكف، أي من غير ارسال الرجل، ووضع خواتيم في أعناقهم في الحمامات ليطمئذوا عن المسلمين^{١٦٢}. وفي سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م في عهد السلطان مؤيد شيخ جدد المحتسب قيود الملابس على الذميين وأمر النصاري واليهود أن يضيقوا أكماس أقبعتهم ويقللوا من ضخامة عمامتهم بحيث لا يزيد شال العمامة عن سبعة أذرع أي حوالي أربعة امتار، والزام نساءهم باللون المخصص لهن^{١٦٣}. وفي سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م نودي على أهل الذمة أن يصغروا عمامتهم وأن لا يدخلوا الحمامات مع المسلمين ومن دخل منهم فليكن في عنقه جلجل أو طوق من الحديد، فضجوا من ذلك ورفعوا أمرهم إلى السلطان برسبالي الذي عقد مجلساً من الفقهاء وخفف تلك القيود، بأن يدخلوا الحمامات وفي رقابهم خيط فيه خاتم من حديد أو رصاص وأن لا يتعرض لعمامتهم كبرت أم صغرت وأن نساءهم يتميزن عن النساء المسلمات بشيء قدر الكف أو أصغر من لون عمام أزواجهن^{١٦٤}. وفي حالة عدم الاستجابة لهم في تخفيف القيود عنهم، كانوا يتظاهرون في الاسلام، فيعودون إلى مباشرة أعمالهم ويركبون الخيول المسومة ويتخذون الرقيق من المسلمين والمسلمات ويتمادون في ذلك^{١٦٥}. ففي سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م رسم السلطان جقمق للقاضي وكيل بيت المال، أن يحضر ما عند النصاري من الرقيق حيث بلغه أنهم يشترون الإماء المسلمات ويستخدموهن، فشك ذلك على السلطان^{١٦٦}.

١٦٢- ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ١٨.

١٦٣- ابوالحسن، النجوم الزاهرة، ج ١٤، تحقيق جمال محمد محرز وفهيم محمد شلتوت، القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص ٨٢. ماير، الملابس المملوكية، ص ١١٩.

Hirschler, The Social Isolation of Ahl Adh-Dimma, p. 80.

١٦٤- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج ٨، ص ١١٩. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٧٦.

Hirschler, Op, Cit, p. 80.

١٦٥- المقرئزي، السلوك، ج ٤، ص ٤٩٤. أبو الحسن، المصدر السابق، ج ١٥، تحقيق إبراهيم طرخان، مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص ٤٠٧.

١٦٦- ابن أبياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٩٥.

وكان أهل الذمة أحياناً يتخلصون من تلك القيود عن طريق بذل الاموال إلى الديوان السلطاني، ففي سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م صدر مرسوم السلطان خشقدم في مصر وسائر الأقطار بمنع أهل الذمة من المباشرة في الدواوين بوجه من الوجوه ما عدا الطب والصيرفة وإلزامهم الغيار والقيود التي على الحمامات، فأسلم من جراء ذلك عدد منهم ودام ذلك مدة سنة، ثم بعد ذلك «سعوا بمال له صورة» أوردوه إلى الخزائن السلطانية، وعاد كل شيء على حاله أولاً^{١٦٧}. وكان الشيء المميز في مرسوم ٨٦٨هـ/١٤٦٣م، بأن اشترط على النساء الذميات وضع الإشارة على الرأس^{١٦٨}. وفي سنة ٩٢٣هـ/١٥١٦م نودي بدمشق أن لا يركب نصراني أو يهودي أو سامري أو أفرنجي فرساً أو حمراً في دمشق وضواحيها^{١٦٩}.

وهكذا نستطيع القول أن سياسة التعصب الديني التي شاعت في العصر المملوكي وأدت إلى اتخاذ تدابير قاسية بحق أهل الذمة عامة والنصارى خاصة كان بسبب الشعور المعادي الذي ولدته الحروب الصليبية وما ارتكبته من ويلات ضد المسلمين^{١٧٠}.

ومن المعروف أيضاً أن العصور الوسطى عرفت بأنها عصور الإيمان، وتميزت بتغلب الروح الدينية والمشاعر المتزمتة التي حكمت تصرف أبناء تلك العصور في العالمين الإسلامي والنصراني على السواء، لذا تعرضت الأقليات الدينية إلى الشدة والقسوة، ومع ذلك كان وضع غير المسلمين تحت الحكم الإسلامي أكثر سهولة وتسامحاً من وضع غير النصارى تحت الحكم النصراني في أوروبا في العصور الوسطى^{١٧١}. كما أن نزعة التفريق بين اليهود والنصارى كانت بارزة في العالم النصراني في حين أنها لم تكن مؤكدة ذات الشيء في العالم الإسلامي^{١٧٢}.

١٦٧- ابن أبياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤١٣. ماير، الملابس المملوكية، ص ١١٩.

١٦٨- Hirschler, The Social Isolation of Ahl Adh-Dinma, p. 80.

١٦٩- ابن طولون الصالح، مفاكهة الخلان، ج ٢، ص ٦٦.

١٧٠- اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٨٤. حتي، مختصر تاريخ لبنان، ص ١٤٨. حسن تاريخ الممالك البحرية، ص ٤٤٦. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٨٢.

Atyia, Aziz, The Crusade in the later Middle Ages, New York: Kraus Reprint Co., 2nd ed, 1970, p. 275.

وسيشار له فيما بعد هكذا. Atyia, The Crusade in the Later Middle Ages.

١٧١- Lewis, Bernard, The Jews of Islam, London: Routledge and Kegan Paul, 1981, p. 62.

وسيشار له فيما بعد هكذا. Lewis, The Jews of Islam.

١٧٢- Hirschler, The Social Isolation of Ahl Adh-Dinma, p. 74.

وكثيراً ما كانت أسباب تلك القيود المتشددة على أهل الذمة نتيجة تزايد ترف أهل الذمة واقتنائهم الأموال الكثيرة وتولييتهم الأعمال الإدارية واستفزاز مشاعر المسلمين عن طريق التفاهر بلبس الثياب الفاخرة والركوبات الرائعة واقتناء الجواري المسلمات مما يثير أحقاد الرعية وغضب الفقهاء والقضاة ورجال العلم من المسلمين، مما يجبر السلاطين على إصدار مثل تلك المراسيم تخميدياً لثورة العامة، لذا فقد كانت أحياناً وليدة غضب الشعب ولم تكن من تعصب الهيئة الحاكمة^{١٧٣}. كما وجد بعض سلاطين المماليك في تلك المناسبات وفرض القيود عليهم فرصة للحصول على الأموال منهم عن طريق دفعهم مبالغ معينة لخزينة الدولة للتخلص من تلك القيود وخاصة عندما تكون الدولة في أزمة مالية^{١٧٤}.

ويبدو أن أهل الذمة باستثناء اوقات الشدة والاضطرابات قد تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية، فكان الالتزام بتلك القيود يخف تدريجياً حتى ينسى أمرها بعد فترة، وأن مجرد تجديد هذه المراسيم الخاصة هو الدليل القوي على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوي على التعصب لم تكن موضع التنفيذ دائماً. فالتسامح الديني كان سائداً في معظم العصور الإسلامية.

١٧٣- ابن الاخوة، معالم القرية، ص ٩٦. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٥٤٨. لين بول، ستانلي، سيرة القاهرة، ترجمة حسن ابراهيم وعلي ابراهيم، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، دت. ص ١٩٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، لين بول، سيرة القاهرة. The Ency ... of Islam, Vol. v, p. 93.

١٧٤- قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٨٤. حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٤٤٨.

(٤)

التعليم

لم تكن الحياة التعليمية في بلاد الشام في العصورين الأيوبي والملوكي قاصرة فقط على التعليم الاسلامي، وانما شاركت طوائف اليهود والنصارى بقدر معين من التعليم، فكان لهم مكاتبهم الخاصة لتعليم أبنائهم، حيث يتم فيها تعليم الأطفال أصول دينهم، وبعض القصص الدينية وربما كانوا يحفظون بها شيئاً من كتبهم المقدسة، بالإضافة إلى تعلم القراءة والكتابة وعلم الحساب. وكانت هذه المكاتب شبه مشتركة إذ يمكن للأطفال المسلمين دخولها والدراسة بها^{١٧٥}. حيث كان بعض المسلمين يلحقون أولادهم بمكاتب النصارى وخصوصاً لتعليمهم علم الحساب بدعوى أن النصارى في علم الحساب والطب أحق بتعليمهما من المسلمين^{١٧٦}.

وقد اهتم اليهود بتعليم أطفالهم، إذ كان التعليم لديهم ضرورة مهمة فقد كان الآباء كثيرون يهتمون بهذه الناحية وشديدي الحرص على إرسال أطفالهم إلى مكاتب التعليم فكثيراً ما نقرأ في أوراق الجنيزة وصايا من الآباء المسافرين إلى الأمهات بضرورة الاهتمام بتعليم الأولاد وإرسالهم إلى المكاتب، ففي إحدى الرسائل تخبر الأم زوجها «... أطفالك بحالة جيدة ويذهبون إلى المدرسة كل يوم وإلى الكنيس يوم السبت...»^{١٧٧} أما الفتيات فكانت فرص تعليمهن قليلة فكنّ حسب القانون اليهودي يمنعن من إرسالهن إلى المدرسة^{١٧٨} ولكن يتضح من خلال بعض الوثائق أنه كان متاح لهن بعض الفرص للتعليم، فقد وجد في إحدى رسائل موسى بن ميمون -المحفوظ صورة عنها في المتحف البريطاني- أنه كان مع طلاب الصف فتيات يدرسن لأن المعلم

Goitein

١٧٥- محمود، عبدالغني، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
ص ١١٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، محمود، التعليم في مصر، السيد، القدس في العصور الملوكي، ص ١٦٠. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٢٤٢. ^{١٧٦} ^{١٧٧} ^{١٧٨} ^{١٧٩} ^{١٨٠} ^{١٨١} ^{١٨٢} ^{١٨٣} ^{١٨٤} ^{١٨٥} ^{١٨٦} ^{١٨٧} ^{١٨٨} ^{١٨٩} ^{١٩٠} ^{١٩١} ^{١٩٢} ^{١٩٣} ^{١٩٤} ^{١٩٥} ^{١٩٦} ^{١٩٧} ^{١٩٨} ^{١٩٩} ^{٢٠٠} ^{٢٠١} ^{٢٠٢} ^{٢٠٣} ^{٢٠٤} ^{٢٠٥} ^{٢٠٦} ^{٢٠٧} ^{٢٠٨} ^{٢٠٩} ^{٢١٠} ^{٢١١} ^{٢١٢} ^{٢١٣} ^{٢١٤} ^{٢١٥} ^{٢١٦} ^{٢١٧} ^{٢١٨} ^{٢١٩} ^{٢٢٠} ^{٢٢١} ^{٢٢٢} ^{٢٢٣} ^{٢٢٤} ^{٢٢٥} ^{٢٢٦} ^{٢٢٧} ^{٢٢٨} ^{٢٢٩} ^{٢٣٠} ^{٢٣١} ^{٢٣٢} ^{٢٣٣} ^{٢٣٤} ^{٢٣٥} ^{٢٣٦} ^{٢٣٧} ^{٢٣٨} ^{٢٣٩} ^{٢٤٠} ^{٢٤١} ^{٢٤٢} ^{٢٤٣} ^{٢٤٤} ^{٢٤٥} ^{٢٤٦} ^{٢٤٧} ^{٢٤٨} ^{٢٤٩} ^{٢٥٠} ^{٢٥١} ^{٢٥٢} ^{٢٥٣} ^{٢٥٤} ^{٢٥٥} ^{٢٥٦} ^{٢٥٧} ^{٢٥٨} ^{٢٥٩} ^{٢٦٠} ^{٢٦١} ^{٢٦٢} ^{٢٦٣} ^{٢٦٤} ^{٢٦٥} ^{٢٦٦} ^{٢٦٧} ^{٢٦٨} ^{٢٦٩} ^{٢٧٠} ^{٢٧١} ^{٢٧٢} ^{٢٧٣} ^{٢٧٤} ^{٢٧٥} ^{٢٧٦} ^{٢٧٧} ^{٢٧٨} ^{٢٧٩} ^{٢٨٠} ^{٢٨١} ^{٢٨٢} ^{٢٨٣} ^{٢٨٤} ^{٢٨٥} ^{٢٨٦} ^{٢٨٧} ^{٢٨٨} ^{٢٨٩} ^{٢٩٠} ^{٢٩١} ^{٢٩٢} ^{٢٩٣} ^{٢٩٤} ^{٢٩٥} ^{٢٩٦} ^{٢٩٧} ^{٢٩٨} ^{٢٩٩} ^{٣٠٠} ^{٣٠١} ^{٣٠٢} ^{٣٠٣} ^{٣٠٤} ^{٣٠٥} ^{٣٠٦} ^{٣٠٧} ^{٣٠٨} ^{٣٠٩} ^{٣١٠} ^{٣١١} ^{٣١٢} ^{٣١٣} ^{٣١٤} ^{٣١٥} ^{٣١٦} ^{٣١٧} ^{٣١٨} ^{٣١٩} ^{٣٢٠} ^{٣٢١} ^{٣٢٢} ^{٣٢٣} ^{٣٢٤} ^{٣٢٥} ^{٣٢٦} ^{٣٢٧} ^{٣٢٨} ^{٣٢٩} ^{٣٣٠} ^{٣٣١} ^{٣٣٢} ^{٣٣٣} ^{٣٣٤} ^{٣٣٥} ^{٣٣٦} ^{٣٣٧} ^{٣٣٨} ^{٣٣٩} ^{٣٤٠} ^{٣٤١} ^{٣٤٢} ^{٣٤٣} ^{٣٤٤} ^{٣٤٥} ^{٣٤٦} ^{٣٤٧} ^{٣٤٨} ^{٣٤٩} ^{٣٥٠} ^{٣٥١} ^{٣٥٢} ^{٣٥٣} ^{٣٥٤} ^{٣٥٥} ^{٣٥٦} ^{٣٥٧} ^{٣٥٨} ^{٣٥٩} ^{٣٦٠} ^{٣٦١} ^{٣٦٢} ^{٣٦٣} ^{٣٦٤} ^{٣٦٥} ^{٣٦٦} ^{٣٦٧} ^{٣٦٨} ^{٣٦٩} ^{٣٧٠} ^{٣٧١} ^{٣٧٢} ^{٣٧٣} ^{٣٧٤} ^{٣٧٥} ^{٣٧٦} ^{٣٧٧} ^{٣٧٨} ^{٣٧٩} ^{٣٨٠} ^{٣٨١} ^{٣٨٢} ^{٣٨٣} ^{٣٨٤} ^{٣٨٥} ^{٣٨٦} ^{٣٨٧} ^{٣٨٨} ^{٣٨٩} ^{٣٩٠} ^{٣٩١} ^{٣٩٢} ^{٣٩٣} ^{٣٩٤} ^{٣٩٥} ^{٣٩٦} ^{٣٩٧} ^{٣٩٨} ^{٣٩٩} ^{٤٠٠} ^{٤٠١} ^{٤٠٢} ^{٤٠٣} ^{٤٠٤} ^{٤٠٥} ^{٤٠٦} ^{٤٠٧} ^{٤٠٨} ^{٤٠٩} ^{٤١٠} ^{٤١١} ^{٤١٢} ^{٤١٣} ^{٤١٤} ^{٤١٥} ^{٤١٦} ^{٤١٧} ^{٤١٨} ^{٤١٩} ^{٤٢٠} ^{٤٢١} ^{٤٢٢} ^{٤٢٣} ^{٤٢٤} ^{٤٢٥} ^{٤٢٦} ^{٤٢٧} ^{٤٢٨} ^{٤٢٩} ^{٤٣٠} ^{٤٣١} ^{٤٣٢} ^{٤٣٣} ^{٤٣٤} ^{٤٣٥} ^{٤٣٦} ^{٤٣٧} ^{٤٣٨} ^{٤٣٩} ^{٤٤٠} ^{٤٤١} ^{٤٤٢} ^{٤٤٣} ^{٤٤٤} ^{٤٤٥} ^{٤٤٦} ^{٤٤٧} ^{٤٤٨} ^{٤٤٩} ^{٤٥٠} ^{٤٥١} ^{٤٥٢} ^{٤٥٣} ^{٤٥٤} ^{٤٥٥} ^{٤٥٦} ^{٤٥٧} ^{٤٥٨} ^{٤٥٩} ^{٤٦٠} ^{٤٦١} ^{٤٦٢} ^{٤٦٣} ^{٤٦٤} ^{٤٦٥} ^{٤٦٦} ^{٤٦٧} ^{٤٦٨} ^{٤٦٩} ^{٤٧٠} ^{٤٧١} ^{٤٧٢} ^{٤٧٣} ^{٤٧٤} ^{٤٧٥} ^{٤٧٦} ^{٤٧٧} ^{٤٧٨} ^{٤٧٩} ^{٤٨٠} ^{٤٨١} ^{٤٨٢} ^{٤٨٣} ^{٤٨٤} ^{٤٨٥} ^{٤٨٦} ^{٤٨٧} ^{٤٨٨} ^{٤٨٩} ^{٤٩٠} ^{٤٩١} ^{٤٩٢} ^{٤٩٣} ^{٤٩٤} ^{٤٩٥} ^{٤٩٦} ^{٤٩٧} ^{٤٩٨} ^{٤٩٩} ^{٥٠٠} ^{٥٠١} ^{٥٠٢} ^{٥٠٣} ^{٥٠٤} ^{٥٠٥} ^{٥٠٦} ^{٥٠٧} ^{٥٠٨} ^{٥٠٩} ^{٥١٠} ^{٥١١} ^{٥١٢} ^{٥١٣} ^{٥١٤} ^{٥١٥} ^{٥١٦} ^{٥١٧} ^{٥١٨} ^{٥١٩} ^{٥٢٠} ^{٥٢١} ^{٥٢٢} ^{٥٢٣} ^{٥٢٤} ^{٥٢٥} ^{٥٢٦} ^{٥٢٧} ^{٥٢٨} ^{٥٢٩} ^{٥٣٠} ^{٥٣١} ^{٥٣٢} ^{٥٣٣} ^{٥٣٤} ^{٥٣٥} ^{٥٣٦} ^{٥٣٧} ^{٥٣٨} ^{٥٣٩} ^{٥٤٠} ^{٥٤١} ^{٥٤٢} ^{٥٤٣} ^{٥٤٤} ^{٥٤٥} ^{٥٤٦} ^{٥٤٧} ^{٥٤٨} ^{٥٤٩} ^{٥٥٠} ^{٥٥١} ^{٥٥٢} ^{٥٥٣} ^{٥٥٤} ^{٥٥٥} ^{٥٥٦} ^{٥٥٧} ^{٥٥٨} ^{٥٥٩} ^{٥٦٠} ^{٥٦١} ^{٥٦٢} ^{٥٦٣} ^{٥٦٤} ^{٥٦٥} ^{٥٦٦} ^{٥٦٧} ^{٥٦٨} ^{٥٦٩} ^{٥٧٠} ^{٥٧١} ^{٥٧٢} ^{٥٧٣} ^{٥٧٤} ^{٥٧٥} ^{٥٧٦} ^{٥٧٧} ^{٥٧٨} ^{٥٧٩} ^{٥٨٠} ^{٥٨١} ^{٥٨٢} ^{٥٨٣} ^{٥٨٤} ^{٥٨٥} ^{٥٨٦} ^{٥٨٧} ^{٥٨٨} ^{٥٨٩} ^{٥٩٠} ^{٥٩١} ^{٥٩٢} ^{٥٩٣} ^{٥٩٤} ^{٥٩٥} ^{٥٩٦} ^{٥٩٧} ^{٥٩٨} ^{٥٩٩} ^{٦٠٠} ^{٦٠١} ^{٦٠٢} ^{٦٠٣} ^{٦٠٤} ^{٦٠٥} ^{٦٠٦} ^{٦٠٧} ^{٦٠٨} ^{٦٠٩} ^{٦١٠} ^{٦١١} ^{٦١٢} ^{٦١٣} ^{٦١٤} ^{٦١٥} ^{٦١٦} ^{٦١٧} ^{٦١٨} ^{٦١٩} ^{٦٢٠} ^{٦٢١} ^{٦٢٢} ^{٦٢٣} ^{٦٢٤} ^{٦٢٥} ^{٦٢٦} ^{٦٢٧} ^{٦٢٨} ^{٦٢٩} ^{٦٣٠} ^{٦٣١} ^{٦٣٢} ^{٦٣٣} ^{٦٣٤} ^{٦٣٥} ^{٦٣٦} ^{٦٣٧} ^{٦٣٨} ^{٦٣٩} ^{٦٤٠} ^{٦٤١} ^{٦٤٢} ^{٦٤٣} ^{٦٤٤} ^{٦٤٥} ^{٦٤٦} ^{٦٤٧} ^{٦٤٨} ^{٦٤٩} ^{٦٥٠} ^{٦٥١} ^{٦٥٢} ^{٦٥٣} ^{٦٥٤} ^{٦٥٥} ^{٦٥٦} ^{٦٥٧} ^{٦٥٨} ^{٦٥٩} ^{٦٦٠} ^{٦٦١} ^{٦٦٢} ^{٦٦٣} ^{٦٦٤} ^{٦٦٥} ^{٦٦٦} ^{٦٦٧} ^{٦٦٨} ^{٦٦٩} ^{٦٧٠} ^{٦٧١} ^{٦٧٢} ^{٦٧٣} ^{٦٧٤} ^{٦٧٥} ^{٦٧٦} ^{٦٧٧} ^{٦٧٨} ^{٦٧٩} ^{٦٨٠} ^{٦٨١} ^{٦٨٢} ^{٦٨٣} ^{٦٨٤} ^{٦٨٥} ^{٦٨٦} ^{٦٨٧} ^{٦٨٨} ^{٦٨٩} ^{٦٩٠} ^{٦٩١} ^{٦٩٢} ^{٦٩٣} ^{٦٩٤} ^{٦٩٥} ^{٦٩٦} ^{٦٩٧} ^{٦٩٨} ^{٦٩٩} ^{٧٠٠} ^{٧٠١} ^{٧٠٢} ^{٧٠٣} ^{٧٠٤} ^{٧٠٥} ^{٧٠٦} ^{٧٠٧} ^{٧٠٨} ^{٧٠٩} ^{٧١٠} ^{٧١١} ^{٧١٢} ^{٧١٣} ^{٧١٤} ^{٧١٥} ^{٧١٦} ^{٧١٧} ^{٧١٨} ^{٧١٩} ^{٧٢٠} ^{٧٢١} ^{٧٢٢} ^{٧٢٣} ^{٧٢٤} ^{٧٢٥} ^{٧٢٦} ^{٧٢٧} ^{٧٢٨} ^{٧٢٩} ^{٧٣٠} ^{٧٣١} ^{٧٣٢} ^{٧٣٣} ^{٧٣٤} ^{٧٣٥} ^{٧٣٦} ^{٧٣٧} ^{٧٣٨} ^{٧٣٩} ^{٧٤٠} ^{٧٤١} ^{٧٤٢} ^{٧٤٣} ^{٧٤٤} ^{٧٤٥} ^{٧٤٦} ^{٧٤٧} ^{٧٤٨} ^{٧٤٩} ^{٧٥٠} ^{٧٥١} ^{٧٥٢} ^{٧٥٣} ^{٧٥٤} ^{٧٥٥} ^{٧٥٦} ^{٧٥٧} ^{٧٥٨} ^{٧٥٩} ^{٧٦٠} ^{٧٦١} ^{٧٦٢} ^{٧٦٣} ^{٧٦٤} ^{٧٦٥} ^{٧٦٦} ^{٧٦٧} ^{٧٦٨} ^{٧٦٩} ^{٧٧٠} ^{٧٧١} ^{٧٧٢} ^{٧٧٣} ^{٧٧٤} ^{٧٧٥} ^{٧٧٦} ^{٧٧٧} ^{٧٧٨} ^{٧٧٩} ^{٧٨٠} ^{٧٨١} ^{٧٨٢} ^{٧٨٣} ^{٧٨٤} ^{٧٨٥} ^{٧٨٦} ^{٧٨٧} ^{٧٨٨} ^{٧٨٩} ^{٧٩٠} ^{٧٩١} ^{٧٩٢} ^{٧٩٣} ^{٧٩٤} ^{٧٩٥} ^{٧٩٦} ^{٧٩٧} ^{٧٩٨} ^{٧٩٩} ^{٨٠٠} ^{٨٠١} ^{٨٠٢} ^{٨٠٣} ^{٨٠٤} ^{٨٠٥} ^{٨٠٦} ^{٨٠٧} ^{٨٠٨} ^{٨٠٩} ^{٨١٠} ^{٨١١} ^{٨١٢} ^{٨١٣} ^{٨١٤} ^{٨١٥} ^{٨١٦} ^{٨١٧} ^{٨١٨} ^{٨١٩} ^{٨٢٠} ^{٨٢١} ^{٨٢٢} ^{٨٢٣} ^{٨٢٤} ^{٨٢٥} ^{٨٢٦} ^{٨٢٧} ^{٨٢٨} ^{٨٢٩} ^{٨٣٠} ^{٨٣١} ^{٨٣٢} ^{٨٣٣} ^{٨٣٤} ^{٨٣٥} ^{٨٣٦} ^{٨٣٧} ^{٨٣٨} ^{٨٣٩} ^{٨٤٠} ^{٨٤١} ^{٨٤٢} ^{٨٤٣} ^{٨٤٤} ^{٨٤٥} ^{٨٤٦} ^{٨٤٧} ^{٨٤٨} ^{٨٤٩} ^{٨٥٠} ^{٨٥١} ^{٨٥٢} ^{٨٥٣} ^{٨٥٤} ^{٨٥٥} ^{٨٥٦} ^{٨٥٧} ^{٨٥٨} ^{٨٥٩} ^{٨٦٠} ^{٨٦١} ^{٨٦٢} ^{٨٦٣} ^{٨٦٤} ^{٨٦٥} ^{٨٦٦} ^{٨٦٧} ^{٨٦٨} ^{٨٦٩} ^{٨٧٠} ^{٨٧١} ^{٨٧٢} ^{٨٧٣} ^{٨٧٤} ^{٨٧٥} ^{٨٧٦} ^{٨٧٧} ^{٨٧٨} ^{٨٧٩} ^{٨٨٠} ^{٨٨١} ^{٨٨٢} ^{٨٨٣} ^{٨٨٤} ^{٨٨٥} ^{٨٨٦} ^{٨٨٧} ^{٨٨٨} ^{٨٨٩} ^{٨٩٠} ^{٨٩١} ^{٨٩٢} ^{٨٩٣} ^{٨٩٤} ^{٨٩٥} ^{٨٩٦} ^{٨٩٧} ^{٨٩٨} ^{٨٩٩} ^{٩٠٠} ^{٩٠١} ^{٩٠٢} ^{٩٠٣} ^{٩٠٤} ^{٩٠٥} ^{٩٠٦} ^{٩٠٧} ^{٩٠٨} ^{٩٠٩} ^{٩١٠} ^{٩١١} ^{٩١٢} ^{٩١٣} ^{٩١٤} ^{٩١٥} ^{٩١٦} ^{٩١٧} ^{٩١٨} ^{٩١٩} ^{٩٢٠} ^{٩٢١} ^{٩٢٢} ^{٩٢٣} ^{٩٢٤} ^{٩٢٥} ^{٩٢٦} ^{٩٢٧} ^{٩٢٨} ^{٩٢٩} ^{٩٣٠} ^{٩٣١} ^{٩٣٢} ^{٩٣٣} ^{٩٣٤} ^{٩٣٥} ^{٩٣٦} ^{٩٣٧} ^{٩٣٨} ^{٩٣٩} ^{٩٤٠} ^{٩٤١} ^{٩٤٢} ^{٩٤٣} ^{٩٤٤} ^{٩٤٥} ^{٩٤٦} ^{٩٤٧} ^{٩٤٨} ^{٩٤٩} ^{٩٥٠} ^{٩٥١} ^{٩٥٢} ^{٩٥٣} ^{٩٥٤} ^{٩٥٥} ^{٩٥٦} ^{٩٥٧} ^{٩٥٨} ^{٩٥٩} ^{٩٦٠} ^{٩٦١} ^{٩٦٢} ^{٩٦٣} ^{٩٦٤} ^{٩٦٥} ^{٩٦٦} ^{٩٦٧} ^{٩٦٨} ^{٩٦٩} ^{٩٧٠} ^{٩٧١} ^{٩٧٢} ^{٩٧٣} ^{٩٧٤} ^{٩٧٥} ^{٩٧٦} ^{٩٧٧} ^{٩٧٨} ^{٩٧٩} ^{٩٨٠} ^{٩٨١} ^{٩٨٢} ^{٩٨٣} ^{٩٨٤} ^{٩٨٥} ^{٩٨٦} ^{٩٨٧} ^{٩٨٨} ^{٩٨٩} ^{٩٩٠} ^{٩٩١} ^{٩٩٢} ^{٩٩٣} ^{٩٩٤} ^{٩٩٥} ^{٩٩٦} ^{٩٩٧} ^{٩٩٨} ^{٩٩٩} ^{١٠٠٠} ^{١٠٠١} ^{١٠٠٢} ^{١٠٠٣} ^{١٠٠٤} ^{١٠٠٥} ^{١٠٠٦} ^{١٠٠٧} ^{١٠٠٨} ^{١٠٠٩} ^{١٠١٠} ^{١٠١١} ^{١٠١٢} ^{١٠١٣} ^{١٠١٤} ^{١٠١٥} ^{١٠١٦} ^{١٠١٧} ^{١٠١٨} ^{١٠١٩} ^{١٠٢٠} ^{١٠٢١} ^{١٠٢٢} ^{١٠٢٣} ^{١٠٢٤} ^{١٠٢٥} ^{١٠٢٦} ^{١٠٢٧} ^{١٠٢٨} ^{١٠٢٩} ^{١٠٣٠} ^{١٠٣١} ^{١٠٣٢} ^{١٠٣٣} ^{١٠٣٤} ^{١٠٣٥} ^{١٠٣٦} ^{١٠٣٧} ^{١٠٣٨} ^{١٠٣٩} ^{١٠٤٠} ^{١٠٤١} ^{١٠٤٢} ^{١٠٤٣} ^{١٠٤٤} ^{١٠٤٥} ^{١٠٤٦} ^{١٠٤٧} ^{١٠٤٨} ^{١٠٤٩} ^{١٠٥٠} ^{١٠٥١} ^{١٠٥٢} ^{١٠٥٣} ^{١٠٥٤} ^{١٠٥٥} ^{١٠٥٦} ^{١٠٥٧} ^{١٠٥٨} ^{١٠٥٩} ^{١٠٦٠} ^{١٠٦١} ^{١٠٦٢} ^{١٠٦٣} ^{١٠٦٤} ^{١٠٦٥} ^{١٠٦٦} ^{١٠٦٧} ^{١٠٦٨} ^{١٠٦٩} ^{١٠٧٠} ^{١٠٧١} ^{١٠٧٢} ^{١٠٧٣} ^{١٠٧٤} ^{١٠٧٥} ^{١٠٧٦} ^{١٠٧٧} ^{١٠٧٨} ^{١٠٧٩} ^{١٠٨٠} ^{١٠٨١} ^{١٠٨٢} ^{١٠٨٣} ^{١٠٨٤} ^{١٠٨٥} ^{١٠٨٦} ^{١٠٨٧} ^{١٠٨٨} ^{١٠٨٩} ^{١٠٩٠} ^{١٠٩١} ^{١٠٩٢} ^{١٠٩٣} ^{١٠٩٤} ^{١٠٩٥} ^{١٠٩٦} ^{١٠٩٧} ^{١٠٩٨} ^{١٠٩٩} ^{١١٠٠} ^{١١٠١} ^{١١٠٢} ^{١١٠٣} ^{١١٠٤} ^{١١٠٥} ^{١١٠٦} ^{١١٠٧} ^{١١٠٨} ^{١١٠٩} ^{١١١٠} ^{١١١١} ^{١١١٢} ^{١١١٣} ^{١١١٤} ^{١١١٥} ^{١١١٦} ^{١١١٧} ^{١١١٨} ^{١١١٩} ^{١١٢٠} ^{١١٢١} ^{١١٢٢} ^{١١٢٣} ^{١١٢٤} ^{١١٢٥} ^{١١٢}

كان اعمى^{١٧٩}. وفي إحدى الرسائل الموجهة إلى الناغد أو رئيس اليهود سيدة تبحث معه أمر الفتيات اليتيمات وتقترح بأن يعين سيدة لتعليم كل إثنيتين أي نوع من أنواع الفنون التي تمارسها السيدات كالتطريز مثلاً، وتقترح أيضاً أن يحضر اليهن مدرس خاص يحضر إلى البيت ليعلمهن الصلوات حتى لا ينشأن كالحيوانات لا يعين شيئاً من أمور دينهن^{١٨٠}. وهناك إشارات كثيرة في اوراق الجنيزة، تشير إلى حضور السيدات والفتيات الى الكنيس أو المعبد فيجلسن في مكان منفرد، لأن الاهتمام بتعليم البنات اصبح مرغوباً فيه لأنه يقع على عاتقهن في المستقبل تربية وتعليم أطفالهن^{١٨١}.

وكان التعليم بشكل عام وخاصة التعليم الابتدائي يواجه مشكلة غلاء أسعار الكتب لأنها كانت تنسخ بالخط اليدوي، لذلك فقد كانت هدية الطفل اليهودي المولود نسخة من التوراة، كما كان يهدى للكنيس أو المعبد نسخ كثيرة من كتب التوراة من أجل تعليم الاطفال اليتامى، وكان الطلاب يمرتون على قراءة القطعة، من أعلى إلى اسفل ومن اسفل إلى أعلى ومن الجوانب، ليشارك أكثر من طالب عند القراءة، فكل أربعة طلاب أو أكثر كان باستطاعتهم استعمال نفس الكتاب عند القراءة^{١٨٢}. اما الاطفال اليتامى والفقراء فكانت الجمعيات الخيرية تتولى مسؤولية تعليمهم^{١٨٣}. فكان داخل المجتمع اليهودي جمعيات خيرية وخاصة من التجار يجمعون الأموال لإعانة الفقراء واليتامى والارامل^{١٨٤}، وتولى هذه المساعدات نظام (الحالوقاة) أو التوزيع^{١٨٥}.

Goitein, Amediterranean Society, Vol, 2, p. 183-184.

Goitein, Ibid, Vol, 2, p. 184.

Goitein, Ibid, Vol, 2, p. 183.

Goitein, Ibid, Vol, 2, p. 181.

Goitein, Ibid, Vol, 2, p. 174.

Goitein, Op, Cit, vol, 2, pp. 129-131.

السيد، القدس، في العصر المملوكي، ص ١٠٢.

نظام الحالوقاة: أو التوزيع بدأ في القرن الخامس عشر الميلادي عندما تكونت جمعية خيرية تحت هذا الاسم ثم تلتها جمعيات مشابهة لتوزيع الهبات على اليهود الذين يجمع بينهم الانتماء الى بلد واحد. وكان يسافر مبعوثون يقومون في بلادهم الأصلية لجمع التبرعات لليهود للمقيمين في بيت المقدس، وغيره من المدن الفلسطينية، وكانت أولاً لمساعدة اليهود الذين من أصل ألماني، ثم انشئت هيئة مثلها لمساعدة اليهود من أصل اسباني، كما أن مثل هذه المنظمات كانت معروفة ومنشرة في أنحاء مصر والشام والمغرب العربي والغرب الاوروبي إبان العصر الفاطمي، فلذلك فنظام (الحالوقاة) الذي ظهر في القرن الخامس عشر كان امتداداً لتلك الجماعات. السيد، المرجع السابق، ص ١٠٢.

أما لباس الطالب فكان على الطالب ان يلبس لباساً محتشماً، وخاصة في درس الدين، وكان التربان (العمامة) شائعاً في ذلك الوقت^{١٨٦}. أما أجره المعلم فكانت تدفع اسبوعياً بمقدار نصف درهم على الطالب، وإذا كان ثلاثة أخوان في مدرسة واحدة أو أكثر كان يجري لهم تخفيض. وكانت الأجرة تدفع يوم الخميس، فقد كان في ميزانية الاسرة اليهودية ما يسمى (بخميس المدرسة)، وذلك لكي يتمكن المعلم من شراء لوازم السبت. وإلى جانب راتبه، كانت ترسل اليه الهدايا في المناسبات والأعياد^{١٨٧}.

أما مراحل التعليم عند اليهود، فقد كانت المرحلة الاولى تبدأ في سن الخامسة أو السابعة يتعلم فيها الطفل قراءة الأحرف وكتابتها حتى يستطيع قراءتها بسهولة، وكانت تستعمل الاساليب الجذابة لتلوين الأحرف بألوان مختلفة وتمثيلها برسومات جميلة حتى يقبل عليها الطفل بسعادة وسرور^{١٨٨}. ويتعلم الطفل أيضاً في المرحلة الاولى آيات من التوراة شفويّاً يتم حفظها بواسطة التكرار، ثم تبدأ مرحلة تعليم وحفظ قوانين التوراة (المشنا) إلى سن العاشرة، بعدها يتدرب الأطفال على بعض قواعد اللغة العربية والعبرية بالإضافة إلى الخط العربي والعبري والحساب والانشيد الدينية^{١٨٩}. وفي سن الخامسة عشرة يصل لمرحلة تعليم التلموذ وقراءته حتى يستوعب الطالب ما فيه من الآيات ويتأثر بها، وفي سن الثامنة عشرة يتعمق أكثر في دراسة التلموذ والتفكر في آياته وأقواله حتى لا يستطيع نسيانه^{١٩٠}.

أما عن اللغة المستخدمة في التعليم فقد كانت اللغة العربية، ولم تكن اللغة العربية تستخدم للأغراض العلمية فحسب، بل كانت أيضاً تستعمل لترجمة التوراة والتلموذ والمقالات الدينية والفلسفية ولمناقشة القانون الإلهي وأيضاً لدراسة قواعد اللغة العبرية^{١٩١}. بينما ظلت اللغة العبرية مرتبطة إلى حد كبير بالتراث الديني والعقائدي لدى اليهود، وكان الشعر اليهودي في غالبية يكتب بالعبرية^{١٩٢}.

Stillman, Norman, The Jews of Arab Lands, Philadelphia, The Jewish Publication Society of America, 1979

-١٨٦

Goitein, A Mediterranean Society, Vol, 2, p. 182.

-١٨٧

Goitein, Ibid, Vol, 2, p. 187.

-١٨٨

Goitein, Ibid, Vol, 2, p. 178. Stillman, The Jews of Arab Lands, p. 226.

-١٨٩

Stillman, Op, Cit, p. 226. Goitein, Studies in Islamic History, p. 252.

-١٩٠

Stillman, Op, Cit, p. 226.

-١٩١

Goitein, Jews and Arabs Their Contacts, p. 132.

-١٩٢ قاسم، اهل الذمة في مصر، ص ٣٧.

وكان التدريس يتم في الكنيس أو في منزل المعلم أو في منزل الوالدين^{١٩٣} أو في المدرسة^{١٩٤}.

أما التعليم العالي فقد كان يتم في الياشيفا (Yeshiva).^{١٩٥} وهي عبارة عن مجمع أو مجلس أعلى لليهود مثل السنهدرين (Sanhedrin) عند اليهود القدماء. يجتمع به كبار رجال اليهود وعلمائهم للبحث في القانون والرد على الاستفسارات والاسئلة الدينية التي ترد إليهم وتجمع الياشيفا بين عمل البرلمان ومحكمة التمييز والمعهد العلمي، وكان هناك ياشيفا في فلسطين ويطلق عليها أحياناً اسم هافورا (Havura) واثنان في العراق. والياشيفا الفلسطينية أصغر من العراقية وكان مركزها القدس وفي سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٢م انتقل مركزها إلى القاهرة بعد استيلاء السلاجقة على القدس وبقي لها فرع آخر في دمشق^{١٩٦}. وكانت الياشيفا تدار بواسطة محكمة عليا تتألف من سبعة أفراد يرأسها الكاهن أو رئيس المحكمة ثم يليه الأعضاء الآخرون وتكون مراتبهم حسب ترتيبهم العددي الثالث والرابع والخامس وهكذا، وتتم الترقية بينهم عن طريق الرئيس^{١٩٧}.

وتتم طريقة الدراسة فيها عن طريق تحضير الطالب للموضوع الذي سيناقش من قبل المعلم، وعلى الطالب أن يكون موهوباً ويعمل بجد ونشاط^{١٩٨}. ويصف لنا إسحق بن شيلو اليهودي الاسباني الذي زار القدس عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م الجماعة اليهودية فيها فيقول: «وبعضهم منصرف إلى الاشتغال بالعلوم الطبية والفلك والرياضيات، لكن الفريق الأكبر من علمائهم يصلون أثناء الليل بأطراف النهار في دراسة الشرع والحكمة وهؤلاء تنفق عليهم الطائفة...»^{١٩٩}.

١٩٣- Goitein, Amediterranean Society, vol, 2, p. 185.

١٩٤- Adler, Jewish Travellers, p. 139.

١٩٥- يطلق على الياشيفا أحياناً اسم الأكاديمية. إلا أن جوايتن يقول أن إطلاق اسم أكاديمية أو مدرسة أو معهد علمي لا يتلاءم مع وظيفتها لأنها لم تكن مخصصة للتعليم فقط.

Goitein, Op, Cit, vol, 2, p. 196.

١٩٦- Goitein, Op, Cit, Vol, 2, p. 196.

١٩٧- Goitein, Op, Cit, vol, 2, pp. 200-201.

١٩٨- Goitein, Op, Cit, vol, 2, p. 13, 194.

١٩٩- The Jewish Ency..., vol. 7, p. 131.

ويشير أحد الباحثين أنه طرأ تحسن كبير على أحوال اليهود العلمية في ذلك الوقت نتيجة هجرة أعداد كبيرة منهم من اسبانيا بعد موجة الاضطهاد إلى الشرق وذلك لأن المهاجرين الاسبان لم يجلبوا معهم الثقافة المزدهرة ومذاهب العرب الفلسفية فحسب بل جلبوا الثراء أيضاً. وسرعان ما احتل هؤلاء السفارديم مكانة ممتازة في الحياة العامة. حيث كان لهم مهارتهم وثقافتهم التي اكتسبوها عن طريق احتكاكهم بالدول الأخرى^{٢٠٠}.

وتموّل الياشيفا عن طريق الهدايا التي ترسل إليها من نقود وأقمشة وبضائع شرقية كالبحارات وبضائع أخرى، وهذه الهبات ترسل بانتظام فيصرف ريعها إلى التعليم العالي^{٢٠١}. وكانت الياشيفا تستلم منحة أساسية للنفقة عليها ولصيانتها من السلاطين أنفسهم، الأمر الذي أعطى هؤلاء السلاطين والملوك حق الاشراف على انتخابات رئيسها والتدخل أحياناً في الأمور الدينية حيث اوردت وثائق الجنيزة كل المواضيع التي عرضت على السلطات الاسلامية، مثلما حدث حين اعترض اليهود على قوانين ابراهيم بن موسى بن ميمون الاصلاحية واعتبروها بدعة وقدموا للملك العادل بن أيوب التماساً بالغائها^{٢٠٢}.

أما عن التعليم عند النصارى فقد ازدهر لكثرة الكنائس والأديرة الخاصة بهم في بلاد الشام، والتي كان لها دور تعليمي فضلاً عن دورها الديني. فيفد إليها أبناء الطوائف المختلفة لتلقي العلوم على أيدي رجال الدين، الذين رحبوا فيها بطلاب العلم حتى ولو كانوا يتبعون مذهباً دينياً آخر^{٢٠٣}. هذا بالإضافة إلى ما وفروه لهم من نفائس الكتب للاطلاع عليها، وعرض بعض المواد العلمية الجافة في صورة شعرية موزونة مما سهل فهمها للطلبة وحببها اليهم^{٢٠٤}.

أما عن نظام الدراسة في تلك المدارس فيبدو أنه وجد نظامان من المدارس داخل الأديرة منها ما هو خاص بأهل الدير نفسه، ومنها ما هو منفصل عن الدير أي للخارجين. وكان يتم في المدارس الديرية، تعليم المرشحين للكهنة قوانين الرهبنة والتفقه بها ومعرفة التزامات النذور إلى جانب تعليمهم مبادئ النحو والصرف

٢٠٠ - اسحاق بن موسى بن ميمون، المقدمة، ص ٢. - ص ٢٠١ - ص ٢٠٢ - ص ٢٠٣ - ص ٢٠٤ - ص ٢٠٥ - ص ٢٠٦ - ص ٢٠٧ - ص ٢٠٨ - ص ٢٠٩ - ص ٢١٠ - ص ٢١١ - ص ٢١٢ - ص ٢١٣ - ص ٢١٤ - ص ٢١٥ - ص ٢١٦ - ص ٢١٧ - ص ٢١٨ - ص ٢١٩ - ص ٢٢٠ - ص ٢٢١ - ص ٢٢٢ - ص ٢٢٣ - ص ٢٢٤ - ص ٢٢٥ - ص ٢٢٦ - ص ٢٢٧ - ص ٢٢٨ - ص ٢٢٩ - ص ٢٣٠ - ص ٢٣١ - ص ٢٣٢ - ص ٢٣٣ - ص ٢٣٤ - ص ٢٣٥ - ص ٢٣٦ - ص ٢٣٧ - ص ٢٣٨ - ص ٢٣٩ - ص ٢٤٠ - ص ٢٤١ - ص ٢٤٢ - ص ٢٤٣ - ص ٢٤٤ - ص ٢٤٥ - ص ٢٤٦ - ص ٢٤٧ - ص ٢٤٨ - ص ٢٤٩ - ص ٢٥٠ - ص ٢٥١ - ص ٢٥٢ - ص ٢٥٣ - ص ٢٥٤ - ص ٢٥٥ - ص ٢٥٦ - ص ٢٥٧ - ص ٢٥٨ - ص ٢٥٩ - ص ٢٦٠ - ص ٢٦١ - ص ٢٦٢ - ص ٢٦٣ - ص ٢٦٤ - ص ٢٦٥ - ص ٢٦٦ - ص ٢٦٧ - ص ٢٦٨ - ص ٢٦٩ - ص ٢٧٠ - ص ٢٧١ - ص ٢٧٢ - ص ٢٧٣ - ص ٢٧٤ - ص ٢٧٥ - ص ٢٧٦ - ص ٢٧٧ - ص ٢٧٨ - ص ٢٧٩ - ص ٢٨٠ - ص ٢٨١ - ص ٢٨٢ - ص ٢٨٣ - ص ٢٨٤ - ص ٢٨٥ - ص ٢٨٦ - ص ٢٨٧ - ص ٢٨٨ - ص ٢٨٩ - ص ٢٩٠ - ص ٢٩١ - ص ٢٩٢ - ص ٢٩٣ - ص ٢٩٤ - ص ٢٩٥ - ص ٢٩٦ - ص ٢٩٧ - ص ٢٩٨ - ص ٢٩٩ - ص ٣٠٠ - ص ٣٠١ - ص ٣٠٢ - ص ٣٠٣ - ص ٣٠٤ - ص ٣٠٥ - ص ٣٠٦ - ص ٣٠٧ - ص ٣٠٨ - ص ٣٠٩ - ص ٣١٠ - ص ٣١١ - ص ٣١٢ - ص ٣١٣ - ص ٣١٤ - ص ٣١٥ - ص ٣١٦ - ص ٣١٧ - ص ٣١٨ - ص ٣١٩ - ص ٣٢٠ - ص ٣٢١ - ص ٣٢٢ - ص ٣٢٣ - ص ٣٢٤ - ص ٣٢٥ - ص ٣٢٦ - ص ٣٢٧ - ص ٣٢٨ - ص ٣٢٩ - ص ٣٣٠ - ص ٣٣١ - ص ٣٣٢ - ص ٣٣٣ - ص ٣٣٤ - ص ٣٣٥ - ص ٣٣٦ - ص ٣٣٧ - ص ٣٣٨ - ص ٣٣٩ - ص ٣٤٠ - ص ٣٤١ - ص ٣٤٢ - ص ٣٤٣ - ص ٣٤٤ - ص ٣٤٥ - ص ٣٤٦ - ص ٣٤٧ - ص ٣٤٨ - ص ٣٤٩ - ص ٣٥٠ - ص ٣٥١ - ص ٣٥٢ - ص ٣٥٣ - ص ٣٥٤ - ص ٣٥٥ - ص ٣٥٦ - ص ٣٥٧ - ص ٣٥٨ - ص ٣٥٩ - ص ٣٦٠ - ص ٣٦١ - ص ٣٦٢ - ص ٣٦٣ - ص ٣٦٤ - ص ٣٦٥ - ص ٣٦٦ - ص ٣٦٧ - ص ٣٦٨ - ص ٣٦٩ - ص ٣٧٠ - ص ٣٧١ - ص ٣٧٢ - ص ٣٧٣ - ص ٣٧٤ - ص ٣٧٥ - ص ٣٧٦ - ص ٣٧٧ - ص ٣٧٨ - ص ٣٧٩ - ص ٣٨٠ - ص ٣٨١ - ص ٣٨٢ - ص ٣٨٣ - ص ٣٨٤ - ص ٣٨٥ - ص ٣٨٦ - ص ٣٨٧ - ص ٣٨٨ - ص ٣٨٩ - ص ٣٩٠ - ص ٣٩١ - ص ٣٩٢ - ص ٣٩٣ - ص ٣٩٤ - ص ٣٩٥ - ص ٣٩٦ - ص ٣٩٧ - ص ٣٩٨ - ص ٣٩٩ - ص ٤٠٠ - ص ٤٠١ - ص ٤٠٢ - ص ٤٠٣ - ص ٤٠٤ - ص ٤٠٥ - ص ٤٠٦ - ص ٤٠٧ - ص ٤٠٨ - ص ٤٠٩ - ص ٤١٠ - ص ٤١١ - ص ٤١٢ - ص ٤١٣ - ص ٤١٤ - ص ٤١٥ - ص ٤١٦ - ص ٤١٧ - ص ٤١٨ - ص ٤١٩ - ص ٤٢٠ - ص ٤٢١ - ص ٤٢٢ - ص ٤٢٣ - ص ٤٢٤ - ص ٤٢٥ - ص ٤٢٦ - ص ٤٢٧ - ص ٤٢٨ - ص ٤٢٩ - ص ٤٣٠ - ص ٤٣١ - ص ٤٣٢ - ص ٤٣٣ - ص ٤٣٤ - ص ٤٣٥ - ص ٤٣٦ - ص ٤٣٧ - ص ٤٣٨ - ص ٤٣٩ - ص ٤٤٠ - ص ٤٤١ - ص ٤٤٢ - ص ٤٤٣ - ص ٤٤٤ - ص ٤٤٥ - ص ٤٤٦ - ص ٤٤٧ - ص ٤٤٨ - ص ٤٤٩ - ص ٤٥٠ - ص ٤٥١ - ص ٤٥٢ - ص ٤٥٣ - ص ٤٥٤ - ص ٤٥٥ - ص ٤٥٦ - ص ٤٥٧ - ص ٤٥٨ - ص ٤٥٩ - ص ٤٦٠ - ص ٤٦١ - ص ٤٦٢ - ص ٤٦٣ - ص ٤٦٤ - ص ٤٦٥ - ص ٤٦٦ - ص ٤٦٧ - ص ٤٦٨ - ص ٤٦٩ - ص ٤٧٠ - ص ٤٧١ - ص ٤٧٢ - ص ٤٧٣ - ص ٤٧٤ - ص ٤٧٥ - ص ٤٧٦ - ص ٤٧٧ - ص ٤٧٨ - ص ٤٧٩ - ص ٤٨٠ - ص ٤٨١ - ص ٤٨٢ - ص ٤٨٣ - ص ٤٨٤ - ص ٤٨٥ - ص ٤٨٦ - ص ٤٨٧ - ص ٤٨٨ - ص ٤٨٩ - ص ٤٩٠ - ص ٤٩١ - ص ٤٩٢ - ص ٤٩٣ - ص ٤٩٤ - ص ٤٩٥ - ص ٤٩٦ - ص ٤٩٧ - ص ٤٩٨ - ص ٤٩٩ - ص ٥٠٠ - ص ٥٠١ - ص ٥٠٢ - ص ٥٠٣ - ص ٥٠٤ - ص ٥٠٥ - ص ٥٠٦ - ص ٥٠٧ - ص ٥٠٨ - ص ٥٠٩ - ص ٥١٠ - ص ٥١١ - ص ٥١٢ - ص ٥١٣ - ص ٥١٤ - ص ٥١٥ - ص ٥١٦ - ص ٥١٧ - ص ٥١٨ - ص ٥١٩ - ص ٥٢٠ - ص ٥٢١ - ص ٥٢٢ - ص ٥٢٣ - ص ٥٢٤ - ص ٥٢٥ - ص ٥٢٦ - ص ٥٢٧ - ص ٥٢٨ - ص ٥٢٩ - ص ٥٣٠ - ص ٥٣١ - ص ٥٣٢ - ص ٥٣٣ - ص ٥٣٤ - ص ٥٣٥ - ص ٥٣٦ - ص ٥٣٧ - ص ٥٣٨ - ص ٥٣٩ - ص ٥٤٠ - ص ٥٤١ - ص ٥٤٢ - ص ٥٤٣ - ص ٥٤٤ - ص ٥٤٥ - ص ٥٤٦ - ص ٥٤٧ - ص ٥٤٨ - ص ٥٤٩ - ص ٥٥٠ - ص ٥٥١ - ص ٥٥٢ - ص ٥٥٣ - ص ٥٥٤ - ص ٥٥٥ - ص ٥٥٦ - ص ٥٥٧ - ص ٥٥٨ - ص ٥٥٩ - ص ٥٦٠ - ص ٥٦١ - ص ٥٦٢ - ص ٥٦٣ - ص ٥٦٤ - ص ٥٦٥ - ص ٥٦٦ - ص ٥٦٧ - ص ٥٦٨ - ص ٥٦٩ - ص ٥٧٠ - ص ٥٧١ - ص ٥٧٢ - ص ٥٧٣ - ص ٥٧٤ - ص ٥٧٥ - ص ٥٧٦ - ص ٥٧٧ - ص ٥٧٨ - ص ٥٧٩ - ص ٥٨٠ - ص ٥٨١ - ص ٥٨٢ - ص ٥٨٣ - ص ٥٨٤ - ص ٥٨٥ - ص ٥٨٦ - ص ٥٨٧ - ص ٥٨٨ - ص ٥٨٩ - ص ٥٩٠ - ص ٥٩١ - ص ٥٩٢ - ص ٥٩٣ - ص ٥٩٤ - ص ٥٩٥ - ص ٥٩٦ - ص ٥٩٧ - ص ٥٩٨ - ص ٥٩٩ - ص ٦٠٠ - ص ٦٠١ - ص ٦٠٢ - ص ٦٠٣ - ص ٦٠٤ - ص ٦٠٥ - ص ٦٠٦ - ص ٦٠٧ - ص ٦٠٨ - ص ٦٠٩ - ص ٦١٠ - ص ٦١١ - ص ٦١٢ - ص ٦١٣ - ص ٦١٤ - ص ٦١٥ - ص ٦١٦ - ص ٦١٧ - ص ٦١٨ - ص ٦١٩ - ص ٦٢٠ - ص ٦٢١ - ص ٦٢٢ - ص ٦٢٣ - ص ٦٢٤ - ص ٦٢٥ - ص ٦٢٦ - ص ٦٢٧ - ص ٦٢٨ - ص ٦٢٩ - ص ٦٣٠ - ص ٦٣١ - ص ٦٣٢ - ص ٦٣٣ - ص ٦٣٤ - ص ٦٣٥ - ص ٦٣٦ - ص ٦٣٧ - ص ٦٣٨ - ص ٦٣٩ - ص ٦٤٠ - ص ٦٤١ - ص ٦٤٢ - ص ٦٤٣ - ص ٦٤٤ - ص ٦٤٥ - ص ٦٤٦ - ص ٦٤٧ - ص ٦٤٨ - ص ٦٤٩ - ص ٦٥٠ - ص ٦٥١ - ص ٦٥٢ - ص ٦٥٣ - ص ٦٥٤ - ص ٦٥٥ - ص ٦٥٦ - ص ٦٥٧ - ص ٦٥٨ - ص ٦٥٩ - ص ٦٦٠ - ص ٦٦١ - ص ٦٦٢ - ص ٦٦٣ - ص ٦٦٤ - ص ٦٦٥ - ص ٦٦٦ - ص ٦٦٧ - ص ٦٦٨ - ص ٦٦٩ - ص ٦٧٠ - ص ٦٧١ - ص ٦٧٢ - ص ٦٧٣ - ص ٦٧٤ - ص ٦٧٥ - ص ٦٧٦ - ص ٦٧٧ - ص ٦٧٨ - ص ٦٧٩ - ص ٦٨٠ - ص ٦٨١ - ص ٦٨٢ - ص ٦٨٣ - ص ٦٨٤ - ص ٦٨٥ - ص ٦٨٦ - ص ٦٨٧ - ص ٦٨٨ - ص ٦٨٩ - ص ٦٩٠ - ص ٦٩١ - ص ٦٩٢ - ص ٦٩٣ - ص ٦٩٤ - ص ٦٩٥ - ص ٦٩٦ - ص ٦٩٧ - ص ٦٩٨ - ص ٦٩٩ - ص ٧٠٠ - ص ٧٠١ - ص ٧٠٢ - ص ٧٠٣ - ص ٧٠٤ - ص ٧٠٥ - ص ٧٠٦ - ص ٧٠٧ - ص ٧٠٨ - ص ٧٠٩ - ص ٧١٠ - ص ٧١١ - ص ٧١٢ - ص ٧١٣ - ص ٧١٤ - ص ٧١٥ - ص ٧١٦ - ص ٧١٧ - ص ٧١٨ - ص ٧١٩ - ص ٧٢٠ - ص ٧٢١ - ص ٧٢٢ - ص ٧٢٣ - ص ٧٢٤ - ص ٧٢٥ - ص ٧٢٦ - ص ٧٢٧ - ص ٧٢٨ - ص ٧٢٩ - ص ٧٣٠ - ص ٧٣١ - ص ٧٣٢ - ص ٧٣٣ - ص ٧٣٤ - ص ٧٣٥ - ص ٧٣٦ - ص ٧٣٧ - ص ٧٣٨ - ص ٧٣٩ - ص ٧٤٠ - ص ٧٤١ - ص ٧٤٢ - ص ٧٤٣ - ص ٧٤٤ - ص ٧٤٥ - ص ٧٤٦ - ص ٧٤٧ - ص ٧٤٨ - ص ٧٤٩ - ص ٧٥٠ - ص ٧٥١ - ص ٧٥٢ - ص ٧٥٣ - ص ٧٥٤ - ص ٧٥٥ - ص ٧٥٦ - ص ٧٥٧ - ص ٧٥٨ - ص ٧٥٩ - ص ٧٦٠ - ص ٧٦١ - ص ٧٦٢ - ص ٧٦٣ - ص ٧٦٤ - ص ٧٦٥ - ص ٧٦٦ - ص ٧٦٧ - ص ٧٦٨ - ص ٧٦٩ - ص ٧٧٠ - ص ٧٧١ - ص ٧٧٢ - ص ٧٧٣ - ص ٧٧٤ - ص ٧٧٥ - ص ٧٧٦ - ص ٧٧٧ - ص ٧٧٨ - ص ٧٧٩ - ص ٧٨٠ - ص ٧٨١ - ص ٧٨٢ - ص ٧٨٣ - ص ٧٨٤ - ص ٧٨٥ - ص ٧٨٦ - ص ٧٨٧ - ص ٧٨٨ - ص ٧٨٩ - ص ٧٩٠ - ص ٧٩١ - ص ٧٩٢ - ص ٧٩٣ - ص ٧٩٤ - ص ٧٩٥ - ص ٧٩٦ - ص ٧٩٧ - ص ٧٩٨ - ص ٧٩٩ - ص ٨٠٠ - ص ٨٠١ - ص ٨٠٢ - ص ٨٠٣ - ص ٨٠٤ - ص ٨٠٥ - ص ٨٠٦ - ص ٨٠٧ - ص ٨٠٨ - ص ٨٠٩ - ص ٨١٠ - ص ٨١١ - ص ٨١٢ - ص ٨١٣ - ص ٨١٤ - ص ٨١٥ - ص ٨١٦ - ص ٨١٧ - ص ٨١٨ - ص ٨١٩ - ص ٨٢٠ - ص ٨٢١ - ص ٨٢٢ - ص ٨٢٣ - ص ٨٢٤ - ص ٨٢٥ - ص ٨٢٦ - ص ٨٢٧ - ص ٨٢٨ - ص ٨٢٩ - ص ٨٣٠ - ص ٨٣١ - ص ٨٣٢ - ص ٨٣٣ - ص ٨٣٤ - ص ٨٣٥ - ص ٨٣٦ - ص ٨٣٧ - ص ٨٣٨ - ص ٨٣٩ - ص ٨٤٠ - ص ٨٤١ - ص ٨٤٢ - ص ٨٤٣ - ص ٨٤٤ - ص ٨٤٥ - ص ٨٤٦ - ص ٨٤٧ - ص ٨٤٨ - ص ٨٤٩ - ص ٨٥٠ - ص ٨٥١ - ص ٨٥٢ - ص ٨٥٣ - ص ٨٥٤ - ص ٨٥٥ - ص ٨٥٦ - ص ٨٥٧ - ص ٨٥٨ - ص ٨٥٩ - ص ٨٦٠ - ص ٨٦١ - ص ٨٦٢ - ص ٨٦٣ - ص ٨٦٤ - ص ٨٦٥ - ص ٨٦٦ - ص ٨٦٧ - ص ٨٦٨ - ص ٨٦٩ - ص ٨٧٠ - ص ٨٧١ - ص ٨٧٢ - ص ٨٧٣ - ص ٨٧٤ - ص ٨٧٥ - ص ٨٧٦ - ص ٨٧٧ - ص ٨٧٨ - ص ٨٧٩ - ص ٨٨٠ - ص ٨٨١ - ص ٨٨٢ - ص ٨٨٣ - ص ٨٨٤ - ص ٨٨٥ - ص ٨٨٦ - ص ٨٨٧ - ص ٨٨٨ - ص ٨٨٩ - ص ٨٩٠ - ص ٨٩١ - ص ٨٩٢ - ص ٨٩٣ - ص ٨٩٤ - ص ٨٩٥ - ص ٨٩٦ - ص ٨٩٧ - ص ٨٩٨ - ص ٨٩٩ - ص ٩٠٠ - ص ٩٠١ - ص ٩٠٢ - ص ٩٠٣ - ص ٩٠٤ - ص ٩٠٥ - ص ٩٠٦ - ص ٩٠٧ - ص ٩٠٨ - ص ٩٠٩ - ص ٩١٠ - ص ٩١١ - ص ٩١٢ - ص ٩١٣ - ص ٩١٤ - ص ٩١٥ - ص ٩١٦ - ص ٩١٧ - ص ٩١٨ - ص ٩١٩ - ص ٩٢٠ - ص ٩٢١ - ص ٩٢٢ - ص ٩٢٣ - ص ٩٢٤ - ص ٩٢٥ - ص ٩٢٦ - ص ٩٢٧ - ص ٩٢٨ - ص ٩٢٩ - ص ٩٣٠ - ص ٩٣١ - ص ٩٣٢ - ص ٩٣٣ - ص ٩٣٤ - ص ٩٣٥ - ص ٩٣٦ - ص ٩٣٧ - ص ٩٣٨ - ص ٩٣٩ - ص ٩٤٠ - ص ٩٤١ - ص ٩٤٢ - ص ٩٤٣ - ص ٩٤٤ - ص ٩٤٥ - ص ٩٤٦ - ص ٩٤٧ - ص ٩٤٨ - ص ٩٤٩ - ص ٩٥٠ - ص ٩٥١ - ص ٩٥٢ - ص ٩٥٣ - ص ٩٥٤ - ص ٩٥٥ - ص ٩٥٦ - ص ٩٥٧ - ص ٩٥٨ - ص ٩٥٩ - ص ٩٦٠ - ص ٩٦١ - ص ٩٦٢ - ص ٩٦٣ - ص ٩٦٤ - ص ٩٦٥ - ص ٩٦٦ - ص ٩٦٧ - ص ٩٦٨ - ص ٩٦٩ - ص ٩٧٠ - ص ٩٧١ - ص ٩٧٢ - ص ٩٧٣ - ص ٩٧٤ - ص ٩٧٥ - ص ٩٧٦ - ص ٩٧٧ - ص ٩٧٨ - ص ٩٧٩ - ص ٩٨٠ - ص ٩٨١ - ص ٩٨٢ - ص ٩٨٣ - ص ٩٨٤ - ص ٩٨٥ - ص ٩٨٦ - ص ٩٨٧ - ص ٩٨٨ - ص ٩٨٩ - ص ٩٩٠ - ص ٩٩١ - ص ٩٩٢ - ص ٩٩٣ - ص ٩٩٤ - ص ٩٩٥ - ص ٩٩٦ - ص ٩٩٧ - ص ٩٩٨ - ص ٩٩٩ - ص ١٠٠٠ - ص ١٠٠١ - ص ١٠٠٢ - ص ١٠٠٣ - ص ١٠٠٤ - ص ١٠٠٥ - ص ١٠٠٦ - ص ١٠٠٧ - ص ١٠٠٨ - ص ١٠٠٩ - ص ١٠١٠ - ص ١٠١١ - ص ١٠١٢ - ص ١٠١٣ - ص ١٠١٤ - ص ١٠١٥ - ص ١٠١٦ - ص ١٠١٧ - ص ١٠١٨ - ص ١٠١٩ - ص ١٠٢٠ - ص ١٠٢١ - ص ١٠٢٢ - ص ١٠٢٣ - ص ١٠٢٤ - ص ١٠٢٥ - ص ١٠٢٦ - ص ١٠٢٧ - ص ١٠٢٨ - ص ١٠٢٩ - ص ١٠٣٠ - ص ١٠٣١ - ص ١٠٣٢ - ص ١٠٣٣ - ص ١٠٣٤ - ص ١٠٣٥ - ص ١٠٣٦ - ص ١٠٣٧ - ص ١٠٣٨ - ص ١٠٣٩ - ص ١٠٤٠ - ص ١٠٤١ - ص ١٠٤٢ - ص ١٠٤٣ - ص ١٠٤٤ - ص ١٠٤٥ - ص ١٠٤٦ - ص ١٠٤٧ - ص ١٠٤٨ - ص ١٠٤٩ - ص ١٠٥٠ - ص ١٠٥١ - ص ١٠٥٢ - ص ١٠٥٣ - ص ١٠٥٤ - ص ١٠٥٥ - ص ١٠٥٦ - ص ١٠٥٧ - ص ١٠٥٨ - ص ١٠٥٩ - ص ١٠٦٠ - ص ١٠٦١ - ص ١٠٦٢ - ص ١٠٦٣ - ص ١٠٦٤ - ص ١٠٦٥ - ص ١٠٦٦ - ص ١٠٦٧ - ص ١٠٦٨ - ص ١٠٦٩ - ص ١٠٧٠ - ص ١٠٧١ - ص ١٠٧٢ - ص ١٠٧٣ - ص ١٠٧٤ - ص ١٠٧٥ - ص ١٠٧٦ - ص ١٠٧٧ - ص ١٠٧٨ - ص ١٠٧٩ - ص ١٠٨٠ - ص ١٠٨١ - ص ١٠٨٢ - ص ١٠٨٣ - ص ١٠٨٤ - ص ١٠٨٥ - ص ١٠٨٦ - ص ١٠٨٧ - ص ١٠٨٨ - ص ١٠٨٩ - ص ١٠٩٠ - ص ١٠٩١ - ص ١٠٩٢ - ص ١٠٩٣ - ص ١٠٩٤ - ص ١٠٩٥ - ص ١٠٩٦ - ص ١٠٩٧ - ص ١٠٩٨ - ص ١٠٩٩ - ص ١١٠٠ - ص ١١٠١ - ص ١١٠٢ - ص ١١٠٣ - ص ١١٠٤ - ص ١١٠٥ - ص ١١٠٦ - ص ١١٠٧ - ص ١١٠٨ - ص ١١٠٩ - ص ١١١٠ - ص ١١١١ - ص ١١١٢ - ص ١١١٣ - ص ١١١٤ - ص ١١١٥ - ص ١١١٦ - ص ١١١٧ - ص ١١١٨ - ص ١١١٩ - ص ١١٢٠ - ص ١١٢١ - ص ١١٢٢ - ص ١١٢٣ - ص ١١٢٤ - ص ١١٢٥ - ص ١١٢٦ - ص ١١٢٧ - ص ١١٢٨ - ص ١١٢٩ - ص ١١٣٠ - ص ١١٣١ - ص ١١٣٢ - ص ١١٣٣ - ص ١١٣٤ - ص ١١٣٥ - ص ١١٣٦ - ص ١١٣٧ - ص ١١٣٨ - ص ١١٣٩ - ص ١١٤٠ - ص ١١٤١ - ص ١١٤٢ - ص ١١٤٣ - ص ١١٤٤ - ص ١١٤٥ - ص ١١٤٦ - ص ١١٤٧ - ص ١١٤٨ - ص ١١٤٩ - ص ١١٥٠ - ص ١١٥١ - ص ١١٥٢ - ص ١١٥٣ - ص ١١٥٤ - ص ١١٥٥ - ص ١١٥٦ - ص ١١٥٧ - ص ١١٥٨ - ص ١١٥٩ - ص ١١٦٠ - ص ١١٦١ - ص ١١٦٢ - ص ١١٦٣ - ص ١١٦٤ - ص ١١٦٥ - ص ١١٦٦ - ص ١١٦٧ - ص ١١٦٨ - ص ١١٦٩ - ص ١١٧٠ - ص ١١٧١ - ص ١١٧٢ - ص ١١٧٣ - ص ١١٧٤ - ص ١١٧٥ - ص ١١٧٦ - ص ١١٧٧ - ص ١١٧٨ - ص ١١٧٩ - ص ١١٨٠ - ص ١١٨١ - ص ١١٨٢ - ص ١١٨٣ - ص ١١٨٤ - ص ١١٨٥ - ص ١١٨٦ - ص ١١٨٧ - ص ١١٨٨ - ص ١١٨٩ - ص ١١٩٠ - ص ١١٩١ - ص ١١٩٢ - ص ١١٩٣ - ص ١١٩٤ - ص ١١٩٥ - ص ١١٩٦ - ص ١١٩٧ - ص ١١٩٨ - ص ١١٩٩ - ص ١٢٠٠ - ص ١٢٠١ - ص ١٢٠٢ - ص ١٢٠٣ - ص ١٢٠٤ - ص ١٢٠٥ - ص ١٢٠٦ - ص ١٢٠٧ - ص ١٢٠٨ - ص ١٢٠٩ - ص ١٢١٠ - ص ١٢١١ - ص ١٢١٢ - ص ١٢١٣ - ص ١٢١٤ - ص ١٢١٥ - ص ١٢١٦ - ص ١٢١٧ - ص ١٢١٨ - ص ١٢١٩ - ص ١٢٢٠ - ص ١٢٢١ - ص ١٢٢٢ - ص ١٢٢٣ - ص ١٢٢٤ - ص ١٢٢٥ - ص ١٢٢٦ - ص ١٢٢٧ - ص ١٢٢٨ - ص ١٢٢٩ - ص ١٢٣٠ - ص ١٢٣١ - ص ١٢٣٢ - ص ١٢٣٣ - ص ١٢٣٤ - ص ١٢٣٥ - ص ١٢٣٦ - ص ١٢٣٧ - ص ١٢٣٨ - ص ١٢٣٩ - ص ١٢٤٠ - ص ١٢٤١ - ص ١٢٤٢ - ص ١٢٤٣ - ص ١٢٤٤ - ص ١٢٤٥ - ص ١٢٤٦ - ص ١٢٤٧ - ص ١٢٤٨ - ص ١٢٤٩ - ص ١٢٥٠ - ص ١٢٥١ - ص ١٢٥٢ - ص ١٢٥٣ - ص ١٢٥٤ - ص ١٢٥٥ - ص ١٢٥٦ - ص ١٢٥٧ - ص ١٢٥٨ - ص ١٢٥٩ - ص ١٢٦٠ - ص ١٢٦١ - ص ١٢٦٢ - ص ١٢٦٣ - ص ١٢٦٤ - ص ١٢٦٥ - ص ١٢٦٦ - ص ١٢٦٧ - ص ١٢٦٨ - ص ١٢٦٩ - ص ١٢٧٠ - ص ١٢٧١ - ص ١٢٧٢ - ص ١٢٧٣ - ص ١٢٧٤ - ص ١٢٧٥ - ص ١٢٧٦ - ص ١٢٧٧ - ص ١٢٧٨ - ص ١٢٧٩ - ص ١٢٨٠ - ص ١٢٨١ - ص ١٢٨٢ - ص ١٢٨٣ - ص ١٢٨٤ - ص ١٢٨٥ - ص ١٢٨٦ - ص ١٢٨٧ - ص ١٢٨٨ - ص ١٢٨٩ - ص ١٢٩٠ - ص ١٢٩١ - ص ١٢٩٢ - ص ١٢٩٣ - ص ١٢٩٤ - ص ١٢٩٥ - ص ١٢٩٦ - ص ١٢٩٧ - ص ١٢٩٨ - ص ١٢٩٩ - ص ١٣٠٠ - ص ١٣٠١ - ص ١٣٠٢ - ص ١٣٠٣ - ص ١٣٠٤ - ص ١٣٠٥ - ص ١٣٠٦ - ص ١٣٠٧ - ص ١٣٠٨ - ص ١٣٠٩ - ص ١٣١٠ - ص ١٣١١ - ص ١٣١٢ - ص ١٣١٣ - ص ١٣١٤ - ص ١٣١٥ - ص ١٣١٦ - ص ١٣١٧ - ص ١٣١٨ - ص ١٣١٩ - ص ١٣٢٠ - ص ١٣٢١ - ص ١٣٢٢ - ص ١٣٢٣ - ص ١٣٢٤ - ص ١٣٢٥ - ص ١٣٢٦ - ص ١٣٢٧ - ص ١٣٢٨ - ص ١٣٢٩ - ص ١٣٣٠ - ص ١٣٣١ - ص ١٣٣٢ - ص ١٣٣٣ - ص ١٣٣٤ - ص ١٣٣٥ - ص ١٣٣٦ - ص ١٣٣٧ - ص ١٣٣٨ - ص ١٣٣٩ - ص ١٣٤٠ - ص ١٣٤١ - ص ١٣٤٢ - ص ١٣٤٣ - ص ١٣٤٤ - ص ١٣٤٥ - ص ١٣٤٦ - ص ١٣٤٧ - ص ١٣٤٨ - ص ١٣٤٩ - ص ١٣٥٠ - ص ١٣٥١ - ص ١٣٥٢ - ص ١٣٥٣ - ص ١٣٥٤ - ص ١٣٥٥ - ص ١٣٥٦ - ص ١٣٥٧ - ص ١٣٥٨ - ص ١٣٥٩ - ص ١٣٦٠ - ص ١٣٦١ - ص ١٣٦٢ - ص ١٣٦٣ - ص ١٣٦٤ - ص ١٣٦٥ - ص ١٣٦٦ - ص ١٣٦٧ - ص ١٣٦٨ - ص ١٣٦٩ - ص ١٣٧٠ - ص ١٣٧١ - ص ١٣٧٢ - ص ١٣٧٣ - ص ١٣٧٤ - ص ١٣٧٥ - ص ١٣٧٦ - ص ١٣٧٧ - ص ١٣٧٨ - ص ١٣٧٩ - ص ١٣٨٠ - ص ١٣٨١ - ص ١٣٨٢ - ص ١٣٨٣ - ص ١٣٨٤ - ص ١٣٨٥ - ص ١٣٨٦ - ص ١٣٨٧ - ص ١٣٨٨ - ص ١٣٨٩ - ص ١٣٩٠ - ص ١٣٩١ - ص ١٣٩٢ - ص ١٣٩٣ - ص ١٣٩٤ - ص ١٣٩٥ - ص ١٣٩٦ - ص ١٣٩٧ - ص ١٣٩٨ - ص ١٣٩٩ - ص ١٤٠٠ - ص ١٤٠

بالإضافة إلى المنطق والفلسفة^{٢٠٥}. أما المدارس الخاصة لغير أهل الدير فقد كان التلاميذ يتعلمون فيها مبادئ النحو والصرف والحساب والموسيقى والخط^{٢٠٦}. وأما المدرسون فكانوا من الرهبان والقسس، حيث كان بعضهم على درجة كبيرة من العلم. كما كانت معظم المدارس داخل الأديرة والكنائس أو تكون في بنايات ملحقة بالدير أو الكنيسة^{٢٠٧}. وعرف أغنياء النصارى وأعيانهم نوعاً من التعليم المنزلي لأطفالهم^{٢٠٨}. هذا ولم ترد أي إشارة لتعليم البنات عند النصارى، ولكن من المرجح أن بعضهن كن يتعلمن داخل الأديرة وبخاصة من كن ينخرطن في سلك الرهبنة، وفيما عدا ذلك فيبدو أن الأهالي كانوا يقومون بتعليم بناتهم إذا كانوا من المتعلمين^{٢٠٩}.

وقد وجدت بعض المدارس التي كانت بمثابة مراكز للتعليم العالي لتدريس الطب والرياضيات والعلوم الأدبية والفلسفية، وغالباً ما كان التعليم العالي مقتصرأ على رجال الدين^{٢١٠}.

وبالنسبة إلى اللغة فيبدو أن اللغة العربية كانت المستعملة في تلك المدارس، لأن السريانية ظلت شائعة عند النصارى اليعاقبة حتى القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ما عدا بعض الفئات الذين تمسكوا فيها كالموارنة مثلاً^{٢١١}. أما الملكيين فلم يكن لديهم سبب ديني يدعوهم للتمسك بالسريانية وكان الأنسب لهم أن يتكلموا اللغة العربية لغة الطبقة الحاكمة^{٢١٢}.

هذا وقد انتعشت اللغة السريانية في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني والثالث عشر الميلاديين على يد عدد من الكتاب المشهورين كمخائيل

٢٠٥ - السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٦٧.

٢٠٦ - السيد، المرجع نفسه، ص ١٦٧. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٤٢. محمود، التعليم في مصر، ص ١١٨.

٢٠٧ - حتى مختصر تاريخ لبنان (ص ١٥٨). ترممة نوار نصار، بطر. (ثقافة مصر، بيروت ١٩٧٦).

٢٠٨ - قاسم، المرجع السابق، ص ١٤٢.

٢٠٩ - السيد، المرجع السابق، ص ١٦٧.

٢١٠ - حتى، المرجع السابق، ص ١٥٨. السيد، المرجع السابق، ص ١٦٧. ٢١١ - حتى، المرجع السابق، ص ١٥٨. ٢١٢ - المسلي، وثائق مقدسية، ج ١، ص ٦٩. حتى، المرجع السابق، ص ١٥٨.

السرياني، وابن العبري غريغورس ابن الملطي اللذان اشتهرا بالتأليف في اللاهوت والتاريخ باللغتين السريانية والعربية كما ترجموا كثيراً من الكتب العربية إلى السريانية^{٢١٣}.

ومن الجدير بالذكر أن كل دير من الديارات الكبيرة كان لا يخلو من خزانة للكتب يجد فيها الرهبان ما ينشدون من التأليف التي تتناول موضوعات علمية ودينية وأدبية مختلفة كالكتب المقدسة وتفسيرها والفلسفة واللاهوت والأدب والشعر والتاريخ وغيرها، وكانت خزانة الكتب مجتمع الباحثين من الرهبان فيها يطالعون وفيها يؤلفون الكتب وفيها ينسخون^{٢١٤}. هذا بالإضافة إلى وجود مكتبات أخرى في كنائسهم وبيوتهم، فتعددت المكتبات لدى الطوائف النصرانية في جميع بلاد الشام تبدأ ظاهراً يعكس لنا مدى كلف أبناء هذه الطوائف بتأسيس هذه المكتبات والتي يعود أغلب الفضل فيها إلى رؤساء طوائفهم وعلماء الرهبان في الأديار^{٢١٥}.

ومن أمثلة المكتبات النصرانية في تلك الحقبة مكتبة دير البلمند ويقع هذا الدير في الجنوب الشرقي من طرابلس أنشأه الصليبيون سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م وأطلقوا عليه اسم دير الجبل وبعد تطهير الساحل الشامي من الصليبيين تملكه اليعاقبة^{٢١٦}. كما احتوت كنائس دمشق على خزائن للمخطوطات أسوة بنظائرها في سائر البلدان^{٢١٧}.

وأجمع المؤرخون على أن دير السيدة في صيدنايا بالقرب من دمشق كان حافلاً بالنذور والتقام والتحف والمخطوطات المحبوسة عليه منذ مئات السنين، وكانت مخطوطات ذلك الدير عربية وسريانية ويونانية تتناول مواضيعها الدين والتاريخ والأدب والطب وغير ذلك من العلوم^{٢١٨}. وإلى جوار صيدنايا قرية معلولا التي كانت

٢١٣- مراد، كامل، تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى العصر الحاضر، ج ١، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م. ص ٣٦، ٣٧. وص ٢٤٦-٣٦٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، مراد، تاريخ الأدب السرياني، حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٧٥، ١٨٠.

٢١٤- الشابشتي، الديارات، ص ٣١. الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ٤٤٠. ^{ترجمته محمد هادي هادي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨ - ١٩٥٩.}

٢١٥- دي طرازي، الفيكت فيليب، خزائن الكتب العربية في الخافقين، ج ٢، الجمهورية اللبنانية، دار الكتب، د.ت، ص ٤١٣. وسيشار له فيما بعد هكذا، دي طرازي، خزائن الكتب العربية.

٢١٦- دي طرازي، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٤٧.

٢١٧- دي طرازي، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٥٦.

٢١٨- دي طرازي، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٦٠، الزياد، خزائن الكتب في دمشق (ج ٢)، ص ١١٣. ^{ترجمته محمد هادي هادي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨ - ١٩٥٩.}

أديرتها مشحونة بخزائن الكتب والمخطوطات القديمة، أشهرها دير كبير للروم الارثوذكس على اسم القديسة ثكلا (Saint Thekla)^{٢١٩}. كما حوت كنائس حلب على كثير من مخطوطات الموسيقى والفن لأن حلب كانت تحتل المقام الاول في الفنون المشار اليهما^{٢٢٠}.

أما مكتبة دير الكرمل في حيفا، فهي من أقدم المكتبات في الشرق وأشهرها وأغناها، حيث يرجع تأسيس هذا الدير الى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي^{٢٢١}. ومن المكتبات الهامة في بيت المقدس، مكتبة الرهبان الفرنسيين والتي يقول عنها أحد الباحثين أنها من أغنى مكتبات العالم بما حوته من الوثائق المتعلقة بالأراضي المقدسة وقد حافظ أولئك الرهبان عليها محافظة شديدة، وتحتوي مكتبة الرهبان على ألفين وستمائة وأربع وأربعين وثيقة يعود تاريخ أقدمها إلى عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين^{٢٢٢}. ومكتبة القبر المقدس التي أنشأها الروم الارثوذكس سنة ١٤٥١م بناء على قرار مجمع خلقدونية، فهي اذن عريقة في القدم، ومن الطبيعي أن تحتوي مكتبتها على نواذر الوثائق والمخطوطات ففيها حوالي ثلاثة آلاف مخطوط، وعشرة آلاف كتاب وفوق المائة كتاب من الكتب اليونانية في اجزاء^{٢٢٣}.

أما مكتبة دير ماريعقوب للأرمن، فهي مكتبة حافلة بالكنوز العلمية كالرقوق والمصورات تضم أكبر الوثائق الأرمنية المقدسية في العالم، وفيها عدد كبير من الوثائق التي أصدرها الحكام المسلمون للجالية الأرمنية في القدس. ومكتبة دير مارمرقس للسريان، وهي من أقدم المكتبات في القدس وهي حافلة بالمخطوطات والرقوق^{٢٢٤}.

٢١٩- دي طرازي، خزائن الكتب العربية، ج٢، ص ٤٦١.

Bliss, Fredrick Jones, The Religions of Modern Syria and Palestine, New York: C. Scribner's, 1972, p. 115.

وسيشار له فيما بعد هكذا Bliss, The Religions of Modern Syria

٢٢٠- دي طرازي، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٧٢.

٢٢١- دي طرازي، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٨٠.

٢٢٢- دي طرازي، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٧٦، ٤٧٧، العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج١، ص ٥٩، السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٧٠.

٢٢٣- دي طرازي، المرجع السابق، ج٢، ص ١٧٠.

Bliss, Op, Cit, p. 115.

٢٢٤- دي طرازي، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٧٨، العسلي، المرجع السابق، ج١، ص ٦٥، ٦٩.

وقد دون السريان كتبهم بعدة أنواع من الخطوط، وكان أقدمها مدوناً بخط الانجيل (الاسطر نجيلي). ولما انقسموا إلى نساطرة ويعاقبة وملكية ابتدع كل فريق منهم لنفسه خطأ إلى جانب الخط القديم^{٢٢٥}.

كذلك كان لليهود مكتبات خاصة بهم في مدارسهم وأماكن عباداتهم. حيث ذكر الرحالة اليهودي إسحق بن شيلو الذي زار فلسطين سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م بأنه كان لليهود في يافا معبد جميل ومدرسة ومكتبة^{٢٢٦}. ومن المرجح أنه كان لهم مكتبات أخرى في المدن الأخرى وفي معابدهم، كما كان هناك فئة كبيرة من أطباء اليهود وعلمائهم وفلاسفتهم خدموا الملوك والسلاطين، ووضعوا التأليف الكثيرة، ونقلوا بعض العلوم الدخيلة على اللغة العبرانية وغيرها إلى اللغتين العربية واللاتينية، وكان لهؤلاء شغف خاص بالكتب يحرصون عليها ويعتنون بجمعها في خزائنهم، فقد كان للطبيب عمران الاسرائيلي المتوفى سنة (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) خزانة كتب في بيته لا مثيل لها^{٢٢٧}.

٢٢٥- مراد، تاريخ الأدب السرياني، ج ١، ص ٢٤.

٢٢٦- Adler, Jewish Travellers, p. 139.

٢٢٧- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٩٦، ٦٩٧. دي طرازي، خزائن الكتب العربية، ج ٢، ص ٦٥٣.

الفصل الخامس

ممارسة بعض الشعائر الدينية عند أهل الامة

- ١- الأعياد
- ٢- الحج
- ٣- المزارات
- أ- المزارات النصرانية
- ب- المزارات اليهودية

(١)

الأعياد

احتفل أهل الذمة في بلاد الشام بأعيادهم الدينية الخاصة، وكانت احتفالاتهم تتم على نطاق الحارات التي يقطنونها وضمن أديرتهم وبيعهم وكنائسهم^١، كما كانوا يحتفلون بها أحياناً قرب مزاراتهم المقدسة^٢ وقرب الأنهار^٣.

وكانت طريقة الاحتفال ومواعيدها تختلف من طائفة الى أخرى، لأن كل واحدة تتبع تقويعاً يختلف عن الأخرى، وحسب رأيها في قدسية العيد، ونتيجة لتلك الاختلافات كانت أعياد كل طائفة تتقدم أو تتأخر عن الطائفة الأخرى، كما كان لكل طائفة قدسوها الذين تحتفل بأعياد ميلادهم أو ذكرى وفاتهم، فتعددت الأعياد لديهم وتنوعت. لذا سأقتصر على ذكر الأعياد الرئيسية والمشهورة دون غيرها، وهي أربعة عشر عيداً تنقسم إلى سبعة أعياد كبيرة وسبعة أعياد صغيرة^٤.

الأعياد الكبيرة: أولها «عيد البشارة» أي بشارة غبريال جبريل عليه السلام، للسيدة مريم بمولد السيد المسيح، وكان موعد هذا العيد في التاسع والعشرين من برمها من شهور القبط الذي يصادف الخامس والعشرين من شهر أذار^٥.

العيد الثاني: «عيد الزيتونة» ويعرف بعيد الشعانين وكلمة شعانين مأخوذة من الكلمة السريانية (سعانين) ويقصد بها سعف النخل، ومعناه بالعربية التسبيح، وهو يوم ركوب المسيح لليعفور (الجمار) في القدس والناس يسبحون بين يديه وهو يأمر

١- نعيمة، مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص ٦٨٠.

٢- ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٩٥.

٣- الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٨٠.

٤- القلقشندي، صبح الاعشى، ج٢، شرح وتعليق محمد شمس الدين، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ٤٥٤.

٥- الدمشقي، المصدر السابق، ص ٢٨٠. القلقشندي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥٤. المقرئزي، الخطط، ج١، ص ٤٩٥. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢٠. نعيمة، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٨٠.

بالمعروف وينتهي عن المنكر، وسنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة، ويعملونه في سابع أحد من صومهم^٦. وقد جرت العادة أن تلتقي جميع طوائف النصارى داخل كنيسة القيامة وتتجمع كل طائفة منهم في مكان معين من الكنيسة حيث يقوم كاهن كل طائفة بترتيل القديس باللغة التي يخاطب بها أفراد تلك الطائفة^٧. كما كانت عادة أطفال النصارى في هذا اليوم في بيت المقدس أن يدوروا حول جبل الزيتون وبأيديهم سعف النخل وأغصان الزيتون، ولا يزال الموارنة إلى اليوم يذهبون في يوم أحد الشعانين إلى الكنيسة بشجرة كبيرة من الزيتون ويباركونها ويعطونها لمن يدفع فيها ثمناً أوفر ويطوفون بها في الكنيسة بين أصوات الفرح، ثم يهجم الجميع عليها ويأخذ كل منهم غصناً يحفظه للبركة. أما الأقباط فكانت عادتهم أن يقطعوا قلوب النخل وسعفه وأغصان الزيتون يوم السبت، ويضفرونها زيتونة كبيرة بالصلبان، ويكللونها بالشموع، ويرفعونها إلى محل إقامة البطريرك ثم يضعونها يوم الأحد أمام الهيكل ويبتدئ القديس، ثم يأخذ الناس منها على سبيل البركة وكان البعض يدورون بالزيتونة في الديارات والطواحين والأفران^٨.

أما العيد الثالث فهو: «عيد الفصح» وهو العيد الكبير لدى النصارى يعملونه يوم الفطر من صومهم الأكبر، ويزعمون أن المسيح قام فيه بعد صلبه بثلاثة أيام وأقام في الأرض أربعين يوماً آخرها يوم الخميس ثم صعد إلى السماء^٩. وفي ذلك اليوم كانت جموع النصارى بالقدس والزوار يذهبون إلى كنيسة القيامة حيث يكون رهبان كل طائفة من الطوائف قد تجمعوا حول المذبح الخاص بهم، ثم يقومون بترتيل القديس، ثم يقرأ الإنجيل ويرتل المصلون بصوت واحد «المسيح قام من بين الأموات» ثم تقرر الأجراس بعد منتصف الليل وتبقى الاحتفالات قائمة إلى ساعة متأخرة من الليل^{١٠}. وقد وصف لنا شيخ الربوة احتفالات أهل حماء بهذا العيد حيث

- ٦- الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٨٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٥٤. المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٩٥. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢٠. نعيمة، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٨.
- ٧- السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٦٦.
- ٨- متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٨٤.
- ٩- القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٤. المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٥. قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٠.
- ١٠- السيد، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

قال: «وفي هذا العيد تبطل أهل حماه مدة ستة أيام أولها يوم الخميس الكبير وهو خميس العهد وأخرها يوم الثلاثاء ثالث الفصح، وتنتعش فيه النساء ويلبسن الكساوي الفاخرة، ويصبغن فيه البيض ويعملن فيه أقراص الكعك، والمسلمون محتفلون فيه أكثر من النصارى، وكان يرد حماه من سائر البلاد المجاورة لها مثل حمص وشيزر وسلمية وكفرطاب ومصيف والمعة والباب وبزاغة والفوعة وحلب ويطلعون جميعاً إلى العاصي ويضربون لهم أهل حماة على شطوطة خياماً ويركبون في المراكب ويرقصون في المراكب نساءً ورجالاً وعلى الشطوط حتى تنتهك الخلائق ويمضي لهم ستة أيام لا يرى في الوجود مثلاً، ولم أرَ هذا في مدينة غيرها»^{١١}.

العيد الرابع هو: «خميس الأربعين» ويسميه الشاميون «السُّلَّاق» وقد ذكره المقرئزي «المسلاق» وهو الثاني والأربعون من الفطر، ويقولون أن المسيح تسلَّق فيه من تلاميذه إلى السماء بعد أربعين يوماً من القيام ورجع التلاميذ إلى بيت المقدس بعدما وعدهم باشتهار أمرهم، ويسمى أيضاً الصعود^{١٢}.

العيد الخامس هو: «عيد الخميس» الذي كان يسمى «عيد العنصرة» و «عيد القيامة» ويعملونه بعد خمسين يوماً من القيام، ويقولون أن روح القدس حلَّت في تلاميذ المسيح وتفرقت عليهم جميع السنة الناس فتكلموا بجميع اللغات وذهبوا إلى البلاد يدعون الناس إلى دين المسيح^{١٣}.

العيد السادس هو: «عيد الميلاد» وهو اليوم الذي يقولون فيه أن المسيح ولد في بيت لحم وهم يقولون أنه ولد يوم الإثنين، فيعملونه عشية الأحد ليلة الميلاد، فيوقدون فيها المصابيح بالكنائس. ويعملونه في التاسع والعشرين من كيهك من شهور القبط^{١٤} الذي يصادف الخامس والعشرين من شهر كانون أول^{١٥}. ويقيمون

١١- دمشق، نخبة الدهر، ص ٢٨٠.

١٢- دمشق، المصدر نفسه، ص ٢٨٠. الفلقشندي، صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٥٥. المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٩٥، ٤٩٦. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢٠.

١٣- دمشق، المصدر السابق، ص ٢٨١. الفلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٥. المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٦. قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٢١.

١٤- دمشق، المصدر السابق، ص ٢٨١. الفلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٥. المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٦. قاسم، المرجع السابق، ص ١٢١.

١٥- المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٣٨.

القداس في سائر الكنائس إلى جانب ما يعدونه من أصناف المأكّل والمشارب ويشترك في هذا العيد عامة الناس ويوقدون النار ويلعبون بالجوز اقتداءً بيوسف النجار عندما أوقد النار للسيدة مريم عليها السلام وأطعمها بعض الجوز عقب ولادتها السيد المسيح^{١٦}. وفي عيد الميلاد تكون مدينة بيت لحم في فلسطين كعبة يحج إليها النصارى من أقطار الأرض كما يحجون إلى كنيسة القيامة في عيد الفصح أو القيامة^{١٧}. وفي حماه يوقد أهلها ليلة عيد الميلاد كبيرهم وصغيرهم، وجليهم وحقيرهم، وجندهم وأميرهم من القناديل فوق الاسطحة ومن القنب والشيخ شيئاً عظيماً ويوقدون من البارود والنفط أنواعاً شتى^{١٨}. وفي هذا العيد كانت تباع في الأسواق والحوانيت الشموع المزينة المصبوغة بالألوان العديدة ويشترىها عامة الناس مسلمين ونصارى^{١٩}.

العيد السابع هو: «عيد الغطاس» يقول أن يحيى بن زكريا عليه السلام ويسمونه يوحنا المعمدان، عمّد المسيح فيه، أي غسّله بنهر الأردن وأن عيسى لما خرج من الماء حلّت عليه روح القدس على هيئة حمامة، والنصارى يغمسون أولادهم في الماء في هذا اليوم رغم شدة البرد، اعتقاداً منهم أن ذلك يقيهم من المرض طوال حياتهم ويعملونه في الحادي عشر من طوبه من شهور القبط الذي يصادف السابع من كانون ثاني، وعقبه يحمى الطقس، فسادت الأمثال «غطستم صيفتم، ونورزتم شتيتم»^{٢٠}.

أما أعيادهم الصغيرة فهي سبعة أيضاً أولها: «عيد الختان» في ذكرى ختان المسيح عليه السلام ويعملونه في سادس بؤنه من شهور القبط الذي يصادف في الحادي والثلاثين من أيار، وجدير بالذكر أن الأقباط دون غيرهم كانوا يختنون

١٦- متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص ٢٨٥. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٦٧.

١٧- انطون، فرج، اورشليم الجديدة، الاسكندرية، دن، ١٩٠٤م، ص ٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، انطون، اورشليم الجديدة.

١٨- الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٨١.

١٩- ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٥٩، قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية، ص ٢٢٠.

٢٠- الدمشقي، المصدر السابق، ص ٢٨١. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤٥٥. المقرئزي، الخطط،

ج١، ص ٤٩٧. متز، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٨٩. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢١. نعيسة،

مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص ٦٨٠.

أولادهم في ذلك اليوم تبركاً به^{٢١}. وكان يسمى الميلادة الصغيرة وربما يقدون فيه من القناديل والشموع أكثر من عيد الميلاد^{٢٢}.

العيد الثاني هو: «عيد الأربعين» يزعمون أن سمعان الكاهن دخل بالمسيح وأمه عليهما السلام بعد أربعين يوماً من ميلاده الهيكل وباركه. ويسمى عيد دخول الهيكل، ويعملونه في ثامن من شهر أمشير من شهور القبط ويصادف الثاني من شباط^{٢٣}. ويقول عنه البيروني، عيد الشمع، وهو عيد كبير عند اليعقوبية، ويقال، أن اليهود في هذا اليوم يدخلون أولادهم الكنائس ويقرؤونهم التوراة^{٢٤}.

العيد الثالث من الأعياد الصغيرة هو: «خميس العهد» أو «خميس العدس» وهو قبل الفصح بثلاثة أيام وفي هذا العيد يغسل البطريرك أرجل الحاضرين من النصارى في ذكرى غسل المسيح لأرجل تلاميذه ليعلمهم التواضع. ويتهادون فيه أنواع السمك المنوع مع العدس المصفى والبيض، ويقول عنه أهل الشام خميس الأرز وخميس البيض^{٢٥}. وكان هذا العيد عند نصارى حلب يضاهي أهل مكة بموسم الحج، حيث يذهب جميع أهالي حلب إلى قرية روحين من جبل سمعان ويجتمع الناس هناك من سائر جهات حلب وحماه وحران حتى تكاد تخلو ممن فيها من السكان للاحتفال بهذا العيد^{٢٦}.

العيد الرابع هو: «سبت النور» أو عيد كنيسة القيامة، يعملونه قبل الفصح بيوم، ويقولون أن النور يظهر في هذا اليوم على مقبرة المسيح من السماء فتشتعل

٢١- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٥٥. المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٩٨. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢١.

٢٢- الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٨١.

٢٣- الدمشقي، المصدر نفسه، ص ٢٨١. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٥، ٤٥٦. المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٨. قاسم، المرجع السابق، ص ١٢١.

٢٤- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي، (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق إدوارد ساشو، ليزبغ، ١٩٢٢م، أعيد طبعه بالوقفت، بغداد، مكتبة المثنى، دت. ص ٢٩٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، البيروني، الآثار الباقية.

٢٥- الدمشقي، المصدر السابق، ص ٢٨١. ابن الحاج، المدخل، ج ٢، ص ٥٠. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٦. المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٨. منز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٨٥. قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٢.

٢٦- ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٥٦. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٩٥.

منه مصابيح كنيسة القيامة بالقدس^{٢٧}. ويروي لنا ابن واصل احتفالات النصارى بسبت النور بقوله: «حضرت في زمن الصبا يوم سبت النور في كنيسة القيامة مراراً على سبيل التفرج، فكنت أجدهم يعكفون على القبة الصغيرة التي فيها القبر والنصارى مجتمعون فيها يرفعون صلبانهم ويقرؤون انجيلهم ويضجون ... فإذا كان وقت الظهر أو بعده دخل البترك القبة، وأخرج شمعة موقدة زعم أنه أوقدها من القنديل الذي اشتعل بالنور المنزل من السماء، فيأتيه النصارى بشمعهم فيقدونه من تلك الشمعة، فيمتلئ المكان بالشمع الموقدة، ويظهر على النصارى من الفرح والاستبشار ما لا مزيد عليه، جهلاً وضلالة، وظناً فاسداً أنه نور انزل عليهم، وإنما هو نار محرقة افتعلها البترك»^{٢٨}.

وكان النصارى في ذلك الوقت يجمعون أوراق الشجر من الرياح وغيره وينقعونه في إناء مملوء بالماء ويفتسلون به في اليوم التالي لأن هذا يقيهم شر المرض والكسل والعين والسحر وما إلى ذلك، كما كانوا يكتحلون فيه بالكحل الأسود إذ اعتقدوا بأنه يزيد في قوة الأبصار، وكانوا يظنون أن شرب الدواء في هذا اليوم أكثر فائدة فيه من أي يوم آخر^{٢٩}، وقد جرت العادة في هذا الوقت قطف الزيتون^{٣٠}.

وخامس هذه الأعياد هو: «حد الحدود» أو «أحد الأحود» وهو بعد الفصح بثمانية أيام يعملونه في أول أحد بعد الفطر لأن الأحاد التي قبله مشغولة بالصيام، وفي هذا العيد يأخذون في الاستعداد للمعاملات والأمور الدنيوية ويجددون فيه آلات وأثاث البيوت^{٣١}.

٢٧- الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٨١. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٥٦. المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٩٨.

٢٨- ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٣١.
أما حيلة إشعال الضوء فتتم على النحو التالي: انهم كانوا يعلقون القناديل في بيت المذبح ويتحلبون في إيصال النار إليها بأن يمدوا على جميعها شريطاً من حديد في غاية الدقة مدهوناً بدهن البلسان ودهن الزنبق، فإذا صلوا وجاء وقت الزوال فتحوا المذبح فتدخل الناس إليه وقد اشتعلت فيه الشموع ويتوصل بعض القوم أن يعلق النار بطرف الشريط الحديدي فتسرى عليه فتتقد المصابيح واحداً بعد واحد، إذ من طبيعة دهن البلسان علوق النار فيه بسرعة مع أدنى ملامسة، فيظن الحاضرون أن النار قد نزلت من السماء فأوقدت القناديل. النويري الاسكندراني، الإمام بالاعلام، ج ٢، تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٠م، ص ٢٥٩. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٥٦.

٢٩- ابن الحاج، المدخل، ج ٢، ص ٥٧. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢٢.
٣٠- المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٢٨. لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص ١٨٢.
٣١- الدمشقي، المصدر السابق، ص ٢٨١. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٧. المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٩.

العید السادس هو «عید التجلی» ويعملونه فی الثالث عشر من مسرى من شهور القبط ویصادف فی السابع من أب یقولون أن المسیح علیه السلام تجلی لتلاميذه بعد أن رفع فی هذا اليوم، وتمنّوا علیه أن یحضر لهم ایلیا وموسى علیهما السلام فأحضرهما لهم بمصلی بیت المقدس ثم صعد وصعدا^{٣٢}.

والعید السابع هو: «عید الصلیب» احتفالاً بالیوم الذی وجدت فیهِ هیلانہ أم قسطنطین خشبة الصلیب وغشتها بالذهب واتخذت من ذلك الیوم عیداً، ويعملونه فی السابع عشر من توت من شهور القبط الذی یصادف السابع من أیلول^{٣٣}. وفی هذا العید من کل عام تجری بقریة صیدنا یا قرب دمشق اجتماعات وأفراح ویأتیها الناس من الأقالیم المجاورة و غیرها^{٣٤}. ومن أحسن أوصاف مواكب النصاری فی الأعیاد ما رواه الحسن بن یعقوب فی عید الصلیب قال: «صرت إلى الرها فبتنا بها وخرجت قبل عید الصلیب بیوم فاذا لدینا وجوه حسان من نصرائیات خرجن لعیدهن علیهن جید الثیاب ومفاخر الجواهر واذا بروائح المسك والعنبر قد طیب الهواء منها وقد فرش لهن على العجل وهو یجر بهن وأخریات على الشھاری الخرسانیة والبغلات المصریة والحر الفره ومشاة، وفی خلال ذلك صبیان ما رأیت أحسن منهم وجوهاً وقُدوداً وثیاباً فتأملت منظراً لم أر أحسن منه قط، واذا هم یطلبون دیر زکی^{٣٥} ليعیدوا فیهِ.....»^{٣٦}.

ومن أشهر الأعیاد الأخری غیر تلك الأعیاد الشرعیة، «عید النیروز» یحتفل به الأقباط فی مصر فی أول یوم سنتهم، ونصاری الشام یسمونه «نیروز» أيضاً^{٣٧}.

٣٢- دمشق، نخبة الدهر، ص ٢٨١. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٥٧. المقریزی، الخطط، ج ١، ص ٤٩٩. قاسم، أهل الذمة فی مصر، ص ١٢٢.

٣٣- دمشق، المصدر السابق، ص ٢٨١. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٧. المقریزی، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٩. الحمیری، الروض المعطار، ص ٤٨٢. قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٢. العارف، المسیحیة فی القدس، ص ٢١٦.

٣٤- نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٨١.

٣٥- دیر زکی: بفتح أوله وتشدید الکاف. وهو دیر بالرھا. یاقوت الحموی، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١٢.

٣٦- الزیات، الدیارات النصرائیة، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

٣٧- دمشق، المصدر السابق، ص ٢٧٩، ٢٨٠. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٨. المقریزی، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠١.

ولفظه نيروز فارسية معربة معناها اليوم الجديد وكان القبط اتخذوا ذلك على طريقة الفرس واستعاروا إسمه منهم^{٢٨}. وكانوا يظهرين فيه من الفرج والسرور واشعال النار والتراشق بالماء الشيء الكثير وبأيديهم جلود أغنام وخفاف يمرغونها في الأطنان ويضربون بها من مكنتهم من الناس. ويشاركهم فيه عوام المسلمين^{٢٩}. وأهل الشام يعملون مثل ذلك في أول سنتهم أيضاً وهو أول يوم من كانون ثاني ويسمونه «القلنداس» ومعناها خيراً، يوقدون في ليلته النيران لا سيما في مدينة انطاكية، وكذلك بسائر مدن الشام وببيت المقدس وأرض النصرانية كلها، يظهرين فيه من الفرج والسرور وإيقاد النار والمأكّل والمشارب ويشاركهم في ذلك كثير من عوام المسلمين وخواصهم^{٣٠}.

أما أعياد اليهود فقد قسمتها المصادر العربية إلى قسمين: أعياد شرعية، وأعياد محدثة. والأعياد الشرعية خمسة أعياد أولها:

«عيد رأس السنة» ويسمونه بالعبرية عيد روش هاشانا أي عيد رأس السنة أو رأس هاسا وهو بمنزلة عيد الأضحى عند المسلمين ويقولون أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه اسماعيل فيه وفداه بذبح عظيم^{٣١}. ويحل مواعده في أول تشرين أحد شهور اليهود الذي يصادف في الحادي والعشرين من أيلول. ويعتبر هذا العيد أيضاً عيد عتق وحرية عند اليهود لخلّصهم من فرعون. ويسمى أيضاً «عيد البشارة» أي البشارة بالعتق والحرية^{٣٢} وهناك بعض الاختلافات في مظاهر

٢٨- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٥٨.

بينما يرجع أحد الباحثين بأن أصل النيروز يعود إلى قدماء المصريين الذين احتفلوا به إكراماً للنهر الذي يستكمل مياهه في فصل الخريف واعتبر ذلك اليوم عيداً للربيع لأن المصريين في العصور الوسطى قد شاركوا في هذا العيد المرتبط بالنيل على اختلاف دياناتهم. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٦٢. هامش رقم (٣).

٢٩- الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٧٩، ٢٨٠. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٨. المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٥٠١.

٤٠- المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٨٨. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٢. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٨.

٤١- القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦٢.

٤٢- المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٠. نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٨٢. ويهود دمشق، ص ٢٨.

الاحتفال بهذا العيد لدى كل من القرائين والربانيين، إذ كان الربانون ينفخون الأبواق اثناء الصلاة في معابدهم. اعتماداً على تفسيرهم لبعض النصوص الواردة بشأن هذا العيد، بينما اكتفى القراؤون بالصلاة والتهليل حمداً وشكراً لله لأنه يوم عتق رقاب عندهم^{٤٣}.

العيد الثاني هو: «عيد صوماريا» ويسمونه «الكبور» أو «الففران» أو «الكفارة» وهو عندهم الصوم الكبير يقولون أن الله تعالى فرض عليهم الصوم فيه، ومن لم يصمه قتل عندهم، ومدة هذا الصوم خمسة وعشرون ساعة، يبدأ فيها قبل غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرى، ويختتم بمضي ساعة بعد غروبها في اليوم العاشر^{٤٤}. وربما سموه العاشر، ويشترط فيه لجواز الافطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عند الافطار وهو عندهم تمام الأربعين الثالثة التي صامها موسى عليه السلام، ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم في يوم الأحد، أو يوم الثلاثاء، أو يوم الجمعة، ويزعمون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالحصنة، وظلم الرجل أخاه، وجدد ربوبية الله تعالى^{٤٥}. وقد تشدد السامرة في صيام ذلك اليوم حتى أنهم لم يستثنوا منه الاطفال الرضع^{٤٦}، وعادة اليهود في هذا العيد بأن يقوم أحد رجال هذه الطائفة اليهودية بقراءة استغفار معلوم عندهم ليلة عيد الففران ويقرؤه أحد رجال هذه الطائفة وأمامه سبعة نسخ من التوراة، يحملها سبعة أشخاص يدفعون مقابل ذلك مبلغاً معلوماً للكنيسة ثم يقوم رجل موظف بالترخيم ويدعو لحملة التوراة^{٤٧}.

العيد الثالث هو: «عيد المظلة» وعيد الظلل أو الظلال أو الظل وهو سبعة أيام يجلسون فيها تحت الظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون في صحن دورهم تذكراً منهم لظلالهم اياهم بالغمام. والاحتفال به يكون في الخامس عشر من تشرى

٤٣- نعيصة، مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص ٦٨٢. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢٧، ١٢٤.

٤٤- القلقشندي، صبح الاعشى، ج٢، ص ٤٦٤. المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ٥٠٠.

٤٥- القلقشندي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦٤. المقرئزي، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٠٠. قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٤. نعيصة، يهود دمشق ص ٣٨، ومجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص ٦٨٢.

٤٦- قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٤. نعيصة. مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص ٦٨٢.

٤٧- الغزى، نهر الذهب، ج١، ص ٢٠٣.

(٥ تشرين أول)^{٤٨}. وهو فريضة على المقيم دون المسافرين وببطلان فيها الأعمال عملاً بما جاء في السفر الثالث من التوراة «في اليوم الخامس عشر من هذا الشهر السابع عيد المظال سبعة أيام للرب في اليوم الأول محفل مقدس عملاً ما من الشغل لا تعملوا، سبعة أيام تقربون وقوداً للرب»^{٤٩}. وفي اليوم الثامن عيد الاعتكاف عند الربانيين^{٥٠}.

والعيد الرابع هو: «عيد الفطير» وقد سمي أيضاً عيد الفصح وذكره المقرئ باسم الفاسح ويقع في خامس عشر من شهر نيسان اليهودي (١ نيسان) وهو سبعة أيام عند القرائين وثمانية أيام عند الربانيين وستة فقط عند السامرة يأكلون فيها الفطير وينظفون بيوتهم من خبز الخمير وهذه الأيام هي التي خلص الله فيها بني اسرائيل من فرعون وأغرقه فخرجوا إلى التية فجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم فرحون^{٥١}. عملاً بما جاء في التوراة في السفر الثاني من التوراة «سبعة أيام تاكلون فطيراً، اليوم الأول تعزلون الخمير من بيوتكم، فإن كل من أكل خميراً من اليوم الأول إلى اليوم السابع تُقَطِّع تلك النفس من اسرائيل...»^{٥٢} «لأنني في هذا اليوم أخرجت أجنادكم من أرض مصر»^{٥٣}. ويعتبر هذا العيد من أعياد التضحية ومواسم الحج^{٥٤}.

أما العيد الخامس فهو: «عيد الاسابيع» أو «عيد العنصرة» أو شبعوت أو «عيد الخطاب»^{٥٥}، ويسمى بالعبرية عيد عشرينا ومعناه الاجتماع، يأتي بعد عيد الفطير

٤٨- القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٦٤. المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٥٠٠. نعيسة، يهود دمشق، ص ٢٨. ومجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٨٢. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢٤.

٤٩- السفر الثالث (اللاويين)، إصحاح ٢٢، عدد ٢٤.

٥٠- السفر الثالث (اللاويين)، إصحاح ٢٢، عدد ٢٤. قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٤. نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٤٧٢.

٥١- القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦٤. المقرئ، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٠. قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٥. نعيسة، يهود دمشق، ص ٢٨. ومجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٨٢، ٦٨٣.

٥٢- السفر الثاني (الخروج)، إصحاح ١٢، عدد ١٥.

٥٣- السفر الثاني (الخروج)، إصحاح ١٢، عدد ١٧.

٥٤- قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٥.

٥٥- سفر التثنية، إصحاح ١٦، عدد ١٠.

بسبعة أيام. يقولون فيه أنه اليوم الذي خاطب الله فيه موسى عليه السلام من طور سيناء بالأمر والنهي والوعد والوعيد وهو عيد عظيم عندهم وحج من حجوجهم، وموعده في السادس من شهر سيوان (٢ أيار) ولا يكون عيد العنصرة عند الربانيين في يوم الثلاثاء أو خميس أو يوم سبت^{٥٦}. وفي هذا العيد يؤتى بالباكور من الغلات فيقرؤون عليها ويدعون لها بالبركة ومن أول أيام الفطير إلى العنصرة خمسون يوماً وهي الأسابيع المعظمة التي فرض فيها الله عليهم الفرائض وكمل دينهم^{٥٧}.

أما الأعياد المحدثلة لدى اليهود والتي زعموا أن التوراة نطقت بها عيدان: أولهما عيد الفوز (بالعبرية البوريم) وموعده السنوي ثالث عشر آذار ويبدأ بصوم يسمى صوم أستير ويستمر حتى خامس عشر آذار حيث يتم احتفال صاخب، ويتسم الاحتفال به بمظاهر اللهو والخلاعة حتى اطلقت عليه المصادر العربية إسم المسخر أو المسخرة وتدور الأصول التاريخية لهذا العيد حول قصة «أستير» الواردة في السفر المعروف باسمها والذي يتكون من اثني عشر إصحاحاً، يحكي قصة مفادها: أنه بعد تدمير اورشليم على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق.م ونقل اليهود من فلسطين إلى بابل في الأسر البابلي وأثناء سكناهم هناك وقع امبراطور الفرس (أكسرakis) يسميه اليهود (أحشوريوش) ويسميه المؤرخون العرب (أردشير بن بابك) في غرام أستير التي كانت رائعة الجمال، وكانت ابنة عم لأحد أحبار اليهود يدعى (مردوخاي) ولما تزوج الامبراطور الفتاة الجميلة حظيت عنده بمكانة كبيرة مما جعله يقرب ابن عمها (مردوخاي) الأمر الذي أثار غيرة وزيره هامان (هيون)، وصمم على أن يستأصل شأفة اليهود. فوصل الخبر إلى مردوخاي فأخبر ابنة عمه التي بدورها أخبرت الملك فأمر بقتل هامان وأباح لليهود قتل شيعته لمدة يومين من الثالث عشر من آذار حتى الخامس عشر من آذار. فاتخذ اليهود هذه المناسبة عيداً لهم. ويصومون قبله ثلاثة أيام، وفي هذا العيد يصورون من الورق صورة هامان (هيمون) ويملاون بطنها نخالة وملحاً ويلقونها في النار حتى تحترق، يخدمون بذلك صبيانهم^{٥٨}.

٥٦- البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٨١. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦٥. المقرئزي، المصدر

السابق ج ٣، ص ٥٠٠. نعيسه، يهود دمشق، ص ٢٨ ومجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٨٢.

٥٧- البيروني، المصدر السابق، ص ٢٨١.

٥٨- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٦٥-٤٦٦. المقرئزي، الضبط، ج ٢، ص ٥٠١، ٥٠٢. نعيسه، يهود دمشق، ص ٢٨ ومجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٨٢. راجع القصة في التوراة، سفر أستير.

العيد الثاني هو: «عيد الحنكة» أو «الحنوكة» وهو ثمانية أيام يوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من ابوابهم سراجاً، وفي الليلة الثانية سراجين وهكذا إلى أن يكون في الليلة الثامنة ثمانية سرج، وهم يذكرون أن سبب اتخاذهم لهذا العيد، أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس وفتك باليهود وهتك أعراضهم، فوثب عليه كهانهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم، وطلب اليهود زيتاً لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيراً وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم في كل ليلة إلى تمام ثمان ليالي فاتخذوا هذه الأيام عيداً وسموه الحنكة ومعناه التنظيف لأنهم نظفوا الهيكل من أقدار شيعة الجبار. وبعضهم يسميه «الرباني». وكان الربانيون يحتفلون بهذا العيد دون غيرهم ويتبادلون الهدايا بهذه المناسبة فيما بينهم^{٥٩}. كما أطلق عليه أيضاً «عيد التبريك» وذلك لأن فيه كان استتمام نزول التوراة، وسلّمت إلى أئمتهم لتوضع في الهيكل. وهم يخرجون فيه التوراة ويتبركون فيها حيث يتفألون بنشرها وقراءتها^{٦٠}.

وأهم أعياد السامرة هو: عيد الفصح (الفصح) في آخر اسبوع الفطير ويكون في الرابع عشر من الشهر القمري الذي يجتمع مع شهر نيسان وهو عيد سنوي جامع يشبه الحج، وكان السامريون خاصة في مدينة نابلس يعيدون في هذا العيد كبارهم وصغارهم على جبل جرزيم، ويوجبون حضوره على كل سامري، فإذا كان يوم العيد وأخذت الشمس في الزوال تهيأوا للعيد بثياب بيضاء وجبب زاهية واعتموا بعمائم بيضاء وهيأوا سبعة أكباش سالمة من كل عيب وعند الغروب يبدؤون بالصلاة على شكل إمام ومؤتمين وبعد الغروب يعطي الكاهن إشارته بذبح الأكباش ثم يسلمها أناس ويمسحها أناس آخرون ويوقدون النار وهم في كل أعمالهم هذه في صلاة لا ينقطعون عن التلاوة والترتيل، ويلقون الذبائح في التنور ويقضون بعد ذلك ثلاث ساعات في الصلاة ريثما تنطبخ القرابين ثم يأكلونها ويحرقون ما تبقى من العظام لأنه لا يجوز لغريب أن يمس الذبيحة ولا أثراً منها، وقد اعتاد المسلمون في نابلس أن يصعدوا الجبل هذا اليوم للتفرج عليهم^{٦١}.

٥٩- البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٧٨. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٦٦. المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٥٠١. نعيمة، يهود دمشق، ص ٢٨ ومجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٨٤. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢٧.

٦٠- البيروني، المصدر السابق، ص ٢٧٧. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦٦. هامش رقم (٢).

٦١- علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٢١٧. نعيمة، يهود دمشق، ص ٢٩.

أما يوم السبت فهو يوم مقدس لدى اليهود وهو بمثابة عيد أسبوعي لديهم وتشددت جميع طوائف اليهود في حرمة ومن أتى منهم بشيء من سبعة وعشرين عملاً يوم السبت أو ليلته استحق القتل وهي: حرث الأرض، وزرعها، وحصاد الزرع، وسقاية الماء إلى الزرع، وحلب اللبن، وكسر الحطب، واشعال النار، وعجن العجين وخبزه، وخياطة الثوب، وغسله، ونسج سلكين، وكتابة حرفين أو نحوهما، وأخذ العبد، وذبح الحيوان، والخروج من القرية، والانتقال من بيت إلى آخر، والبيع والشراء، والدق، والطحن، والاحتطاب وقطع الخبز، ودق اللحم، وإصلاح النعل إذا انقطعت، وخلط علف الدابة، ولا يجوز للكاتب أن يخرج يوم السبت ومعه قلمه، ولا الخياط ومعه إبرته، وكل من عمل شيئاً من تلك الأشياء استحق القتل وإن لم يسلم نفسه فهو ملعون^{٦٢}.

وكانوا يقضونه في العبادة والصلاة ويجلسون على شرفات منازلهم ولا يخرجون من بيوتهم إلا إلى المعبد أو إلى المدرسة. ويتوقعون في هذا اليوم عن إداء أي عمل وحتى طعامهم يكون معداً في اليوم السابق، ونادراً ما كانوا يقومون بزيارة المرضى منهم في هذا اليوم ما لم يكن من الأقرباء المقربين، وفي مدينة دمشق كان يتجول في أحياء اليهود في أيام السبوت بدويات يتكسبن عن طريق تقديم النار لهم^{٦٣}.

أما وجبة السبت الرئيسية فكانت تتكون من كميات كبيرة من اللحم وأصناف مختلفة من أنواع الفواكة إلى جانب المشروبات المسكرة حيث يشربون الخمر في بغزاره، وبعد رواح تأثير الخمر عنهم يذهب بعضهم لقراءة التوراة^{٦٤}.

٦٢- المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٥١٣. وذلك عملاً بما جاء في التوراة.

انتظر السفر الثاني (سفر الخروج)، اصحاح ٢٥. والسفر الرابع (العدد)، اصحاح ١٥، عدد ٢٢-٢٦.

٦٣- نعيصة، يهود دمشق، ص ٢٨.

٦٤- سفر اللاويين، اصحاح ٢٣، عدد ١٢، ١٣. Adler, Jewish Travellers, pp. 200-202.

(٢)

الحج

يعتبر الحج إلى الأراضي المقدسة طيلة العصور الوسطى أحد الأسباب الرئيسية في الرحلة إلى فلسطين لزيارة بيت المقدس. فقد كانت القدس محج النصارى ومدينتهم المقدسة^{٦٥} كما كانت قبلة اليهود ومكان تعبد ملتهم^{٦٦}.

وقد اهتمت السلطات الإسلامية بزيارة الحجاج النصارى واليهود للأراضي المقدسة في فلسطين، وسمحت لهم بزيارة أماكنهم الدينية رغم مراحل الصراع التي مرت فيها المنطقة. فقد كانت معاهدات الصلح دائماً تضم بنوداً تضمن أمن الحجاج وحمايتهم والسماح لهم بالحج إلى الأراضي المقدسة^{٦٧}.

فعندما فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / ١٢ تشرين أول (أكتوبر) ١١٨٧م. أظهر كل عطف ورأفة بالنصارى وفتح أبواب كنيسة القيامة وسمح لهم بالحج إليها مقابل قطيعة يؤدونها^{٦٨}. وبعد عقد صلح الرملة الذي عقده مع ريتشارد قلب الأسد ملك الانجليز في ١١ شعبان ٥٨٨هـ / ١٢ أيلول (سبتمبر) ١١٩٢م أمر صلاح الدين المنادي أن يعلن في الوطاقات والأسواق: «ألا أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل»^{٦٩}، وبذا أضحى للنصارى الحرية في زيارة الأماكن المقدسة. وبالفعل توافدت جموع النصارى للحج إلى كنيسة القيامة، ووفر لهم السلطان الخفراء

٦٥- أحكام العتيقة، وهي قوانين للنصارى من العرب، ج ١، صورة عن مخطوطة محفوظة في الامبروزيانا بدون رقم، ترجمة يوحنا غالبياني وسرجونيا، طبعت في الفوتستات، ميلانو، ١٩٦٤م، ورقة ١٥٦ب. وهناك نسخة تعود للدكتور محمد عيسى صالحية، وسيشار له فيما بعد هكذا، أحكام العتيقة.

٦٦- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥.

٦٧- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٧٢، ٨١. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٨٦.

٦٨- البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١، ص ٢١٦. المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩٧. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ١٠٩.

٦٩- ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

لخفرهم، كما أكرم وفادتهم أثناء وجودهم في القدس^{٧٠}. وبعد معاهدة الصلح هذه أصبح من حق النصارى الحج دون جباية رسوم منهم^{٧١}. إلا أن هذا الاعفاء لم يدم طويلاً، فيذكر ابن واصل أنه كان للمسلمين أيام الملك المعظم عيسى ديوان خاص على باب كنيسة القيامة يجبي من كل زائر القطيعة المقررة^{٧٢}.

وكان من ضمن شروط الهدنة التي عقدت بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين حكام الفرنج بعكا سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م حرية الحج إلى بيت المقدس والسماح للحجاج وغيرهم من دين الصليب بزيارة كنيسة الناصرة وأقرب أربع بيوت إليها^{٧٣}. وفي المعاهدة التي عقدت بين الملك الأشرف صلاح الدين وبين صاحب برشلونة خايمي الثاني ٦٩-٧٢٨هـ / ١٢٩١-١٣٢٧ من بلاد الاندلس سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م تضمنت شروطاً بخصوص الحج وهو السماح بزيارة القدس لكل من وصل من بلاد الملك ومعهديه من الفرنج وأن يعودوا إلى بلادهم مطمئنين على أموالهم وأنفسهم^{٧٤}.

كما حرصت الكنيسة الغربية أن يكون لها ممثلين في الأراضي المقدسة لرعاية الأماكن الدينية وشؤون الحجاج ففي سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م أصدر البابا هونوريوس الثالث مرسوماً بابوياً اعترفت فيه الكنيسة الكاثوليكية بمقتضاه بالرهبان الفرنسيين سكان كطائفة مسيحية وذلك من أجل إسناد حق رعاية الأماكن التي فوق جبل صهيون اليهم وهي العلية وقاعة الحواريين^{٧٥}. وفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م تمكن الرهبان الفرنسيين من أن يحصلوا من السلطات الأيوبية على حق توليهم رعاية هذه الأماكن المقدسة^{٧٦}. حيث أحسنوا استغلال الظروف الجديدة التي تهيأت لهم ومن ثم حصلوا من البابا مارتن الخامس سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م على حق منح الغفران لمن

٧٠- العماد الأصفهانى، الفتح القسي، ص ٦١٠. ابن شداده، النوادر السلطانية، ص ٢٢٥. أبو شامة،

الروضتين، ج ٢، ص ٢٠٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٠٣. دراج، وثائق دير صهيون، ص ٧٢.

٧١- دراج، المرجع السابق، ص ٧٢، زايد، عبد الحميد، القدس الخالدة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م. ص ٢٢٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، زايد، القدس الخالدة.

Conder, The City of Jerusalem, p. 315.

٧٢- ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣١. باشا، الادب في بلاد الشام، ص ٨٤.

٧٣- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٧٢.

٧٤- القلقشندي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨١.

٧٥- دراج، المرجع السابق، ص ٢٢.

٧٦- دراج، المرجع السابق، ص ٢٥. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٢٦٨.

شملمهم قانون الحرمان البابوي من تجار البندقية والجنوية والكتلان المقيمين بأراضي الدولة المملوكية بمصر والشام أو الذين يترددون عليها^{٧٧}.

أما عن وجود قناصل يمثلون دولاً أجنبية في القدس والذي كان من ضمن واجباتهم رعاية شؤون الحجاج فإنه لم يتم إلا في سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م. وذلك في زمن السلطان مؤيد شيخ عندما حصل حكام البندقية على مرسوم سلطاني يسمح لهم بإقامة قنصل يمثل دولتهم في القدس، وقد سعت وتمكنت حكومة جنوة من الحصول على مرسوم مشابه في سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م في زمن السلطان الأشرف برسباي^{٧٨}.

أما فرسان القديس يوحنا (الاسبتاريه) فقد ظل رهبانهم والقنصل الذي يمثلهم بالقدس لدى السلطات المملوكية يزاولون نشاطهم في فلسطين حتى أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. فمنذ ذلك الحين اشتدت الغارات التي كان يقوم بها فرسان القديس يوحنا بالاشتراك مع قراصنة القبارصة والكتلان على الشواطئ المصرية والشامية، كما كثر تجرمهم في البحر ضد المسلمين في شرقي البحر المتوسط. ولذلك ساءت العلاقات بينهم وبين السلطات المملوكية وقد ترتب على هذا عدم وجود قنصل لهم يمثلهم في القدس سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م وفيما بين سنة ٨٢٦-٨٢٧هـ/١٤٢٢-١٤٢٦م. وفيما بين سنة ٨٤٤-٨٤٨هـ/١٤٤٠-١٤٤٤م، وفي سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م^{٧٩}. كما استدعى نفوذ الرهبان الفرنسيين السياسي أن أصبح لهم قنصل يتولى تمثيلهم لدى السلطات المملوكية، وترجمان معتمد لدى هذه السلطات ليقوم رسمياً بعملية الترجمة^{٨٠}.

أما الدولة البيزنطية فقد أورد ابن دقماق أنه في سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م وصلت رسل الامبراطور يوحنا الخامس بهدف ان يكون لهم قنصل في الاسكندرية، وأجيبوا إلى ذلك^{٨١}.

٧٧- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٢٧.

٧٨- دراج، المرجع نفسه، ص ٧٧. الامام، القدس في العصر الوسيط، ص ١٣٠.

٧٩- دراج، المرجع السابق، ص ١٤٦. هامش رقم ٩٥.

٨٠- دراج، المرجع السابق، ص ٢٨.

٨١- ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٦٢.

وكان من ضمن عمل هؤلاء القناصل الاشراف على الخدمات التي تقدم للحجاج والتنسيق مع السلطات المملوكية لحمايتهم وسلامتهم^{٨٢}. ولما كان يتعذر على القناصل مرافقة الحجاج طوال مدة حجهم بسبب انشغالهم في امور اخرى، فقد خصصت الدولة لهؤلاء الحجاج تراجمة (أدلاء سياحيون) للترجمة لهم وارشادهم في مناسك الحج والزيارة واستئجار البيوت اللازمة، وكان هؤلاء الأدلاء من المسلمين والنصارى واليهود ويطلق عليهم (المكاريون) ومفردها مكاري^{٨٣}.

هذا وقد كان الحجاج من النصارى أو اليهود يدخلون إلى فلسطين من يافا أو عكا إذا كانت الرحلة بحرية قادمة من غرب أو شرق أوروبا أو يدخلون من غزة إذا كانوا قادمين من مصر براً^{٨٤}. ولا يتمكن هؤلاء المسافرون النزول على الأرض في يافا الا بعد قدوم نائب القدس ونائب غزة وكاشف الرملة ورئيس رهبان دير صهيون. وكان على الحجاج ان ينزلوا فرادى إذ كانوا يفحصون كل واحد منهم ويسجلون اسمه واسم ابيه ثم يرسلون نسخة عن هذه المعلومات إلى الوالي، في حين يحتفظون بنسخة ثانية منها، وبذلك يأمنون جانبهم أو أي مكيدة تصدر عنهم^{٨٥}. كما يؤكد الرحالة فيلكس فابري الذي وصل إلى يافا سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م إسراع موظفي السلطان نحو الحجاج ليستوثقوا من عددهم، وليقبضوا منهم ضريبة السلطان^{٨٦}.

وجرت العادة ان يعقد رئيس دير صهيون اجتماعه الأول مع فريق الحجاج في يافا أو في دار الضيافة في الرملة ليعطي وصاياهم للحجاج ويعرفهم بالتعليمات التي يجب اتباعها عند أداء مناسك الحج والزيارة أو عند تجوالهم في الأراضي المقدسة. وقد تولى فابري نفسه ترجمة الوصايا من اللاتينية إلى اللغة الألمانية لغة فريق الحجاج القادمين من ألمانيا، وقدم لنا تسجيلاً دقيقاً لتلك الوصايا والتي بلغت خمساً وعشرين وصية نوردها فيما يلي:

- ٨٢- الامام، القدس في العصر الوسيط، ص. ١٢. دراج، وثائق دير صهيون، ص ٢٧. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٠٤.
- ٨٣- طافور، الرحلة، ص ٤٢. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ٨٦. دراج، المرجع السابق، ص ٧٦. ماير، الملابس المملوكية، ص ١٢.
- ٨٤- الامام، المرجع السابق، ص ١٢٨.
- ٨٥- زيادة، فيلكس فابري في فلسطين، ص ١٩٥. طافور، المصدر السابق، ص ٤٢. غوانمه، المرجع السابق، ص ٨٤.
- ٨٦- زيادة، المرجع السابق، ص ١٩٦.

- ١- من لم يحصل من الحجاج على الاذن الكنسي بالسماح له بالزيارة فعليه التقدم بعد القداس لينالوا الغفران من رئيس دير صهيون.
- ٢- لا يجوز لأي حاج التجول في الأماكن المقدسة في المدينة (القدس) دون أن يرافقه دليل مسلم لأن عملاً مثل هذا يشكل خطراً عليه.
- ٣- على الحاج أن لا يتخطى قبور المسلمين لأن الممالك يعتقدون أن ذلك يؤدي الأموات.
- ٤- على الحاج ألا يثير نزاعاً مع أي مملوك وإذا حصل ووقع شجار فليشكوه إلى حارس جبل صهيون أو إلى الترجمان أو مساعده هؤلاء يفعلون ما يرونه مناسباً.
- ٥- على جميع الحجاج أن لا ينزعوا قطعاً من الأماكن المقدسة أو من القبر المقدس ولا يشوهوا الحيطان بكتابة اسمائهم أو طرح ملابسهم عليها لأن هذا العمل يعتبر ضرباً من السخف عند الممالك.
- ٦- على الحجاج أن يزوروا الأماكن المقدسة بنظام ولا يتزاحمون فالوقت كاف للجميع للزيارة^{٨٧}.
- ٧- لا يحاول الحجاج الضحك وهم يمشون في الشوارع وأن يتجنبوا المزاح مع الشباب أو الأولاد الذين يلقونهم في الطرق لأن الممالك ينزعجون من ذلك^{٨٨}.
- ٨- على الحجاج ألا يلاحقوا النساء بنظراتهم في الشوارع والأزقة والأسواق لأن ذلك يثير غضب الممالك فهم شديداً الغيرة على نساءهم^{٨٩}.
- ٩- يحظر على الحجاج دخول بيوت الممالك حتى لو أن امرأة اشارت إليه بالدخول فلا يفعل لأنه سيمسرق أو سيقتل.
- ١٠- يحظر على الحجاج تقديم الخمر لأي مملوك وأن طلب مملوكي منه، لأنه سيعتدى على من اعطاه الخمر فيما بعد.
- ١١- على كل حاج أن يعرف الحمار الذي سيركبه ولا يستبدله بغيره إلا بموافقة المكاري.

٨٧- زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٢١٣. صالحية، النصاري في القدس، ص ٣٢. نقلاً عن:

The wandering of Felix Fabri, The Library of Palestine Pilgrim's text Society, published by the committee of Palestine exploration fund, London, 1897. Vol, VII, pp. 247-255.

٨٨- صالحية، المرجع نفسه، ص ٣٢.

٨٩- زيادة، المرجع السابق، ص ٢١٤. صالحية، المرجع السابق، ص ٣٢.

- ١٢- على الحاج النبيل ان يكتم اصله فلا يبوح لأي مملوك به، فمن القبح ان يفعل الحاج ذلك.
- ١٣- يحظر على الحاج ارتداء الثياب البيضاء اللون ولا العمام البيضاء لأن اللون الأبيض خاص بالماليك وحدهم دون سواهم.
- ١٤- على الحاج ألا يحمل سلاحاً في اثناء رحلة الحج، ولا سيفاً ولا سكيناً ولا غيره.
- ١٥- على الحاج ألا يعقد صداقات مع الماليك لأنهم غدارون، وعلى الحاج ألا يتحسس لحية مملوك أو عمامته لأن هذا فعل مشين بينهم.
- ١٦- لا يترك الحاج أية ممتلكات له دون حراسة، فانها ستفقد.
- ١٧- على الحاج ألا يشرب خمرأ بحضور الماليك، لأنه محرم عندهم. لان المملوكي إذا رأى انساناً يشرب الخمر نهض من حضرته غاضباً^{٩٠}.
- ١٨- على الحاج ألا يتعاملوا مالياً مع الماليك ولا النصراني الألمان ولا اليهود ولا النصراني من المواطنين لأنهم يخدعون الحاج ويسرقونهم.
- ١٩- عندما يعقد الحاج أي اتفاق مع المملوكي فعليه ان يكون وفياً مظهراً لاخلاق النصرانية الحسنة ولا يدع المملوكي يتفوق عليه في اخلاقه^{٩١}.
- ٢٠- يمنع على الحاج دخول المساجد.
- ٢١- على الحاج ألا يهزوا من الماليك وهم يصلون لأنهم لا يهزؤون بالنصراني وهم يؤدون شعائر صلواتهم.
- ٢٢- على الحاج ألا يلوموا أو يغضبوا على رئيس دير صهيون إذا ما حجز احدهم في الرملة أو في مكان آخر لان تبعة ذلك تقع على الماليك لأنهم يعملون ما يريدون وليس ما هو مقنع لنا أو نرضاه.
- ٢٣- على الحاج ألا يتذمر من الافراط في دفع النقود وحتى يخلص نفسه من الإزعاج فليدفع كل واحد بدون شكوى أو تذمر^{٩٢}.
- ٢٤- يطلب من الحاج ان يدفعوا شيئاً من المال إلى دار الضيافة في الرملة لاعمارها وحفظها.
- ٢٥- على الحاج أن يخصصوا هبات إلى رئيس دير الفرنسيسكان فهو يعمل مرشداً لهم ويتجول باخوانه بين الكفار الغدارين كما انه جهز مكاناً لمعالجة الحاج في مستشفى الدير الخاص^{٩٣}.

٩٠- صالحية، النصراني في القدس، ص ٣٢، ٣٣.

٩١- صالحية، المرجع نفسه، ص ٣٣.

٩٢- زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٢١٤، صالحية، المرجع السابق، ص ٣٣.

٩٣- صالحية، المرجع السابق، ص ٣٣.

فاذا ما تليت هذه الوصايا، انتقل الحجاج إلى الكهوف القريبة من ميناء يافا ليقضوا ليلتهم فيها، وفي اليوم التالي يوقظ الحجاج لمتابعة سيرهم إلى القدس، وكان ينقلهم جماعة من المسلمين بحميرهم (مكاريون) مقابل دوكين فقط. ثم يمضي الوالي والاخوان الرهبان مع الحجاج إلى الرملة، ويقيم الحجاج هناك في خان مجهز احسن تجهيز وحافل بالغرف التي جعل بعضها للرجال وبعضها الآخر للنساء^{٩٤}، ويبيتون فيه يوماً واحداً، وفي صباح اليوم الثاني يواصلون سيرهم إلى القدس^{٩٥}. واذا ما وصلوا القدس يخرج النصارى اليونان وغيرهم لاستقبال الحجاج ويأخذونهم إلى ميدان كبير امام القبر المقدس لاداء الصلاة. ثم ينزلونهم في خان كبير فيه كثير من الاطعمة التي يهيئها اليونان، ويبيعونه للحجاج من النصارى. ثم يقبل رئيس دير جبل صهيون مع اخوانه الرهبان ومعهم عشرة أو اثنا عشر فارساً ممن يعيشون في الدير^{٩٦}، ثم يأخذونهم إلى المنازل المعدة لهم، فمنهم من يذهب إلى المنازل الملحقة بمستشفى القديس يوحنا (بیمارستان صلاح الدين) الذي يتسع لأكثر من مئتين وخمسين نفرأ، ويستأجر الاغنياء منهم بيوتاً، وينزل الرهبان في ضيافة الرهبان الفرنسيين في أماكن خاصة، ويذهب النبلاء وجماعتهم مع الفاهالو (الترجمان المساعد) للإقامة في بيته^{٩٧}.

ويعين للإشراف على شؤون الحجاج في القدس إثنان: رئيس ومساعد، الأول يسمى (كالينوس) والمساعد اسمه (الفاهالو). ويقوم هذان بملازمة الحجاج ليتمكنوا من مشاهدة ما ببیت المقدس وضواحيه من الأماكن المقدسة، كما يقومان بالترجمة والارشاد وحماية الحجاج وحراستهم^{٩٨}. وكان يوجد في كل مدينة إثنان يمنحهم السلطان حق العناية بالحجاج وحمايتهم، وكان الرئيس يتقاضى أجرته من السياح والحجاج، أما المساعد فيأخذ مرتبه من الرئيس^{٩٩}.

وكان على الحجاج أن ينتظروا في القدس حتى يوم سبت النور الذي تفتح فيه ابواب كنيسة القيامة للزيارة الأولى للقبر المقدس. وفي مدخل الكنيسة كان يشرف

٩٤- طافور، الرحلة، ص ٤٢.

٩٥- طافور، المصدر نفسه، ص ٤٢.

٩٦- طافور، المصدر نفسه، ص ٤٣.

٩٧- زيادة، فيليكس فابري في فلسطين، ص ١٩٦.

٩٨- زيادة، المرجع نفسه، ص ١٩٨. ورواد الشرق العربي، ص ٢١١. طافور، المصدر السابق، ص ٤٢.

٩٩- زيادة، فيليكس فابري في فلسطين، ص ١٩٨. ورواد الشرق العربي، ص ٢١١.

(ناظر كنيسة القيامة) على جباية موجب السلطان (متحصل كنيسة قمامة)^{١٠٠}. وقبل دخولهم كنيسة القيامة يجري تفقدهم وعدهم وفق القائمة التي دونوها في يافا^{١٠١}. فإذا ما انتهوا من زيارة كنيسة القيامة ساروا في طريق الآلام إلى بوابة ابراهيم لزيارة كنيسة الجسمانية وكنيسة دير صهيون وبرك سليمان وكنيسة بيت لحم والجبل الذي صام عليه اربعين يوماً (جبل القرنفل أو جبل الصوم الواقع غربي اريحا). ثم يقومون بزيارة نهر الاردن حيث تعمد المسيح ويستحمون في النهر ويملؤون الزجاجات بالماء المقدس^{١٠٢}. ومن ثم يستعدون للعودة إلى يافا ومن ثم إلى بلادهم تحت نفس إجراءات الحراسة.

أما الذين يرغبون في زيارة دير القديسة كاترين في غزة فعليهم تسجيل انفسهم لذلك حيث كانت تنظم الاجراءات مع كبير الترجمة في القدس لدفع ضريبة السلطان وضريبة الترجمان نفسه عن كل فرد، ثم يتصل كبير الترجمة بالترجمان في غزة بقصد ترتيب المرور مع عرب الصحراء الذين لهم حق حراسة الحجاج إلى دير سانت كاترينا، وكان هؤلاء يتقاضون مبلغ عشر دوكات عن كل شخص. مقابل استخدام جمالهم. وعندما يتأكد الترجمان من استجابة العرب، يجمع الحجاج أمام مدخل كنيسة القيامة ويطلب من كل واحد منهم بياناً بتسجيل اسمه ولقبه وعمره واوصافه بما في ذلك اثر الجروح في الوجوه إذا وجدت أو غير ذلك من العلامات، وطول كل واحد وهندامه. ويرسل نسخة عنها إلى كبير الترجمة في القاهرة ونسخة تبقى معه، وبعد الانتهاء من هذه الاجراءات يستعد الحجاج للرحلة إلى غزة بعد ان يتزودوا بالمواد الغذائية من القدس ويرسل معهم ترجماناً خاصاً بهم وحميراً وبغلاً لنقلهم^{١٠٣}.

أما حجاج اليهود فكانوا غالباً ما يعبرون الأراضي المقدسة من الاماكن التي اشرنا اليها سابقاً، وعلى الأغلب لم يكن لهم رحلات خاصة بهم، نظراً لقلة اعدادهم. فقد كانوا ينضمون إلى القوافل التجارية القادمة من مصر أو يكونوا مع السفن

١٠٠- الفلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٢٢٢. المقرئزي، ج ٢، ق ٣، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٢م، ص ١٠٦٦. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٠٦. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٤٨.

١٠١- طافور، الرحلة، ص ٤٤.

١٠٢- طافور، المصدر نفسه، ص ٤٦، ٤٧. زيادة، فيليكس فابري في فلسطين، ص ٢٠١. زايد، رحلة دي لابوركير، ص ٢٠٦.

١٠٣- زايد، المرجع نفسه، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

الواصل من أوروبا وخاصة من البندقية أو القسطنطينية، فالرباني موشلام بن مناحيم الذي بدأ رحلته من رودس في ٤ ربيع أول ٨٨٦هـ/ ٤ أيار (مايو) ١٤٨١م، عرج على مصر لزيارة الأماكن اليهودية المقدسة فيها، ثم انضم إلى قافلة تجارية متوجهة إلى غزة بعد أن دفع مبلغاً لقائد القافلة ليتولى الإشراف عليه وحراسته حتى وصوله إلى غزة سالماً. وانتظر في غزة مدة حتى وجد قافلة مكونة من ٤-٥ آلاف رجل متوجهة إلى دمشق فرافقها إلى الخليل، ومن ثم استأجر اثنين من المماليك لايصاله إلى القدس حيث اجتمع ببقيّة الحجاج الذين كانوا في ساحة معبد ناحوم بالقدس في ٢ جمادى الأولى ٨٨٦هـ/ ٢٩ تموز (يوليه) ١٤٨١م. وقد برر سبب انضمامه إلى قافلة كبيرة لخوفه من العربان (البدو) واللصوص الذين كثيراً ما هاجموا القوافل وسلبوها^{١٠٤}. وعلى هذا تكون رحلته استغرقت مدة شهرين وخمسة وعشرين يوماً منذ خروجه من إيطاليا وحتى وصوله إلى القدس.

أما الرباني عبيدا الذي بدأ رحلته من إيطاليا إلى مصر، فقد سافر على الجمال هو الآخر من مصر برفقة قافلة تجارية مكونة من ثلاثة عشر جملاً تسير في الليل وتستريح في النهار أو تسير بعد منتصف الليل إلى الثلث الأول من النهار لتجنب الحر والغبار التي تثيرها حيوانات القافلة أثناء السير، ومن غزة واصل عبيدا سيره على الحمير المستأجرة إلى القدس بحماية أصحابها المماليك المكاربة^{١٠٥}.

وخلال إقامة الحجاج اليهود في القدس، كانوا يقومون بزيارة الأماكن المقدسة عندهم، ومعظمها أضرحة الأنبياء الذين يعتقدون بدفنهم في فلسطين، وفي العادة تكون مدة الإقامة في الخليل أطول من سواها إذ يزورون أضرحة سيدنا إبراهيم ويعقوب وأسحق وزوجاتهم لقاء أتاوه يؤدونها^{١٠٦}. وكان يأتي إلى الخليل أعداد كبيرة من اليهود من أماكن متعددة وخاصة في وقت صومهم الأكبر وكانوا يبدأون صومهم ويختمونه باحتفال ديني كبير، وبعد الإفطار يظلون طوال تلك الليلة يأكلون ما طاب لهم من اللحوم والفواكه وغيرها^{١٠٧}. وكذا فوق جبل صهيون لأنهم يعتقدون بوجود رفات سيدنا داود هناك حيث ينحرون الأضاحي عليه في ٩ آب من كل عام^{١٠٨}، حتى إذا ما انقضت الزيارة قفلوا عائدين إلى بلادهم.

١٠٤- Adler, Jewish Travellers, p. 177.

١٠٥- Adler, Ibid, pp. 332-333.

١٠٦- التطيلي، الرحلة، ص ١٠٤.

١٠٧- Gucci, Visit to the Holy Places, p. 123.

١٠٨- Adler, Op, Cit, p. 241.

هذا وقد عثر على مجموعة من الوصايا التي تقدم لليهود قبل التوجه إلى بيت المقدس في كتاب طريق صهيون (Darkhe Zion) لمؤلفه Moses Praeger الذي عاش في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي حيث ضمن كتابه وصايا للحجاج الذين يصلون إلى القسطنطينية ويرغبون في أداء الحج عن طريق البر أو البحر. والوصايا تعنى باحتياجات الحاج اليهودي المعاشية التي يجب أن يحملها معه لارتفاع أسعارها في القدس أو عدم وجودها مثل القمصان والملاءات والمناديل وأدوات الطعام كالصحون والدسوت والمرجل والمقالي والدلاء وقفول الأبواب والابر والمسامير. وأما غيرها من بهارات وزيت وبرتقال وليمون واترج وسمك وكتب دينية فينصح بعدم أخذها بسبب ثقلها وتكاليفها وتوفرها في القدس بأسعار زهيدة^{١٠٩}. كما يقدم الكتاب فكرة عن أماكن الإقامة سواء في معبد ناحوم أو استنجار البيوت الخاصة بأسعار رخيصة، وعن المياه والعصير وأسعارها وغيرها من الأمور الحياتية^{١١٠}.

وقد أولت السلطات الأيوبية والمملوكية عناية كبيرة لرعاية الحجاج وحراستهم فأنشأوا دور الضيافة وبنوا الخانات على الطريق لاستراحة الحجاج^{١١١}. كما عينوا الخفر والجنود لحراستهم من اعتداءات البدو^{١١٢}. وأصدروا المراسيم العامة بحق من يتعرض لهم في الطرقات بأذيه، وسمحوا لهم ببناء دور ضيافة جديدة ينزل بها حجاجهم^{١١٣}. وفي سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م سمح السلطان الناصر فرج بن برقوق للفرنج بتوسيع الطريق من يافا إلى القدس وإزالة ما به من الأوعار لكي يسهل نقل

١٠٩- Praeger, Moses, Darkhen Zion, The Holy City, Jews on Jerusalem by Avraham Holtz, New York:

W.W. Novotn and Company, Inc., 1971, pp. 135-137.

وسيشار له فيما بعد هكذا: Praeger, Darkhen Zion.

١١٠- Ibid, p. 137.

١١١- طافور، الرحلة، ص ٤٢.

١١٢- ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٢٤. ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٢، ص ٤٠٢. أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٢٠٢. ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٢. دراج، وثائق دير صهيون، ص ٧٤. زيادة، فيلكس فابري في فلسطين، ص ١٩٨. ورواد الشرق العربي، ص ٢١١.

١١٣- انظر مرسوم السلطان برقوق سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م إلى أخيه يشبك بأن يمكن الفرنجة الواردين لزيارة قممهم من بناء دار بالرملة ينزلون فيها عند قدومهم والوصية بهم وكف الأذى عنهم. دراج، وثائق دير صهيون، ص ٥١. وثيقة رقم (٧) نشر ريشاني.

حجاجهم، وزادوا في سعته بحيث أصبح يمر فيه عشرة فرسان متواكبين^{١١٤}. كما رعت السلطات الأسواق التي كانت تقام للحجاج في المدن الرئيسية التي ينزلها الحجاج مثل يافا والرملة والقدس وبيت لحم حيث كان يباع فيها جميع انواع الاطعمة والاقمشة والاحجار الكريمة والعطور^{١١٥}. اضافة إلى حرص السلطات الاسلامية على رعاية الاماكن المقدسة المسيحية واليهودية وحفظها من التلف والسماح لهم بترميمها، من ذلك السور الذي أقيم حول القبر المقدس بكنيسة القيامة بحيث لا يستطيع احد لمسه، لأنه كان من عادة الحجاج تكسير احجاره ليصحبوها معهم إلى بلادهم للتبرك بها^{١١٦}. كما يسرت السلطات وسائل العلاج للحجاج اليهود والنصارى برسوم زهيدة حيث يدفع الحاج مقدار درهم (بنين فينسيين) يحصلان منه لمرة واحدة كتأمين صحي مقابل الخدمات الصحية التي يقدمها له البيمارستان الصلاحي، ولا توجد شروط على المدة التي يقضيها المريض حيث يوفر له الدواء والطعام والرعاية بدون أية رسوم اضافية^{١١٧}. واكثر من ذلك فقد كان مضيف الخليل المقام بالقرب من المسجد المقام على أضرحة ابراهيم ويعقوب وموسى، يوزع للحجاج الفقراء من اليهود والنصارى مجاناً كل يوم كميات كبيرة من الخبز اضافة إلى اللحوم والاطعمة الشهية وحساء الخضار^{١١٨}.

أما عن اعداد الحجاج النصارى الذين يصلون إلى البلاد فإن المصادر التي بين ايدينا لم توضح ذلك بشكل قاطع، الا أننا نستطيع القول بأنها كانت بلا شك كبيرة، فقد ذكر ابن جبير عندما كان في عكا انه صعد المركب الذي فيه نصارى من حجاج بيت المقدس فوصفهم بأنهم عالم لا يحصى ينتهي إلى أزيد من ألفي انسان^{١١٩}. كما ذكر ابن فضل الله العمري ان بالقدس «قمامة يحجها النصارى من أقطار الارض

١١٤- ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٦، ص ٢٣٢. المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ١٤٢. غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ٨٥.

١١٥- طافور الرحلة، ص ٤٥. زيادة، فيليكس فابري في فلسطين، ص ١٩٦. غوانمه، دراسات، ص ٢٣٥. ونيابة بيت المقدس، ص ٨٥. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٠٨.

١١٦- Maundeville, The Book, p. 166.

١١٧- غوانمه، نيابة بيت المقدس، ص ١٣٦.

١١٨- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٤١. زيادة، فيليكس فابري في فلسطين، ص ٢٠١.

Adler, Jewish Travellers, p. 186.

١١٩- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٨٣.

واعماق البحر»^{١٢٠}. وأشار إلى ذلك أيضاً مجير الدين الحنبلي عند كلامه عن كنيسة القيامة، ان النصارى كانوا يأتون من أنحاء مختلفة من العالم بقصد الحج إلى كنيسة القيامة «..... من بلاد الروم والافرنج وبلاد الأرمن ومن الديار المصرية والمملكة الشامية والأحباش وسائر الاقطار»^{١٢١}. وفي سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م بلغ عدد الاحباش الذين زاروا القدس ثلاثة آلاف زائر^{١٢٢}، وفي سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م بلغوا ثمانمائة زائر^{١٢٣}.

ومما تجدر الإشارة إليه ان أعداد الحجاج قد تأثرت بالظروف السياسية التي أحاطت بعلاقات السلطات الاسلامية بالغرب الاوروبي، من ذلك عندما قامت البابوية في بداية القرن الرابع عشر بفرض حظر التعامل مع الممالك وتحريم التجارة معهم، مما كان له دون شك اثر في قلة اعداد الحجاج الاوروبيين القادمين إلى الديار المقدسة في فلسطين^{١٢٤}. ومن الملاحظ ان اعدادهم بدأت تقل في اواخر عصر سلاطين المماليك لحالة الاضطراب التي شهدتها دولتهم في تلك الفترة نتيجة لاكتشاف البرتغاليين رأس الرجاء الصالح وتهديدهم تجارة مصر، فضلاً عن زحف العثمانيين إلى المشرق وتدخلهم في شؤونه مما ساعد على قلة اعداد الحجاج^{١٢٥}.

— الرسوم المفروضة على الحجاج —

كانت الرحلة إلى فلسطين في العصور الوسطى تتعرض لكثير من المخاطر والمشاق إلى جانب ما تكلفه من المال الكثير، فقد أشار معظم الحجاج إلى مدى ما يتحمله الحاج من أعباء مالية في سبيل تأدية فريضة الحج، لذا فقد كان الأغنياء فقط هم الذين يستطيعون القيام بهذه الرحلة^{١٢٦}.

١٢٠- العمري، مسالك الابصار، ج ١، باب ٦، ص ١٢٨.

١٢١- العلمي الحنبلي، الانس الجليل، ج ٢، ص ٥١. غوانمه، دراسات، ص ٢٣٦.

١٢٢- ابن طولون الصالح، مفاكهة الخلان، ج ١، ص ٣٩. غوانمه، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

١٢٣- ابن طولون الصالح، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥. غوانمه، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

١٢٤- اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٢٨٧. الطراونه، مملكة صفد، ص ١٧٥، السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢١٤.

١٢٥- زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٢١. السيد، المرجع السابق، ص ٢١٤.

١٢٦- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٧٤.

وقد تحددت الرسوم التي تفرض على الحجاج في العصر المملوكي كما يلي:

١- رسم الدخول إلى الأراضي المقدسة وما يتبع ذلك من جباية المكس المقرر على ما يحمله الحاج من بضائع، ويتحصل منه في يافا إذا كان الحاج قادماً من البحر ويتحصل منه فيه غزاة إذا كان قادماً من مصر^{١٢٧}.

٢- موجب الخفر: وكان يجبي من الحجاج عند وصولهم إلى مدينة الرملة نظير القيام بخفرهم طوال زيارتهم للاماكن المسيحية المقدسة^{١٢٨}.

٣- موجب السلطان: وهو الرسم المقرر على كل حاج مقابل السماح له بزيارة كنيسة القيامة. وقد أشار القلقشندي إليها باسم «شد متحصل قمامة» وكان يتولى هذه الوظيفة احد المسلمين يعين بتوقيع سلطاني شريف من القاهرة وكان يطلب من متوليها الرأفة بالضعفاء «...فليباشر هذه الوظيفة بشدة ولين... وأمانة... ورأفة بالظاهري العجز ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً... عاملاً بتقوى الله تعالى فان أهل معاملته أهل ذمة...»^{١٢٩}.

وكان كثير من الحجاج يتخفون بزي رهبان لينالوا التخفيف والاعفاء الذي كان مقرراً لهم^{١٣٠}.

ولما كانت الطوائف تزور الكنيسة بمعدل ثلاث مرات في الرحلة الواحدة فقد كان الحاج يدفع في المرة الاولى ستة دوكات ذهبية وفي المرة الثانية اربعة دراهم

١٢٧- زيادة، فيلكس فابري في فلسطين، ص ١٩٦، دراج، وثائق دير صهيون، ص ٧٠.

١٢٨- القلقشندي، صبيح الاعشى، ج ١٣، ص ٤٩ (نسخة توقيع شريف بتعيين بمن يقوم بتحصيل الرسوم من الفرنج الواردين الى شجر الرملة).

١٢٩- القلقشندي، المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٣٢٢، ٣٢٤، غوانمه، نيابة بيت المقدس ص ١٠٦، دراج، وثائق دير صهيون، ص ٧٠.

وانظر نسخة توقيع شريف بتعيين شرف الدين قاسم ليقوم بتحصيل الرسوم المفروضة. على الفرنج الواردين لزيارة قمامة بالقدس. القلقشندي، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٤٨.

١٣٠- دراج، المرجع السابق، ص ٧٧.

فضية بندقية^{١٣١}، وفي المرة الثالثة يدفع درهمين فضيين بندقين، وما زاد عن ذلك فيبالغ فيه حتى يصل إلى عشر دوكات ذهبية^{١٣٢}.

وفي المعاهدة التي عقدت بين السلطان فرج بن برقوق وفرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م جاء فيها فقرة تنص على أنه لا يجبي من الحاج الا الرسوم المقررة التي كان معمولاً بها حتى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م وقد اتفق في هذه المعاهدة على تحديد الرسوم بمبلغ ثلاثة وستين درهماً من الفضة^{١٣٣}. ولم يكن هذا كل ما يدفعه الحاج، بل كان عليه ان يفتح كيس نقوده على طول الطريق منذ ان تطأ قدماه مدينة يافا إلى أن يغادر الأراضي المقدسة، فقد توصل رهبان القديس يوحنا إلى الاتفاق في هذه المعاهدة على «تعريفه» معينة لما يدفعه الحاج من أتاوات إلى الاشخاص الآتية، وفي الاماكن التالية:

- بحارة يافا	درهم واحد
- الشاد والمباشرون في الرملة	درهم واحد
- نائب القدس	ثلاثة دراهم
- حارس كنيسة القديس صمويل	درهم ونصف
- حارس كنيسة المهد ببيت لحم	درهم واحد
- حارس برج سيدنا داود	درهمان
- الحارس عند مكان عبور نهر الاردن	درهمان
- حارس بيت عينا وتربة لعازر	درهم ونصف ^{١٣٤}

Fresco baldi, Visit to the Holy Places, p. 76.

-١٣١

مع العلم ان هذا المبلغ لم يكن ثابتاً اذ دفع الرحالة طافور سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م سبع دوكات ذهبية ونصف في الزيارة الاولى. طافور، الرحلة، ص ٤٤.

-١٣٢- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٧٧، ٧٨.

الدوكة الذهبية البندقية = ٢٢ دوكات فضية بندقية والدوكة الفضية البندقية تقابل في العملة الاسلامية الدرهم من الضفة.

ست دوكات ذهبية = ١٢٢ درهماً فضياً مملوكياً.

عشر دوكات ذهبية = ٢٢٠ درهماً فضياً مملوكياً. دراج، المرجع السابق، ص ١٤٧.

-١٣٣- دراج، المرجع السابق، ص ٧٤.

-١٣٤- دراج، المرجع السابق، ص ٧٥.

غير أن ما اتفق عليه في هذه المعاهدة لم يكن يمثل الواقع فقد كان مجموع الرسوم والآتاوات التي كان يدفعها الحاج تتجاوز هذه المبالغ بكثير، فكلما ازدادت الحالة الاقتصادية في البلاد سوءاً وازدادت حاجة الدولة إلى المال، ازدادت بالتالي الرسوم التي كانت تجبى من كل حاج^{١٣٥}.

فكانت رسوم الحج كما يرويها الأب فرانسيس سوريانو (Frances Suriano) رئيس طائفة الفرنسيين في القدس في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي كما يلي:

- ضريبة السلطان (موجب السلطان) ٧ دوكات ذهبية، (ما يعادل ١٧ جروسي)
- مترجم السلطان
- حارس باب كنيسة القيامة ٢٧٥ جروسي
- لزيارة المنطقة الجبلية كلها ٣ دوكات ذهبية
- لستة أماكن يزورها الحاج^{١٣٦} ٦ دوكات فضية
- للمرشد الذي يرشدهم في هذه الأماكن ٨ دوكات فضية
- نزل الرملة ٤ جروسي
- حارس يافا ١ جروسي
- حاكم الرملة ٢ جروسي
- كنيسة القديس جورج ١ جروسي

ومجموع هذه المصاريف كان يبلغ ١٣٥ دوكات ذهبية أي ما يعادل ٢٩٧ درهماً فضياً^{١٣٧}.

وفضلاً عن ذلك فعلى الحاج أن يكون سخيّاً في عطائه أثناء تجواله في الأراضي المقدسة سواء مع الجند وأمراء الممالك أو حراس الكنائس أو مع أصحاب الدواب الذين يتكلفون بنقلهم من مكان لآخر^{١٣٨}. وأن لا يبخل بالهبات والتبرعات لدور الضيافة والديارات والكنائس لأن ذلك سنة حسنة في شريعتهم^{١٣٩}. كما كان على

١٣٥- السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٠٠.

١٣٦- الستة أماكن هي: بيت لحم، وبيسان، وعين كارم، وجبل الزيتون، وقبر العذراء وبرك سليمان. السيد، المرجع نفسه، ص ٢٠١.

١٣٧- السيد، المرجع نفسه، ص ٢٠١.

١٣٨- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٧٦.

١٣٩- أحكام العتيقة، ج ١، (مخطوط)، ورقة ١٥٦ب.

الحاج أن يدفع للقنصل الذي يتبعه ومن يلحق بالعمل معه من التراجمة المعتمدين لدى السلطان، مبلغاً نظير رعايته والإشراف عليه والقيام بالترجمة له وإرشاده في مناسك الحج والزيارة. وهؤلاء القناصل كانوا يؤدون نظير السماح لهم بذلك رسماً لصالح ديوان الخواص الشريفة.^{١٤٠}

وقد أوضحت معاهدة ٨٠٦هـ/١٤٠٢م المعقودة بين فرسان القديس يوحنا والسلطان فرج ما كان متبعاً في ذلك الصدد. فقد نصت المعاهدة على أن يدفع قنصل فرسان القديس يوحنا بالقدس لديوان الخواص الشريفة عن كل حاج من الحجاج الذين يشرف عليهم مبلغ أربعة دراهم فضية (بندقية) وفي مقابل ذلك يسمح له أن يتقاضى عن كل حاج منهم درهم فضة عند وصولهم إلى الرملة. وثمانية دراهم فضة عند وصولهم إلى القدس، وكان بقية القناصل يدفعون نفس الشيء.^{١٤١}

كما كانت هذه الرسوم تجبى أحياناً من الرهبان لحاجة الدولة إلى المال. فتكرار مطلب الرهبان الفرنسيين بإعفائهم من هذه الرسوم وأن لا يلزموا بما لا يلزمهم شرعاً مما يؤكد أنه كان يتم في بعض الأحيان جبايتها منهم على الرغم من النص على إعفائهم منها في المراسيم الصادرة اليهم من وقت إلى آخر.^{١٤٢}

أما الضرائب التي كانت تفرض على اليهود فقد أشار الرباني عبيدا إلى أنه دفع حوالي دوكة واحدة للانفار (جماعات الاشرار من البدو والعربان) الذين يتواجدون في الجبال والادوية طيلة فترة رحلته، كما أشار ان على اليهود الذين يأتون إلى القدس عن طريق غزة دفع عشرة دنائير فضية (١٠ دراهم فضية اسلامية) واليهود الذين يأتون عن طريق يافا يدفعون عند باب المدينة دوكة واحدة.^{١٤٣} كما كان الحجاج اليهود يدفعون رسوماً أخرى عند دخولهم إلى مزاراتهم المقدسة، فقد ذكر

١٤٠- ابن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، (ت سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، المطبعة الجمهورية، ١٩٨٢م، ص ١٠٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك.

١٤١- دراج، وثائق دير صهيون، ص ٧٧.

١٤٢- انظر مرسوم السلطان قايتباي سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م، ومرسوم السلطان نفسه في ٩٠١هـ/١٤٩٥م، بإعفاء الرهبان من موجب الخفر وموجب السلطان. دراج، المرجع السابق، ص ٦٢. وثيقة رقم (٦٥) ورقم (٦٦) في فهرس كستلاني.

بنيامين ان الحجاج يدفعون اتاوة إلى الحارس الموجود عند قبور ابراهيم ويعقوب واسحق في الخليل^{١٤٤}، كما كانوا يدفعون مثل هذه الرسوم عند زيارتهم لقرية ميرون في ولاية بر صغد وعند زيارتهم لمدينة طبرية وغيرها من الاماكن الاخرى^{١٤٥}.

١٤٤- التطيلي، الرحلة، ص ١٠٤.

١٤٥- الدمشقي، نخبة الدهر، ص ١١٨. الطراونة، مملكة صفد، ص ١٨١.

(٤) المزارات

١- المزارات النصرانية:

تعددت المزارات النصرانية في بلاد الشام تعدداً ظاهراً وواضحاً، حيث انتشرت الكنائس والديارات في جميع أنحاء البلاد، ومما لا شك فيه أن الكثير من تلك الكنائس والديارات ارتبطت بنشأة المسيحية الأولى وبتاريخ السيد المسيح. هذا بالإضافة إلى ارتباطها بتلاميذ المسيح الأوائل وبعض القديسين، مما كان له الأثر الأكبر على قدوم النصارى من مختلف الاقطار لزيارتها والتعرف عليها.

وتأتي كنيسة القيامة في مقدمة الأماكن المقدسة لدى جميع طوائف النصارى فبناء الكنيسة الأصلي يرجع إلى أيام الملكة هيلانه أم قسطنطين، فعندما أزيلت الأوساخ عن المكان الذي دفن فيه اليهود الصليب ظهرت لها صخرة الجلجلة (الجلجثة) ^{١٤٦} بارزة على هيئتها الأصلية وفي وسط البستان بدت المغارة التي اكتشفت فيها الصليب والقبر الذي دفن فيه المسيح، وفي هذا المكان نفسه بنت كنيسة القيامة ^{١٤٧}. وكانت يومئذ مستطيلة الشكل على غرار كنيسة المهد في بيت لحم، ويقال أنه لم يبن في ذلك الموضع كنيسة واحدة بل كان البناء يتألف من ثلاث كنائس هي: كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس) وكنيسة الجلجلة (الجلجثة) وكنيسة الشهادة. (كنيسة اكتشاف الصليب). وكان حول هذه الكنائس أروقة جميلة وباحات واسعة وصفوف من أعمدة مرمرية، يتألف من مجموعها بناء ضخم استغرق بناؤه مدة ست سنوات وتم تدشينه عام ٣٢٥م ^{١٤٨}. وفي سنة ٦١٤م أحرق الفرس

١٤٦- صخرة الجلجلة: وهي الصخرة التي انشقت وقام منها آدم، وعليها كان صلب المسيح عليه السلام. الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر، (ت ٦١١هـ/١٢١٤م)، كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جاني سورديل-طومين، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٣م، ص ٢٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، الهروي، الإشارات. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٩٦. Maundeville, The Book, p. 165.

١٤٧- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٥٧. المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٩٩. الحميري، الروض المعطار، ص ٤٧٣. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢٢. العارف، المسيحية في القدس، ص ٢١٦.

١٤٨- العارف، المرجع نفسه، ص ٢١٧.

كنيسة القيامة وأحرقوا معها جميع الكنائس والأديار التي وجدوها في القدس واشترك اليهود بهذا الهدم^{١٤٩}. وفي سنة ٦١٧م أعيد بناؤها على يد أحد الرهبان وكان البناء يتكون من الكنائس الثلاثة السابقة بالإضافة إلى كنيسة رابعة اسمها كنيسة مريم العذراء^{١٥٠}.

وعندما دخل الخليفة عمر بن الخطاب القدس سنة ١٦ هـ/٦٣٧م لم يصبها بأي سوء، ولم يقبل أن يصلي داخلها خوفاً من أن يتخذها المسلمون بعده مسجداً^{١٥١}. وعندما احتل الصليبيون بيت المقدس يوم الجمعة ٢٢ شعبان ٤٩٢ هـ/يوليو (تموز) ١٠٩٩م زادوا على ذلك البناء بأن بنوا في شرقي القبر المقدس كنيسة لها ثلاث حنايا متجهة نحو الشرق وهي المعروفة (بكنيسة نصف الدنيا)، كما أشادوا قبة لكنيسة الصليب وبنوا في محل الشهادة ديراً هو دير الاقباط، وأضيف إليها صحن واسع. وبهذه الزيادات أصبحت كنيسة القيامة الأصلية النقطة المركزية ومن حولها الابنية الكنسية العديدة متصلة بكنيسة الجلجلة في مجموعة من الكنائس المتداخل بعضها ببعض من جميع الجهات، كما رفع الصليبيون فوق الزاوية الجنوبية الغربية برجاً للاجراس^{١٥٢}. وعندما استرد صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ/١٢ تشرين اول (اكتوبر) ١١٨٧م رفض الاعتداء عليها، الا انه امر بنزع الصليب عن واجهتها وامر بتحطيم الاجراس، وأعاد كنيسة صند حنه (أم السيدة مريم) مسجداً ورباطاً للعلماء الصوفية^{١٥٣}. ومن الجدير بالذكر انه منذ الفتح الصلاحي لبيت المقدس، قد سلمت مفاتيح كنيسة القيامة إلى عائلتين مسلمتين هما نسبية وجودة وما زال احفاد هاتين العائلتين يحتفظون بهذا الحق^{١٥٤}.

١٤٩- سعيد بن البطريق، التاريخ المجموع، ص ٢٥. لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص ١٨٢.

١٥٠- العارف، المسيحية في القدس، ص ٢١٧.

١٥١- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٦٠٩. سعيد ابن البطريق، المصدر السابق، ص ٣١ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣٤٩. المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٥٣٥. لي سترانج، المرجع السابق، ص ١٨٢.

١٥٢- العارف، المرجع السابق، ص ٢٢٢. لي سترانج، المرجع السابق، ص ١٨٣.

١٥٣- العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص ١٣٧، ١٤١، ١٤٢. البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١، ص ٣١٥. ابو شامة، المروضتين، ج ٢، ص ١١٤. ابن الوردي، تنقيح المختصر، ج ٢، ص ١٤٨، ١٥٩. العارف، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

١٥٤- السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٥٧. العارف، المرجع السابق، ص ٢٣٦. كما أشار الى ذلك فيليكس فابري الذي زار القدس سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٣م حيث قال: بأن مفاتيح كنيسة القيامة يحتفظ بها افراد من زعماء المسلمين. زيادة، فيليكس فابري في فلسطين، ص ١٩٨.

هذا وقد حظيت كنيسة القيامة بوصف جميع الرحالة العرب والافرنج، فهذا ناصر خسرو الحاج الفارسي يقول لنا: «وللنصارى في بيت المقدس كنيسة يسمونها بيعة القمامة لها عندهم مكانة ويحج إليها كل سنة كثير من بلاد الروم، وليس لهذه الكنيسة نظير في أي جهة من العالم، ويقيم فيها كثير من القسس»^{١٥٥}.... والكنيسة بناء واسع حتى أن ثمانية آلاف شخص يستطيعون أداء الصلاة فيها في وقت واحد، وهي آية في الروعة العمرانية تزينها الاساطين المرمية العملاقة المليئة بالنقوش والتهاويل، وقد فرشت من الداخل بالبسط الرومية الحريرية، واحتشدت بصور القديسين، كلها مطلية وموهة بالذهب ويتوسط الكنيسة صورة للمسيح وقد امتطى حملاً وهذه الصورة يراها المرء في أكثر جهات الكنيسة، كما توجد بالكنيسة صور أنبياء آخرين كإبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب وإبناؤه، وكلها صور زيتية تغطيها صفائح رقيقة من الاغطية شديدة الشفافية تمنع الغبار من التساقط على الصور المقدسة.... وفي الكنيسة صورتان على درجة كبيرة من الفن تمثلان الجنة والنار وفي الكنيسة اعداد هائلة من القساوسة والرهبان يقيمون بصفة دائمة شغلهم الشاغل قراءة الانجيل والاستغراق في الصلاة والعبادة ليلاً ونهاراً»^{١٥٦}.

أما الإدريسي فقال: «عندما تدخل القدس من باب الخليل والذي يدعى باب المحراب وهو الباب الغربي يسير المرء نحو الشرق في زقاق شارع الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة ويسمونها المسلمون قمامة وهي الكنيسة المحجوج اليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الارض ومغاربها فيدخل من باب في غربها فيجد الداخل نفسه وسط القبة التي تشمل على جميع الكنيسة»^{١٥٧}. وهي من عجائب الدنيا والكنيسة أسفل ذلك الباب ولا يمكن احدى النزول اليها من هذه الجهة، ولها باب في جهة الشمال فينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة ويسمى هذا الباب شنت مرية (السيدة مريم) وعند نزول الداخل إلى الكنيسة تلقاه المقبرة المقدسة ولها بابان وعليها قبة معقوده قد اتقن بنيانها وحصن تشييدها وابدع تنميقها. وفي شرقي هذه الكنيسة منحرفاً بشيء لطيف إلى الجنوب الحبس الذي حبس فيه السيد المسيح ومكان الصلوبة. وأما القبة الكبيرة فهي قوراء مفتوحة للسماء وبها دار الانبياء مصورون والسيد المسيح والسيدة مريم والدته ويوحنا المعمدان وعلى

١٥٥- ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٧٤.

١٥٦- ناصر خسرو، المصدر نفسه، ص ٧٦.

١٥٧- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥٨.

المقبرة المقدسة من القناديل المعلقة على المكان خاصة ثلاثة قناديل ذهب...^{١٥٨}. أما الهروي فيصف كنيسة القيامة قائلاً: «وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها كنيسة قمامة وعمارتها من العجائب المذكورة... ولهم فيها المقبرة التي يسمونها القيامة وذلك انهم يعتقدون ان المسيح قامت قيامته في ذلك الموضع...»^{١٥٩}. أما ما قاله ابن شداد: «... متى دخل الداخل من باب المحراب يسير نحو المشرق في زقاق شارع إلى الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة والمسلمون يسمونها قمامة وهي من عجائب الدنيا بناءً»^{١٦٠}. ويقول ياقوت الحموي عنها: «...أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس وصفها لا ينضبط حسناً وكثرة مال وتنميق عمارة لهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم ان المسيح قامت قيامته فيها... وفيها صخرة يزعمون انها انشقت وقام آدم من تحتها والصلبوت فوقها سوى، ولهم فيها بستان يوسف الصديق عليه السلام يزورونه ولهم في موضع فيها قنديل يزعمون ان النور ينزل من السماء في يوم معلوم فيشعله...»^{١٦١}. ووصفها القزويني قائلاً: «وهي كنيسة عظيمة للنصارى في وسط البلد لا ينضبط صفتها حسناً وعمارة وتنميقاً وكثرة مال...»^{١٦٢}. كذلك وصفها ابن فضل العمري بقوله: «...ان بالقدس قمامة يحجها النصارى من اقطار الارض واعماق البحر...»^{١٦٣}.

وقد تحدث عنها المؤرخون المسلمون وأوردوا لها وصفاً مقتضباً ولعل اهم الاوصاف التي ذكرت لها ما اورده الاصفهاني في حديثه عنها عند تحرير صلاح الدين بيت المقدس فيقول: «وكانت كنيسة قمامة وهي كنيسة العظمى مبسطة بالبسط الرقاق مكسوة بالسطور من النسيج والحرير المزوج من ساير الانواع، والذين يذكرون انه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة العين ومصوغات الذهب واللجين مصفح بالنضار مثقل من نفايس الحلي بالالوتار فأعاده البطريرك عاطلاً وتركه طلالاً ماثلاً...»^{١٦٤}.

١٥٨- الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٢٥٩.

١٥٩- الهروي، الاشارات، ص ٢٨.

١٦٠- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ١٩٨-١٩٩.

١٦١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٩٦.

١٦٢- القزويني، اثار البلاد، ص ١٦٣.

١٦٣- العمري، مسالك الابصار، ج ١، باب ٦، ص ١٢٨.

١٦٤- البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١، ص ٣١٦.

وقد امدنا الرحالة الاجانب بوصف اكثر تفصيلاً لكنيسة القيامة، فيروي لنا الرحالة فريسكو بالدي الذي زارها في ٧٨٦هـ/١٣٨٤م، ما نصه: «...أمام كنيسة القبر المقدس بداخل كنيسة القيامة ساحة في وسطها حجر وهو الحجر الذي جلس عليه السيد المسيح وفي رقبته الصليب... وفي هذه الساحة اربعة كنائس صغيرة: الاولى منها للسيدة العذراء والقديس يوحنا الانجيلي، والثانية للقديس ميخائيل، والثالثة للقديس يوحنا المعمدان والرابعة للقديسة مريم المجدلية، ثم ندخل كنيسة القبر المقدس والتي لها ثلاثة مفاتيح واحد يحتفظ به احد ممثلي السلطان والثاني لنائب القدس والاخر بيد احد رجال الدين، وكان على الحجاج ان يدفعوا قدراً من المال لكي يدخلوا هذه الكنيسة»^{١٦٥}. وداخلها يجد الانسان حجراً أسوداً وهو الذي صلب عليه السيد المسيح، وكذلك فيها جزء من العمود الذي ربط فيه المسيح وضرب في ليلة الخميس المقدسة وكذلك يوجد السجن الذي وضع فيه المسيح، وهناك الصخرة التي دفن فيها ثلاثة صلبان، وقبر السيد المسيح، وبجانب الجبل صخرة الجلجثة، وتوجد فيها مقبرة دفن فيها الملك جود فري وامامها مقبرة اخرى دفن بها اخوه وهما داخل الكنيسة يقوم بالخدمة فيها الارمن المسيحيون وبالقرب منها توجد كنيسة على المكان الذي ظهر فيه المسيح للقديسة مريم المجدلية. ويقوم بالخدمة فيها الرهبان الفرنسيون التابعين لجبل صهيون كما توجد كنيسة للقديسة هيلانة تحت الارض تماماً. ثم تنزل حوالي عشرين درجة فهناك قبو تحت الارض وهناك المكان الذي فيه صلب المسيح ودفنه اليهود فيه وفي وسط الساحة كنيسة، وفي وسط الكنيسة دائرة صغيرة اشار اليها المسيح باصبعه وقال هنا مركز العالم. ويقوم بخدمة مجموعة هذه الكنائس رهبان الفرنج والبعض الاخر يقوم بالخدمة فيها اليونان والبعض الارمن والبعض اليعاقبة...»^{١٦٦}.

وقد أورد الرحالة طافور وصفاً مشابهاً لكنيسة القيامة لما اورده فريسكو بالدي^{١٦٧}. كما اشار بعض الرحالة إلى طوائف الرهبان الموجودين في كنيسة القيامة. حيث كان لكل طائفة منهم مكان متخصص لهم في كنيسة القيامة ولهم مذبحهم الخاص بهم، وهذه الطوائف كما ذكرهم فيلكس فابري هم: الكاثوليك (اللاتين) ويأتون عند فابري بالطليعة، والمسيحيون اليونان (الارثوذكس)،

١٦٥- Frescobaldi, Visit to the Holy Places, p. 76.

١٦٦- Frescobaldi, Ibid, p. 77.

١٦٧- طافور، الرحلة، ص ٤٤-٤٥.

والمسيحيون الجورجيون والنوبيون، واليعاقبة ويسميهم الهراطقة لأنهم ابتعدوا عن الكنيسة اللاتينية، والمسيحيون الأرمن^{١٦٨}. ويبدو أن العداوة كانت شديدة بين تلك الطوائف حتى قال أحدهم: «أن السلام الذي بشر به السيد المسيح يكون ظاهراً في أي مكان إلا بين جدران كنيسة القيامة...»^{١٦٩}.

وأشار البعض إلى الدور الاجتماعي التي كانت تقوم به كنيسة القيامة، إذ كان بكنيسة القديسة مريم كثير من منازل الضيافة للرجال والنساء، كما كانت تحتوي على ثلاثة آلاف سرير للمرضى^{١٧٠}.

وكان بالقدس كنائس أخرى يعظمها النصارى وهي كنيسة صهيون المختصة برهبان الفرنج وهي مبنية على المكان الذي تناول فيه المسيح مع حواريه العشاء الأخير^{١٧١}. ثم كنيسة مار يعقوب وتعرف بدير الأرمن، يقال بها بئر اغتسل منها السيد المسيح^{١٧٢}. وهي بالقرب من صهيون وكنيسة المصلبية المختصة بطائفة الكرج وهي بظاهر القدس ويقول مجير الدين الحنبلي عن هذه الكنائس «هي عمدة النصارى والنهابة عندهم كنيسة قمامة»^{١٧٣}. ومن المزارات المقدسة الأخرى جبل الزيتون (طورزيتا) في الشمال الشرقي من القدس، وهو المكان الذي صعد فيه السيد المسيح وعلى الجبل أثار أقدامه^{١٧٤}. وبداخله كنيسة قبر مريم التي تسمى بالجسمانية، وهي من بناء الملكة هيلانة^{١٧٥}. تقع في وادي جهنم^{١٧٦} وينزل إليه في

١٦٨- زيادة، فيلكس فابري في فلسطين، من ص ١٩٨-٢٠٠، 441. Maundrell, The Journey, p. 441.

١٦٩- العارف، المسيحية في القدس، ص ٢٤٤.

١٧٠- Wilkinson, John, Jerusalem Pilgrims Before the Crusades, Warminster, Eng., Aris and Phillips, 1977, p. 84.

Wilkinson, Jerusalem Pilgrims.

وسيشار له فيما بعد هكذا:

١٧١- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٨٨. ابن الورد، خريدة العجائب، ص ٤٠.

١٧٢- ابن شداد، المصدر السابق، ج ٢، ق ٢، ص ٢٨٧. العليمي الحنبلي، الانس الجليل، ج ٢، ص ٥١.

١٧٣- العليمي الحنبلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١.

١٧٤- ابن النابلسي، الحقيقة والمجاز، ص ٢٤٠.

Frescobaldi, Gucci, Visit to The Holy Places, p. 64, 129. Maundeville, The Book, p. 177.

١٧٥- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٥٥.

١٧٦- وادي جهنم: هو الوادي العميق الواقع الى الغرب من القدس وقد أخذ المسلمون هذا الاسم وأطلقوه على الوادي المحيط بالقدس من الشرق ودعوه وادي جهنم، وقد كان الوادي في السابق يدعى وادي القدرون أو وادي يهو شافاط. لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص ١٩٠. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ٤٩٣.

ست وثلاثين درجة وبه ستة عشر عموداً من الأعمدة الرخامية، ثمانية حمراء و ثمانية خضراء ولها أربعة أبواب على كل باب ستة أعمدة^{١٧٧}.

أما المزارات المسيحية التي تقع خارج بيت المقدس فهي: كنيسة مهد المسيح في بيت لحم أقيمت في مكان ولادة المسيح وبها النخلة التي تساقطت على مريم وأكلت منها^{١٧٨}. والكنيسة جميلة مزينة بأربعة وأربعين عموداً من المرمر وينزل إلى مكان ولادة المسيح بست عشرة درجة^{١٧٩}.

ومدينة الناصرة وهي من أكبر مواطن عبادات النصارى وهي مقدسة وعظيمة عندهم لأنها مكان ميلاد السيدة مريم العذراء وفيها بشر جبريل بقدم المسيح، وكان في المكان كنيسة عظيمة إلا أنها هدمت أيام السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م. فأصبح مكانها مزاراً للنصارى^{١٨٠}. ويقول عنها الجزري: «الناصرة عند جماعة النصارى اعظم من القدس»^{١٨١}. ومنها اشتق اسم نصارى^{١٨٢}.

١٧٧- الهروي، الاشارات، ص ٢٨، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٨٨. لي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ص ١٨٦.

١٧٨- الهروي، المصدر السابق، ص ٢٩. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢١. ابن شداد، المصدر السابق، ج ٢، ق ٢، ص ٢٨٨. القزويني، آثار البلاد، ص ١٥٩. ابن الوردي، خريده العجائب، ص ٤٠. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٢٤. الحميري، الروض المعطار، ص ١٢٢. ابن النابلسي، الحقيقة والمجاز، ص ٣٦٥. زايد، رحلة دي لا بوركيير، ص ٣٠٦.

Frescobaldi, Visit to the Holy Places, pp. 69-70.

Maundeville, The Book, p. 163.

١٧٩-

١٨٠- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٧. العليمي الحنبلي، الانس الجليل، ٨٦. Frescobaldi, Op. Cit, P. 78. Maundeville, Op. Cit, p. 184.

١٨١- الجزري، حوادث الزمان، (مخطوط)، ورقة ٢٦ب.

١٨٢- الهروي، المصدر السابق، ص ٢٢. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٥١. ابن شداد، المصدر السابق، ج ٢، ق ٢، ص ٢٨٤.

يذكر ياقوت ان البعض من النصارى زعم بأن الناصرة مكان مولد السيد المسيح، وأهل بيت المقدس يابون ذلك ويزعمون انما ولد في بيت لحم وانتقلت به امه الى هذه القرية. ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٢٥١.

أما نص الإنجيل فيذكر أن عيسى ولد في بيت لحم وخاف عليه يوسف زوج مريم فانتقل به الى مصر فرأى في المنام أنه يؤمر برده الى بلاد بني اسرائيل فأتى به وسكن مدينة الناصرة. إنجيل متى، اصحاح ٢، عدد ١ وعدد ٢٢.

أما مدينة إنطاكية فكانت أول مدينة أسست فيها كنيسة للنصارى، وأول كنيسة فيها كانت أيام الامبراطور قسطنطين وهي كنيسة بولس (أحد رسل المسيح) وارتقى أساقفتها إلى رتب البطارقة وصار لهم حق الجلوس بجانب أساقفة الاسكندرية ورومه والقسطنطينية وفيها تسمى أتباع المسيح بالمسيحيين^{١٨٢}. والنصارى يسمون انطاكية مدينة الله ومدينة الملك وأم المدن^{١٨٤}، وكان فيها عدد كبير من الكنائس ففيها كنيسة بطرس خليفة السيد المسيح التي تعرف بدير البراغيث، وكنيسة تدعى الأشمونية ويقام النصارى فيها احتفالاً هاماً، وفيها كنيسة القديسة بربرة، وكنيسة مريم ذات الشكل المستدير والتي تعتبر إحدى عجائب الدنيا لجمال بنائها وارتفاعه^{١٨٥}. وبها بيعة تدعى القُسيان وهو الملك الذي أحيا ولده بطرس رئيس الحواريين، وهو هيكल طوله مائة خطوة وعليه كنيسة على أساطين وبها أروقة يجلس عليها القضاة ومتعلموا النحو واللفظ، وعلى أحد أبواب الكنيسة فنانان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثنتي عشرة ساعة وهو من عجائب الدنيا. والكنيسة جليلة عند النصارى ويقال بها كف يحيى بن زكريا^{١٨٦}. كما يوجد في انطاكية قبر حبيب النجار^{١٨٧}.

وعندما استولى الظاهر بيبرس على أنطاكية سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م دمر عدداً كبيراً من كنائسها واستحكاماتها^{١٨٨}. ولم يمض زمن طويل على سقوط انطاكية حتى استقر في دمشق مقر الكنيستين الارثوذكسية واليعقوبية، كما ظلت انطاكية تزخر بعدد كبير من السكان وظلت مزاراً للنصارى^{١٨٩}.

١٨٢- الغزى، نهر الذهب، ج ١، ص ٣٩٣. حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٣٧٠.

١٨٤- المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٣٩. الحميري، الروض المعطار، ص ٣٨. الغزى، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٠١.

١٨٥- المسعودي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٩. الحميري، المصدر السابق، ص ٣٨.

١٨٦- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٦٦. ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٩٤. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٥٨، القزويني، اثار البلاد، ص ١٥٠.

١٨٧- الهروي، الاشارات، ص ٦، ابن شداد، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٨، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٣٢.

١٨٨- ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣١١، ٣١٢، ٣٢٤. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٧، الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ٢٨٨.

١٨٩- رنسيان، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٦٠.

أما مدينة الرها فهي مدينة عظيمة عند النصارى، وبها ما يزيد على مائتي كنيسة ودير لم يكن للنصارى أعظم منه، وكنيسة الرها إحدى عجائب العالم، ولا يوجد بناء خشب أحسن من بنائها، فكانت مبنية من خشب العناب، وهي قديمة من أيام البيزنطيين^{١٩٠}.

وفي مدينة دمشق كنيسة لها عند النصارى شأن كبير «ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهي حفلة البناء وتتضمن التصاوير أمراً عجيباً تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار ومراها عجيب»^{١٩١}. وتعرف هذه الكنيسة بكنيسة مريم أو الكنيسة المريمية وهي قديمة العهد وهي أكبر ما بقي من كنائس دمشق^{١٩٢}. وخربت عدة مرات إلا أن النصارى كانوا يعيدون بناءها. وهي مبنية من حجارة كبيرة في غاية المتانة ولها أقبية تحت الأرض وكانت تنقسم إلى كنيستين الأولى على اسم السيدة وفيها ايقونة جميلة يسمونها المسكوبية، والثانية كنيسة مار نقولا^{١٩٣}. ويقال أن المنارة التي ينزل عندها عيسى عليه السلام هي التي تكون عند كنيسة مريم بدمشق^{١٩٤}.

أما كنيسة مار جرجس في بيروت، فقد زعمت النصارى أن تنيناً عظيماً خرج في بيروت في أزمنة قديمة فقرر أهل بيروت له في كل عام بنتاً يخرجونها إليه اكتفاء لشربه فوقعت القرعة في إحدى السنين على ابنة صاحب بيروت فتوسلت الابنة إلى الله بالدعاء. فلما جاء التنين خرج عليه مار جرجس فقتله. فعمر صاحب بيروت في ذلك المكان كنيسة بالقرب من النهر. وله عندهم في سائر البلاد عيد مشهور يسمى عيد النهر، يخرج فيه أهل بيروت المسلمون والنصارى إلى نهر بيروت، ويكون في الثالث والعشرين من نيسان (ابريل) من كل عام احتفاءً بهذا العيد^{١٩٥}.

١٩٠- ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٤٤. الحميري، الروض المغطى، ص ٢٧٣.

١٩١- ابن جببر، الرحلة، ص ٢٥٥. زيادة، دمشق في عصر الماليك، ص ١٣٢.

١٩٢- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٢٧٣.

١٩٣- القسطلاني، نعمان أفندي، الروضة الغناء في دمشق الفخاء، بيروت، د.ن، ١٩٧٩م، ص ١٠١. وسيفشار له فيما بعد هكذا، القسطلاني، الروضة الغناء.

١٩٤- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٩.

١٩٥- صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٩.

ومن المزارات المقدسة التي تزار من قبل النصارى، نهر الاردن حيث عمد السيد المسيح في مياهه وأقيم هناك كنيسة على اسم يوحنا المعمدان^{١٩٦}، تزار من قبل جميع طوائف النصارى^{١٩٧}.

ووجد في بلاد الشام العديد من الديارات^{١٩٨} التي كانت تحظى بزيارة النصارى من جميع الطوائف الى جانب المسلمين. كما كانت تحمل اليها النذور والهبات لوجود بعض الصور فيها والأيقونات المشهورة بالأسفية والكرامات، أو لوجود رفات بعض الشهداء والقديسين. وكان الرهبان يرتفقون بهذه النذور والقرايين للقيام بأودهم وحاجات ديارهم وتادية خراجهم وضرائبهم^{١٩٩}.

ومن هذه الديارات دير صيدنايا، الذي كان بجوار دمشق وهو من بناء الروم مبني من الحجر الابيض^{٢٠٠}. قال عنه العمري: «كان له مغلات واسعة وتأتيه نذور وافرة، وطوائف النصارى من الفرنج تعتقد في هذا الدير وتأتيه للزيارة وكنت أراهم يسألون السلطان في أن يمكنهم من زيارته وإذا كتب لهم زيارة قمامة ولم يكتب معها صيدنايا، يعاودون السؤال في كتابتها لهم»^{٢٠١}.

والنصارى تزعم أن لهذا الدير أيقونة يقطر منها زيتاً يأخذونه للتبرك، كما يقولون أن ذلك الماء إذا اخذ على اسم شخص وعلق في بيته ثم ازداد مقداره عما اخذه، دل على زيادة ماله وجاهه وإذا نقص دل على نقص ماله وجاهه وقرب اوان موته^{٢٠٢}. ومما قاله العمري في هذا الدير:

١٩٦- يوحنا المعمدان: هو يحيى بن زكريا بن سليمان بن داود، والنصارى تسميه يوحنا المعمدان لأنه عمد المسيح. العليمي الحنبلي، الانس الجليل، ج ١، ص ١٦٠.

١٩٧- ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٤٠. زايد، رحلة دي لا بوركير، ص ٢٠٦.
Frescobaldi, Gucci, Visit to the Holy Places, p. 78, 134.

١٩٨- الديارات: يقول ياقوت في تعريف الدير، الدير بيت يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون في المصر الاعظم، انما يكون في الصحاري ورؤس الجبال، فان كان في المصر كان كنيسة أو بيعة. واصوب منه قول المقرئزي. الدير عند النصارى يختص بالنساك المقيمين به والكنيسة مجمع عامتهم للصلاة. ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٢، ص ٤٩٥. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٥٠١.

١٩٩- الزيات، الديارات النصرانية ص ٢٨٧.

٢٠٠- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٢٩. Maundeville, The Book, p. 190.

٢٠١- العمري، مسالك الابصار، ج ١، باب ٦، ص ٢٤٩. علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٢٣.

٢٠٢- العمري، المصدر السابق، ج ١، باب ٦، ص ٢٤٩.

(السريع)

ومنهل عذب به ننهل
في كفه كأس له تشعل
شهد وفي الطعم بها فلفل^{٢٠٣}

في جانب الدير لنا منزل
وشادن قد جاءنا أحور
ودونك الراح ففي دنها

أما أسطورة الأيقونة وزيتها السحري فلا أساس له من الصحة، بل حكيت هذه الأساطير لتستجلب السياح لابتزاز أموالهم^{٢٠٤}. وحقيقتها هي أنهم كانوا يضعون قرمة نخل ويدقونها بالمدقات حتى تصبح مثل الاسفنج ثم يغطونها بثوب من الشعر مثل المنخل، ثم يضعونها في موضعها، فإذا جاء العيد سقوا تلك القرمة بالزيت ثم يثقلونها بشيء يوازي بروز ذلك فتبقى ترشح ذلك اليوم طول النهار^{٢٠٥}.

وكان يجري قرب دير صيدنايا في عيد الصليب من كل سنة اجتماعات وافراح ويأتيه الناس من البلاد المجاورة^{٢٠٦}. وذكر أحد الرحالة الألمان أنه كان يجتمع فيها في كل سنة في الثامن من شهر أيلول (سبتمبر) وهو عيد ميلاد العذراء نحو خمسين ألفاً من أخلاط النصاري، كانوا يتعاطون في اجتماعهم كل قبيل ويرتكبون أصناف المنكرات وكانوا يحجون إلى هذا الدير لمشاهدة الزيت العجيب، ولذا غلب على هذا العيد تسمية (حج السيدة)^{٢٠٧}. ودير سمعان، وسمعان هذا أحد أكابر النصاري وله عدة أديرة على إسمه. فهناك دير مار سمعان القريب من دمشق، وآخر بنواحي انطاكية وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون وله من الارتفاع كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة وقيل أن دخله في السنة أربعمئة ألف دينار^{٢٠٨}. أما دير نجران الواقع بأرض دمشق من نواحي حوران ببصرى، وهو دير عظيم عجيب العمارة، ولهذا الدير ينادى في البلاد «من نذر نذراً لنجران المبارك»

٢٠٣- العمري، مسالك الأبصار، ج ١، باب ٦، ص ٣٤٩.

٢٠٤- زايد، رحلة دي لابوركير، ص ٢٢٥.

٢٠٥- دارقيو، وصف دمشق، ص ٦٦. هامش رقم (٤٤) نقلاً عن عبدالرحيم الدمشقي، المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار.

٢٠٦- آل ثقي الدين، منتخبات التواريخ، ج ٢، ص ١٠٥٥.

٢٠٧- الزيات، خزائن الكتب في دمشق، ج ٢، ص ١٢٤.

٢٠٨- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١٧. ابن النابلسي، الحقيقة والمجاز، ص ١١٨ الغزى، نهر الذهب، ج ١، ص ٤٢٨. آل ثقي الدين، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠٥١. ترتون، أهل الذمة، ص ١٧٣.

والمنادي بركب فرساً يطوف طيلة نهاره، وكان في كل مدينة مناد. وللسلطان على الدير قطيعة يأخذها من النذور التي تهدى له^{٢٠٩}. ومن الديارات التي كان ينادي أيضاً بطلب نذره دير برصوما الواقع على قلعة جبل بلاد الروم بالقرب من ملطية^{٢١٠}، وهو دير معتبر عند النصارى، فانهم يقولون أن برصوما كان من الحواريين، وكان ينادي بطلب نذره في بلاد الروم وديار بكر والشام. وفيه رهبان كثيرون^{٢١١}. كما كانت تأتيه النذور من المسلمين أيضاً، قال ياقوت: «حدثني العفيف مرجى الواسطي التاجر قال اجتزت به قاصداً بلاد الروم فلما قربت منه أخبرته بفضلته وكثرة ما ينذر له، وأن الذين ينذرون له قل ما يخالف مطلوبهم وألقى الله على لساني أن قلت ان هذا القماش الذي معي مشتراه بخمسة آلاف درهم فإن بيعته بسبعة آلاف درهم فلبرصوما من خالص مالي خمسون درهماً، فدخلت ملطية وبعته بسبعة آلاف فرجعت وسلمت رهبانه خمسين درهماً»^{٢١٢}.

أما دير فيق بالقرب من بحيرة طبرية، وهو منقور بالحجر والنصارى يزعمون أنه أول دير عمل للنصرانية وأن المسيح كان يأوي إليه ومنه دعا الحواريين، وفي الدير حجر ذكروا أن المسيح كان يجلس عليه فكان كل من دخل الدير كسر منه قطعة تبركاً. وكان الدير عامراً بمن فيه ومن يطرقه من النصارى لجلالة قدره عندهم، وغيرهم يقصده للتنزه والشراب^{٢١٣}.

ودير كفتون في بلاد طرابلس، وهو دير كبير، مبني من الحجر والكلس في نهاية الجودة والمتانة ولهذا الدير صيت شائع وسمعة مذكورة وبه رهبان كثيرون العدد والنصارى تقصده للزيارة وتحمل إليه النذور، ويقصده أهل البطالة للهو والتفرج^{٢١٤}.

٢٠٩- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٣٩. القزويني، أثار البلاد، ص ١٨٥. علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٤٣.

٢١٠- ملطية: بفتح أوله وثانية وسكون الطاء وتخفيف الياء، هي مدينة من بناء الاسكندر في بلاد الروم تتاخم الشام وهي للمسلمين. ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٥، ص ١٩٢.

٢١١- ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠٠. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٤٦، القزويني، المصدر السابق، ص ٥٢٩. الباكوي، تلخيص الآثار، ص ١٢٦.

٢١٢- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٠.

٢١٣- الشابشتي، الديارات، ص ١٣٠. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢٥، ٥٢٦. العمري، مسالك الأبيصار، ج ١، باب ٦، ص ٣٣٦. علي، المرجع السابق، ج ٦، ص ٣٣.

٢١٤- العمري، المصدر السابق، ج ١، باب ٦، ص ٣٣٥. علي، المرجع السابق، ج ٦، ص ٣٧. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ١٩٩.

ومن الديارات الأخرى التي كان لها شهرة بالغة، دير الفاروص (الفاروس) بخارج اللاذقية يقول عنه ابن بطوطة: «بأنه أعظم دير بالشام ومصر يقصده النصارى من الأفاق ويسكنه الرهبان وكل من نزل به من المسلمين يضيفونه، وطعامهم الجبن والزيتون والخل»^{٢١٥}. وهو من أعجب بناء الديارات وله يوم في السنة تجتمع إليه النصارى^{٢١٦}. ودير الفاخور على نهر الأردن الموضع الذي تعدد فيه المسيح من يوحنا المعمدان تقصده جميع النصارى بالزيارة^{٢١٧}. ودير الطوربين طبرية واللجون مشرف على الغور وفيه تنبع مياه غزيرة. ويعرف أيضاً بدير التجلي لأن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد أن رفع حتى أراهم نفسه وعرفوه. والناس تقصده من كل موضع^{٢١٨}. ودير مارون، وهو الدير الذي أنشأه القديس يوحنا مارون على اسم القديس مارون شرقي كفرحي من عمل البترون، وكان الموارنة يعيدون فيه للقديس مارون في الخامس من كانون ثاني (يناير) واستمر الموارنة يعيدون فيه قروناً^{٢١٩}.

ومن الديارات التي اشتهرت بالأشفية، وكان يقصدها الناس للاستشفاء دير ميماس في ضواحي حمص على نهر يقال له ميماس، قيل كان فيه عظام بعض الشهداء وكان يزار طلباً للعافية^{٢٢٠}. ودير شق معلولة، في قرية معلولة من ضواحي دمشق ويسمى «المرتقلة» ومعناه بلسان النصارى المكان يزار ويحترم، وهي مفارة كبيرة في نصف الجبل والماء يقطر من أعلاها إلى أسفلها ولهم فيها اعتقاد أن ذلك الماء يشفي من الريح الذي يتعرض للانسان وخصوصاً الأطفال^{٢٢١}. ودير هزقل بالشام ويقال له دير حزقيال يستشفى به من الجنون وربما حبس به بعض العشاق على تقدير أن العشاق قريب من الجنون^{٢٢٢}.

٢١٥- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٧٧، الزيات، الديارات النصرانية ص ٢٤٧.

٢١٦- أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٥٧، دمشق، نخبة الدهر، ص ٢٠٩.

٢١٧- الهروي، الاشارات، ص ١٩، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٨١.

٢١٨- الشابشتي، الديارات، ص ١٣٢، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٢٠، العمري، مسالك الأبصار، ج ١، باب ٦، ص ٣٣٧.

٢١٩- الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ١٩٦.

٢٢٠- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣٨. آل تقي الدين، منتخبات التواريخ، ج ٢، ص ١٠٥١. الزيات، المرجع السابق، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

٢٢١- العمري، المصدر السابق، ج ١، باب ٦، ص ٢٥٨. ابن النابلسي، الحقيقة والمجاز، ص ٩٨.

٢٢٢- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٥. الزيات، المرجع السابق، ص ٢٨٨.

ب- المزارات اليهودية:

وكان في بلاد الشام مزارات مقدسة لليهود، معظمها قبور لانبيائهم ورجالاتهم المشهورين، وكانوا يحتفلون بالقرب منها في مناسباتهم الدينية بكل حرية ودون أي اعتراض.

ومن المزارات اليهودية الشهيرة: قرية جوبر التي تقع على بعد ميل من دمشق كان يسكنها اليهود، ولديهم فيها مغارة يقولون أن النبي الياس اختبأ فيها عند هروبه من اضطهاد ايزابيل الصيدونية زوجة ملك السامرة وكانا وثنين منذ ٢٧٠٠ سنة^{٢٢٢}، وكتب الرحالة موشيه ماسولا في مذكرات رحلته سنة ٩٢٨-٩٢٩هـ/ ١٥٢١-١٥٢٢م عن هذا الكنيس ما يلي: «وعلى ميل من دمشق مكان يدعى جوبر وفيه كنيس جميل للغاية، لم أرَ مثيلاً له في حياتي، إنه مقام بالأعمدة ستة منها إلى اليمين وسبعة أخرى إلى اليسار، وفي أقصى هذا الكنيس مغارة لطيفة يقولون أن الياهو (الياس) النبي اختبأ فيها، ويضيفون أن الكنيس قائم منذ أيام اليشاع. وفيه حجر يروى أن حزائيل مسح ملكاً عليه. وقد قام الرابي اليعيزر بن أراخ^{٢٢٣} بتجديد الكنيس، وهو بالفعل مكان مربع، وحسب ما أخبرني كثير من الناس، لم يستطع أي عدو احتلاله، وقد حصل فيه كثير من المعجزات.....»^{٢٢٤}.

وهذا الكنيس من أقدم كنس دمشق على الإطلاق، ولا زال اليهود الدمشقيون معتادون إلى اليوم على زيارته أيام السبت مشياً على الأقدام ويقومون فيه صلواتهم وله عندهم حرمة كبيرة^{٢٢٥}. ومن مزارات اليهود أيضاً كُفْر مَنْدَه، قرية بين عكا وطبرية، فيها قبر صفوراء زوجة موسى عليه السلام، وبها الجب الذي قلع الصخرة من عليه وسقى لهما. والصخرة باقية هناك إلى الآن، وفيه ولد لسيدنا يعقوب ولدان يقال لهما أشير (أشر) ونفتالي^{٢٢٦}.

٢٢٢- Stollman, The Jews of Arab Lands, p. 289.

٢٢٣-

٢٢٤- اليعيزر بن أراخ: هو رابي مشهور في القرن الأول الميلادي، تلميذ يوحنا بن زكاي. دارفيو، وصف دمشق، ص ٥٧.

٢٢٥- دارفيو، المرجع نفسه، ص ٥٧، هامش رقم ٣٩. نقلاً عن:

Bernard Lewis, A Jewish Source on Damascus, p. 183.

٢٢٦- دارفيو، المرجع نفسه، ص ٥٨، تقيسة، يهود دمشق، ص ١٣.

٢٢٧- الهروي، الاشارات، ص ٢١، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧١. ابن شداد الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٨٢. الباكوي، تلخيص الآثار، ص ٧٠.

وفي طبرية كثير من قبور الأنبياء كشعيب ويهوذا وسليمان وروبيل وابنة شعيب زوجة موسى^{٢٢٨}. وتعتبر طبرية إحدى المدن الأولية المقدسة عند اليهود وفي مقبرتها عدد كبير من مرقد أحبارهم ومشاهير علمائهم^{٢٢٩}. كما كان اليهود يجتمعون عند قرية ميرون من ضواحي صفد في منتصف أيار من كل عام حيث يجتمعون عند ناوس ماء يرشح ولهم فيه اعتقاد ويحملون ماءه للتبرك به^{٢٣٠}. أما مدينة حيفا والتي ورد ذكرها في التوراة «جت حفر» كان بظاهرها قبور كثيرة لليهود وبها الكهف الذي أوى إليه النبي الياس^{٢٣١}. وفي وادي موسى قبلي بيت المقدس نزل به موسى عليه السلام، وعلم بقرب أجله فعمد على الحجر الذي يتفجر منه اثنتا عشر عيناً وسمّره في جبل هناك، فخرجت منه اثنتا عشر عيناً تفرقت على إثنتي عشر قرية كل قرية لسبط من الاسباط، ثم قبض موسى عليه السلام، وبقي الحجر هناك ويزار من قبل اليهود^{٢٣٢}. وعلى بعد نصف ميل من مدينة بيت لحم قبر راحيل زوجة يعقوب فوقه بناء مشيد من أحد عشر حجراً بعدد أبناء يعقوب وعليه قبة معقودة بأربعة أعمدة. وكان من عادة زوار اليهود أن يكتبوا أسماءهم على تلك الحجارة^{٢٣٣}.

وفي وسط الخليل قبور يعقوب وإبراهيم واسحق وزوجاتهم، بنى المسلمون هناك مسجداً^{٢٣٤}، وعملوا حائطاً على الكهف وفي وسط الحائط نافذة ينظر منها اليهود إلى القبور ويلقون قطعاً من النقود والبهارات، وكان عدد من النساء

٢٢٨- ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٥١، ابن جبیر، الرحلة، ص ٢٨٢. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٠.

٢٢٩- التطيلي، الرحلة، ص ١١٠.

٢٣٠- الدمشقي، نخبة الدهر، ص ١١٨. الطراونة، مملكة صفد، ص ١٤٠.

٢٣١- التطيلي، المصدر السابق، ص ٩٣.

٢٣٢- القزويني، اثار البلاد، ص ٢٧٩.

٢٣٣- التطيلي، المصدر السابق، ص ١٠٤. يظهر ان هناك خطأ في رحلة بنيامين، فمن المعلوم ان عدد أولاد يعقوب اثنا عشر لا أحد عشر أطلق عليهم الاسباط وهم: روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويساخر وزيلون ويوسف وبنيامين ودان ونفتالي وكاد وأشر. انظر: التوراة، سفر الخروج، الأصحاح الأول. العليمي الحنبلي، الانس الجليل، ج ١، ص ٦٥.

٢٣٤- الهروي، الاشارات، ص ٣٠. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٧. ابن شداد، المصدر السابق، ج ٢، ق ٢، ص ٢٢٩، ٢٨٩. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٤١. ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٤٠. ابن شاهين، زبدة كشف المسالك، ص ٢٤. زايد، رحلة دي لا بوركيير، ص ٣٠٨.

Frescobaldi, Gucci, Visit to the Holy Places, p. 68, 123.

اليهوديات يدخلن المسجد وهن يضعن خمراً أسوداً فيعتقد الحراس أنهن مسلمات^{٢٣٥}. أما مزار النبي يوشع عليه السلام خليفة سيدنا موسى فكان في قرية كبيرة تعرف بالأمنية (منية طرابلس) وهي بالقرب من مدينة طرابلس، وعلى مقام يوشع بناء كبير وله شبابيك مطلة على البساتين يزار من قبل اليهود^{٢٣٦}. وفي قرية رامة من قرى بيت المقدس قبر النبي صمويل تتجمع اليهود عنده في ٢٨ أيار (مايو) من كل عام من العراق ومصر وحماه ودمشق وحلب وبلدان أخرى فيبلغ عددهم حوالي ألف يهودي يجتمعون هناك للصلاة وكانوا يشتررون الزيت لاشعال الضوء هناك^{٢٣٧}.

أما مدينة نابلس فهي مدينة السامرية وبها البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام وهي العين التي تعظمها السامرة. وبها جلس السيد المسيح وطلب من المرأة السامرية الماء ليشرب. ولهذا تكثر السمرة في مدينة نابلس^{٢٣٨}. أما جبل جرزيم ويقال له الطور المشرف على نابلس حيث يعتقد السامريون أن موسى كلم الله من عليه، فاليه حجهم واليه قبلتهم. وأما اليهود فلهم فيه اعتقاد عظيم، ويزعمون أن ابراهيم أمر بذبح ابنه اسماعيل عليه^{٢٣٩}.

Adler, Jewish Travellers, p. 185. 98.

-٢٣٥

٢٣٦- ابن النابلسي، الحقيقة والمجاز، ص ١٩٥.

ذكر الرحالة والمؤرخون عدة مواضع لقبر يوشع بن نون عليه السلام، فالهروي ذكره في بلدة عورتا في طريق القدس من نابلس، الاشارات، ص ٢٣. ناصر خسرو، قال انه موجود (بطبرية) سفرنامه، ص ٤٩. بينما ذكر ابن شداد أن قبر يوشع بن نون في معرة النعمان، الاعلاق الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٥٣. أما مجير الدين الحنبلي فذكر أن قبر يوشع في (كفل حارث) من أعمال نابلس وقيل أنه مدفون بالمعرة من أعمال حماه. الأنس الجليل، ج ١، ص ١٠٤ وجميع هذه الأماكن تزار من قبل اليهود.

Adler, Op, Cit, p.193.

-٢٣٧

٢٣٨- الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥٦. الهروي، الاشارات، ص ٢٣. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٤٨. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ١، ق ٢، ص ٢٤٣. ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٣٩. الحميري، الروض المعطار، ص ٥٧٠.

٢٣٩- الهروي، المصدر السابق، ص ٢٤. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٧. ابن شداد، المصدر السابق، ج ٢، ق ٢، ص ٢٧٨. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٤١. العمري، مسالك الأبصار، ج ١، باب ٦، ص ٦٤، ٧٥. لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص ٨٧.

ومن الأماكن التي حظيت بزيارة اليهود في مدينة بيت المقدس، المقبرة التي لهم على جبل صهيون، وقد ذكرها لنا الرحالة جون مانديفل الذي زار المدينة سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م حيث يؤكد وجود تلك المقبرة التي يعتقد اليهود بأن الملك داود مدفون فيها والملك سليمان وملوك أخرى لليهود^{٢٤٠}. وظل هذا المكان موضع نزاع بين النصارى واليهود في القدس ثم انتقل إلى يد المسلمين سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م وبني فوقه مسجداً^{٢٤١}.

أما بالنسبة إلى حائط المبكى وهو الأثر الذي اعتبره اليهود مقدساً لديهم فهو عبارة عن حائط مبني من حجارة ضخمة، ويبلغ طوله ١٥٦ قدماً وارتفاعه ٥٦ قدماً وهو الجزء الذي بقي قائماً من السور في الجزء الغربي من المدينة، ويسميه اليهود (الجدار الغربي) وكان الاتقياء من اليهود يقفون على الجدار باكين طالبيين الرحمة من الله والمغفرة لذنوبهم وذنوب أسلافهم التي بسببها دمر الله ملكهم مرتين وقد زعم اليهود أنه بقية من سور داود وقال آخرون أنه جزء من حائط سليمان (معبد سليمان) واليهود يزورونه دائماً ولا سيما في ٩ آب^{٢٤٢}.

والاعتقاد بأنه جزء من معبد سليمان اعتقاد خاطئ لأن معبد سليمان دمر زمن طيطس القائد الروماني سنة ٧٠م. ثم عمر زمن جوليان لكنه دمر مرة أخرى بهزة أرضية، ثم أعاد اليهود بناءه. وفي سنة ١٣٥م قدم هادريان إلى القدس وهدم الأسوار وحرث الموقع تماماً وقضى على اليهود. أيضاً، وأعاد بناء القدس والمعبد وأطلق عليها اسم (إيليا) وبني معبداً على انقاض المعبد القديم^{٢٤٣}.

Maundeville, The Book, p. 174.

٢٤٠.

٢٤١- العلمي الحنبلي، الانس الجليل، ج ١، ص ١١٧، ج ٢، ص ٩٨، ٣٥١. دراج، المعاليك والفرنح، ص ١٤.

٢٤٢- زايد، القدس الخالدة، ص ١٥٥. ظاظا، حسن، القدس مدينة الله أم مدينة داود، ص ٥٢٨.

العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج ٢، ص ٥٤٤. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٢٥٩.

يتم الاحتفال في ٩ آب بالذات لأن هذا التاريخ يمثل هدم المعبد الأول والثاني، ففي ٩

آب من سنة ٦٥٧ق.م. سقط المعبد الأول أيام نبوختنصر وكذلك هدم المعبد الثاني في أيام

طيطس من نفس الميعاد. وهدمه هادريان في ٩ آب سنة ١٣٥ م. زايد. المرجع السابق، ص ١٥٤.

٢٤٣- زايد المرجع السابق، ص ١٥٤.

Maundeville, The Book, p. 170. Amiry, M.A. Jerusalem Arab Origin and Heritage, London:

Longman, 1978, p. 10.

وسيشار له فيما بعد هكذا. Amiry, Jerusalem.

ويشير أحد الباحثين الى أن هذا المكان نفسه هو المكان الذي يسمى بالبراق الشريف حيث يعتقد كثير من المسلمين أن المكان الذي ربط عنده جبريل عليه السلام براق النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ليلة الاسراء، ومن ثم أطلق عليه هذا الاسم منذ ذلك الوقت وحتى منتصف القرن العشرين، وهذا الجزء ما زال يؤلف قسماً من الحرم القدسي الشريف^{٢٤٤}.

ويذكر الدكتور عبد الحميد زايد أن القضية أثارت دولياً عام ١٩٢٠م وشكلت لجنة دولية كان اعضاؤها من الدول المسيحية، ووافق مجلس الأمم في ٥ أيار (مايو) ١٩٢٠م على تأليفها وأقرّ اليهود صلاحيتها وكان لهم ثلاثة وكلاء وأصدرت اللجنة قرارها بأن للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءاً من ساحة الحرم الشريف التي هي أملاك وقف، وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط لكونه موقوفاً حسب أحكام الشرع الاسلامي لجهات البر والخير^{٢٤٥}.

وقام الاثريون الاسرائليون بعد حرب حزيران ١٩٦٧م بعمل حفائر في أساس الحائط فكان أقصى ما عثروا عليه آيتين من سفر النبي أشعيا مما يجعل نسبة هذه الحجارة لداود أو سليمان مستحيلة^{٢٤٦}.

ومن الجدير بالذكر انه كان هناك مزارات مقدسة تزار من قبل المسلمين واليهود والنصارى مثل عين البقر قرب عكا يزورها اليهود والنصارى والمسلمون لاعتقادهم ان البقر الذي ظهر لادم فحرث عليه خرج منها^{٢٤٧}.

٢٤٤- العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ٤٠٠-٤٠١.

٢٤٥- زايد، القدس الخالدة، صص ١٨٩-١٩٠.

٢٤٦- ظاظا، القدس مدينة الله أم مدينة داود، ص ٢٨.

٢٤٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٦. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٨٤.

الفصل السادس

بعض الوظائف التي نفلها أهل الدمة

١- الوظائف الإدارية

٢- الطب والأطباء

(٩)

الوظائف الإدارية

يعتبر العصر الأيوبي - كالعصر الفاطمي - العصر الذهبي لأهل الذمة من النصارى واليهود بالنسبة لتوليتهم الوظائف الكبرى في الدولة^١. فالسلطين والامراء لم يستطيعوا الاستغناء عنهم حتى لا يتوقف دولا العمل، فالمقريري ذكر أنه في أول سنة من تولي صلاح الدين الحكم في مصر، «صرفت جماعة من وجوه أهل الذمة من الأشغال السلطانية، وبقي بعضهم، وكتاب الغز على حالهم، وامتنعوا عن صرفهم بأنهم قد دربوا أمرهم ويخشون باخراجهم ضياع أمورهم...»^٢. إلا أنهم نعموا بالتسامح الديني عندما استقرت الأمور لصلاح الدين فتغلغل الموظفون الذميون في كافة دواوين الدولة المالية والإدارية ورافقه الكتاب النصارى في غزواته، ففي حصار عكا سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠م كان على خزائن مال السلطان صلاح الدين كتاب من أقباط مصر وكانوا هم المسؤولون عن صرف رواتب الجند وأرزاقهم^٣. وعندما تملك صلاح الدين بلاد الشام استخدم الأقباط في البلاد الحلبية والشرقية والجزيرة الفراتية، ونقل هؤلاء ترتيب الدواوين الحسابية إلى الإصطلاح المصري لعجزهم عن الحساب الشامي^٤. وأشار ابن جبير أن ديوان التمكيس في عكا كان يتولاه كتاب من النصارى يحسنون التكلم بالعربية والكتابة بها^٥.

ومن أشهر الأسر القبطية التي نالت أرقى مناصب الدولة في عهد الأيوبيين أسرة بني معاتي التي أسلمت في بداية حكم صلاح الدين، وخدموا الملوك الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، فكان أبو المكارم أسعد بن أبي سعيد مهذب بن مليح الملقب بالخطير

١- Goitein, Amediterranean Society, Vol, 2, p. 374.

٢- المقريري، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٧، ٤٨. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٢٧.

٣- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٤٥٧. العارف، المسيحية في القدس، ص ١٢٨.

٤- ابن الواسطي، الرد على أهل الذمة، ص ٤١٤.

٥- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٦. سالم، طرابلس الشام، ص ٢٢٥.

ابن معاتي، أشهر أفراد أسرته، فقد خلف الاسعد أباه في نظر ديوان الجيش^٦ سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، واستمر في ذلك طيلة حكم السلطان صلاح الدين وابنه الملك العزيز عثمان وولي نظر الدواوين (ديوان النظر) الذي اختص بالنظر في جميع الشؤون المالية للدولة من إيرادات ومصروفات في مختلف الدواوين^٧. ولم يزل في مصر حتى ملك السلطان الملك العادل فقبض عليه سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥م وبولغ في تعذيبه بتدبير من وزير الملك العادل صفى الدين علي الدميري لخصومة بينهما. إلا أن أبا المكارم فرّ من سجنه سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م قاصدا مدينة حلب لأنذا بجانب سلطانها الملك غازي الأول، ابن السلطان صلاح الدين (ت ٦١٢هـ/١٢١٦م)، الذي أحسن وفادته وقرر له ما يكفيه واستدعاه إلى مجالسه واصطحبه في مواكبه إلى أن مات عنده (سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢٠٩م) ودفن بظاهر حلب^٨. ولأبي المكارم أسعد مصنفات عدة منها «تلقين اليقين» يتناول فيه حديث النبي، صلى الله عليه وسلم، بني الاسلام على خمس ... «وكتاب صحة الحق على الخلق» في التحذير من سوء عاقبة الظلم. وكان السلطان صلاح الدين يكثر النظر فيه. ونظم سيرة السلطان صلاح الدين، ونظم كتاب كلية ودمنه، «وكتاب قوانين الدواوين» صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأموالها. وله ديوان شعر^٩. ومن شعره في الثلج سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م.

-
- ٦- نظر الجيش: موضوعها التحدث في الإقطاعات بمصر والشام. والكتابة بالكشف عنها ومشاركة السلطان عليها وأخذ خطه. الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٣١٤.
- ٧- ياقوت الحموي. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، نشر باسم معجم الأدباء، ج ٦، نشره داود مرجليوث، بيروت، دار المستشرق، ١٩٢٢م. ص ١١٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٠. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٩، تحقيق يوسف فان إس، ط ٢، ١٩٨٢م. فيسباند، فرائز شتاينر، ص ٢٢. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٦٠.
- ٨- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٦، ص ١١٦-١١٧. الصفدي، المصدر السابق، ج ٩، ص ٢١-٢٢. المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٠. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٩٢.
- ٩- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٦، ص ١١٢، ١١٧. ابن خلكان، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٠. الصفدي، المصدر السابق، ج ٩، ص ٢١. المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٠.

(البسيط)

قد قلتُ لما رأيتُ الثلجَ منبسطاً على الطريقةِ إنْ ضلَّ سالكُها
ما بيضُ اللهُ وجهَ الأرضِ في حلبٍ إلا لأنْ غياثُ الدينِ مالِكُها

(الطويل)

ومن شعره أيضاً: يُعاهدني ألا يخون وينكثُ
ويحلفُ لي ألا يصدُّ ويحنثُ ومن أعجب الأشياءِ أنك ساكنُ
بقلبي وأنِّي عن مكانك أبحتُ^{١٠}

أما صنيعه الملك أبو سعيد بن أبي اليمن ابن النحال، فكان نصرانياً يعمل في خدمة الملك العادل في حلب، فولّي الإنشاء وما يتعلق بأمر السر^{١١} عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، وفي سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م أسلم على يد الملك العادل، إلا أن ابن النحال ولى الوظائف لجماعة النصاري، وفي ذلك يقول الشاعر:

فاق دينُ المسيح في دولة العا دلّ حتى علا على الأديان
ذا أميرٌ وذا وزيرٌ وذا وا لِرِ وذا مشرفٌ على الديوان^{١٢}

ولما استولى الملك العادل على الحكم أسند منصب الوزارة إلى ابن النحال الذي استمر فيها مدة يسيرة ثم توفي^{١٣}.

ومن الذين تولوا الوزارة من أهل الذمة، الطبيب مهذب الدين يوسف بن أبو سعيد بن خلف السامري، الذي التحق بخدمة الملك فرخشاه في بعلبك وغدا طبيبه

١٠- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٦، ص ١٢٠، ١٢٢.

١١- كتابة السر: ويقال لصاحبها «صاحب دواوين الإنشاء» وموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان. وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتفسيرها وتصريف المراسيم ورودا وصدورا والجلوس لقراءة القصص بدار العدل. وأنه صار يوقع فيها كان يوقع فيه بقلم الوزارة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٨٨.

١٢- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله، (ت سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١م). زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ٣، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العليا، ١٩٦٨م. ص ٧٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن العديم، زبدة الحلب. أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٥٢.

١٣- ابن العديم، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥. أبو شامة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٩٢.

الخاص واشتهر بحسن العلاج والمداواة، واعتمد عليه في تصريف بعض الشؤون العامة^{١٤}.

ولما توفي فرخشاہ^{١٥} سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م)، خدم بعده لولده الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه ٥٧٨-٦٢٧/١١٨٢-١٢٢٩م، بصناعة الطب، وأقام عنده في بعلبك فاستصفاه لنفسه، وأغدق عليه العطايا والأموال وكان يستشيريه في أمور الدولة ويعتمد عليه بالمهمات، ثم استوزره، ومنحه صلاحيات واسعة، فصار هو المدير لدولته والأحوال بأسرها لا تعدل عن أمره ونهيه^{١٦}. وكان مهذب الدين مستبداً فكثرت حساده وقد أقام في بعلبك قرابة خمسين عاماً^{١٧}. قوَّى خلالها نفوذه باستقدام وفود السامريين من فلسطين ودمشق ومنحهم المراكز الحساسة في مملكة الأمجد، واستغل السمرة نفوذهم وقوتهم وتحصنوا بسلطة مهذب الدين الوزير، وسيطروا على مقدرات بعلبك واستأثروا بالمهن الشريفة والوظائف الرئيسية وأكلوا أموال المدينة واستظهروا على شعبها وكانوا بالنسبة لفرخشاہ والملك الأمجد والملك الصالح اسماعيل أشبه بمكانة البرامكة لدى العباسيين^{١٨}. ولما استقلوا بمصالح بعلبك كثرت الشكاوي ضدهم ورفعت إلى دمشق والقاهرة وتبين للأمجد أن الأموال قد أكلوها،

١٤- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٢١.

١٥- الملك فرخشاہ: عز الدين فرخشاہ بن شاهنشاه بن أيوب بن اخ صلاح الدين تسلم بعلبك سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩م وأحدث فيها نهضة عمرانية، واستنابه صلاح الدين على دمشق لما قصد القاهرة سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١م. وظل فرخشاہ يملك بعلبك وينوب في دمشق حتى وفاته سنة (٥٧٨ هـ/١١٨٢م). وكان من أكرم الناس يدا وأطهرهم أخلاقاً واليه تنسب المدرسة الفروخ شاهیة بدمشق. أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٢٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٣٢. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٧٩. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، صورة عن طبعة دار الكتب القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م، ص ٩٣. أبو الفلاح، شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٦٢.

١٦- ابن النظيف، التاريخ المنصوري، ص ٢٣١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٢٠. نصر الله، حسن، تاريخ بعلبك، ج ١، بيروت، مؤسسة الرفاء، ١٩٨٤م، ص ١٦٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، نصر الله، تاريخ بعلبك.

١٧- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٧٢١. ابن النظيف، المصدر السابق، ص ٢٣١. نصر الله، المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٧.

١٨- نصر الله، المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٨.

وكثر فسادهم ولامته الملوك في تسليم دولته للسمره، فقبض على المذهب السامري وعلى جميع السمره المستخدمين واستخلص منهم أموالا كثيرة، وبقي الوزير معتقلا عنده مدة، فلم يبق له شيء يعتد به، عندئذ أطلقه فغادر إلى دمشق حيث توفي سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٦م)^{١٩}.

إلا أن هذا المحنة التي حلت بالسمره، لم تستأصل نفوذهم فقد استوزر الملك الأمجد سنة ٦٢٧هـ/١٣٢١م، أمين الدولة أبو الحسن بن غزال بن أبي سعيد ابن شقيق مذهب الدين، واهتم بالعلوم، ولما قتل الأمجد سنة (٦٢٨هـ/١٣٢٢م)، استوزره الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل الذي تملك بعلبك «فساس الدولة أحسن السياسة وبلغ في تدبير المملكة (البعلبكية) نهاية الرياسة...»^{٢٠}. وللوقوف أمام الوشاة والحاسدين وخوفا من الذي حدث لعمه، فقد أعلن إسلامه وتلقب بكمال الدين وليؤكد إسلامه أسس المدرسة الأمينية في بعلبك لتدريس الفقه الاسلامي، وأوكل شؤونها إلى قاضي المدينة رفيع الدين الجيلي^{٢١}. وتعرض أمين الدولة إلى وشايات كثيرة رغم إسلامه^{٢٢}. واتهم في دينه وقالوا أنه ما كان مسلما ولا سامريا^{٢٣}. وأنه كان ظالما نحسا ماكرا داهية^{٢٤}. واتهم بأكل أموال الرعية يشاطره في ذلك القاضي رفيع الدين الجيلي، ولما كثرت الشكاوي ضد الاثنين استطاع الوزير أن يلقي التبعية على القاضي فسجنه سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ثم أمر بقتله فآلقوه من فوق هياكل بعلبك وقيل القوه من أعلى الجبل إلى النهر^{٢٥}.

١٩- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٢٢. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٢، تحقيق رمضان عبد التواب، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٧٩م. ص ١٠٤.

٢٠- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٧٢٢.

٢١- القاضي رفيع الدين الجيلي، هو الرفيع العزيز بن عبد الواحد بن اسماعيل الملقب بالرفيع كان فاسد العقيدة، دهريا، مستهزئا بالشرعية يخرج للجامع سكرانا وداره مثل الحانة يجتمع فيها النساء والرجال، توفي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م). سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٧٥٠.

٢٢- الذهبي، المعبر، ج ٣، ص ٢٦١.

٢٣- سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ق ٢، ص ٧٤٨.

٢٤- الذهبي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦١.

٢٥- سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ق ٢، ص ٧٥٠. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، تحقيق حسنين محمد ربيع وسعيد عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٧م. ص ٤٣٢ الذهبي، المعبر، ج ٣، ص ٢٦١. ودول الاسلام، ج ٢، ص ١١٢. ابن شاکر الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٥٢-٣٥٣. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٥٠-٣٥١.

وقد بلغ الوزير من الدهاء حتى انه استطاع مساعدة صاحبه الصالح اسماعيل في ان يتملك دمشق وذلك عن طريق خداعه للملك الصالح نجم الدين أيوب وتأخيرته من القدوم إلى دمشق، حيث كان السامري يمسك بطاقات الحمام المرسله من قبل أعوان نجم الدين أيوب في نابلس ويقوم بتزوير ما أرسل ويكتب بالبطاقة «ان عمك اسماعيل قد جمع لياعضدك وهو واصل اليك...» واشطلت الحيلة عليه بينما كان الصالح اسماعيل يتأهب لدخول دمشق فتمكن من دخولها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م^{٢٦}. ورافقه أمين الدولة ووزر له وثبت قواعد الملك، وحصل لصاحبه اموالا عظيمة من أهل دمشق وقبض على كثير من املاكهم^{٢٧}. حتى ضاقت الناس به ذرعا، ورغم كل ذلك بقي في خدمة الصالح مطاع الكلمة كثير العظمة، إلى ان استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق وقبض نائبه في دمشق على أمين الدولة وصادر أمواله وأرسله إلى القاهرة سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م وظل سجيناً في قلعتها حتى نفذ حكم الموت شنقا سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م). ومع وفاته انتهى نفوذ السامرية في بلاد الشام^{٢٨}.

وظهر له من الأموال والجواهر واليواقيت والتحف والذخائر مالا يوجد في خزائن الخلفاء ولا السلاطين وأقاموا ينقلونه مدة سنتين، وكان قيمة ما ظهر له ثلاثة آلاف ألف دينار غير الودائع التي كانت عنده لأصدقائه، ووجد له عشرة آلاف مجلد من الكتب النفيسة والخطوط المنسوبة فتمزق الجميع في زمن يسير^{٢٩}.

أما الاسعد صاحب شرف بن هبة الله بن صاعد الفارزي، فكان أولا نصرانيا يلقب بالاسعد، ثم اسلم أيام الملك الكامل محمد بن العادل بن بكر بن أيوب وخدم عند الملك الفانز ابراهيم بن الملك العادل ونسب اليه. وترقى في الخدم حتى وصل إلى منصب ناظر الدواوين في عهد السلطان نجم الدين أيوب. غير أنه لم يستمر في منصبه إلا مدة يسيرة، ولي بعدها بعض أعمال ديار مصر. ثم فصل عن عمله وسجن مدة ولما أفرج عنه سافر إلى دمشق وعمل في خدمة الأمير جمال الدين يغمور نائب السلطنة بدمشق ثم قدم إلى مصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م في صحبة الملك المعظم

٢٦- سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٧٢٥. ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٥، ص ٢٢٠. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٤٦. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٥.

٢٧- ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٧٢٢.

٢٨- سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ق ٢، ص ٧٤٨. ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص ٧٢٤. الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٦١. العيني، عقد الجمان، حوادث وتراجم سنين ٦٤٨هـ-٦٦٤هـ/١٢٥٠-١٢٦٥م، ص ٤٣. ابو الفلاح، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٤١.

٢٩- سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ق ٢، ص ٧٤٨. ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص ٧٢٥.

مع السلطان على عزله، فقبض عليه في شوال سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م وأقام في القاهرة الى حين وفاته^{٣٦}. وكان من جملة ما صدره السلطان الناصر محمد بن قلاوون من أمواله ثمنمائة ألف الف درهم. كما ذكر للسلطان ان له في دمشق ودائع، فكتب إلى تنكز بتتبعها فحصل منها شيئاً كثيراً. وكان سبب مصادرتة اتفاقه مع ناظر الصاغة والصيرفي وسلوكهم الغش في الذهب فحملوا المثقال نحو اربعة قراريط فضة، واستمروا على هذا سنوات دون ان يكشف امرهم احداً حتى امتلات أيديهم بالذهب، فقبض على الصيرفي والناظر. وبعد ذلك صودر غبريال ونكب. وكان فيه خبث ومودة للنصارى ويقال ان بعض بناته لم يسلمن^{٣٧}.

عبدالله بن تاج الرئاسة بن الغنام صاحب أمين الدين أمين الملك، وزير الديار المصرية والشامية في ايام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهو قبطي الأصل تقلب في عدة مناصب إلى ان ولي الوزارة عدة مرات، وفي سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م اقتضى رأي السلطان تولية صاحب أمين الدين نظر الشام ونظر الخواص^{٣٨}. ونظر الاوقاف في أن واحد عوض الشمس غبريال، وانتهى أمره بالقبض عليه ومصادرة املاكه. توفي سنة (٧٤٠هـ/١٣٤٠م) وقيل في سنة (٧٤١هـ/١٣٤١م)^{٣٩}.

أما عبدالرحمن بن عبدالرزاق بن ابراهيم بن مكائس القبطي، المتوفى سنة (٧٩٤هـ/١٣٩١م). فقد تولى عدة وظائف سنية، وتولى وزارة البلاد الشامية، وتوجه إلى دمشق فأقام بها، ودخل حلب صحبة الظاهر برقوق وطارج فضلاء الشام في البلدين. وطلب من الشام ليلي الوزارة في مصر. وفي الطريق توفي. وقيل انه دس

٣٦- ابن حبيب، تذكرة النبیه، ج٢، ص ٢١٩. المقریزی، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٢٥٣.

٣٧- اليوسفي، نزهة الناظر، ص ١١٧. ابن حبيب، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٩. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنه، ج٢، ص ٣٦٧، ٣٦٨.

٣٨- نظر الخواص: ويقال لها ايضاً نظر الخاص، وهي وظيفة مهمة احدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون حين ابطال الوزارة، وموضوعها التحدث فيما هو خاص بعمال السلطان وصاحبها كالوزير في قربه من السلطان وتصرفه في تدبير جملة اموره وتعيين المباشرين وذلك بعد مراجعة السلطان. القلقشندي، صبح الاعشى، ج١١، ص من ٣١٠-٣١١.

٣٩- اليوسفي، المصدر السابق، ص ١١٦. ابن حبيب، المصدر السابق، ج٢، ص من ٢٢٢-٢٢٤. ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٢، ص من ٢٥٧-٢٥٨. المقریزی، المصدر السابق، ج٢، ق٢، ص ٣٥٨. ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩، صورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ص من ٣٢٥-٣٢٦.

له السم في الطريق^{٤٠}. ومما قاله ابن اياس عنه انه كان أعجوبة عصره ونادرة دهره لم يجيء من بني الأقباط مثله بعده^{٤١}. له ديوان شعر، وشعره في غاية الرقة والانسجام، وقد صادره الظاهر برقوق. ومن شعره:

(السريع)

قد عُمها بالحسن بل خَصَصَا
لله ما أغلى وما أرخصَا^{٤٢}

عَلَقْتُهَا معشوقة خَالُهَا
يا وصلي الغالي ويا جَسَمَهَا

ومن شعره أيضاً:

(مجزوء الرمل)

أَهْلٌ ظَلَمَ متوالي
برخيصر وبِفِغَالِي

رَبِّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمَاً
كَلْفُونْسِي بِيَعْ خِيَالِي

وله أيضاً:

(الكامل)

كي تختفي فأبى شَذَى العطر
فتناظموا في اللف والنشر^{٤٣}

زارتُ معطرة الشذا ملفوفةً
يا معشرَ الأدباءِ هذا وقتكم

ومن هؤلاء الموظفين أيضاً، فرج الله بن علم السعداء القبطي بن العسال ابن الدين، المتوفى سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م). أسلم وباشر صحابة الديوان بدمشق، ونظر ديوان تنكز^{٤٤}. وماجد بن التاج بن اسحق القبطي المتوفى سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م)، ناظر الخاص في دمشق ايام سلطنة الاشرف شعبان بن حسين^{٤٥}.

٤٠- ابن حجر، العسقلاني، الدور الكامنة، ج ٢، ص ٤٢٨. ابو الحسن، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٣١.
ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٥٥.

٤١- ابن اياس، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٥٥.

٤٢- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢٨.

٤٣- ابو الحسن، المصدر السابق، ج ١٢، ص ١٣١-١٣٢.

٤٤- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١١.

٤٥- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦١.

أما ظهير الدين أبو نصر ابن الرشيد أبي السرور السامري الدمشقي المتوفى سنة (١٢٠٨هـ/١٢٠٨م) فقد أسلم في أيام المنصور قلاوون وتنقل في الخدم الديوانية حتى ولي الجيش في دمشق ثم انقطع في داره حتى توفي، كان جميلاً متواضعاً محباً لأهل الخير مواظباً على الصلوات في المسجد الأموي^{٤٦}.

ومن الموظفين الأقباط الذين تمكنوا في المملكة، أكرم بن خطيرة القبطي كريم الدين الصغير وتسمى لما أسلم بعبد الكريم وهو ابن أخت كريم الدين الكبير^{٤٧}. ولي نظر الدولة أيام خاله وكان يريد المبالغة في الظلم والمصادرات فيمنعه خاله، ولما قبض على خاله أمره السلطان الناصر محمد على لسان النائب أن يتولى الخاص والمتجر ويدير الأمور كلها فامتنع، فحبسه ثم صودر وسجن فكان جملة ما حمل قدر أربعين ألف دينار وكان قد تمكن في المملكة حتى كان أكابر الأمراء يكرهونه لتشدده وتصلبه في الأمور، ويقال أن الناصر محمد عندما كان في الكرك قال: «إيش اعمل بمملكة يكون فيها أكرم يضرب الجندي بالدبوس»^{٤٨} أمامه... كناية على استبداده بالأمور، وبعد خلاصه من المصادرة، ولي نظر صفد ثم نظر دمشق ثم أعيد إلى مصر في أواخر سنة ٧٢٦هـ/١٢٢٥م ثم نفى إلى أسوان وتوفي هناك غرقاً. وهو أول من ضرب الضرب المبرح وكانت العامة تبغضه بسبب ظلمه، فانه كان ظلوماً غشوماً شرس الأخلاق^{٤٩}.

٤٦- المقرئزي، السلوك، ج٢، ق١، ص ٥١.

٤٧- كريم الدين الكبير: هو عبدالكريم بن المعلم هبة الله بن السيد، أسلم كهلاً في أيام السلطان بيبرس الجاشنكير. وكان كاتبه، ثم أصبح في خدمة الناصر محمد بن قلاوون فعينه ناظراً للخاص وصار أعز الناس إليه إلا أن السلطان غضب عليه وأخرجه إلى الشوبك ثم نقله إلى القدس ثم أرسل إلى سجن أسوان وقيل أن عبدالكريم شنق نفسه بعمامته، وقيل أن الناصر محمد أمر بقتله سنة ٧٢٢هـ/١٢٢٢م. وهو باني المدرسة الكريمة في القدس. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٤٢٩-٤٣٠. و ج٢، ص ١٥-١٨. ويذكر ابن حجر أنه قبض عليه سنة ٧٢٣هـ/١٢٢٣م. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٧٥-٧٦. غوامض، نيابة بيت المقدس، ص ١٥٥.

٤٨- الدبوس: أداة طويلة من خشب البلوط أو ما يشبهه، ملبساً طرفاه بالحديد وأحدى نهايته مدببة والآخرى مستديرة. زايد، رحلة دي لا بوركير، ص ٣١٩.

٤٩- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج١، ص ٤٢٨.

يوسف بن أبي البيان الاسرائيلي، المتوفى سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م). كان يهودياً يخدم في الاستيفاء^{٥٠} بصغد وخدم بدمشق عند امرائها واسلم اختياراً^{٥١}.

ومن النصاري الكركين الذين توارثوا المناصب الجليلة في الدولة، علم الدين داود بن عبدالرحمن بن الزين الشوبكي الكركي المعروف بابن الكويز، تصغير كوز، المتوفى سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م). كان والده من نصاري الشوبك اسمه جرجس ثم انتقل إلى الكرك وأسلم سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م عندما ضيق على النصاري وخصوصاً الشوابكة لاتهمهم بممالة الفرنج، اثر غزوهم الاسكندرية، وتسمى بعبد الرحمن خدم عند نائب الكرك حتى ولي كتابة السر فيها ثم تحول إلى حلب وعمل كاتباً عند نائبها. فنشأ ابنه علم الدين ترفاً صاحب حظ وسعادة واتصل بالمؤيد شيخ حسين عندما كان نائباً بطرابلس فخدمه بها ثم بدمشق ثم ولي نظر جيش حلب فباشره طيلة فترة نيابة المؤيد شيخ بها. ولما تسلطن المؤيد شيخ سنة ٨١٥-٨٢٢هـ/١٤١٢-١٤٢١م استقر في نظر الجيش بالديار المصرية ثم اختص بالظاهر ططر واستقر في كتابة السر. وعندما توفي حضر جنازته جميع الأمراء والأعيان وخلف شيئاً كثيراً من سائر الأصناف^{٥٢}. ومن حسناته انه شكا اليه أهل القدس والخليل أثناء زيارته للقدس ما اضر بهم من امر الجباية لنائب القدس وما حصل لفلاحي القدس من اجحاف شديد، وكان النائب قد جمع من تلك الجباية آلاف الدنانير. فاستأذن السلطان الظاهر في ابطال هذه المظلمة فاذن له فكتب بها مناشير وقرئت بالقدس والخليل وكثر الدعاء له بسبب ذلك^{٥٣}. فكان صاحب خير وبر معروف إلا أنه كان عارياً من العلم والفقه^{٥٤}.

يوسف جمال الدين ابن الصفي الكركي، ابوه من نصاري الكرك تظاهر بالاسلام اثر وقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، وكان كاتباً للقاضي عماد الدين المقيري في

٥٠. استيفاء الدولة: موضوعها التحدث في كل ما يتحدث به الوزير وناظر الدولة، وضبط الاموال الديوانية وكتابة الحسابات، وكل ما يجري مجرى ذلك. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١١، ص ٣٥.

٥١. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٢٥٨.

٥٢. ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ٢٥. السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢١٣. ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٨٨. البخيت، مملكة الكرك، ص ١١٩.

٥٣. السخاوي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٤.

٥٤. ابن اياس، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٨.

الكرك، وعند استدعاء الظاهر برقوق للقاضي المقيري سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م ذهب الصفي وابنه جمال الدين إلى القاهرة حيث استمرا في خدمة القاضي^{٥٥}، وفي عهد السلطان مؤيد شيخ عين جمال الدين بواسطة قريبة علم الدين داود الكركي ناظراً للجيش في طرابلس. ولما توفي علم الدين سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م) تولى جمال الدين كتابة السر في القاهرة عوضاً عنه^{٥٦}. وتوعدت صحته فلازم الفراش. وكانت أمور المملكة طيلة مدة مرضه لا تصدر إلا عن رأيه وتديره^{٥٧}، إلا أنه لم يستقر فيها طويلاً فعزل عنها، ولكن الحظ ابتسم له مرة أخرى وعين ناظراً للجيش بدمشق ما بين سنة ٨٣٢-٨٣٥هـ/١٤٢٨-١٤٣١م ومرة أخرى في سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م فأمضى بها سنتين ناظراً لجيشها وسنتين كاتباً لسرها. وفي سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، انفصل عن وظيفته وبقي عاطلاً إلى أن وافته المنية سنة (٨٥٦هـ/١٤٥٢م)^{٥٨}.

موسى بن يوسف بن الجمال بن الصفي الكركي الشوبكي الملكي. نشأ في كنف أبيه السالف الذكر واشتغل بالكتابة إلى أن ولي نظر جيش طرابلس مدة^{٥٩}. ثم صرف عنها وسار إلى أبيه في دمشق بعد أن قدم من القاهرة ثم تولى نظر جيش القاهرة، فلم تشكر سيرته في القاهرة، فأعيد لنظر جيش طرابلس بعد أن بذل أموالاً نظير ذلك واستمر فيها حتى وافته المنية سنة (٨٦٢هـ/١٤٥٧م). وقد تكهل وخلف مالا كثيراً، وعشرة أولاد تولى أكبرهم مكانه، ويقال أنه كان من قبائح الزمان وكان سيء الخلق زائد الزهو والترفع^{٦٠}.

ومن الذين تولوا كتابة السر في دمشق نجم الدين حسين بن عبدالله السامري الأصل، كان عرياً عن العلوم جملة، ومع ذلك باشر كتابة السر بدمشق سنة

٥٥- أبو المحاسن، الدليل الشافي، ج ٢، ص ٨٠٢. السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢١٨. البخيت، مملكة الكرك، ص ١٢٠.

٥٦- المقرئ، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٦٤٢. السخاوي، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢١٨. ويعلق المقرئ على توليته بعد إبن الكويز بقوله: (.....الزمان أصبح كل يوم لورا.....).

٥٧- السخاوي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٢.

٥٨- السخاوي، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢١٨ والتبر المسبوك، ص ٤٢١-٤٢٢. البخيت، المرجع السابق، ص ١٢٠.

٥٩- أبو المحاسن، الدليل الشافي، ج ٢، ص ٧٥٤. السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٩٢.

٦٠- السخاوي، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٩٢. البخيت، المرجع السابق، ص ١٢٠.

٨١٢هـ/١٤٠٩م. ثم صرف عنها وباشر عند الامراء. واستقر في نظر الجيش بدمشق سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م ثم اضيفت اليه كتابة السر مع نظر الجيش ولم يتفق مثل ذلك في مثل هذه الدول، وصرف عن كتابة السر سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م ثم أعيدت اليه واستمرت معه إلى ان توفي سنة (٨٣١هـ/١٤٢٧م)^{٦١}.

ويلاحظ ان اليهود عملوا بالترجمة، فقد أشارت المصادر أن منصب كبير الترجمة في البلاط المملوكي في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي كان معظمهم من يهود اوروبة^{٦٢}. ومنصب كبير الترجمة اشبه بمنصب وزير الخارجية في وقتنا الحالي. فهو الذي يناط اليه استقبال الرسل والسفراء والرحالة والحجاج الأوروبيين وهو الذي يقوم بصرف ما يحملون من رسائل إلى السلطان وترجمتها إلى اللغة العربية أو التركية قبل تشرفهم بالمثل أمامه حتى تتاح له فرصة دراستها. ثم هو الذي يصحبهم إلى قصر السلطان ويقوم بترجمة الحديث المتبادل بينهم نظراً لمعرفته باللغة اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى^{٦٣}.

فكان كبير الترجمة في عهد السلطان برسباي ٨٢٥-٨٤٣هـ/١٤٢١-١٤٣٩م مملوكاً من اصل يهودي قشتالي من مواليد اشبيلية يدعى (سايم) وقد جاء إلى القدس مع أبيه وهو طفل ثم بعد وفاة أبيه بيع في سوق الرقيق واصبح احد المماليك. وفي الوقت الذي كان فيه الرحالة الاشبيلي بيروطافور بالقاهرة عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م كان لا يزال يشغل هذه الوظيفة وعمره وقتذاك ما يقرب من تسعين عاماً^{٦٤}. كما كان كبير الترجمة في عهد السلطان قايتباي والسلطان قانصوه الغوري الامير تغري بردي الذي يقال انه احد اليهود الاسبان الذين ارتدوا عن اليهودية واعتنقوا الاسلام بعد ان انخرط في سلك المماليك. وقد أهلت معرفته باللغات التي يتكلم بها وهي الايطالية، والتركزية، واليونانية، والعربية، والألمانية، والفرنسية لأن يتولى هذا المنصب الكبير بالبلاط المملوكي^{٦٥}. وفي سنة ٩١٧هـ/١٥١١م قبض عليه وسجن لمكاتبته للفرنج بأحوال المملكة. واستمر في السجن حتى أطلق سراحه سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م. وكان

٦١- ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ١٥٦. المقريزي، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٦١٢.

٦٢- دراج، المماليك والفرنج، ص ٢٨.

٦٣- دراج، المرجع نفسه، ص ٢٧.

٦٤- دراج، المرجع نفسه، ص ٢٧.

٦٥- دراج، المرجع نفسه، ص ١٢٠.

يقوم مقامه يونس الترجمان وهو من اصل يهودي اوروبي من احدى مدن ايطاليا^{٦٦}.

وكان لكبير الترجمة مساعدون يتولون مهمة الترجمة والارشاد للرحالة والحجاج الأوروبيين بالاماكن المقدسة، ويأتي في مقدمة هؤلاء ترجمان القدس الذي يتولى مهمة استقبالهم في يافا والقدس واثبات شخصية كل واحد منهم في بطاقة خاصة يرسلها إلى كبير الترجمة في القاهرة ليعرضها على السلطان^{٦٧}. ومن الترجمة اليهود الذين خدموا الحجاج في الاراضي المقدسة يذكر الرحالة باوم جارتن (Bumgarten) الذي زار القدس سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م أنهم توجهوا تحت حماية اليهودي الذي كان يعمل ترجماناً لهم والعربي الذي كان يقوم بحراستهم لكي يزوروا الاماكن المقدسة وكذلك يذكر Rev Henry Farmly من أن احد اليهود الالمان الاصل صاحبه لمشاهدة مدينة الخليل وكان يعمل دليلاً لهم، وكان يحضر لهم النبيذ ويبيعه لهم^{٦٨}.

هذا وقد كان يقوم بالترجمة ايضاً بطاركة النصارى، فكانوا يقومون بترجمة الكتب الواردة إلى السلطان من الممالك الاجنبية^{٦٩}.

وقد وجد اصحاب الوظائف الكبرى من أهل الذمة معارضة من بعض العلماء والفقهاء المسلمين فيطلبون من السلاطين اقضاءهم عن تلك الوظائف^{٧٠}. وكانت المعارضة تشتد اثناء الفتى التي كانت تنشب بين الاهالي مسلمين وذميين، إلا ان هذه المعارضة كانت معارضة ظرفية، تزول بزوال اسبابها ومسبباتها، فالاسلام دعا إلى التسامح الديني وامثل الخلفاء والملوك والسلاطين المسلمين لهذا التسامح طيلة العصور الاسلامية المختلفة.

٦٦- ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٩١-٩٢. دراج، الماليك والفرنج، ص ١٤٧.

٦٧- دراج، المرجع السابق، ص ٣٧، ٣٨.

٦٨- السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٠٤.

٦٩- القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٨، ص ١٢٥.

٧٠- ابن قيم الجوزية، شرح الشروط العمرية، ص ١١٥. ابن الاخوة، معالم القرية، ص ٩٢-٩٣.

(٢)

الطب والأطباء

مهر عدد كبير من النصارى واليهود في مهنة الطب، وبرعوا في تركيب الأدوية والعلاج، حتى كادت أن تكون مهنة الطب حكرًا عليهم، فنالوا حظوة لدى الملوك والслаطين، فأنعموا عليهم الاقطاعات الواسعة والأموال الوفيرة، وعاشوا عيشة ترف ورفاه، كما خدموا في بيمارستانات الدولة وخدموا القطاع العام، كما خدموا القطاع الخاص.

وفي فترة البحث يقف الباحث أمام كوكبة من أشهر الأطباء العلماء من أهل الذمة الذين سما نجمهم في عالم الطب وذاع صيتهم داخل بلاد الشام وخارجها، ومن الأطباء الذميين الذين اشتهروا في العصر الأيوبي:

الطبيب أسعد بن الياس بن جرجس المطران موفق الدين طبيب السلطان صلاح الدين وأولاده وشيخ الأطباء بالشام، أسلم في أيام السلطان صلاح الدين وزوجه إحدى جواريه وكان موفق الدين حاد الذهن فصيح اللسان عارفاً بالعربية كثير الاشتغال بها، ماهراً بصناعة الطب والعلاج^{٧١}. وكان صلاح الدين له حسن اعتقاد في ابن المطران لا يفارقه في سفر أو إقامة وكان رفيع المنزلة عنده وعظيم الجاه، فغمره باحسانه ونال منه مالاً كثيراً. وكان الطبيب محباً للبس الفاخر من الثياب كما كان يغلب عليه الزهو بنفسه والتكبر حتى على الملوك. وكان من عادة السلطان صلاح الدين وقت حروبه أن تنصب له خيمة حمراء مع دهليزها وشقتها. وحدث أن صلاح الدين كان راكباً في يوم من الأيام لأحدى غزواته وإذا به يشاهد خيمة أخرى حمراء اللون وسأل لمن هي فأخبر بأنها لابن المطران فضحك ولم يعمل شيئاً. ومع أن الطبيب كان شديد التكبر والعجب بنفسه إلا أنه لم يكن على شيء منه في أوقات طلبه للعلم^{٧٢}.

٧١- العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص ٥٧٦. سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٤١١. ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ٦٥٨. الصقدي، الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ٤٠. عيسى، معجم الأطباء، ص ١٢٥.

٧٢- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٦٥١-٦٥٢.

صار له ذكر سام في الدولة وحصلت له أموال جمعة من أمرائها لمباشرته لهم في أمراضهم، وتنافسوا في العطاء له، وترفت حاله فكان يركب في ممالك ترك وكأنه وزير، وكان منزله في غاية الحسن والبهاء في العمارة والتجمل حتى أن أنابيب بركة بيته كانت مصنوعة من الذهب^{٧٣}.

اشتهر بالمروءة وحب الخير للناس، فكان يقضي حوائجهم عند السلطان، كما كان كريم النفس يهب تلاميذه الكتب ويحسن اليهم. وشفي على يديه كثير من الأمراض المستعصية كالجذام والاستقساء والغالج^{٧٤}. وخدم في البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين زنكي. وتوفي سنة (٥٨٧هـ/١١٨٩م) ودفن بجبل قاسيون^{٧٥}. ومما قاله عنه ابن العبري: «أنه هجر دين النصرانية وأسلم حياً للدنيا الزائلة فاقتنى أموالاً كثيرة.....»^{٧٦}. خلف وراءه أكثر من عشرة آلاف مجلدة، ومن تصانيفه كتاب «بستان الأطباء وروضة الألباء»، غرضه فيه أن يكون جامعاً لكل مليحة ونادرة وتعريفات مستحسنة مع طالعة أو سمعه من الشيوخ أو نسخه من الكتب الطبية ولم يتم هذا الكتاب. «والمقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية»، قصد فيها الإيجاز والبلاغ وقد رتبها أحسن ترتيب وجعلها باسم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف. «والمقالة النجمية في التدابير الصحية». وكأنه وضعها لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين فلما توفي ولم يوصلها جعلها باسم ولده. وكتاب «لغز في الحكمة» وكتاب «الأدوية المفردة» لم يتم، وكان قد قصد فيه أن يستوعب ذكر كل دواء على غاية ما يمكنه، وكتاب «آداب طب الملوك». وعندما توفي بيعت جميع كتبه لأنه لم يخلف ولداً^{٧٧}. إذ كانت العادة آنذاك في حالة موت الطبيب ولا يوجد له وريث. تباع كتبه في معرض عام^{٧٨}.

٧٣- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٥٢، ٦٥٣. عيسى، معجم الأطباء، ص ١٣٥-١٣٦.

٧٤- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٦٥٣.

٧٥- سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٤١١. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٦٥٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ٤٢. عيسى، المرجع السابق، ص ١٣٦.

٧٦- ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٥٣م، عدد ٤٧، ص ٤٥.

٧٧- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٦٥٨.

٧٨- Goitein, Amediterranean Society, Vol, 2. p. 248.

وكان لصلاح الدين طبيب آخر يقال له ابو الفرج النصراني، كان عالماً بصناعة الطب جيد المعرفة بها، حسن العلاج متميزاً في زمانه، خدم السلطان صلاح الدين وتردد على دوره، احتاج يوماً مالياً لتجهيز بناته بمبلغ ثلاثين الف دينار فأمر السلطان خزنداره^{٧٩} بشراء جميع ما يلزمه، مما أثار ضغينة الطبيب ابن المطران فانقطع عن السلطان مدة، ولما عرف السلطان سبب انقطاعه أمر أن يصرف له بمثل قيمة المبلغ^{٨٠}.

الطبيب يوسف بن عقنن، عرف عند العرب باسم يوسف بن اسحق السبتي المغربي اليهودي ابي الحجاج، وهو من أهل فاس، ولما ألزم اليهود والنصارى في تلك البلاد بالاسلام كتم دينه وارتحل بماله ووصل إلى مصر واجتمع بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اطباء اليهود في مصر، وخرج من مصر إلى الشام، ونزل حلب وأقام بها، وسافر عن حلب تاجراً إلى العراق ودخل الهند وعاد سالماً. وأثرى ثراءً كبيراً، ثم ترك السفر وعمل بالتجارة واشترى ملكاً، وكان فاضلاً في صناعة الطب والهندسة وعلم النجوم، وقصده الناس للاستفادة فأقرأ جماعة من المقيمين في البلاد والواردين اليها^{٨١}. وخدم في أطباء الخاص في الدولة الظاهرية بحلب وخدم الملك الظاهر غازي ابن الملك صلاح الدين، وكان ذكياً حاد الخاطر وكان بينه وبين ابن القفطي صداقة ومودة. فقال له ابن القفطي يوماً: «إن كان للنفس بقاء وتعقل به حال الموجودات من خارج بعد الموت فعاهدني على أن تأتيني إن مت قبلي وأتيتك إن مت قبلك، فقال نعم. ووصيته أن لا يغفل ومات وأقام سنين ثم رأيته في النوم وهو قاعد في عرصة مسجد من خارجه حظيرة له وعليه ثياب جدد بيض فقلت له يا حكيم ألسنت قررت معك أن تأتيني لتخبرني بما ألفت فضحك فأدار بوجهه فأمسكته بيدي وقلت لابد أن تقول لي كيف الحال بعد الموت فقال لي: الكلي لحق بالكل وبقي الجزئي في الجزء. ففهمت في حاله كأنه أشار إلى النفس الكلية عادت إلى عالم الكل والجسد الجزئي بقي في الجزء وهو المركب الأرضي فتعجبت بعد الاستيقاظ من لطيف اشارته.....». توفي سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢١م)^{٨٢}.

٧٩- الخزندار: بكسر الخاء وفتح الزاي. وهو لقب على الذي يتحدث على خزائن السلطان أو الأمير. وتعني متولي الخزانة. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٥، ص ٤٣٥.

٨٠- ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٦٦١-٦٦٢.

٨١- ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ٢٥٦-٢٥٧. ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٤٢-٢٤٣. ولفنسون، موسى بن ميمون، ص ١١-١٣. عيسى، معجم الاطباء، ص ٥٢٦-٥٢٧.

٨٢- ابن القفطي، المصدر السابق، ص ٢٥٧. ولفنسون، المرجع السابق، ص ١٣.

ولأبي الحجاج يوسف من الكتب، «رسالة في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة في تناولها» و «شرح الفصول لابن قراط»^{٨٢} وهي تشمل على شرح فلسفي لنشيد الأناشيد التي وردت في الكتاب المقدس و«رسالة في أصول الديانة» و«رسالة في أنوار الأبصار وحقائق الأسرار» و«مقالة في معرفة كمية المقادير» و«رسالة في شرح كتاب الآباء من أسفار المشناة»، كما كان بارعاً في العلوم الشرعية اليهودية وقد دون جملة كتب بالعبرية^{٨٤}.

أما الطبيب موفق الدين يعقوب بن صقلان (سقلاب) النصراني المقدسي، مولده بالقدس الشريف وبه قرأ شيئاً من الحكمة والطب على يد فيلسوف انطاكي، وأقام على مباشرة البيمارستان الصلاحي إلى أن ملكه المعظم عيسى ابن الملك العادل فاخص به. ثم انتقل إلى دمشق مع الملك المعظم، وكان يعتمد عليه في كثير من الآراء الطبية وقصد الملك المعظم أن يوليه بعض تدبير دولته فلم يقبل^{٨٥}. ومما قاله عنه ابن أبي أصيبعة: «...كان أعلم أهل زمانه بكتب جالينوس ومعرفتها والتحقيق لمعاينتها والدراية لها. فأما معالجات الحكيم يعقوب فانها كانت في غاية الجودة والنجاح وذلك أنه كان يتحقق معرفة المرض أولاً تحققاً لا مزيد عليه ثم يشمرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصريحه فيما يستعمله في الوقت الحاضر، وكان شديد البحث واستقراء الأعراض.... فكانت أبدأ معالجاته لا مزيد عليها في الجودة....»^{٨٦}. أصابه داء النقرس ووجع في المفاصل فأقعه عن الحركة، وكان إذا احتاجه الملك المعظم استدعاه بمحفة تحمل بين الرجال، وكان يكرمه غاية الكرم وعين له جامكية قيمة بالإضافة إلى الاحسان الوافر، وظل على ذلك إلى أن مات الملك المعظم سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م^{٨٧}. وبعد أن ملك الناصر داود بعده دخل إليه الحكيم يعقوب ودعا له وذكره بقديم صحبته وسالف خدمته وأنه قد وصل إلى سن الشيخوخة والهرم والضعف وأنشد الأبيات التالية:

٨٢- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٩٦.

٨٤- ولفنسون، موسى بن ميمون، ص ١٣.

٨٥- ابن القفطي، أخبار الحكماء ص ٢٤٨. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٦٩٧. ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٥٣.

٨٦- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٦٩٧.

٨٧- ابن القفطي، المصدر السابق، ص ٢٤٨. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٦٩٩. ابن العبري، المصدر السابق، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(البسيط)

أَتَيْتُكُمْ وَجَلَابِيبُ الصَّبَا قُشْبٌ^{٨٨} فكيف أرحلُ عنكم وهي أسمال^{٨٩}
لي حرمة الضيف والجار القديم أتاكم وكهول الحى أطفال

فأحسن اليه الملك الناصر احساناً كثيراً وأطلق له مالا وكسوة وأمر له ما قد كان مقررأ له من الملك المعظم وأن لا يكلف بخدمة، فبقي على ذلك حتى توفي بدمشق سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م)^{٩٠}. وكان ابنه سيد الدين ابو منصور من أفاضل الأطباء وأعيان العلماء في صناعة الطب وعملها. أخذ علم الطب على أبيه كما أخذ على غيره من العلماء أمثال الامام شمس الدين الخسروشاهي^{٩١}. وقرأ أيضاً بالكرک كثيراً من العلوم الحكيمة وخدم الحكيم سيد الدين الملك الناصر داود بن المعظم عيسى وأقام في صحبته بالكرک وكان مكيئاً عنده معتمداً عليه في صناعة الطب ثم أتى ابو منصور إلى دمشق وتوفي فيها^{٩٢}.

واشتهر في العصر الأيوبي أيضاً الطبيب عمران الاسرائيلي، وهو الحكيم أرحد الدين عمران بن صدقة، ولد بدمشق سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، وكان أبوه أيضاً طبيباً مشهوراً، واشتغل عمران بصناعة الطب وتميز بها عملاً وعلماً وحظي عند الملوك، واعتمدوا عليه في المداواة والمعالجة. ونال من جهتهم الأموال الجسيمة والنعمة ما يفوق الوصف، وكان عنده من الكتب الطبية وغيرها ما لا يكاد يوجد عند غيره، ولم يختص بأحد من الملوك. ولا تقيد معهم في سفر، ولقد رغب الملك العادل أن يستصحبه ليستخدمه في الصحبة إلا أنه رفض^{٩٣}. وعندما مرض الملك الناصر داود في الكرك استدعاه اليه من دمشق فأقام عنده مدة حتى شفي، وأعطاه مالا كثيراً وقرر له راتباً

٨٨- قشْب: جديدة. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج ١، ص ١٢١.

٨٩- أسمال: بالية، خرقة، الفيروز آبادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٧.

٩٠- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٩٩.

٩١- الامام شمس الدين الخسروشاهي: هو العالم شمس الدين عبد الحميد الخسروشاهي، نسبة الى خسروشاه قرب تبريز من بلاد ايران، تميز في العلوم الحكيمة والاصول الطبية واتفق العلوم الشرعية. اتصل بخدمة السلطان الناصر داود في الكرك، ثم توجه الى دمشق وأقام بها الى أن توفي سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م). ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٦٤٨-٦٤٩.

٩٢- ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٦٩٩.

٩٣- ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٦٩٦.

شهرياً بمبلغ الف وخمسمائة درهم ويبقى في خدمته ويسلفه منها عن سنة ونصف سبعة وعشرين الف درهم ولم يقبل^{٩٤}.

وكان السلطان الملك العادل يصله بالانعام الكثيرة والجراية الوافرة، وهو مقيم بدمشق، ويتردد إلى خدمة الدور السلطانية بالقلعة. كما اطلق له الملك المعظم جامكية وجراية تصل اليه، وكان يتردد إلى البيمارستان الكبير بدمشق، ويعالج المرضى فيه^{٩٥}. ويقول عنه ابن أبي أصيبعة: «كنت في ذلك الوقت أتدرب معه في أعمال الطب، وقد رأيت من حسن تأني الحكيم عمران في المعالجة وتحققه للأمراض ما يتعجب منه، وقد أشفى الحكيم أمراضاً كثيرة مستعصية ينس أصحابها من الشفاء لئاس الأطباء من تبرئتهم، فشفوا على يديه بأدوية غريبة...». توفي الحكيم عمران في مدينة حمص سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م)^{٩٦}.

ومن الأطباء الذين طار صيتهم أيضاً في العصر الأيوبي الطبيب صدقة بن منجا بن صدقة السامري، كان من الأكابر في صناعة الطب والمتميزين بها، وكان كثير الاشتغال بها محباً للنظر والبحث، وافر العلم جيد الفهم، وله دراية في الفلسفة، وصنف تصانيف عدة في الحكمة والطب. خدم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل، وكان يحبه ويحترمه غاية الاحترام ويفدق عليه الاموال والصلوات الكثيرة المتواصلة^{٩٧}. وإلى جانب براعته في الطب أتقن الصناعة الشعرية وأبدع فيها، ومن شعره:

(اليسيط)

سلوه لِمَ صدّني تيهاً ولمَ هَجَرَا وقد جفاني بلا ذنبٍ ولا سببٍ يا للرجال قفوا واستشرحوا خبري إن لنت ذلاً قسا عزاً عليّ وإن هذا هو الموتُ عندي كيف عندكم	وأورثَ الجفنَ بعدَ الرقدة السّهرا وقد وفيتُ بميثاقي فلمَ غَدَرَا مني فغيري لِمَ يصدّقكمُ خَبَرَا دانيتُ بآنٍ أو أنستُه نَفْسَرَا هيهاتَ أن يستوي الصادي ومن صدرا^{٩٨}
--	--

٩٤- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٩٦.

٩٥- ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٦٩٧.

٩٦- ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٦٩٧.

٩٧- ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٧١٨.

٩٨- ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٧١٨.

توفي الطبيب صدقة السامري في حرّان^{٩٩} سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) وخلف وراءه مالاً كثيراً ولم يكن له ولد. ومن تصانيفه كتاب «شرح التوراة» و«كتاب النفس» و«تعاليق في الطب» ذكر فيه الامراض وعلاماتها، و«شرح كتاب الفصول لابن قراط» ومقالة في «أسامي الادوية المفردة» ومقالة «أجاب فيها عن مسائل طبية» ومقالة في التوحيد سماها «كتاب الكنز في الفوز» و«كتاب الاعتقاد»^{١٠٠}.

ومن أطباء السامرة أيضاً الشيخ الامام العالم صاحب الوزير السابق الذكر، مذهب الدين يوسف بن أبي سعيد بن خلف السامري، أتقن الصناعة الطبية وتميّز بها، كما اشتغل بعلم الأدب وقراءته، واشتهر بحسن العلاج والمداواة. وكان في خدمة الملك الناصر صلاح الدين كما خدم بصناعة الطب لعز الدين فرخشاہ ابن شاهنشاه ابن أيوب، ثم خدم الملك الامجد بهرام شاه وأقام عنده في بعلبك ثم استوزره وهو على دين السامرة، توفي سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٦م)^{١٠١}.

كما مهر بالطب أيضاً ابن شقيقه أمين الدولة ابو الحسن ابن غزال ابن أبي سعيد الذي أسلم وتلقب بكمال الدين، ويقول عنه ابن أبي اصيبعة: «انه بلغ من الصناعة الطبية غاياتها، وانتهى إلى نهاياتها وأتقن معرفة أصولها وفصولها...»^{١٠٢}. خدم أولاً الملك الامجد مجد الدين عز الدين فرخشاہ واعتمد عليه في الصناعة الطبية وأعمالها، مفوضاً اليه أمور دولته وأحوالها، ولم يزل عنده إلى أن توفي الملك الامجد (سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، ثم خدم عند الملك الصالح اسماعيل ووزر له في بعلبك وفي دمشق إلى ان ملك دمشق الملك الصالح نجم الدين أيوب وقبض نائبه عليه وأرسله إلى القاهرة وتوفي في سجنه سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)^{١٠٣}.

٩٩- حرّان: بتشديد الراء وهي مدينة مشهورة، وهي قصبة ديار مُضر وهي على طريق الموصل والشام والروم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٣٥.

١٠٠- ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٢٠.

١٠١- ابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٧٢١. الصفي، الواقعي بالوفيات، ج١٢، ص ١٠٤.

١٠٢- ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص ٧٢٣.

١٠٣- سبط بن الجوزي، مراة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٧٤٨. ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص ٧٢٤.

الذهبي، العبر، ج٢، ص ٢٦١. العيني، عقد الجمان، حوادث سنين وتراجم ٦٤٨-٦٦٤هـ/ ١٢٥٠

-١٢٦٥م، ص ٤٣. ابو الفلاح، شذرات الذهب، ج٥، ص ٢٤١.

الطبيب رشيد الدين ابو الوحش بن أبي الخير بن أبي سليمان داود المعروف بأبي حليقة، كان أوحده زمانه في صناعة الطب والعلوم الحكيمة، متفناً في العلوم والآداب، حسن المعالجة، لطيف المداواة، رؤوفاً بالمرضى، محباً لفعل الخير، مواظباً للأمور الشرعية التي هو عليها. ومما قاله عنه ابن أبي أصيبعة: «...اجتمعت به مرات ورأيت من حسن معالجته وعشرته، وكمال مروءته ما يفوق الوصف...»^{١٠٤}.

وهو من نصارى قلعة جعبر^{١٠٥} ولد فيها سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م ونشأ في الرها وبعدها انتقل إلى دمشق ومنها إلى القاهرة اتصل بالملك الكامل فخدمه، ثم خدم ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم ابنه الملك المعظم تورانشاه. وعندما انتقل الحكم إلى دولة المماليك خدم الملك الظاهر بيبرس وبقي في خدمته على عادته المستمرة، وله من الاحترام التام وجزيل الانعام والاكرام. توفي سنة (٦٦٠هـ/١٢٦٢م)^{١٠٦}.

صنف رشيد الدين عدة كتب في صناعة الطب أهمها: «المختار في الالف عقار» وهو يبحث في الأدوية المفردة، وله «كتاب في الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة التي قد أظهرت التجربة نجاحها»^{١٠٧}. وله أخبار ونوادر وشعر حسن، ومن شعره:

(الكامل)

سمح الحبيبُ بوصلة في ليلة	غفل الرقيبُ ونام عن جنابها
في روضة لولا الزوال لشابهت	جنات عدن في جميع صفاتها
فالطير يطرب في الغصون بصوته	والراح تجلى في كؤوس سقاتها

أما لقبه بأبي حليقة، فإن أمه كانت قد وضعت بأذنه حلقة لنذر نذرت له لأنه لم يكن يعيش لها أولاد^{١٠٨}.

ومن أشهر اطباء أهل الذمة في العصر المملوكي: موفق الدين يعقوب السامري الحكيم أبو يوسف يعقوب بن غنائم، ولد في دمشق، ودرس العلوم الحكيمة وصار له

١٠٤- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٥٩٠.

١٠٥- جعبر: بالفتح ثم السكون. قلعة على الفرات بين بالس والرقعة قرب صلين. ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٢، ص ١٤١، ١٤٢.

١٠٦- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٥٩١.

١٠٧- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٥٩٧.

١٠٨- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٥٩٦.

باع في الحكمة والصناعة الطبية، فأتقن الطب علماً وعملاً، اشتغل على يده الكثير من الأطباء، وانتفع بعلمه عدد كبير من طلاب الطب، وكان له سمعة حسنة عند أعيان الدولة. توفي في دمشق (سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م). ولموفق الدين السامري من الكتب «شرح الكليات» من كتاب القوانين لابن سينا، وكتاب «المدخل إلى علم المنطق والطبيعي والالهي»^{١٠٩}.

أما أبو الفرج يعقوب بن الشيخ موفق الدين اسحق بن القف، وهو من نصارى الكرك، ولد سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م. نشأ في الكرك، وتركها يافعاً متوجهاً إلى صرخد (صلخد)^{١١٠} لدراسة الطب على يد موفق الدين ابن أبي أصيبعة، فقرأ حفظاً مسائل حنين والفصول ومقدمة المعرفة لابن قراط، وقرأ عليه في العلاج من كتب أبي بكر الرازي، ما عرف به أقسام الأسقام وعلاجها، وقد أظهر أبو الفرج نجابة من صغره، واخذ العلم في دمشق على فحول حكمائها وأطبائها أمثال الشيخ عبدالحميد الخسروشاهي، كما قرأ كتاب اقليدس على مؤيد الدين العرضي، وقرأ أيضاً في صناعة الطب على الحكيم نجم الدين بن المنفاخ وموفق الدين يعقوب السامري. ولما استكمل تحصيله في العلوم الطبية خدم في قلعة عجلون^{١١١} وقضى فيها مدة من الزمن يمارس الطب، ومنها عاد إلى دمشق يزاوِل مهنة الطب والتأليف^{١١٢}. وتنسب إليه مؤلفات عديدة منها: «كتاب الشافي في الطب» في أربعة مجلدات، و«شرح الفصول لابن قراط» في مجلدين كما صنف «مقالة في حفظ الصحة» و«حواشي على ثالث القانون» و«شرح الاشارات» لم تتم، و«المباحث المغربية»^{١١٣} لم تتم وكتاب

١٠٩- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٦٧.

١١٠- صرخد: بالفتح ثم السكون بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. وهي قلعة حصينة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٠١.

١١١- عجلون: بفتح العين المهملة وسكون الجيم وضم اللام وواو ونون في الآخر. مدينة من الأردن فيها حصن حصين مزودة بالمياه الجارية وتزرع فيها فواكه كثيرة. الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٠٠.

١١٢- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٧٦٧. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص ٢٠٧ وإمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٤٩. والحياة العلمية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي، د. م. د. ن، ١٩٨٤م. ص ٦٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، غوانمه، الحياة العلمية والثقافية، البخيت، مملكة الكرك، ص ١١٣.

١١٣- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٢٠٧. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص ٢٠٧. والحياة العلمية والثقافية، ص ٦٠. البخيت، مملكة الكرك، ص ١١٤.

«جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض» في مجلد واحد. يقول في مطلع كتابه هذا بأنه، «كتاب قل حجمه، وجل علمه، واستقرت قواعده وعمت فوائده...»^{١١٤}. ويقع الكتاب في ستين فصلاً أوردتها في تسلسل منطقي وأسلوب جميل يبحث في مواضيع مختلفة يبدءها في كيفية تكوين الجنين وحفظ صحة الأم وطفلها، وحفظ الصحة في سن الشباب والشيوخ، والرياضة والاستحمام، ويذكر أنواع الفواكه والحبوب واللحوم والأشربة وفوائدها ويختتمه بذكر أنواع الرياحين وأوصافها ومنافعها^{١١٥}. ثم كتاب «العمدة في صناعة الجراح أو (الجراحة)»، ويتضمن عشرين مقالة، وهو كتاب علم وعمل يذكر فيه تشريح الأعضاء والأورام وأنواعها، والكسور والجروح، وجميع ما يحتاجه الجراح. وفي مقدمة الكتاب يقول: «..... وبعد فقد شكنا الي بعض جراحيه زماننا قلة إهتمام أرباب هذا الفن بأمر هذه الصناعة، وأن واحداً منهم لم يعرف سوى تركيب بعض المراهم، وإضافة مفرداتها بعضها إلى بعض وأنه لو سأل سائل ما هذا المرض الذي تعالجه وما سببه، ولم تدأويه بهذه المداواة، وما قوة كل واحد من مفرداتها، وما الفائدة من تركيب هذه المفردات، ولم لا تستعمل هي بمفردها، لم يكن عنده ما يجيبه من ذلك سوى أنه يقول: رأيت معلمي وهو يستعملها في مثل هذه الصورة فاستعملتها. وهذا خطأ زائد فلا بد للمعالج من معرفة ما يعالجه...»^{١١٦}.

توفي ابن القف في دمشق سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م). فبكاه طلابه وتلاميذه وافتقدوا حكيمهم أوجد زمانه رثاه سيف الدين أبو بكر بأبيات نذكر منها:

(البسيط)

يا مائماً قد أتى بالويل والحرب	رمى ركن الحجي والمجد بالعطب
أيتمت طلاب علم الطب قاطبة	وعوضوا عنك بالأحفال في العتب
حق علينا أن نقدبك أنفسنا	لو كان ذاك لبادرناك في الطلب
أبعد درسك يا ابن القف ينفعنا	أقوال قوم عن التحقيق في حجب ^{١١٧}

١١٤- ابن القف، أبو الفرج يعقوب بن موفق الدين إسحق بن القف، (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض، تحقيق سامي خلف حمارته، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٨٩م، ص ٩٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن القف، جامع الغرض.

١١٥- ابن القف، المصدر نفسه، ص ٧٦-٩٠.

١١٦- ابن القف، العمدة في الجراحة، ج ١، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط ٢، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م، ص ٢. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن القف، العمدة في الجراحة، غوانمه، التاريخ الحضاري، ص ٢٠٨ والحياة العلمية والثقافية، ص ٦٠، البخيت، مملكة الكرك، ص ١١٣.

١١٧- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٦٧، أبو المحاسن، الدليل الشافي، ج ٢، ص ٧٨٩، ٧٩٠، غوانمه، الحياة العلمية والثقافية، ص ٦٠.

أما الطبيب ابراهيم بن ابي الوحش بن أبي حليقة علم الدين ابن الرشيد، كان رئيس الأطباء بمصر والشام، فبلغ في دينه أنه عين للبطريكية فلم يوافق ودخل في الاسلام، واستقر رئيس الأطباء، وهو أول من عمل الشراب الطري، وعالج الظاهر بيبرس فعوفي فوهب له الامراء شيئاً خارجاً عن الحد فاستكثره السلطان فأعطاه جزءاً منه، ويقال أن تركته بلغت ثلثمائة ألف دينار، توفي سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)^{١١٨}.

ومن الأطباء الذين اختصوا بخدمة السلطان محمد بن قلاوون الطبيب علم الدين توما بن ابراهيم الشوبكي، كان عارفاً بعلوم الطب، متمكناً في خدمته، له عدة مصنفات في الطب منها: «اختصار مسائل جنين»، اختص به السلطان الناصر محمد بن قلاوون، واصبح من أطبائه المقربين، توفي في القاهرة سنة (٧٢٤هـ/١٣٧٠م)^{١١٩}.

أما الطبيب عبدالسيد ابن اسحق بن يحيى الاسرائيلي الحكيم الفاضل بهاء الدين ابن المذهب، كان ديان اليهود، وكان يحب المسلمين ويحضر مجالس الحديث ثم هداه الله وأسلم وقرأ القرآن، وكان ماهراً في صناعة الطب والكحل (جراحة العين) وكان اسلامه سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م وخضر هو وأولاده إلى دار العدل معلنين إسلامهم فأكرموا اكراماً زائداً لأنهم أسلموا طائعين، وعمل في تلك الليلة في داره قراءة للفتحة ووليمة عظيمة حضرها القضاة والعلماء، وأسلم على يده جماعة من اليهود من أقاربه وخرجوا يوم عيد الأضحى يكبرون مع المسلمين وخرج الناس فرحين بهم. توفي في سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م) ودفن بسفح جبل قاسيون^{١٢٠}.

أسيدة الحكيم اليهودي، كان ذكياً للغاية، وخير ما يعرفه "الإلهي" و"الطبيعي" وحرفته التي يتكسب بها الجراحة مع مشاركة الطب والكحل وغير ذلك. ولم ير اقدر منه على عمل الجراحة في جبر ما يكسر من العظم، بأشر العمليات الجراحية للامراء الكبار. وشهد عليه بصفت بأنه أسلم ثم تهوّد وكان الشيخ نجم الدين الصفدي يحبه وإذا جاء إلى صفد يقيم عنده، فقال له مرة: يا حكيم، المصلحة أن تتقدم بحفظ الصحة، يعني أن يسلم. فنفر فيه وقال له: «إعمل أنت خطابتك ودع عنك هذا». ووضع في حبس القلعة وأقام مدة ولم ينكسر ولم يخضع لأحد قط. وكان شديد المعرفة

١١٨- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٧٧. عيسى، معجم الأطباء، ص ٥٣.

١١٩- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٣. غوانمه، التاريخ الحضاري، ص ٢٠٩. والحياة الثقافية والعلمية، ص ٦١. عيسى، المرجع السابق، ص ١٥٥.

١٢٠- الذهبي، ذيل العبر، ج ٤، ص ٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٧٧. باشا، الادب في بلاد الشام، ص ٨٦. عيسى، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

بالغراسة، توفي بعد سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)^{١٢١}.

سليمان بن داود أمين الدين أبو الربيع رئيس الأطباء بالشام، كان من أبناء النصارى وكان منقطع القرين معدوم النظر، شارك في الحكمة وبرز في علم الطب، وصار عالماً فيه وتقدم به عن جدارة ومعرفة واقتصرت على طبه كبار رجالات الدولة، ومالت اليه العلماء. اعتنق الاسلام، إلا أنه عزل عن رئاسة الطب بأمر من نائب السلطنة الأمير تنكز بسبب الوشاة وبسبب ما كرهه منه من قوة النفس وكثرة الجرأة والإقدام. عالج نائب طرابلس فحصل منه على عشرين الف درهم، توفي في دمشق سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)^{١٢٢}.

محمد بن عبدالله الصفدي أمين الدولة. كان من مسلمة السامرة، وسكن دمشق وكان عالماً بالطب مستحضراً لكثير من الأدوية، إلا أنه لم يكن ماهراً بالمعالجة فكان إذا شخص له احد المرض يأخذ نفس اقواله، وكان بارعاً في الخط، توفي في مصر سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م)^{١٢٣}.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يرد ذكر لأسماء بيمارستانات تخص أهل الذمة بالرغم من كثرة ذكر أسماء الأطباء الذميين^{١٢٤}. بل تشير المصادر إلى أنهم كانوا يقومون بمعالجة أبناء طوائفهم داخل الدير والكنائس^{١٢٥}، فكانت كنيسة مريم التابعة لكنيسة القيامة في القدس تحتوي على أكثر من ثلاثة الاف سرير للمرضى^{١٢٦}.

١٢١- الصفدي، الرافي بالوفيات، ج٩، ص ٩-١٠.

١٢٢- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص ٢٤٦. عيسى، معجم الأطباء، ص ٢٠٧-٢٠٨.

١٢٣- ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٧، ص ٩٣. عيسى المرجع السابق، ص ٤٠٣.

١٢٤- Goitein, Amediterranean Society, Vol, 2, p. 133.

١٢٥- ابن جبير، الرحلة، ص ٢٠٣.

١٢٦- Wilkinson, Jerusalem Pilgrims, p. 84.

الفصل السابع

العلاقات الأيوبية المملوكية مع بعض الدول النصارانية وأثرها على أهل الامة في بلاد الشام

- ١- العلاقات مع بلاد الحبشة
- ٢- العلاقات مع الدولة البيزنطية
- ٣- العلاقات مع الصليبيين

العلاقات الأيوبية المملوكية مع بعض الدول النصرانية وأثرها على أهل الذمة داخل بلاد الشام

تأثرت أحوال أهل الذمة في بلاد الشام بأحداث السياسة الخارجية، فكان لعلاقات الدولتين الأيوبية والمملوكية ببعض الدول الخارجية النصرانية أثر سلبي أو إيجابي على رعاياها من أهل الذمة داخل البلاد.

وكانت سياسة الدولة واضحة وشديدة فيما يتعلق بمحاولة اتصال بعضهم بتلك القوى أو التعاون معهم دون علم الدولة، فقد جاء في وصية بطريك المملوكية ما يلي: «.... إياه ثم إياه أن يُؤْزِي إليها (الكنائس) من الغرباء القادمين عليه من يريب أو يكتم عن الانهاء إلينا مشكل أمر ورد عليه من بعيد أو قريب، ثم الحذر الحذر من اخفاء كتاب يرد عليه من أحد الملوك، ثم الحذر الحذر من الكتابة إليهم أو المشي على مثل هذا السلوك، وليجتنب البحر وإياه من اقتحامه فإنه يفرق....»^١. كما جاء في وصية بطريك البعاقة بخصوص هذا الشأن «.... وليتجنب البحر... وليتوق ما يأتيه سراً من تلقاء الحبشة....»^٢.

أما اليهود فلم يكن هناك قوى خارجية تتدخل لصالحهم، إذ يقول القلقشندي فيما يتعلق بذلك «.... واعلم انه لم يكن ملك من ملوك الكفر ممن يكتب له عن الأبواب السلطانية غير النصارى لأنه لم يكن لغيرهم من أهل الملل بالقرب من هذه المملكة مملكة قائمة. بل اليهود ليس لهم مملكة قائمة في قطر من الأقطار بعد غلبة الإسلام، إنما يؤدون الجزية حيث حلّوا....»^٣. ولكن ذلك لم يمنع تأثرهم بأحداث السياسة الخارجية للدولة.

١- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٥. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١١، ص ٢٨٩.

٢- العمري، المصدر السابق، ص ١٤٨. القلقشندي، المصدر السابق، ج ١١، ص ١٠٠، ٣٩٩.

٣- القلقشندي، المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٨.

(١)

العلاقات مع الحبشة

ينتمي الأحباش كلهم إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية (اليعاقبة)، ويمكننا القول بأن الكنيسة الحبشية بنت الكنيسة القبطية التي مركزها مدينة الاسكندرية^٤. وكان ملوك الحبشة يعظمون بطريرك القبط ويشيرون اليه بالتعظيم، وينفذون ما يأمرهم به ولا مندوحة لهم عن حكمه، وهو يولي عليهم مطراناً بعد مطران^٥، ويتم تعيين المطران بعد أن يُصدر السلطان المصري مرسوماً إلى البطريرك بذلك. ويقوم المطران المعين مقام البطريرك في الأمر والنهي فيهم، وانقيادهم أجمعين إلى طاعته من غير مخالفة له^٦. ولا تصح ولاية ملك الحبشة إلا بتوليته، فكان على حد قول القلقشندي «كالخليفة على دين النصرانية عندهم»^٧.

وكان للأحباش جالية كبيرة في بيت المقدس^٨، وينصّب رئيس ديرهم في القدس من لدن بطريرك الأقباط في مصر. ومن هنا نشأ النفوذ القبطي وتأثيره على الكنيسة الحبشية بالقدس، وقد شجعت السلطات المصرية على الدوام بقاء السيطرة القبطية على الكنيسة الحبشية^٩. وكان ملوك الحبشة يهادون السلطان المصري

٤- العارف، المسيحية في القدس، ص ١٢٧.

٥- العمري، التمرّيف بالمصطلح الشريف، ص ٢٠.

٦- العمري، المصدر نفسه، ص ٣٠، ٣١. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٨، ص ١٢٢.

٧- القلقشندي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩٥.

٨- عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، ج ١، عمان، مطابع الجمعية العلمية الملكية، ١٩٨٣م، ص ١١٩، وسيشار له فيما بعد هكذا، عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس.

٩- دير الحبش، ملاصق لكنيسة القيامة، فوق مقبرة الصليب، ولم ينقطع الخلاف حول ذلك الدير بين الأقباط والأحباش. العارف، الفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ٥٢٤.

١٠- العارف، المسيحية في القدس، ص ١٢٧.

ويراسلونه ليتمكن الأحباش من زيارة كنيسة القيامة وبقيّة مزاراتهم في فلسطين^{١١}. وبقيام كل حكم جديد يبادر ملك الحبشة اتصالاته مع الملك أو السلطان المعين، فعند انتقال السلطة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي يذكر المقرئ في حوادث سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، أنه وصل رسول ممتلك الحبشة بهدية وكتاب إلى السلطان، «فقرئ» كتابه واخذت هديته^{١٢}. وقد حرص صلاح الدين على إبقاء العلاقات الودية بينه وبين ملوك الحبشة وعمل على تدعيمها، فعندما فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. ردّ إلى الأحباش أماكنهم التي اغتصبها منهم الصليبيون وأبدى كثيراً من التعاطف إزاء الرهبان الأحباش وديرهم بالقدس^{١٣}. كما شمل الحجاج منهم برعايته وأمر باعفانهم من الضرائب عند زيارتهم للأماكن النصرانية المقدسة في بيت المقدس، ووفر لهم كل رعاية لأنهم كانوا من جيرانه^{١٤}. وقد تمسك الأحباش بهذا الحق منذ عهد صلاح الدين وطوال العصر الأيوبي، وطالبوا خلفاءه من السلاطين باعفانهم من أية رسوم لدى ترددهم على الأماكن المقدسة في فلسطين، كما دأب ملوك الحبشة على إرسال الأموال والهدايا إلى دير الأحباش بالقدس طالبين من رهبانه الدعاء والبركة^{١٥}.

وفي سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م أرسل ملك الحبشة مبعوثاً يحمل هدية للسلطان الملك العادل وكتاباً يطلب فيه أن يتقدم للبطريرك المصري برسامة مطران جديد للحبشة لوفاء المطران الذي عندهم^{١٦}. فاختر البطريرك يوحنا السادس مطراناً للحبشة، غير أن هذا المطران عاد إلى مصر بعد أربع سنوات هرباً من الأحباش الذين أرادوا قتله لأنه أساء السيرة في الحبشة^{١٧}. فأرسل ملك الحبشة آنذاك المسمى (لاليليا بن شنوده) رسولاً آخر إلى السلطان الملك العادل وصل مصر سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م ومعه هدايا جلييلة من جملتها فيل وسبع زرافات، وعمار وحشي، وتاج مرصع بالذهب، وكتاب يلتبس منه ترسيم مطران جديد بدل المطران المعزول. ولما كان السلطان العادل

١١- العمري، مسالك الأبيصار، ج ١، باب ٦، ص ٧٦.

١٢- المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٨.

١٣- القوصي، عطية، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م، ص ٨١. وسيشار له فيما بعد هكذا، القوصي، تاريخ دولة الكنوز. عاشور، بعض أسماء جديدة على مدينة القدس، ص ١١٩.

١٤- خوري، تاريخ كنيسة اورشليم، ص ٨٠. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٣١٢.

١٥- عاشور، المرجع السابق، ص ص ١١٩-١٢٠.

١٦- البغدادي، التيسير والاعتبار، ص ٨٠.

١٧- شافعي، المرجع السابق، ص ٣١٢. نقلاً عن ساويرس ابن المقفع (اسقف الأشمونين). تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية. تحقيق عزيز سوريال عطية وآخرون، القاهرة ١٩٤٨م.

بالشام، فقد أمر إبنه الكامل بسرعة ترسيم مطران للحبشة والّا يعوق الرسل وأن يرسل معهم المطران الجديد^{١٨}.

وفي سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م نشأت فكرة تحالف اوروبي حبشي، وكان ذلك بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة على دمياط سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م. إذ أرسل (جاك دي فترى) أسقف عكا، الى ملك الحبشة يدعو إلى الانضمام لهذا الحلف من أجل إنقاذ الأماكن المسيحية المقدسة من يد المسلمين والاتفاق معه على حملة صليبية مزدوجة ضد مصر من الشمال والجنوب في وقت واحد. إلا أن هذا المشروع لم يقدر له أن يتم في عهد الأيوبيين ولا في عهد المماليك من بعدهم بسبب صعوبة تنفيذه^{١٩}. وإن ظهور هذه الفكرة دفع الأيوبيين إلى الحرص على قيام العلاقات الطيبة مع الحبشة للحيلولة دون تنفيذ المشروع الصليبي، واقتضت هذه السياسة منهم على الاستمرار في معاملة الحجاج النصاري وخاصة النوبيين والأحباش منهم معاملة طيبة. حيث كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة أثناء قيامهم باداء فريضة الحج بالأراضي المقدسة. ومن ثم لم يقع ما يعكر صفو العلاقات بين مصر وبلاد الحبشة طيلة العصر الأيوبي^{٢٠}.

وقد حرص ملوك الحبشة في العصر المملوكي عن توطيد الصداقة بينهم وبين سلاطين المماليك، لذا نرى (يكونو أملاك) أول ملوك الأسرة السلیمانية ٦٦٩-٦٨٤/١٢٧٠-١٢٨٥م يرسل للسلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م عن طريق صاحب اليمن يطلب منه أن يأذن للبطريرك المصري في تعيين مطران للحبشة، كما نراه يمعن في اذلال نفسه في مخاطبته للسلطان بقوله: «...أقل المماليك يقبل الأرض وينهي بين يدي السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطرانا يكون رجلاً جيداً...» ثم تعضي الرسالة وتشير من طرف خفي إلى معنى التهديد حيث يقول «...وعندي في عسكري مائة ألف من المسلمين وأما النصاري فكثير لا يحصون

١٨- شافعي، اهل الذمة في مصر، ص ٣١٤. نقلاً عن المصدر نفسه.

١٩- القوصي، تاريخ دولة الكنوز، ص ٨١.

لا شك أن فكرة التحالف مع الأحباش راودت الأوروبيين منذ قرون عديدة، ففي العصر البيزنطي، حاول البيزنطيون السيطرة على التجارة الموصلة الى المحيط الهندي وبسط نفوذهم السياسي على بلاد العرب واليمن والحجاز عن طريق حلفائهم الأحباش، فاحتلت الحبشة اليمن سنة ٥٢٥م، وأكتمل الصراع عندما قام أبرهة الحبشي بغزو مكة عام الفيل ولكن جيشه أصيب بكارثة. غوانمة، امارة الكرك الأيوبية، ص ١٢٧.

٢٠- القوصي، المرجع السابق، ص ٨٢.

والكل غلمانك وتحت أمرك.....^{٢١}. ويذكر المقرئ أن السلطان أجابه إلى طلبه^{٢٢}. إلا أن بعض المصادر تشير إلى مفاوضات جرت بهذا الصدد وكان رد السلطان الظاهر بيبرس أن رفض تعيين المطران، محتجاً بعدم وصول رسول خاص من قبل ملك الحبشة^{٢٣}. ومما جاء في اجابة السلطان بيبرس «.... فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك حتى كنا نعرف الغرض المطلوب... وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين، فإله تعالى يكثّر في عساكر الاسلام...»^{٢٤}. ولعل السبب الحقيقي راجع إلى أن السلطان الظاهر كان قد أرسل سفارة إلى الحبشة للإطمئنان عن أحوال المسلمين هناك، ولكن الرسل تأخروا، فاعتذر له ملك الحبشة بسبب تأخر الرسل في رسالته^{٢٥}.

وفي عهد (يجباً صهيون) والملقب (سلمون بن سليمان) ٦٨٤-٦٩٤هـ/ ١٢٨٥-١٢٩٤م أعاد الكرة في طلب مطران مصري للحبشة فأرسل سفارة إلى السلطان منصور قلاوون سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م أوضح فيها أنه لن يسير على سياسة أبيه وأنه يؤد السلام، وأرسل مع الرسول مائة شمعة للوقود في الهياكل، وسأل في انفاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين في القدس الشريف ويوصي عليهم بالايمنعوا من دخول الهياكل ويسأل في انفاذ مطران لاصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصراني والمسلمون وقد استجاب السلطان لذلك حيث زود رسول ملك الحبشة بمرسوم سمح بمقتضاه لجميع النصراني بالدخول إلى كنيسة القيامة^{٢٦}.

٢١- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٨، ص ١٢٣. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦١٥، السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٩٠.

٢٢- المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦١٥.

٢٣- الذهبي، تاريخ الاسلام، (مخطوط)، ج ٢١، ورقة ١٢ أ. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٣. طرخان، ابراهيم علي، «الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية، مصر، ١٩٥٩م، مج ٨، ص ٤٦، وسيشار له فيما بعد هكذا، طرخان، الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة.

٢٤- القلقشندي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٣.

٢٥- القلقشندي، المصدر السابق، ج ٨، ص ١٢٤.

٢٦- ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦١م ص ١٧٠. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٩١. عاشور، بعض اضواء جديدة على مدينة القدس، ص ١١٩. طرخان، المرجع السابق، ص ٤٩.

وفي عهد (عمد صهيون) ٧١٢-٧٤٣هـ/١٣١٢-١٣٤٢م الذي خلف أباه يجهاً صهيون، توترت العلاقات بين سلطنة المماليك والحبشة، نظراً لقيام ملك الحبشة بشن كثير من الحروب ضد مسلمي الحبشة. وكان يعاصره في تلك الفترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقد تسلم السلطان منه سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م احتجاجاً شديد اللهجة كان يتضمن على حد قول المقرئزي «إعادة ما خرب من كنائس النصارى، ومعاملتهم بالإكرام والإحترام. ويهدد بأن يخرب ما عنده من مساجد للمسلمين، ويسد النيل حتى لا يصير إلى مصر، فسخر السلطان منه وردّ رسله...»^{٢٧}. كذلك طلب السلطان من بطريك الاسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة بخصوص أعماله الحربية ضد الامارات الاسلامية هناك. كما وصلت سفارة من مسلمي الحبشة برئاسة عبدالله الزيلعي^{٢٨} تطلب تدخل السلطان في الأمر لحماية مصالح المسلمين في الحبشة^{٢٩}.

وتشير بعض المصادر إلى أنه عندما كانت تسوء العلاقة بين الحبشة وسلطنة المماليك في مصر فإن ذلك كان يؤثر على وضع النصارى عامة والأقباش خاصة في البلاد، ففي سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م أحضر بطرك النصارى إلى مجلس السلطان مؤيد شيخ ٨١٤-٨٢٤هـ/١٤١١-١٤٢١م بعد أن جمع القضاة والمشايخ فسأله عما يقع في الحبشة من إهانة للمسلمين فانكر ذلك. واستقر الحال بأن لا يباشر أحد من النصارى في دواوين السلطان ولا الأمراء ولا غيرهم وتصغير عماثمهم وتضييق اكمامهم، ومنعوا من ركوب الحمير، والزم النصارى ألا يدخلوا الحمامات إلّا وفي اعناقهم الجلاجل، فاشتد الأمر عليهم، وأظهروا الاسلام^{٣٠}. وفي سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م ورد على السلطان الأشرف برسباي أن ملك الحبشة اسحق الأول ٨١٧-٨٣٣هـ/١٤١٤-١٤٢٩م غضب بسبب اغلاق كنيسة القيامة بالقدس. وقتل عامة من كان ببلاده من رجال

٢٧- المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٧٠. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٩١. طرخان، الاسلام والممالك الاسلامية في الحبشة، ص ٥٢.

داوم ملوك الحبشة على تهديد سلاطين مصر بقطع مياه نهر النيل عنهم. إلّا أن المماليك أدركوا أنه لا صحة لتحكم، الأقباش بنهر النيل لأن الزيادة والنقصان فيه يعتمدان على ما يستمدّه من الأنهار والعيون وكثرة الأمطار وركود السحاب. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٥، ص ٣٠٩. و ج ٣، ص ٣١٩.

٢٨- الزيلعي: نسبة إلى بلاد زيلع في الحبشة. سكانها مسلمون. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٥، ص ٣١٠.

٢٩- القلقشندي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣١٧. دراج، المماليك والفرنج، ص ١١، ١٢. السيد، المرجع السابق، ص ٩١.

٣٠- ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٧، ص ٣٥١.

المسلمين فاستشباط السلطان غضباً وأراد قتل بطرك النصارى وجميع من في مملكته من النصارى لكنه رجع عن ذلك.^{٢١}

وبعد فشل حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م في عهد السلطان الأشرف شعبان، ومن ثم استيلاء المماليك على جزيرة قبرص زمن السلطان برسباي سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م.^{٢٢} حاول ملك الحبشة اسحق الأول الكتابة إلى ملوك الفرنج في أوروبا سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م يعرض عليهم الاتفاق معهم على شن حملة مشتركة تسير فيها عساكر الحبشة من الجنوب وتسير عساكر الفرنجة في سواحل الشام ومصر في وقت واحد. إلا أن السلطات المملوكية كشفت المؤامرة وألقت القبض على حامل الرسالة وأعدمته وهو تاجر توريزي من بلاد فارس.^{٢٣}

ولعل هذه الاتصالات بين ملوك الحبشة وملوك الغرب هي التي جعلت سلاطين المماليك في مصر يحتاطون لأنفسهم ويراقبون البحر الأحمر مراقبة دقيقة ولا يسمحون للأوروبيين باجتيازه إلا بتصريح من السلطان.^{٢٤} ولعلمهم راقبوا طائفة الأحباش المقيمين في القدس مراقبة دقيقة. إذ على الرغم من أن السلطات المملوكية كانت تعمل على منع الاتصال بين ملوك الحبشة والفرنج. فإن الفرنج كانوا على علم تام بتطور العلاقات بين المماليك والحبشة وذلك عن طريق الاتصال بين الرهبان الأحباش والرهبان الفرنسيين في القدس أو عن طريق حجاجهم وتجارهم، وكان الفرنج يتحينون الفرصة التي تتوتر فيها العلاقات بين الطرفين ليحققوا مآربهم.^{٢٥} ونتيجة لما مارسته السلطات المملوكية من ضغط على النصارى والرهبان الأحباش في البلاد وصل إلى القاهرة في ١٩ جمادى الأولى ٨٤١هـ/ ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٤٣٧م رسول ملك الحبشة زرع يعقوب يرجو السلطان برسباي إلى إعادة العلاقات

٢١- أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٦. العارف، المسيحية في القدس، ص ١٤٠.

٢٢- صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢-٢٤٥. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٢-١٣٣. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٩٦.

٢٣- أبو المحاسن، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٢٥. ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٣، ص ١٤٩، ١٥٠. السخاوي، الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٨. ومن الجدير بالذكر أن السخاوي يبره حامل الرسالة ويقول عنه: «انه قتل بسبب ما أشيع عنه وضربت عنقه وهو يعلن الشهادتين».

٢٤- السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٩١.

٢٥- دراج، المماليك والفرنج، ص ٤٩، ٥٠.

الطبيبة بين البلدين ويوصي بالنصارى وكنائسهم كما يطلب إرسال مطران اليهم خلفاً للمطران الذي توفي. وقد أجابه السلطان على طلبه وعاد الرسول وبصحبه مطران جديد ورسول من قبل البطريرك^{٣٦}. إلا أن العلاقة سرعان ما عادت إلى القطيعة بعد وفاة السلطان برسباي حيث انتهزت البابوية هذه الفرصة بأن وجهت إلى زرع يعقوب ملك الحبشة للاشتراك في مجمع فلورنسة الذي عقده البابا أوجين الرابع عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م بقصد العمل على توحيد الكنيسة المسيحية^{٣٧}. وقد نجح في تحقيق مسعاه عن طريق الاتصال برئيس رهبان الأحباش بالقدس نيفوديموس (Nicodemus) الذي أوفد راهبين من الأحباش لحضور هذا المجمع، ويقال في هذا الصدد أن الراهبين وافقا على مبدأ توحيد الكنيسة المسيحية^{٣٨}. وسارع البابا إلى اتخاذ الخطوات الإيجابية لهذه الوحدة فأوفد في نفس العام أحد الرهبان الفرنسيين إلى ملك الحبشة زرع يعقوب ووصل الرسول البابوي إلى القاهرة وطلب مقابلة السلطان متمسكاً منه أن يمنحه هو ورفاقه جوازاً للمرور إلى الحبشة لكن السلطان جقمق رفض طلبه. ومن ثم عدل الراهب عن الوصول إلى الحبشة عن طريق مصر. فغادرها إلى شبه جزيرة القرم ومن هناك اتبع طريق طرابيزون والخليج العربي ثم البحر الأحمر ولكنه توفي في الطريق وترك اتمام المهمة من بعده إلى زميل له في الرحلة وهو راهب آخر من الفرنسيين يدعى ثوماسو، لكنه لم يستطع هو ورفاقه من دخول الحبشة حيث وقعوا في الأسر لدى السلطات المملوكية أثناء عبورهم البحر الأحمر^{٣٩}.

وهكذا فشلت جهود البابا في تحقيق الوحدة، وفي نفس الوقت ازدادت العلاقات توتراً بين زرع يعقوب والسلطان جقمق، ففي سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م وصلت سفارة من ملك الحبشة إلى القاهرة، وسلمت السلطان هدية فاخرة ورسالة طويلة طلب فيها ملك الحبشة حسن الرعاية بالنصارى الموجودين في البلاد والتخفيف على الأقسمة والرهبان وأن يتولى البطريرك مال من يموت ولا وارث له، ودفن موتاهم دون أن

٣٦- ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٣، ص ١٦٠. السخاري، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٨٣. دراج، الممالك والفرنج، ص ٥٠.

٣٧- دراج، المرجع نفسه، ص ٥٠. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٩٢. طرخان. الاسلام والممالك الاسلامية في الحبشة، ص ٦٢. Atiya, the Crusade in the Later Middle Ages, p. 261.

٣٨- دراج، المرجع السابق، ص ٥٠. السيد، المرجع السابق، ص ٩٢. طرخان: المرجع السابق، ص ٦٢.

٣٩- دراج، المرجع السابق، ص ٥١، ٥٢. السيد، المرجع السابق، ص ٩٢.

يتعرض لهم، وعدم التعرض للنصارى في كنائسهم وقت صلواتهم وفي أيام أعيادهم، والسماح للحبوش في القدس بعمارة قبر مريم عليها السلام. والسماح لهم أيضاً ببناء عمارة بأرض لميت منهم مدفون بالقدس. كما اتبع هذه الطلبات بتهديد السلطان بقطع مياه نهر النيل عنهم وبتعذيب المسلمين الموجودين في بلاده إذا لم يستجب لطلبه. فلما قرأه السلطان اشتد حنقاً على ملك الحبشة وأرسل سفارة إليه يوضح فيها أن السلطان يرفض تماماً الاستجابة لكل الطلبات لكون النصارى في البلاد قد كثر تعديهم واستطالتهم بالمبالغة في البناء والإحداث للكنائس^{٤٠}. ولم يرض ملك الحبشة بتلك النتيجة واحتجز الرسول العربي ليشاهد بنفسه عذاب المسلمين بالحبشة. فعندما بلغت هذه الأنباء إلى السلطان جقمق، قام باستدعاء بطرك النصارى في مصر وضرب ضرباً مبرحاً وتهدهد بل وعد بقتل جميع النصارى الذين في مملكته، وأمره بأن يكتب إلى ملك الحبشة يطلب منه السماح بعودة القاصد وأن يكف عن قتال المسلمين. إزاء هذا الضغط عاد القاصد إلى القاهرة بعد غياب دام أربع سنوات^{٤١}. وفي شهر ربيع ثاني ٨٥٤هـ/ تموز (يوليو) ١٤٥٠م حضر إلى القاهرة قاضي سواكن^{٤٢} وأخبر السلطان أن ملك الحبشة يريد قطع النيل وتعويقه عن مصر وأنه جهز أسطولاً نحو مائتي سفينة لغزو سواحل البلاد الحجازية^{٤٣}، وذلك لأن زرع يعقوب عاد إلى مشروع أبيه اسحق في التحالف مع الفرنج للقيام بحملة صليبية عامة على مصر بالاتفاق مع الفونسو الخامس ملك أرغونه الذي استمر على سياسته العدائية تجاه الدولة المملوكية حتى أدركته الوفاة سنة (١٤٥٨/٨٦٣م)^{٤٤}.

٤٠- العيني، عقد الجمان، حوادث وتراجم سنين ٨٢٤-٨٥٠هـ/١٤٢١-١٤٤٦م، تحقيق عبد الرزاق القرموط، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٩م، ص ٦٠٤، ٦٠٨، ٦١٠. السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦٩-٧١. ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٣٢٩. دراج، المعاليك والفرنج، ص ٥٢. طرخان، الاسلام والممالك الاسلامية في الحبشة، ص ٦٢-٦٤.

٤١- السخاوي، المصدر السابق، ص ٧١، ٧٢. دراج، المصدر السابق، ص ٥٢. طرخان، المرجع السابق، ص ٦٤.

٤٢- سواكن: بلد مشهور على ساحل البحر الأحمر، قرب عيذاب ترفا إليه السفن القادمة من جده. وأهله سود نصارى. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٦.

٤٣- السخاوي، المصدر السابق، ص ٣٠٩.

٤٤- دراج، المرجع السابق، ص ٦٥.

إلا أننا نلاحظ أن زرع يعقوب انصرف عن مشروعه الصليبي وأثر المسألة مع مصر وإعادة علاقات حسن الجوار والمودة بين الدولتين ولعل السبب في ذلك راجع إلى ما قام به السلطان جقمق من ضغط على بطريرك الاسكندرية وعلى الرهبان الاحباش المقيمين في القدس^{٤٥}. مما ساعد على عودة العلاقات الطيبة بين البلدين في عهد السلطان عثمان بن جقمق الذي خلف أباه على العرش سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. وقد انعكس أثر ذلك على الاحباش المقيمين في القدس، وهذا ما يؤكد مجير الدين الحنبلي في حديثه عن أحد أفراد هذه الطائفة بأنه أخطأ في حق النبي، صلى الله عليه وسلم، فرفع أمره إلى قاضي القضاة الحنبلي شمس الدين العليمي واعترف عنده بما صدر عنه فأراد القاضي أن يقيم الحدّ عليه فخوفه بعض الناس بقوله: «أن هذه الطائفة للدولة بها إعتناء ونخشى عاقبة هذا من جهة السلطان»^{٤٦}.

واستمرت العلاقات بين البلدين حتى أواخر العصر المملوكي فيذكر مجير الدين الحنبلي انه في سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م ورد إلى القدس قاصد سلطان الحبشة وصادف الوقت عيد النصر المسمى بسبت النور، ومعه مرسوم من السلطان قايتباي بأن يمكن جميع النصارى من الدخول إلى كنيسة القيامة. فممنعه المباشرون هناك وسمحوا له بالدخول هو وجماعته فقط، فامتنع عن ذلك ثم سلموه مفاتيح الكنيسة ودخل هو وجميع طوائف النصارى (من غير كلفة ولا بذل)^{٤٧}. أما رواية ابن طولون الصالحي بخصوص ذلك فعند ذكره لحادث سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م قال بأنه ورد إلى القدس الشريف جماعة من نصارى الحبش نحو ثلاثة آلاف نفس لزيارة كنيسة القيامة، وأن رئيسهم بالغ في اظهار الصلبان المذهبة واسبغ على نفسه هالة من التضخيم خلال الاحتفال، مما انكره احد المسلمين حيث استغاث «يا للاسلام» فضربه النصارى بالأسلحة وقيل انه مات. وقد عبر ابن طولون عن حالة الاستياء، تحسراً عليه بقوله: «رحمه الله، وأراح البلاد والعباد من حكام السوء، مما حل بالاسلام والمسلمين، وانا لله وانا اليه راجعون»^{٤٨}.

٤٥- السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٩٢. طرخان، الاسلام والممالك الاسلامية في الحبشة، ص ٦٢. دراج، الممالك والفرنج، ص ٦٩.

٤٦- العليمي الحنبلي، الأتس الجليل، ج ٢، ص ٢٦٥. الامام، القدس في العصر الوسيط، ص ٨٠.

٤٧- العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٦.

٤٨- ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان، ج ١، ص ٣٩.

وفي ٩ محرم ٩١٩هـ/ ٧ آذار (مارس) ١٥١٣م أصدر السلطان الغوري مرسوماً أمر فيه بعدم «... مطالبة الرهبان النصارى من الملكيين واليعاقبة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم قمامة القدس الشريف أسوة برهبان الكرج والحبوش...»^{٤٩}. وكان آخر اتصال بين الماليك ودولة الحبشة ما ذكره ابن اياس في حوادث سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م بوصول قاصد ملك الحبشة إلى السلطان قانصوه الغوري مع هدية تقدر بنحو خمسة آلاف دينار وقدموا له كتاب ملك الحبشة الذي كان يفيض بعبارات الصداقة والمودة، ويطلب منه الا يمنع الحجاج الأحباش المرافقين للوفد من زيارة كنيسة القيامة فأمر السلطان بالمحافظة على سلامتهم، وأقام الخفر لذلك أثناء اقامتهم في القاهرة، ثم سافروا إلى بيت المقدس لزيارة كنيسة القيامة بعد أن أقاموا في القاهرة ثلاثة أيام^{٥٠}. وكان مجموع الأحباش الذين هبطوا يومئذ ستمائة إنسان وكان معهم طبلان على جمل يضربون عليه وبصحبتهم البطريرك الكبير وعليه برنس أررق حرير. وقد بالغ رئيس الوفد في إظهار شعائر النصرانية، الأمر الذي انكره أهالي القدس وسار جماعة منهم إلى السلطان يشكون ذلك، وبقي باب كنيسة القيامة مفتوحاً من أجلهم ستة عشر يوماً^{٥١}.

من هذا العرض السابق عن طائفة الأحباش بمدينة القدس، يتضح لنا أن هذه الطائفة لعبت دوراً سياسياً هاماً في مجريات الأحداث، عن طريق اتصال أفرادها بجماعات الرهبان الفرنسيين إما لتحقيق الاتصال بين الغرب الأوروبي والحبشة لتنفيذ بعض المشاريع الصليبية ضد الماليك، وإما لأهداف دينية كما سبقت الإشارة إلى ذلك كمحاولة البابوية في اتحادهم مع كنيسة روما، الأمر الذي لم يتحقق. وكان من الطبيعي أن يتأثر وضع أبناء هذه الطائفة تبعاً لتطور العلاقات بين ملوك وسلاطين الأيوبيين والماليك وملوك الحبشة.

٤٩- دراج، وثائق دير صهيون، ص ١١٤-١١٥ ملحق رقم (٢). غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ١٢١-١٢٢.

Van Berchem, Corpus Inscription Um Jerusalem, Vol, 2, Fast, 1, p. 378.

٥٠- ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٢. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٩٣. الامام، القدس في العصر الوسيط، ص ٨١.

٥١- ابن اياس، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢. ابن طولون الصالح، مفاكهة الخلان، ج ٢، ص ٥. وقد ذكر ابن طولون أن اعداد الاحباش الذين وصلوا القدس ثمانمائة شخص. العارف، المسيحية في القدس ص ١٤٠.

(٢)

العلاقات مع الدولة البيزنطية

من المعروف أنه وفقاً للنظرية البيزنطية، يعتبر الامبراطور البيزنطي رأس الأمم النصرانية. واعتبر الشطر الشرقي من العالم النصراني مجال نفوذه وسلطاته. فالنصارى الارثوذكس (الملكانيون) في بلاد الخلافة كانوا يخضعون لحماية الامبراطور البيزنطي واعترف المسلمون بذلك. ولم يكن في نية الامبراطور التخلي عن واجباته بسبب غزو الفرنجة للمنطقة^{٥٢}.

فقد رأينا كيف تأثر وضع النصارى الملكانيون في فترة الحكم الصليبي حيث اضحت السيطرة الدينية على الأماكن المقدسة للعنصر اللاتيني^{٥٣}. ثم محاولة الامبراطور البيزنطي مانويل الاول كومنين ٥٢٨-٥٧٦هـ/١١٤٣-١١٨٠م تحسين علاقاته مع الفرنج ومناهضة المسلمين من أجل رعاياه داخل البلاد^{٥٤}. وبموت الامبراطور كومنين خسر الصليبيون حليفاً قوياً لهم ضد المسلمين. فقد نظر خلفاؤه من بعده إلى الصليبيين على أنهم اعداء لا حلفاء^{٥٥}. وفي هذه الاثناء كان السلطان صلاح الدين يباشر نشاطه الدبلوماسي على أوسع نطاق ويستعد للمستقبل القريب عن طريق عقد الاتفاقيات مع القوى العديدة في الشرق الأدنى. من ذلك أن صلاح الدين استقبل في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م مبعوثاً من قبل الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثاني (كومنين) ٥٧٦هـ-٥٧٩هـ/١١٨٣-١١٨٠م. ووقع صلحاً معه. ثم بموجبه إطلاق سراح مائة وثمانين أسيراً من أسرى المسلمين^{٥٦}.

وبعد ان تم لصلاح الدين الانتصار على الصليبيين في حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ومن ثم فتح بيت المقدس بادر السلطان الايوبي بارسال سفارة إلى الامبراطور

٥٢- رنسيمن، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٤٩٤.

٥٣- العارف، المسيحية في القدس، ص ٥٣.

٥٤- رنسيمن، المرجع السابق، ج٢، ص ٥٥١.

٥٥- عاشور الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٣٩. William of Tyre, Op, Cit, vol, 2, 461.

٥٦- المقرئزي، السلوك، ج١، ق١، ص ٧٢. عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ٧٤٠.

البيزنطي إسحق الثاني ٥٨١هـ-٥٩٢هـ/١١٨٥م-١١٩٥م الذي أقر فكرة التحالف مع مصر، ليخبره بما أحرزه من انتصارات على الصليبيين وليسلم اليه مائة وتسعين من الرعايا البيزنطيين، كانوا قد وقعوا في يده أثناء حروبه مع الصليبيين^{٥٧}. فردَّ الامبراطور اسحق الثاني في جمادى الاولى ٥٨٤هـ/ كانون ثاني (يناير) ١١٨٨م بسفارة مماثلة الى صلاح الدين لتهنئته بفتح القدس ولتطلب منه ضرورة إعادة الأماكن المقدسة المسيحية إلى الكنيسة الارثوذكسية (الملكانية) واستجاب السلطان لطلبه بعد أن تمهل قليلاً^{٥٨}. كما دأب الامبراطور البيزنطي في الكتابة إلى صلاح الدين ويخبره بتحركات الفرنج^{٥٩}.

وكان فتح القدس في صالح النصارى الارثوذكس وبخاصة رعايا الدولة البيزنطية فقد ظلوا مقيمين في القدس. والتزم كل منهم باداء الجزية فضلاً عن الفدية المقررة عليه^{٦٠}. كما ابتاع اغنياؤهم قدراً كبيراً من الامتعة والاملاك التي أصبحت خالية بعد رحيل الفرنج^{٦١}. وتحولت شعائر الكنائس اللاتينية القائمة بالأرض المقدسة إلى شعائر الكنيسة الارثوذكسية اليونانية^{٦٢}. كما تولى بطريرك اليونان ادارة كنيسة القيامة^{٦٣}.

وفي سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م وصلت سفارة للسلطان صلاح الدين وهو بمرج عيون، من الامبراطور البيزنطي يخبره فيها عن عدم مقدرة من منع الألمان من المرور ببلاده، حيث أجبره الملك الألماني على طاعته، بأن دخل بلاده ونهبها وأخذ ابنه وأخاه

٥٧- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩٨. هامش رقم (١). عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٢٧٦.

٥٨- رنسيومان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٧٥٦.

يذكر الدكتور سلام شافعي بخصوص هذه السفارة أن رسول ملك القسطنطينية أجيب بالمنع على جميع مقترحاته. شافعي، اهل الذمة في مصر، ص ٢٧٧. إلا أن مقترحات الامبراطور التي أجيبت بالمنع في السفارة التي أرسلت الى السلطان صلاح الدين بعد صلح الرملة في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م. وليست هذه السفارة. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٠٩.

٥٩- ابرشامه، الروضتين، ج ٢، ص ١٥١.

٦٠- العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص ١٣٠، ١٣٦. Setton, A history of the Crusades, Vol, 1, p. 617.

٦١- العماد الاصفهاني، المصدر السابق، ص ١٣٠، ١٣٦. ابن الاثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٥٨. رنسيومان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٥٥.

٦٢- عاشور، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٩٤.

٦٣- ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٥٣م، عدد ٤٧، ص ٤٤٧.

وأربعين شخصاً من المقربين لديه رهائن عنده حتى يجتاز الطريق. كما أخذ منه خمسين قنطاراً من الذهب، وخمسين قنطاراً من الفضة، وثياب أطلس بمبالغ عظيمة، واغتصب المراكب وقطع بها إلى الجانب الآخر وبعد اجتيازه حدود الامبراطورية ردّ الرهائن إليه^{٦٤}.

وفي سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م وصل إلى السلطان كتاب آخر من الامبراطور البيزنطي يتضمن استعطافاً واستسعافاً ويذكر فيه تمكينه من إقامة الجمعة والخطبة في جامع المسلمين بالقسطنطينية وأنه مستمر على المودة راغب في المحبة ويعتذر عن عبور ملك الألمان ويخبره فيه عن أحوال ملك الألمان بأنه نال من الشدة والتعب في الطريق وأنه إن وصل البلاد فلن ينتفع بنفسه أو ينفع ويكون مصرعه هناك ولا يرجع ويطلب رسولاً يدرك من السلطان رسولاً^{٦٥}.

وما أن تأكد السلطان صلاح الدين من إحتشاد الحملة الصليبية الثالثة لمهاجمة الأراضي الاسلامية والتي حملت أخبارها إليه سفارة اسحق الثاني، حتى عقد العزم على أن يزيد من توثيق علاقاته بالامبراطور البيزنطي، وتقرير القواعد بينهما حيث يذكر العماد الأصفهاني «فأجيب في ذلك إلى مراده»^{٦٦}. فمضى الرسول وأقام الخطبة، واستقبل باحترام عظيم واکرام زائد. وكان السلطان قد أنفذ معه في المراكب الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً مشهوداً عظيماً من أيام الاسلام^{٦٧}. ثم عاد رسول السلطان ومعه رسول ملك الروم وبيده كتاب من الامبراطور مختوم يتضمن اعلام السلطان تمكينه من اقامة الخطبة في بلاده^{٦٨}.

٦٤- ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٣٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٢٠.

٦٥- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٤١٤. ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٣٢، ابو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ١٥٩. ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٨. ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ١، تحقيق حسن محمد الشماخ، البصرة، مطبعة مراد، ١٩٦٧م، ص ٢٢٥. المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٠٤.

٦٦- ابو شامة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٩.

٦٧- ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٣٢. ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٨. ابن الفرات، المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٢٢٥.

٦٨- ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٣٢.

وانتهت الحملة الصليبية الثالثة بتوقيع صلح الرملة في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/٢ أيلول (سبتمبر) ١١٩٢م. وسمح للحجاج النصارى بمقتضى هذا الصلح بحرية التوجه إلى القدس لزيارة الأماكن المقدسة واعفائهم من الضرائب والرسوم.^{٦٩}

أثار هذا الاتفاق مخاوف وقلق الامبراطور البيزنطي، فوردت سفارة من قبله إلى السلطان وهو في القدس في مستهل جمادى الأولى ٥٨٨هـ/ أيار (مايو) ١١٩٢م. واستقبل الرسول بالاحترام والاحترام وكانت رسالته تشمل على مطالب منها: صليب الصليبوت، وأن تكون كنيسة القيامة وسائر كنائس القدس بيد قس من جانب الامبراطور البيزنطي، ومنها أن يقع الاتفاق أن يكون عدو من عاداه وصديق من صاذه. غير أن صلاح الدين رفض الطلب حيث يذكر ابن شداد «واجيب بالمنع على جميع مقترحاته»^{٧٠}. لأنه لا يقبل أن يكون لمذهب من المذاهب السيادة على هذه المواضع وأنه سوف يكون الفصيل والحاكم بينهما جميعاً^{٧١}.

وقد دأب هذا الامبراطور حتى أواخر حكمه على تدعيم علاقاته مع خلفاء صلاح الدين والتقرب اليهم، فتضمنت رسالته إلى الملك العزيز عثمان سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م حسن معاملته ورعايته للمسلمين في بلاده، وتمتعهم باقامة شعائر الاسلام في دولته وبناء ما تهدم من جامع القسطنطينية وإقامة الجمعة والجماعة بها والتمس الامبراطور في رسالته إلى الملك العزيز الاهتمام بالبطرك والنصارى وأن يمتنعوا من اخراج موتاهم بالشموع الموقدة واظهار شعائرهم بكنائسهم وأن يفرج عن أسارى الروم في مصر^{٧٢}.

كما نعم رعايا الدولة البيزنطية بالرعاية والاهتمام في عهد السلطان الملك العادل حيث أبدى بعض رجال الدين الأرثوذكس سرورهم بوجودهم في بلاد مصر والشام وأن العادل أحسن معاملتهم دون الكاثوليك على خلاف ما كان يفعله الصليبيون^{٧٣}.

٦٩- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٦٠٥. ابن الأثير، الكامل، ص ٢١٨ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٢٤. أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٣٠٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٠٦، ٤٠٧. Conder, The City of Jerusalem, p. 315.

٧٠- ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٠٩. رنسيمن، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٤١.

٧١- رنسيمن، المرجع نفسه، ج ٣، ص ١٤١.

٧٢- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٢٩.

٧٣- شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٢٨٣.

واستمرت العلاقات الودية بين الدولتين طيلة العصر الأيوبي، حيث وصل في سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م رسول الامبراطور الاشكري^{٧٤} إلى السلطان الملك الكامل لتوثيق روابط الصداقة والمحبة^{٧٥}.

وفي عهد الدولة المملوكية استمر الأباطرة البيزنطيون على توثيق علاقاتهم بسلاطين المماليك، فأرسل الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوج ٦٥٨-٦٦٠هـ/ ١٢٥٩-١٢٦١م في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م مبعوثه إلى السلطان الظاهر بيبرس ببذل المودة والمساعدة وأنه لن يتأخر عن مساعدته بكل استطاعته^{٧٦}. وفي سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، سير الامبراطور للسلطان رسولا يلتبس منه بطركاً للنصارى الملكيين، فعين السلطان الرشيد الكحال لذلك، وسير معه أحد الأمراء وعدة من الأساقفة فلما وصلوا اليه أكرمهم وأعطاهم، وأوقف الأمير على جامع القسطنطينية، ورجعوا وبصحبتهما الهدايا والاموال^{٧٧}.

وقد أورد القلقشندي نسخة اتفاقية عقدت بين الامبراطور أندرونيقوس الثاني ٦٨١-٧٢٠هـ / ١٢٨٢-١٣٢٠م وبين الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، نصت على دوام الصداقة والمحبة بين الدولتين، وعدم تعويق الرسل بين الدولتين، وأن لا يحرك على بلاده أو مملكته حرباً ولا يساعد أحداً على حربهم. ونصت كذلك على تسهيل عملية انتقال التجار لدى الطرفين. وعدم تعويق معاملات النصارى الملكيين وغيرهم من الطوائف فيما إذا حصل لهم عتق وأرادوا الذهاب إلى بيزنطة. وقد وافق السلطان على جميع طلباته^{٧٨}. وفي سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م قدم رسول امبراطور القسطنطينية اندرونيقوس الثاني إلى نائب الملك الناصر محمد بن قلاوون ومعه

٧٤- الاشكري، تسمية يطلقها المؤرخون العرب المتأخرون على أباطرة الدولة البيزنطية منذ اوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لأن الاشكري الاول تزعم حركة اخراج الفرنج اللاتين فتوجوه امبراطوراً سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٦م والامبراطور الاشكري الذي بعث بسفارته الى الامبراطور الكامل هو الامبراطور يوحنا الثالث فاتا تزييس ٦١٩-٦٥١هـ / ١٢٢٢-١٢٥٣م. ابن النظيف، التاريخ المنصوري، ص ١١٣. هامش رقم (١).

٧٥- ابن النظيف، المصدر نفسه، ص ١٤٩.

٧٦- ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٨٨. العيني، عقد الجمان، حوادث وتراجم سنين ٦٤٨-٦٦٤هـ / ١٢٥٠-١٢٦٥م، ص ٣١٧.

٧٧- ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ١٢٩. بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، (مخطوط)، ج ١٠، ورقة ٩٠ب. المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٩. العيني، عقد الجمان، حوادث وتراجم سنين ٦٤٨-٦٦٤هـ / ١٢٥٠-١٢٦٥م، ص ٣٢٢. قاسم، اهل الذمة في مصر، ص ٩٤.

٧٨- القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٤، ص ٨٤-٨٨.

رسول ملك الكرج^{٧٩} بهدايا وكتاب يتضمن الشفاعة في فتح كنيسة المصلبة بالقدس لزيارة الكرج لها، وأن الكرج تكون في طاعة السلطان وعوناً له متى احتاج لهم^{٨٠}. وأجمعت المصادر على أن السلطان كتب بفتح الكنيسة وفتحت وأعيد الرسول بالجواب^{٨١}. إلا أن المقرئ عاد وذكر في حوادث سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م خبر السفارة وأن جواب السلطان كان برفض الطلب، بدعوى أن الكنيسة أغلقت منذ أيام الظاهر بيبرس على يد الشيخ خضر مما يتناقض مع ما ذكره عن فتحها في حوادث سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م^{٨٢}.

كما تمتع الامبراطور يوحنا السادس كانتا كوزين ٧٤٢-٧٧٧هـ/١٣٤١-١٣٧٥م بصلات طيبة مع سلاطين المماليك حيث استطاع في سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م أن يعيد تعيين البطريرك الملكاني المخلوع في بيت المقدس^{٨٣}. كما وصلت سفارة في سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م إلى السلطان شعبان بن حسين تحمل هدايا وأشياء أخرى^{٨٤}.

وفي عهد السلطان نفسه وصلت رسل الامبراطور يوحنا الخامس ٧٨١-٧٩٤هـ/١٣٧٩-١٣٩١م سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م بهدف أن يكون لهم قنصل في الإسكندرية كالبنداقية، وأجيبوا إلى ذلك^{٨٥}.

أما الإمبراطور مانويل الثاني ٧٩٤-٨٢٩هـ/١٣٩١-١٤٢٥م فكان على صلات طيبة مع السلطان برقوق وابنه الملك الناصر فرج، ففي سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م بعث بهدية حافلة إلى السلطان برقوق ورسالة يوصية فيها على مراعاة البطرك وطائفة النصارى من غير استثناء^{٨٦}.

٧٩- مملكة الكرج: أهلها من النصارى الملكيين، تقع بين بلاد الروم وأرمينية، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٨، ص ٢٧.

٨٠- المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٧.

٨١- العمري، مسالك الأبصار، ج ١، باب ٦، ص ٢٣٦. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٨، ص ٢٨. المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٧. العليمي الحنبلي، الانس الجليل، ج ٢، ص ٥١.

٨٢- المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٩٠، و ج ٢، ق ١، ص ١٧. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص ١٦٩.

٨٣- قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٩٥.

٨٤- ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ١٥٦.

٨٥- ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٦٢.

٨٦- ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٨١٢.

وهناك وثيقة أخرى حفظها لنا القلقشندي، وهي عبارة عن خطاب من الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني في سنة ٨١٤هـ/١٤١١م إلى السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق يشير فيها إلى دوام المحبة والمودة بين الدولتين والوصية على البطارقة والنصارى والكنائس «على حكم معدلة السلطان ومحبتة»، كما أرسل إليه هدية مكونة من أنواع الطيور التي كان يحبها السلطان^{٨٧}.

ويظهر أن توسط الإمبراطور البيزنطي كان له أثره الطيب في موقف الدولة نحو النصارى بشكل عام والنصارى من طائفة الملكانيين بشكل خاص. وفي سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م فتح السلطان محمد الثاني القسطنطينية في عهد السلطان الأشرف إينال^{٨٨}، لتدخل الدولة المملوكية في علاقات جديدة مع الدولة العثمانية لسنا بصدها في هذا البحث.

٨٧- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٨، ص ١٢٥-١٢٦. المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ١٧٨.

٨٨- أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١٦، تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم شلتوت، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م. ص ٧١.

(٣)

العلاقات مع الصليبيين

رأينا كيف استطاع الدخيل الصليبي أن ينشب أظفاره ويثبت أقدامه في أجزاء من بلاد الشام نتيجة لتفكك العرب المسلمين واختلاف كلمتهم ، غير أن بقاء الصليبيين في الأراضي الشامية وتهديدهم السافر لبقية الإمارات الإسلامية المجاورة سرعان ما أيقظ روح الجهاد عند العرب المسلمين على يد قادة مخلصين نجحوا في إسترداد الأراضي العربية وإعادتها إلى حوزة الدولة الإسلامية. ولن أتناول في هذه الدراسة وصف المعارك الحربية والغارات الإنتقامية، وإنما الذي يهمنا هو أثر العلاقات مع الصليبيين على أهل الذمة داخل بلاد الشام وخاصة في مدينة القدس التي كانت الطرف الرئيسي في النزاع.

فمنذ تولية صلاح الدين الحكم كان هدفه الأول تخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين. وخاض في سبيل تحقيق هذا الهدف معارك طاحنة ضدهم إلى أن حقق انتصاره الحاسم عليهم في حطين في ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣هـ / ٤ تموز (يوليو) ١١٨٧م^{٨٩}. وعقب هذا الإنتصار استولى على العديد من المدن الشامية ثم حاصر القدس حصاراً شديداً حتى دخلتها قواته بالآمان في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / ٢ تشرين أول (أكتوبر) ١١٨٧م، وسمح للفرنج بالخروج إلى صور بعد أن استقر الأمر على أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير سواء كان غنياً أم فقيراً. ومن الأطفال الذكور والإناث ديناران ومن المرأة خمسة دنانير. ومن أدى ذلك خلال أربعين يوماً فقد نجا. ومن لم يؤديه خلال هذه المدة صار مملوكاً. وبذل باليان بن بارزان، أحد أمراء الفرنج، عن الفقراء الفرنج ثلاثين ألف دينار، واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة أرمني، ذكر أنهم من بلده وطلب مظفر الدين علي بن كوجك زهاء ألف أرمني ادعى أنهم من الرها، فأجراه

٨٩- ابن الأثير، الكامل، ج ١، ص ١٥٦. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٧٥، ٧٧. أبو شامة الروضتين، ج ٢، ص ٨٢. الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ٦٩. غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص ١٥٦.

السلطان من اطلاقهم على ما اشتهى^{٩٠}. وشرع الفرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم وباعوها بأرخص الأثمان، وكنسوا كنائسهم وأخذوا منها نفائسهم من الذهب والفضة والأواني والقناديل وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر المقدس من صفائح التبر ومصوغات الذهب حتى انحنى جسمه لكثرة ما يحمله على ظهره، مما أثار دهشة العماد الأصفهاني، وقال للسلطان: «هذه أموال وافرة وأموال ظاهرة تبلغ مائتي ألف دينار والأمان على أموالهم، لا على أموال الكنائس والأديار فلا تتركها في أيدي هؤلاء الفجار...»، إلا أن صلاح الدين رد عليه بالرفض وقاله له: «إذا تأولنا عليهم نسبونا إلى الغدر»^{٩١}. مما جعل مؤرخي الغرب يلهجون بالثناء والإعجاب لخلق صلاح الدين ومروءته^{٩٢}.

أما النصارى الساكنون في القدس فسمح لهم بالاستقرار بالقدس بعد أن دفعوا القطيعة وأقروا بدفع الجزية^{٩٣}. كما أمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديمة حيث كان الفرنج قد أدخلوا جزءاً من المسجد الأقصى في أبنيتهم فأعيد إلى ما كان عليه في الأصل. وكانوا قد فرشوا الرخام فوق الصخرة وبنوا عليها كنيسة فأمر بكشفها وغسلها بماء الورد وقلع الصليب عنها^{٩٤}. وأعاد كنيسة صند حنه مدرسة وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد وسميت بالصلاحية. وسمح للصليبيين بزيارة المغارة التي تحتها في أوقات معلومة على أن يدفعوا تلقاء ذلك ضريبة للقائمين عليها^{٩٥}.

٩٠- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٢٧-١٢٨. ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٥٦. ابن شداد، النوادر السلطانية ص ٨٢. البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١، ص ٣١١-٣١٢. ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٢١. غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص ١٥٨.

Lane-Poole, Stanley, Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London: AMS Press Inc., 1978, p. 230.

وسيشار له فيما بعد هكذا، Lane-Poole, Saladin.

٩١- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٣٥. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٧٤٩. Lane-Poole, Op, Cit, p.231.

٩٢- لين بول، سيرة القاهرة، ص ١٥٨. Lane-Poole, Op, Cit, pp. 233-234.

٩٣- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٣٦. البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١، ص ٣١٦. Setton, A history of the Crusades, vol. 1, p.617.

٩٤- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٣٧، ١٤١، ١٤٣. ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٥٧. البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١، ص ٣١٥. أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ١١٤. ابن واصل، مغرر الكروب، ج ٢، ص ٢١٧. ابن الوردي، تمة المختصر، ج ٢، ص ١٤٨.

٩٥- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٤٥. أبو شامة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٤. ابن الوردي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٩. العارف، الفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ٢٣٦.

أما كنيسة القيامة فقد أشار البعض عليه بهدمها، إلا أنه أعرض عن ذلك، وأمر بإغلاق أبوابها ومنع النصارى من زيارتها لمدة ثلاثة أيام، عاد بعدها وفتح أبوابها وترك للنصارى حرية التعبد فيها، وقرر على من يزورها من الفرنج قطيعة يؤدونها^{٩٦}. وتولى بطريرك اليونان إدارة الكنيسة^{٩٧}، كما حولت الشعائر اللاتينية بالكنائس في الأراضي المقدسة إلى الشعائر اليونانية^{٩٨}.

أما أقباط مصر (الأقباط الأرثوذكس) الذين حرّمهم الصليبيون من زيارة القدس بدعوى أنهم هراطقة، فإن صلاح الدين أمر بفتح أبواب القدس أمام الأقباط لزيارتها وأعفى حجاجهم من الضرائب وشملهم برعايته لأنهم كانوا من رعاياه^{٩٩}. كما نعم النصارى الأحباش بتسامح صلاح الدين وعطفه وسمح لحجاجهم بزيارة الأماكن المسيحية في القدس دون أية رسوم كما شمل دير الأحباش ورهبانه المقيمين فيه بعطفه ورعايته^{١٠٠}.

أما اليهود فقد مرّ معنا أنه بقدوم الصليبيين إلى بيت المقدس فإنهم لم يبقوا فيها يهودياً واحداً على قيد الحياة. فقد جمعوهم في الكنيس الخاص بهم وأشعلوا النيران بمن فيه^{١٠١}. ونتيجة لهذه المذابح الصليبية فقد هرب من تبقى من اليهود من مدن فلسطين إلى أماكن أكثر أمناً. ويؤكد هذه الحقيقة بنيامين التطيلي الذي زار بلاد الشام عام ٥٦١-٥٦٩هـ/١١٦٥-١١٧٣م فوجد في دمشق وحدها من اليهود ما فاق العدد من نزل منهم في كل الإمارات الصليبية^{١٠٢}. كما أنه رأى مدناً فلسطينية تكاد تكون خالية من اليهود مثل اللد وسبسطية^{١٠٣}. وبالرغم مما أظهره الصليبيون من

٩٦- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٤٥. البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١، ص ٣١٦. المقرئزي، السلوك ج ١، ص ٩٧. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ١٠٩. رنسيان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٧٥٦.

٩٧- ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٥٢م، عدد ٤٧، ص ٤٤٧.

٩٨- عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٩٤.

٩٩- خوري، تاريخ كنيسة أورشلين، ص ٧٨-٨٠.

١٠٠- عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص ١١٩. القوسي، تاريخ دولة الكنوز، ص ٨١.

١٠١- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٧.

Seton, A history of the Crusades, vol, 1. p. 337.

١٠٢- التطيلي، الرحلة، ص ١١٣. كانت أعداد اليهود بدمشق نحو ثلاثة آلاف يهودي وأربع مائة من السامريين.

١٠٣- التطيلي، المصدر نفسه، ص ٩٥.

التقارب مع المسلمين واليهود بعد استقرارهم في بيت المقدس إلا أن أعداد اليهود ظلت في المدينة قليلة إذ يذكر بتاحية الرتسبونني (Petachia of Ratizbon) الذي قام برحلته بين السنوات ٥٦٦ و ٥٨٣ هـ/ ١١٧٠ م و ١١٨٧ م أنه لم يجد في القدس إلا يهودي واحد يعمل صباغاً ويدفع ضريبة عالية للملك الفرنجي مقابل السماح له بالإقامة فيها.^{١٠٤} وجاء الفتح الصلاحي لمدينة القدس في صالح اليهود حيث أكرم وفادتهم وسمح لليهود بالعودة إلى بيت المقدس. وتمكنوا من شراء أمستعة وأملك الفرنج الذين اضطروا لتركها.^{١٠٥} وهكذا تمتعت جميع الطوائف الدينية داخل المدينة المقدسة بعطف وتسامح صلاح الدين.

إلا أن سقوط المدينة المقدسة في يد العرب المسلمين أثار مشاعر الصليبيين في أوروبا من جديد وشهدت الأراضي الشامية حملة صليبية جديدة وهي الحملة الثالثة والتي انتهت بتوقيع صلح الرملة في ٢١ شعبان ٥٨٨ هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢ م بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك الإنجليز، من شروطها أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، وأن تكون عسقلان للمسلمين بعد تخريبها، وتبقى اللد والرملة مناصفة، وبيت المقدس في يد المسلمين. على أن يأذن السلطان للفرنج في زيارة القدس في أمن وأمان، فوصل خلق عظيم من الفرنج للحج فأنفذ السلطان معهم الخفراء ليحفظوهم في الطرقات.^{١٠٦}

١٠٤- زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٨٧. العارف، الفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ٥٤٦.

Adler, Jewish Travellers, p.88.

١٠٥- ظاظا، القدس مدينة الله أم مدينة داود، ص ٣١. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٠١.

رئيسمان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٧٧. Setton, A history of the Crusades, Vol. 1, p. 621.

١٠٦- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٦٠٥. ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٧١، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٣٤. أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٢٠٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٠٢. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ١٥٩. صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢١. غوانمه، إمارة الكرك الايوبية، ص ١٦٧. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ١٣١. عاشور، الناصر صلاح الدين، القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥ م سلسلة اعلام العرب، العدد ٤١، ص ٢٦٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، عاشور. الناصر صلاح الدين.

Setton, A history of the Crusades, Vol. 2, p. 85. Conder, The City of Jerusalem, p. 315. Lane-Poole, Saladin, p. 356.

ولما علم ريتشارد كثرة ما يزور القدس من الصليبيين بعث إلى السلطان بأن يمنعهم والا يأذن لأحد بالعبور إلا بعد احضار تصريح منه، ولم يلتفت السلطان إلى طلبه وشرع في اكرام من يرد وتقديم الطعام لهم^{١٠٧}. ومن المرجح أن رفض السلطان صلاح الدين كان عن دعاية ودبلوماسية لكي لا يجعل لريتشارد أي هيمنة على الحجاج ولكي يحقق للحجاج الفرنج رغبتهم في زيارة الأراضي المقدسة والحج إليها، لأن الحج إلى الأرض المقدسة كان العامل الرئيسي الذي ركز عليه ملوكهم في تحريض أفراد شعوبهم واستثارة مشاعرهم للمشاركة في الحروب الصليبية.

كما استقبل صلاح الدين بعد اتمام الصلح هيوبرت والتر اسقف سلسزبوري ووافقه على تعيين اثنين من القسس اللاتين واثنين من الشماسية في كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة^{١٠٨}.

وفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م جهز الفرنج لحملة صليبية رابعة لاسترداد بيت المقدس إلا أن هذه الحملة انحرفت واتجهت إلى القسطنطينية لغزوها وامتلاكها^{١٠٩}. وكان هذا التحول في صالح المسلمين حيث بذرت بذور الكراهية بين الكنيستين الشرقية والغربية رغم ما ادعوه من توحيد الكنيستين، وظل الانشقاق مكتملاً ومستقراً في أفئدة النصارى الشرقيين^{١١٠}.

وفي ٢٧ شعبان ٦١٦هـ/ ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢١٩م تمكن الفرنج في الحملة الصليبية الخامسة من دخول دمياط بعد حصار دام ثمانية عشر شهراً. وأقاموا بها وبثوا سراياهم في كل مكان ينهبون ويقتلون^{١١١}. ولخوف ملوك الأيوبيين في بلاد

١٠٧- العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص ٦١٠. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٣٦. ابو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٢٠٤. ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٥٢م عدد ٤٧، ص ٤٥٩. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٠٦. عاشور، الناصر صلاح الدين، ص ٢٦٩. والحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٦٤. ماجد، عبدالمنعم، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٦م، ص ١٨٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب.

١٠٨- رنسيان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٤١. لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص ١٨٤.

١٠٩- ابن الاثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٨. Setton, A history of the Crusades, vol, 2, p. 151.

١١٠- عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٩٠٠. رنسيان، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٣٣، ٢٣٥.

١١١- ابن الاثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٧٧. ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٢، ص ٣٢. ابو الفداء، المختصر، ج ٢، ١٢٤. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٠٢. غوانمة، امارة الكرك الأيوبية، ص ٢٠٣.

الشام على القدس سار إليها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فخرّب أسوارها، فوقعت ضجة في البلد وتشرد سكانها من مسلمين ونصارى ويهود في البلاد، فبعضهم سار إلى مصر والبعض إلى الكرك وبعضهم إلى دمشق ونهبت أموالهم التي كانت لهم في القدس^{١١٢}. وأراد بعض المتشددين تدمير كنيسة القيامة غير أن السلطان المعظم لم يسمح بذلك^{١١٣}. وعلى الرغم مما اشتهر به الملك الكامل من التسامح، تعرض النصارى في بلاد الشام إلى قيود بالغة الشدة وتقرر عليهم ضرائب باهظة وجرى اغلاق بعض الكنائس وتعرض معظمها للنهب على أيدي العساكر الإسلامية الغاضبة^{١١٤}.

وقد انتهت أحداث هذه الحملة بأن وافق الفرنج على عقد صلح مع الملك الكامل على أساس انسحاب الصليبيين من دمياط وعقد هدنة لمدة ثماني سنوات، واسترجع المسلمون دمياط في ١٩ رجب ٦١٨هـ/ ١ أيلول (سبتمبر) ١٢٢١م وأطلق سراح الأسرى من كلا الجانبين، كما وافق السلطان الكامل على أن يعيد لهم صليب الصلبوت وأن يمنح حجاجهم بعض الامتيازات^{١١٥}. وفي شهر شوال ٦٢٥هـ/ أيلول (سبتمبر) ١٢٢٨م حطت جموع الحملة الصليبية السادسة في عكا بقيادة الامبراطور الألماني فردريك الثاني^{١١٦}. والتي انتهت بتوقيع إتفاق بين الملك الكامل والامبراطور فردريك الثاني في ٢٨ ربيع أول ٦٢٦هـ/ ٢٥ شباط (فبراير) ١٢٢٩م. وعقدت المعاهدة بين الطرفين لمدة عشر سنوات وبموجبها أعطى الكامل القدس للفرنج ثانية بالإضافة إلى

١١٢- ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٧٧. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٢٢. أبو الفداء المختصر، ج ٣، ص ١٢٢. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٠٢. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٤. غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٠٥.

١١٣- رنسيمن، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٨٠.

١١٤- رنسيمن، المرجع نفسه، ج ٣، ص ٢٠٢.

١١٥- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٨٠. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٩٥. أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٠. ابن الوردي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٢. المقريزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٠٩. غوانمة، المرجع السابق، ص ٢٠٧. شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٢٠٠.

١١٦- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٤٧٩. ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٢٤، ٢٣٥. أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤١. ابن الوردي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢٢. غوانمة، المرجع السابق، ص ٢١٩.

الناصرية وبيت لحم ومدينة اللد وتبنين والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس وعكا، واشترط الكامل أن تبقى أسوار القدس التي دمرها الملك المعظم عيسى خراباً فلا يعاد بناؤها، وأن يبقى المسجد الأقصى والصخرة بيد المسلمين، كذلك ضمنت المعاهدة حرية العبادة للمسلمين في الأماكن المقدسة. ثم طلب الملك الكامل من سكان القدس مغادرتها فكان يوماً عظيماً ومصاباً أليماً، ودخلها الامبراطور وأقام بها يومين ثم عاد إلى عكا ومن ثم غادرها إلى بلاده في جمادى الآخرة ٦٢٦هـ/أول أيار (مايو) ١٢٢٩م^{١١٧}. وهجر المسلمون المدينة ولم يترددوا على مزاراتهم، كذلك نأى النصارى الوطنيون بعيداً وبرروا خوفهم بأن عودة الفرنج إلى المدينة لن يعود عليهم بالخير^{١١٨}. وتمكن رجال الدين اللاتين من تحسين مركزهم على الأماكن المسيحية المقدسة في بيت المقدس في هذه الفترة وعادت السيطرة اليهم^{١١٩}. إلا أن الناصر داود رأى وجوب استنقاذ القدس من الصليبيين بعد أن خالفوا شروط الهدنة التي نصت على بقاء الأسوار خراباً، فأعادوا بناء أسوار القدس وعمروا قلعة جعلوا برج داود أحد أبراجها. مما أثار غضب الناصر داود وعزم على الانتقام خاصة وأن الهدنة المعقودة بين الصليبيين والمسلمين قد انتهت مفعولها. فسار بقواته من الكرك وتمكن من تحريرها بعد حصار دام إحدى وعشرين يوماً فدخلتها قواته في جمادى الأولى ٦٢٧هـ/كانون أول (ديسمبر) ١٢٢٩م وتم رحيل الفرنج عنها^{١٢٠} لكن الخلافات استمرت بين ملوك الأيوبيين واستنجدوا بالفرنج ضد أولاد عمومتهم وسلمت القدس وطبرية وعسقلان

١١٧- ابن النخيف، التاريخ المنصوري، ص ١٧٦. ابن الأثير، الكامل، ج ٨٠، ص ٤٧٧. ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٤٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤١-٢٤٢. أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ١٤١. الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٠٠. والعبري، ج ٣، ص ١٩٥. ابن الوردي، تنقيح المختصر، ج ٢، ص ٢٢٢. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٣٠، ٢٣١. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧١. العليمي الحنبلي، الانس الجليل، ج ١، ص ٤٠٦. كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ٢٥٠. غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٢٢. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ٢٣٤. لين بول، سيرة القاهرة، ص ١٧٥. Conder, The City of Jerusalem, p. 320.

١١٨- رنسيمن، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٢٢.

١١٩- شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ٣٠٢.

١٢٠- ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٢٥. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٩١. غوانمة، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

لصليبيين مرة أخرى واستفحل أمر النصارى في القدس^{١٢١}. حيث يذكر ابن واصل في حوادث سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، «... دخلت بيت المقدس ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة، وعليها قناني الخمر برسم القربان ودخلت الجامع الأقصى وفيه جرس معلق، وأبطل بالحرم الشريف الأذان والاقامة وأعلن الكفر...»^{١٢٢}.

وفي سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م تقدمت جموع الخوارزمية إلى بلاد الشام بعد استدعائهم من قبل الصالح نجم الدين أيوب، وحال سماع الفرنج بقدومهم خرجت قواتهم من القدس، وأنزل الخوارزمية بنصارى المدينة شتى أنواع العذاب انتقاماً منهم لانتهاكهم مقدسات المسلمين ودخلوا كنيسة القيامة وهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنها قبر السيد المسيح عليه السلام. ونبشوا قبور النصارى وقبور ملوك الفرنج وأحرقوا عظام الموتى^{١٢٣}. وعلى هذا فإن نقمة الخوارزمية لم توجه لقوات الفرنجة، بل إلى أهالي بيت المقدس من النصارى، تماماً كما فعلوا بالمسلمين في بقية بلاد الشام عند اجتياحهم لها، لأن الفرنج غادروا القدس حال سماعهم باجتياح الخوارزمية لبلاد الشام^{١٢٤}.

وفي سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٥م تمكن السلطان الصالح نجم الدين أيوب من طرد الخوارزمية لأنهم خرجوا عن طاعته^{١٢٥}، ورحب أهالي المدينة به وبخاصة النصارى الذين أحسن اليهم، حيث أظهر قدراً كبيراً من التسامح نحوهم ونحو طوائف

١٢١- ابن شداد، الأملق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٢٤. ابن واصل، ملجج الكروب، ج ٥، ص ٢٠١، المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢١٥. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٣٢٢. غوانمة، دراسات، ص ١٩١.

١٢٢- ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٢٢. غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٦٧.

١٢٣- ابن شداد، المصدر السابق، ج ٢، ق ٢، ص ٢٢٤. ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٢٦. أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٢. أبو الورد، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٥٤. أبو المحاسن، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٢٣. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٩٩٨. غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٦٨. العارف، المسيحية في القدس، ص ٢٢٤.

١٢٤- غوانمة، «أضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحريره بيت المقدس»، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، نيسان (أبريل) ١٩٨١، العدد ٤، ص ١٠٤. وسيشار له فيما بعد هكذا. غوانمة، أضواء جديدة على الملك الناصر.

١٢٥- سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٥٠٦. أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٧.

الرهبان^{١٢٦}. كما أرسل الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٦م إلى البابا أنسنت الثالث يتأسف له عما لحق بكنيسة القيامة من أضرار على يد الخوارزمية ويعدده بترميم ما خرب منها وتسليم مفاتيحها لأشخاص مخلصين من قبله حتى لا يفتحوها إلا للحجاج^{١٢٧}.

وكان استرداد المسلمين لبيت المقدس من الأسباب التي أدت إلى قيام الحملة الصليبية السابعة بقيادة فرنسيس (لويس التاسع) ملك فرنسا، وتمكن الفرنج فيها من احتلال دمياط في ٢٢ صفر ٦٤٧هـ/ ٦ حزيران (يونيو) ١٢٤٩م. إلا أنها انتهت بهزيمة لويس التاسع في المنصورة وأسرته، واستطاعت شجر الدر أن تنهي المفاوضات مع الفرنج بعقد اتفاقية لمدة عشر سنوات، وإطلاق سراح الملك لويس التاسع مقابل اربعمائة ألف دينار، وتم جلاء الفرنج عن دمياط ورحلوا إلى عكا، ودخلتها القوات الأيوبية في ٣ صفر ٦٤٨هـ/ ٧ أيار (مايو) ١٢٥٠م^{١٢٨}.

وعندما وصل الملك لويس إلى عكا أرسل إليه أمير الموارنة في منطقة لبنان ولده الأمير سمعان ومعه خيول ومقاتلون نجدة للملك. فتلقاه الملك لويس بالترحاب ورفع شأنه، وكتب إلى أمير الموارنة كتاباً مضمونه تأكيد محبته للموارنة، لاتحادهم الدائم مع الكنيسة الكاثوليكية، وتعهده له بأن يوليه وشعبه نفس الحماية التي للفرنسيين أنفسهم، وأن يعمل كل ما هو ضروري لسعادتهم^{١٢٩}.

وفي هذه الأثناء نشأت لدى مدبري السياسة النصرانية فكرة التعاون مع التتار ضد المسلمين، وقد بلغ الأمر بالبابا أنسنت الرابع بأن أرسل سفارتين إلى خان التتار الأولى في سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م يدعوهم فيها إلى اعتناق الديانة النصرانية،

١٢٦- لين بول، سيرة القاهرة، ص ١٩١.

١٢٧- Conder, The City of Jerusalem, p. 315.

١٢٨- ابو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ١٨١. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٦٦. القريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٣. غوانمة، امارة الكرك الايوبية ص ٢٨٦.

Setton, A history of the Crusades, Vol, 2, pp. 503-504.

١٢٩- الشدياق، تاريخ الاعيان، ج ١، ص ٢٠٥. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ١٨٥، ٢٧٤. سالم، طرابلس الشام، ص ٢٢٦.

والثانية في سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م يدعوهم لنصرة الكنيسة ضد المسلمين^{١٢٠}. وفي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م تبادل الملك لويس التاسع وخان التتار جفتاي خان الرسل للتباحث معهم من أجل التعاون ضد المسلمين إلا أن ذلك لم يسفر عن نتيجة^{١٢١}.

أما بالنسبة لمدينة بيت المقدس فإنه في ظل هذه الأوضاع كان لا يمكن أن تعود الحياة الطبيعية إليها بسهولة، واستمرت تعيش في حالة من الخوف والقلق حتى أنف كثير من المسلمين الحياة فيها، مما جعل القزويني يردد نفس العبارة التي سبق وذكرها المقدسي قبل ذلك بثلاثة قرون تقريباً^{١٢٢} من أن مدينة «القدس قليلة العلماء كثيرة النصارى»^{١٢٣}. كما تجدر الإشارة إلى أنه بالرغم مما يقال عن كثرة المهاجرين اليهود في العصر الأيوبي إلى بلاد الشام وفلسطين، وسماح صلاح الدين لهم بالعودة إلى بيت المقدس إلا أن وجودهم في المدينة ظل متذبذباً يعتمد على الظروف. حيث يذكر الرباني صموئيل بن سمسون (Samuel Ben Samson) الذي ارتحل إلى فلسطين سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م مع ثلاثمائة من يهود فرنسا وإنجلترا بناء على رسالة قد تلقاها من ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية (مركزها عكا). جون دي برين (John du Brien)، لم يجد في استقباله سوى عشرة يهود كانوا هم كل من أدى الصلاة معه على جبل الزيتون^{١٢٤}. وفي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م زار القدس يهودا الحريزي ووجد اليهود

١٢٠- رنسيमान، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٤٤٦. سالم، طرابلس الشام، ص ١٧٢.

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 238-239.

١٢١- رنسيमान، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٤٦. سالم، المرجع السابق، ص ١٧٣. خان، تاريخ فلسطين القديم، ص ١٨٣. أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٢.

Atiya, Op, Cit, pp. 241-243. Setton, A history of the Crusades Vol, 2, p.507.

١٢٢- توفي المقدسي حوالي (سنة ٦٢٧هـ/٩٨٥م) وأهدى كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للخليفة الفاطمي العزيز.

١٢٣- القزويني، أثار البلاد، ص ١٦١.

١٢٤- صالحية، اليهود في القدس، ص ٥. نقلًا عن:

Zenjamin, z. Kedar, The Jews of Jerusalem (1187-1267) and the role of Nahmanides in the Restablishment of their Community. The Jerusalem Cathedra, Vol, 2, edited by Lee, Levine, Wayne State University press, Detroit, 1982. p. 321.

Adler, Jewish Travellers, p. 127. The Jewish Ency..., Vol, 7, p. 131.

الانجليز والفرنسيين الذين ذكروا سابقاً في المدينة^{١٣٥}. أما الرحالة اليهودي نحما نيدس (Nahmanides) الذي زار بيت المقدس سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م فقد وجد فيها اثنين فقط وكانا يعملان بالصباغة وهما إخوان^{١٣٦}. وكان من أسباب تناقص اليهود في فلسطين وبيت المقدس خاصة، يعود إلى علاقات الدولة مع الصليبيين وإلى غارات المغول عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م^{١٣٧}. والحادث الذي يسرده أحد اليهود القادمين من اسبانيا سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م يلقي بعض الضوء على تلك الظروف بقوله: «... ان سكان المدينة المقدسة هربوا في كل الاتجاهات عندما إقترب المغول منها ولم يعودوا اليها مما أوصل عدد سكان المدينة بعد سبع سنوات إلى ألفي نسمة فضلاً عن ذهاب كثير من الصناع إلى مصر أملين بأن يجدوا مجالاً أوسع لنشاطاتهم...»^{١٣٨}.

هذا وقد ظلت اعداد اليهود في فلسطين وبيت المقدس قليلة طيلة العصر المملوكي، بالرغم من سماح السلطات المملوكية لهم بالاقامة في المدينة وليس أدل على ذلك ما ذكره الرحالة اسحق بن شيلو الذي زار فلسطين سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م وقدم لنا صورة عن اعداد اليهود في فلسطين فقال في القدس مجتمع يهودي معظمهم من الفرنسيين يعملون حذائين وصباغين وأصحاب دكاكين وأطباء^{١٣٩}. وكان لليهود يافا معبد جميل ومدرسة ومكتبة لكن عدد المتعلمين فيها قليل^{١٤٠}. وفي نابلس أقلية من اليهود، لكن هناك كثير من السامريين، وفي قيسارية عدد قليل من اليهود. وفي حيفا عدد من المهاجرين اليهود لهم مقبرة على بعد قدم من جبل الكرمل تزار من قبل جميع اليهود الذين يأتون لزيارة الأراضي المقدسة^{١٤١}. وفي عكا يوجد عدداً من أثرياء اليهود^{١٤٢}. كما وجد في طبرية مجتمعاً يهودياً لهم معبد جميل، بينما كانت في السابق مركزاً يعج بالمدارس والمعابد اليهودية. كما وجد في صفد عدد من اليهود من جميع أنحاء العالم لهم معبد ومدرسة عامة^{١٤٣}. أما الرحالة موشلام بن مناحيم

The Jewish Ency..., Vol, 7, p. 132.

-١٣٥

The Jewish Ency ..., Vol, 7, p. 132.

-١٣٦ العارف، الفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ٥٤٦.

Goitein, Jews and Arabs Their Contacts, p. 113. The Jewish Ency..., Vol, 7, p. 132.

-١٣٧

-١٣٨ اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٧٨، ٣٧٩. Goitein, Op. Cit, p. 113.

Adler, Jewish Travellers, p. 132.

-١٣٩

Adler, Ibid, p. 139.

-١٤٠

Adler, Ibid, p. 141.

-١٤١

Adler, Ibid, p. 141.

-١٤٢

Adler, Ibid, p. 146.

-١٤٣

مدينة دمشق واحتلوها^{١٥٠}. وأمام هذا الخطر الداهم أظهر سلاطين المماليك كثيراً من الحنكة والدهاء السياسي فقاموا بعقد الهدن مع الفرنج ليتفرغوا لقتال التتار من ناحية وليسدوا الطريق أمام أي فكرة تحالف بين الطرفين، فقرر السلطان قطز ٦٥٧-٦٥٨هـ/ ١٢٥٨-١٢٥٩م إيفاء سفارة مملوكية إلى عكا لتطلب الإذن من أمراء الصليبيين في الساحل لاجتياز أراضي الفرنجة أثناء مروره، لحرب التتار، ووافق الأمراء الصليبيون على طلبه^{١٥١}. مفضلين محالفة المسلمين لا محالفة التتار، بل راحوا يستفزون التتار بالاعتداء على ممتلكاتهم بدلاً من أن يمدوهم بالمساعدة ويحالفوهم، فقد أدركوا أن التتار لن يسمحوا لهم بإقامة أمارات فرنجية مستقلة وإنما يريدونهم تابعين للقان الأكبر^{١٥٢}. ولا شك أن السماح للجيش المملوكي باتخاذ الطريق الساحلي أتاحت فرصة ذهبية للقاء العدو والانتصار عليهم في معركة عين جالوت في يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ أيلول (سبتمبر) ١٢٦٠م^{١٥٣}.

وفي عهد السلطان الظاهر الظاهر بيبرس، قدم الفرنج إليه الإقامات في بداية حكمة وسألوه الصلح^{١٥٤}. فحصل منهم على وعد بعقد هدنة وتبادل الأسرى، غير أن فرسان الداوية^{١٥٥} والاسبغارية رفضوا التخلي عن الأسرى المسلمين الذين بحوزتهم

١٥٠- ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٥٦م، عدد ٥٠، ص ١٢٧، أبو الغداء، المختصر، ج ٢، ص ٢٠٠-٢٠٣. ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٩١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢١٥. الصياد، المغول في التاريخ، ج ١، ص ٢٩١، ٢٩٤. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٠٦٧.

١٥١- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٠. غوانمة، أمارة الكرك الأيوبية، ص ٣٠٨. الصياد، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٩.

١٥٢- الصياد، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٩. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٠٧٩.

١٥٣- أبو الغداء، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٥. ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٢١. صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ١٣٦. أبو الحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٧٩. غوانمة، المرجع السابق، ص ٣٠٩.

١٥٤- المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٣.

١٥٥- الداوية: Knights of the Temple

سمو كذلك بالهيكليين، لأن مقامهم الأول كان بجانب موقع هيكل سليمان بالقدس، ومؤسس هذه الجماعة هيودي باين Hugh de payens سنة ١١١٩م وأطلقوا عليها دالرفقاء جنود المسيح الفقراء في عهد بلدوين الثاني، وكان غرضها دينياً يستهدف تأمين الحاج في طريقهم بين يافا والقدس، ثم تحولت هذه الجماعة إلى هيئة عسكرية دينية لعبت دوراً هاماً في الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي، وكانوا ذا تعصب شديد، أعطوا بعض الحصون والقلاع للمراقبة، ولكنهم امتلكوها مع الزمن. وكان الداوية يشكلون مصدر قوة لمملكة بيت المقدس. وكثيراً ما دب النزاع بينهم وبين الاسبغارية وكان شعارهم الصليب الأحمر. حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٣٧. غوانمة، المرجع السابق، ص ١١٢ هامش رقم (٤٧). رنسيمان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٢٤٩-٢٥٠.

فارتاع السلطان لذلك فقطع المفاوضات^{١٥٦}. وسار إلى الشام سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م وبدأ حروبه ضد الصليبيين بمهاجمة أقليم الجليل ثم الهجوم على عكا ووجه أحد أمرائه إلى الناصرة ونهبها ودمر كنيسة الكبري^{١٥٧}.

وفي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م خرج السلطان الظاهر بيبرس إلى الشام قاصداً صفد ونزل بعين جالوت وبعث عسكره للإغارة على سواحل طرابلس وعكا وصور وحصن الكرك في يوم واحد واستولوا على القليعات وعرقه وكان هذا تهديداً مباشراً لطرابلس، ثم حاصر طرابلس فانحدرت إليه الموارد من قمم جبال لبنان-اذ ظلت هذه الطائفة مصدر خطر كبير على المسلمين والعرب طوال عصر الحروب الصليبية- فاضطر الجيش المملوكي إلى رفع الحصار عن طرابلس والرحيل^{١٥٨}. ثم نزل الظاهر على صفد وملكها في رمضان ٦٦٤هـ/أب (أغسطس) ١٢٦٥م^{١٥٩}. وعاد إلى دمشق وأرسل عسكراً إلى سويس للإغارة على بلاد الأرمن والانتقام من ملكها لتعاونه مع التتار، وفتحوا المدينة ودخلوها في نفس العام^{١٦٠}. ثم خرج الملك الظاهر لاستقبال العسكر العائد، وفي طريقه مر على قرية قارا وهي للنصارى واستولى عليها وأمر بقتل سكانها وهدم كنيسة وحولها جامعاً. وأسكن المسلمين مكانهم لأنهم كانوا عوناً وعيوناً للفرنج على المسلمين وكانوا ينحدرون من الطرق ويخطفون المسلمين

١٥٦- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٥. رنسيان، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٤٥.

١٥٧- المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٧. العيني، عقد الجمان، حوادث وتراجم سنين ٦٤٨-٦٦٤هـ/١٢٥٠-١٢٦٥م، ص ٣٥٧. رنسيان، المرجع السابق ج ٣، ص ٥٤٥.

١٥٨- أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٢. الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١، ص ٢٠٦. ضوء، تاريخ الموارد، ج ٢، ص ٤٤١. سالم، طرابلس الشام، ص ٢٦٦-٢٦٧.

١٥٩- ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥٩، ٢٦١. بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، (مخطوط)، ج ١٠، ورقة ١١٠٨. اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد بن أحمد، (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، ذيل مراة الزمان، ج ٢، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٥م، ص ٣٣٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، اليونيني، ذيل مراة الزمان. أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢.

١٦٠- ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٤٢٤. اليونيني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٤.

ويبيعونهم للفرنج^{١٦١}. وفي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م هدم الظاهر بيبرس أسوار مدينة يافا وملكها بالقوة ثم رحل عنها بعد أن رتب عسكرياً عليها وسار إلى طرابلس وعاد الكرة عليها وأخرب قراها وقطع أشجارها وغور مياهها^{١٦٢}. ورحل إلى حصن الكراد ومن ثم سار إلى حمص وحماه وأقامية، ثم أمر العساكر بلبس العدة فنزل على انطاكية للانتقام من أميرها بوهمند ودخلها في رمضان سنة ٦٦٦هـ/ آب (أغسطس) ١٢٦٨م. فغنمت قواته غنائم كثيرة لا تعد ولا تحصى وخربوا كنائسها ونهبوا ما فيها وأخذ الناس حديد أبوابها ورصاص كنائسها^{١٦٣}. ثم كاتب أميرها بوهمند وتوعده لمخالفته المغول، إلا أن الأخبار جاءت به بقدم الحملة الصليبية السابعة، فعقد هدنة سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م مع ملك قبرص هيو الثالث التي انضوت تحت لوائه مملكتي طرابلس وعكا^{١٦٤}. وفي سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م حضر إلى القدس الشريف ومرّ في طريقه على دير السيق بالقرب من القدس، وهو للنصارى فوجد حول الدير قلالي عامرة بالرهبان وأحضروا له ضيافة فاستكثرها فسأل عنهم ف قيل له أنهم ثلاثمائة راهب، فأمر بهدم القلالي خوفاً على بيت المقدس من العدو^{١٦٥}.

١٦١- ابن عبد الظاهر، الروح الزاهر، ص ١١٨. بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، (مخطوط)، ج ١٠، ورقة ١٠٨. اب. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٢٤٤. أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٤. النويري الإسكندراني، الامام بالاعلام، ج ٤، ص ٩٠. الذهبي، العبر، ج ٢، ص ٣٠٩. دول الاسلام، ج ٢، ص ١٣. وتاريخ الاسلام، (مخطوط)، ج ٢١، ورقة ١٥. ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ج ١، ص ٤٩٤. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٣. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٠. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٠٩٢.

١٦٢- ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٣. اليونيني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٢. أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٤، ص ٥. المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٦. أبو المحاسن، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٢.

١٦٣- ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٥٦م. عدد ٥٠، ص ١٤٧. ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣١١-٣١٢. اليونيني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٢. أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٤، ص ٥. ابن أبي الفضائل، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٨. المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٧. أبو المحاسن، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٢، ١٤٣. سالم، طرابلس الشام، ص ١٧٥. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ٢٨٨.

١٦٤- ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٣٢. اليونيني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٢.

١٦٥- العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٨٧.

نلاحظ أن التدابير القاسية التي كان يتخذها السلطان بيبرس بحق النصارى خاصة وسوء معاملته لهم، كانت نتيجة لتوتر العلاقات بينه وبين الصليبيين من جهة، ولوقوف بعضهم وتقديم المساعدة للصليبيين والمغول من جهة أخرى^{١٦٦}.

وما أن استتبّت الأمور في مصر وتبين أن الحملة الصليبية السابعة اتجهت إلى تونس وانتهى مصيرها بالفشل^{١٦٧}. حتى عاد بيبرس إلى الشام وخيم على حصن الكراد بصحبة ابنه الملك السعيد وتمكن من فتحه في ١٩ رجب ٦٦٩هـ/ ٢ آذار (مارس) ١٢٧٠م^{١٦٨}. ثم حاصر حصن عكار وأغارت عساكره على سكان تلك الجبال الذين كان معظمهم من النصارى الموارنة بسبب ما عانتها القوات الإسلامية من غاراتهم ولدعمهم للفرنج. فأرسل صاحب طرابلس بوهمند يسأله الأمان وتقررت الهدنة بينهما^{١٦٩}. وعلى الرغم من الصلح الذي عقده إلا أن بوهمند اتصل بأبغا بن هولاكو خان التتار واستنصره على المسلمين ولكن أبغا لم يأبه لذلك^{١٧٠}. وفي سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م عقد السلطان الظاهر بيبرس هدنة مع الفرنج في عكا لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، وكانت هذه الهدنة آخر عهده مع الفرنج^{١٧١}.

كذلك حرص السلطان المنصور قلاوون على عقد الهدنة مع الفرنج للتفرغ إلى قتال التتار. إذ أرسل أبغا بن هولاكو سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨١م سفيره إلى الفرنج ليمدوه بالذخائر حين دخولهم بلاد الشام، لكن السفير لم يلق استجابة في عكا^{١٧٢}. عندها سارع قلاوون ووافق على تجديد الهدنة مع بوهمند السابع أمير طرابلس لمدة

١٦٦- رنسيان، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٥٩.

١٦٧- اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٤٥٦. رنسيان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٠٢.

١٦٨- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ١١٧. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧٥. اليونيني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٤٥. أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٦. الذهبي، تاريخ الإسلام، (مخطوط)، ج ٢١، ورقة ١٩. ابن أبي الفضايل، النهج السديد، ج ١، ص ٥٢٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٧٤. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥٠.

١٦٩- اليونيني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٠. المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦١٩. أبو المحاسن، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٥٢. سالم، طرابلس الشام، ص ٢٧٠.

١٧٠- سالم، المرجع نفسه، ص ٢٧٩.

١٧١- اليونيني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٧١.

١٧٢- رنسيان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٦٠. حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٦٩.

عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات^{١٧٣}. وكان ذلك انتصاراً دبلوماسياً له لأنه لولا هذه الهدنة لقام بوهمند بعرقلة حملته الموجهة لقتال التتار والتي تمكن بها من الانتصار عليهم بقيادة قائدهم أبغا في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨٠م^{١٧٤}. عنئذ تشجع الصليبيون في عكا وراسلوا السلطان في محاولة للوصول على عقد هدنة معه فوافق السلطان قلاوون على عقد الهدنة فعقدت في ٥ ربيع الأول ٦٨٢هـ/ ٢ حزيران (يونيه) ١٢٨٣م. لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات^{١٧٥}. والتي نصت على ما يلي:

- أن يكون كل من في البلاد الاسلامية والبلاد الواقعة تحت حكم الفرنج على إختلاف أجناسهم ودياناتهم والمتريدين اليها من جميع البلاد آمنين على انفسهم وأموالهم وأولادهم ولا ينالهم مكروه سواء من جانب الفرنج أو السلطان ولا ضرر ولا إغارة.
- إذا هرب أحد من المسلمين الى أراضي الفرنج الداخلة في الهدنة وأراد التنصر ترد جميع ممتلكاته إلى السلطان وان كان لا يقصد الدخول في دين النصرانية يرد إلى السلطان بعد أن تؤخذ له الشفاعة. وإذا حضر أحد من بلاد الفرنجة الداخلة في الهدنة إلى أراضي المسلمين وأراد أن يدخل في دين الاسلام أو لم يرد يعامل نفس المعاملة^{١٧٦}.
- على نائب المملكة والمقدمين اعلام السلطان إذا تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم بقصد الإغارة على البلاد أو غيرها، ومتى تحرك عدو من جهة البر كالقتار وغيرهم فأي واحد يصل إليه الخبر أولاً يعلم الطرف الآخر.
- تسهيل عملية انتقال التجار داخل المملكتين على إختلاف أجناسهم ودياناتهم وعدم وضع العراقيل أمامهم وحماية حقوقهم وبضائعهم. وان عدموا بموت أو غرق أو غيبة يحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب المملكتين.
- دعوة فلاحى المملكتين من جميع الأديان والأجناس للعودة إلى أراضيهم ومن لم يرجع بعد هذا الاعلان يطرد من الجهتين.

١٧٣- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦١٥.

١٧٤- ابو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ١٤-١٥. حتي، تاريخ سوريه ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٦٩. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٠٩. ونسيمان، المرجع السابق، ج ٣، ص ٦٦٢.

١٧٥- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٥٧. المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧١٣.

١٧٦- القلقشندي، المصدر السابق، ج ١٤، ص ٦٢-٧٣.

- السماح للحجاج النصاري على اختلاف اجناسهم كبيرهم وصغيرهم لزيارة كنيسة الناصرة وأقرب أربع بيوت اليها. ويصلي بالكنيسة الأقساء والرهبان ويكونون أمنين مطمئنين في توجههم وخضورهم إلى البلاد الداخلة في الهدنة.
- حفظ المملكتين الداخلتين في الهدنة من اعتداء عساكرهم وجنودهم وجميع المتجرمة والمفسدين^{١٧٧}.

في ظل هذه الظروف الآمنة كان النفع يعود على جميع السكان سواء كانوا مسلمين أو يهوداً أو نصاري، فكانت تنشط التجارة فينتقل التجار ببضائعهم بحرية وأمان. إلا أن فترة الامان هذه لم تدم طويلاً، إذ ورد كتاب من نائب الشام إلى السلطان قلاوون سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م يخبره فيه بأن الفرنج بطرابلس نقضوا الهدنة وأخذوا جماعة من التجار وغيرهم، فتجهز السلطان لاخذ طرابلس وكتب إلى سائر ممالك الشام لتجهيز العساكر^{١٧٨}.

ونزل السلطان على طرابلس وحاصرها حصاراً شديداً حتى سقطت في أيدي المسلمين في ١٤ جمادى الآخرة ٦٨٨هـ / ٢٦ نيسان (ابريل) ١٢٨٩م^{١٧٩}. واثناء حصاره لطرابلس إنحدر المردة (الموارنة) من حصونهم وقلاعهم التي حول طرابلس وقتلوا خلقاً كثيراً من عسكره^{١٨٠}. فسار اليهم عسكر قلاوون لقاتلتهم في معاقلم لكن الموارنة تمكنوا من إيقاع الهزيمة بجيش المسلمين^{١٨١}.

ولم يكد قلاوون ينتهي من تصفية الصليبيين في طرابلس ويعود إلى مصر مطمئناً حتى جاءت إليه الأخبار من الشام في شعبان ٦٨٩هـ / أيار (مايو) ١٢٩٠م بأن أعداد من الايطاليين القادمين الجدد هجموا على التجار المسلمين في عكا وقتلوه^{١٨٢}. و لم يسلم النصاري الوطنيون من اولئك الايطاليين إذ كانوا يقتلون كل من يتنزي

١٧٧- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٧٣-٧٤.

١٧٨- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٧٤٦.

١٧٩- الجزري، حوادث الزمان، (مخطوط)، ورقة ١٢٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢١٣. ابن حبيب، تذكرة النبوة، ج ١، ص ١٢٢. المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٧٤٦. عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١١٧. سالم، طرابلس الشام، ص ٢٩٢.

١٨٠- ضو، تاريخ الموارنة، ج ٢، ص ٤٤٢. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٢، ص ٣٦٤.

١٨١- صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٥١. ضو، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٤٢.

١٨٢- ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٢٠. المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٧٥٣.

بالزي الشرقي لا فرق عندهم بين عربي مسلم وعربي نصراني^{١٨٢}. فغضب السلطان لذلك وصمم على الانتقام إلا أن المنية وافته في ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ/ ١٠ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٢٩٠م^{١٨٤}. وما أن استلم السلطان الأشرف خليل الحكم ٦٨٩-٦٩٣هـ/ ١٢٩٠-١٢٩٣م حتى بادر بالمسير إلى الشام لاتمام مشروع أبيه في القضاء على آخر معقل للصليبيين في عكا، وما أن اكتمل وصول القوات الاسلامية من مختلف مدن الشام حتى شرع المهاجمون بحصار المدينة وتمكن المسلمون من إقتحامها في يوم الجمعة ١٧ جمادي الاولى ٦٩٠هـ/ ١٨ أيار (مايو) ١٢٩١م رغم الاعداد الكبيرة من الصليبيين الذين احتشدوا داخل المدينة، فهدمت اسوارها وكنائسها، وبذلك خسر الصليبيون آخر معقل لهم وحررت جميع البلاد وتطهرت من الصليبيين نهائياً^{١٨٥}.

وبعد الانتهاء من فتح عكا أسكن السلطان الملك الأشرف في سواحل لبنان من طرابلس إلى صيدا بعض عشائر التركمان والمسلمين تحوطاً من عودة الفرنج واستثناسهم بنصارى لبنان، فتكون تلك العشائر فاصلة بينهم هناك^{١٨٦}.

وقد حاولت أوروبا اثناء حصار عكا ان تثير حرباً صليبية جديدة وذلك بالاتفاق مع التتار فتواعد أرغون ايلخان التتار مع فيليب الجميل ملك فرنسا وادوارد الاول ملك إنجلترا على غزو مصر لكن أرغون ما لبث ان توفي والأشرف يحاصر عكا كما انشغل ملوك أوروبا بأمورهم الداخلية فلم يتحقق المشروع^{١٨٧}.

١٨٢- عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١١٧، غوانمة، التاريخ السياسي لشرقي الاردن، ص ١١٦.
رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٩٢. Setton, A history of the Crusades, Vol. 2, p. 594.

١٨٤- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢١٦. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج١، ص ١٣٥.

١٨٥- ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص ٢٥. الجزري، حوادث الزمان، (مخطوط)، ورقة ٥٠. الذهبي، العبر، ج٢، ص ٢٧١. ودول الاسلام، ج٢، ص ١٤٨. ابن كثير، المصدر السابق، ج١٢، ص ٣٢٠. المصدر السابق، تذكرة النبيه، ج١، ص ١٧٣. المقرئ، السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٦٥. ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٦٦. عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ١١١٧. الدبس، من تاريخ سورية، ج٦، ص ٢٠١. منصور، القس اسعد، تاريخ الناصرة، القاهرة، دار الهلال، ١٩٢٣م، ص ٤٣. وسيشار له فيما بعد هكذا، منصور، تاريخ الناصرة.

١٨٦- الدبس، المرجع السابق، ج٦، ص ٢٠٨.

١٨٧- رنسيمان، المرجع السابق، ج٢، ص ٦٧٣. ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٠٤.

وفي سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م أرسلت عساكر مملوكية بصحبة عدة أمراء من المماليك، لمقاتلة الموارنة في ضواحي طرابلس، وذلك بسبب ما عانتها القوات الإسلامية. منهم أثناء حصار طرابلس، إلا أن الموارنة تمكنوا من العساكر المملوكية، وقتلوا أعداداً كثيرة منهم^{١٨٨}.

هذا ولم تنته الحركة الصليبية بطرد الصليبيين من البلاد، بل استمرت محاولات الصليبيين لاستعادة الأراضي المقدسة عن طريق شن الغارات المتكررة على السواحل الشامية والمصرية، كما استمرت حملات التتار على بلاد الشام بدعم من الفرنج. ففي زمن سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية^{١٨٩} ٦٩٨-٧٠٨هـ/ ١٢٩٩-١٣٠٩م، تسلم حكم التتار رجل هيام بالحروب وهو الإليخان السابع غازان (غازان). وكان غازان يعتبر النصراني أخلص حلفائه وأكثرهم أمانة للملك، وكان في عسكره كثير من الجراكسة والنصارى. وفي أواخر سنة ٦٩٩هـ وبداية ٧٠٠هـ/ ١٢٩٩-١٣٠٠م جهز جيشاً كثيفاً وزحف به إلى بلاد الشام وعلم الصليب بجانب علمه الملكي، وكان فيهم الأرمن والجورجيون والافرنج والقبرصيون واجتاحوا شمال بلاد الشام، وتمكنوا من هزيمة الجيش المملوكي في حمص في ٢٧ ربيع الأول ٦٩٩هـ/ ٢٣ كانون أول (ديسمبر) ١٢٩٩م. وملك غازان حلب ودمشق^{١٩٠}.

ومما نقله المطران الدبس عن المؤرخ الأرمني هيتون أن النصراني عادوا إلى القدس وزار غازان معهم القبر المقدس وأرسل رسائل ووفوداً إلى البابا وملوك أوروبا يطلب منهم التحالف معه على أن يسلمهم الأراضي المقدسة. وأحسن البابا وفادتهم وأحال الرد إلى حين، ثم اضطر غازان للعودة إلى بلاده^{١٩١}، بينما واصل جيشه

١٨٨- الصفدي، الواقعي بالوفيات، ج ١٠، ص ٣٦١. صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٥. ضو، تاريخ الموارنة، ج ٢، ص ٤٤٤.

١٨٩- السلطان الناصر محمد بن قلاوون تولى السلطنة ثلاث مرات الأولى من سنة ٦٩٢-٦٩٤هـ / ١٢٩٢-١٢٩٤م، والثانية من سنة ٦٩٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٩ - ١٣٠٩م، والثالثة من سنة ٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣١٠-١٣٤٠م. وتوفي سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م). اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٢٩. ابو المحاسن، الدليل الشافي، ج ٢، ص ٦٧٥ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٧٠. غوانمه، التاريخ السياسي الشرقي الاردن، ص ص ٣٣٠-٣٣١.

١٩٠- ابر الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٤٢-٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٩٥. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٤. الدبس، من تاريخ سورية، ج ٦، ص ٣١٦. حتي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٧٠.

١٩١- الدبس، المرجع السابق، ج ٦، ص ٣١٦. حتي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٧٠.

الزحف حتى وصل غزة جنوباً، وفي أثناء انسحاب الجيش المملوكي أعلن الموارنة في المناطق اللبنانية خروجهم عن طاعة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وتحصنوا في جبالهم المنيعة وتعرضوا للجنود بالأذى، وألقوا القبض على بعضهم وباعوهم للفرنجة، أما القتل والتشليح فكان كثيراً^{١٩٢}.

ثم تجهز غازان لحملتين ثانيتين على بلاد الشام، ففي الحملة الأولى أصابه مرض فأجل حملته وفي الثانية سار إلى الشام سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، لكنه عاد إلى بلاده لوقوع هجوم عليها. وأبقى مع نائبه قطلوشاه أربعين ألف مقاتل وأمره بدخول بلاد الشام، ودخل جيش التتار حمص ثم سار إلى دمشق، وهنا انتزع الجيش المملوكي المبادرة ورد الغازيين على أعقابهم وأنزل بهم في ٢ رمضان ٧٠٢هـ/٢٠ نيسان (إبريل) ١٣٠٢م عند شقحب بطرف مرج الصفر جنوبي دمشق هزيمة نكراء وقتل منهم أعداداً كثيرة، وتشرّد الباقون في البلاد^{١٩٣}.

وبعد عودة الجيش المنتصر أرسل نائب الشام وفداً برئاسة الفقيه أحمد بن تيمية إلى الكسراونيين وكان غالبيتهم من الموارنة، ليعودوا إلى الطاعة فأبوا^{١٩٤}. فاجتمعت عساكر نائب الشام بقيادة نائبها وعساكر طرابلس بقيادة نائبها وعساكر صفد بقيادة نائبها سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م وساروا اليهم في معاقلم وتمكنوا من اخضاعهم وتدمير دورهم وتخريب كنائسهم وقتل عدد كبير منهم^{١٩٥}. اضمحل بعدها ذكر الموارنة وانحصروا طيلة قرنين-اي منذ خراب كسروان سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م

١٩٢- الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤، تحقيق س. ديد رنخ، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٧٠م. ص ٣٦٥. صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٧. ضو، تاريخ الموارنة، ج٣، ص ٤٤١، ٥٢١. سالم، طرابلس الشام، ص ٢٩٢.

١٩٣- ابو الفداء، المختصر، ج٤، ص ٤٨. الذهبي، دول الاسلام، ج٢، ص ٢٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٩٥. حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ٢٧٠. الدبس، من تاريخ سورية، ج٦، ص ٣١٦، ٣١٧.

١٩٤- الصفدي، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٢٦. صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص ٢٧. الشدياق، أخبار الأعيان، ج١، ص ٢٠٨. ضو، المرجع السابق، ج٢، ص ٥٢١. النقاش، اراء توضيحية على تاريخ المارونية، ص ٤٨.

١٩٥- الصفدي، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٢٠. صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص ٢٧. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٤٢٥. الشدياق، المرجع السابق، ج١، ص ٢٠٨. ضو، المرجع السابق، ج٣، ص ٥٢٢، ٥١٧. النقاش، المرجع السابق، ص ٤٨.

وحتى مجيء العثمانيين في الرقعة الممتدة من نهر ابراهيم حتى خط إهدن زغرتا، كما هاجر قسم كبير منهم إلى جزيرة قبرص، وظلوا على اتصال مع الفرنج^{١٩٦}.

أما حملة بطرس لوزجنان ملك قبرص على الاسكندرية فكانت الحادث الرئيسي في الحروب الصليبية في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي^{١٩٧}، وكان من نتائج تلك الحملة اشتداد نفوذ الدولة المملوكية على رعاياها من النصارى، فعندما جرت الحملة، كانت الدولة المملوكية وقتذاك في سلام مع الفرنج مدة نصف قرن. وتحسنت معاملة المماليك لرعاياهم النصارى، وأضحى الحجاج احراراً في التوجه إلى الأماكن المقدسة وراجت التجارة بين الشرق والغرب. وبعد مذبحة الاسكندرية على يد بطرس لوزجنان انبعثت المرارة لدى المسلمين من جديد، وتعرض النصارى الوطنيون لمرحلة جديدة من الشدة والقسوة^{١٩٨}.

فعندما استولى الفرنج على الاسكندرية انضم اليهم من كان بالشعر من النصارى ودلوهم على دور الاغنياء وعاثوا في أهلها فساداً يقتلون الرجال ويأخذون الأموال ويأسرون النساء والاطفال^{١٩٩}. فحز ذلك في نفوس المسلمين وألقي القبض على جميع الفرنج والنصارى والبطارقة ببلاد مصر والشام والزموهم بأن يعطوا نصف أموالهم إلى السلطان^{٢٠٠}. ويذكر ابن كثير بأن مرسوماً سلطانياً جاء من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بدمشق، يأمره بالقاء القبض على النصارى في بلاد

١٩٦- ضو، تاريخ الموارنة، ج ٣، ص ٥٤٧.

١٩٧- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٢٩. النويري الإسكندراني، الإلمام بالأعلام، ج ٢، ص ١٣٦، ١٣٧. ابن حبيب، درة الاسلاك، (مخطوط)، ج ٣، صورة عن نسخة مكتبة بودليان، اكسفورد برقم ٣١٩ مجموعة مارش، وهناك نسخة عنه على ميكرو فيلم في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية برقم ٥٣٩، ورقة ٤٣ أ، و ٤٥ ب. المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٠٦، ١٠٧. ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٣. دراج، المماليك والفرنج، ص ٨. سالم، طرابلس الشام، ص ٣٤٢. غوانمة، دراسات، ص ٢٢٦. قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ٩١. النقاش، آراء توضيحية على تاريخ المارونية، ص ٥. ٣٤٥. Auiya, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 345.

١٩٨- رنسيما، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٧٥١.

١٩٩- ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٢٩. النويري الإسكندراني، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٧. المقرئزي، المصدر السابق، ج ٣، ق ١، ص ١٠٦.

٢٠٠- المقرئزي، المصدر السابق، ج ٣، ق ١، ص ١٠٧. ابن إياس، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٣.

الشام جملة واحدة. وأن يأخذ منهم ربع أموالهم، لعمارة ما خرب من الاسكندرية ولعمارة مراكب تغزو الفرنج. فاهين النصارى وأخرجوا من بيوتهم بعنف فهربوا كل مهرب، واحتج الفقهاء على هذه التصرفات وقالوا انه لا يجوز ان يؤخذ من النصارى مالا فوق ما يبذلونه من الجزية. إلا أن النائب طلب النصارى وألزمهم بإداء الربع من أموالهم، وجرّد أمراء إلى النواحي لاستخلاص الأموال من النصارى في القدس وغير ذلك^{٢٠١}. كما أغلقت كنيسة القيامة ومنعوا من زيارتها^{٢٠٢}.

وفي سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م جهز ملك قبرص حملة أخرى على بلاد الشام وأغار على طرابلس وطرطوس واللاذقية وبانياس^{٢٠٣}، فألقي القبض على الرهبان الفرنسيين وزجوا بالسجون مدة ثلاث سنوات، بالإضافة إلى حرمانهم من بعض حقوقهم وامتيازاتهم حيث عهد بعلية صهيون إلى طوائف غيرهم من الجرجان والأرمن^{٢٠٤}. وقد وجدت الدولة المملوكية نفسها مضطرة لاستغلال الأماكن المقدسة النصرانية في القدس والطوائف الأخرى وخاصة طائفة الفرنسيين، للضغط على القوى الصليبية وحملها على التخفيف من غاراتها على شواطئ المسلمين^{٢٠٥}. وليس شمة شك في أن خروج الرهبان الفرنسيين عن طبيعة رسالتهم الدينية وتزايد نشاطهم السياسي برر تصرفات السلطات المملوكية نحوهم^{٢٠٦}.

ويبدو أن نصارى طرابلس أتباع البطريك جبرائيل الحجلوي قدموا المساعدات للغزاة، فلما انسحب القبارصة من طرابلس أمر نائبها بالقبض على البطريك وحرقة^{٢٠٧}. كما منع المماليك التجار النصارى في السواحل من الذهاب

٢٠١- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ٣٢٩-٣٣٠.

٢٠٢- النويري الإسكندراني، الامام بالاعلام، ج٥، تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٣م، ص ١٥٤. المقرئ، السلوك، ج٣، ق١، ص ١١٩. رنسيان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٧٥١.

٢٠٣- النويري الإسكندراني، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٧، و ج٥، ص ١٦١. المقرئ، المصدر السابق، ج٢، ق١، ص ١٤٩. ابن حبيب، درة الاسلاك، (مخطوط)، ج٣، ورقة ٥٩ أ. سالم، طرابلس الشام، ص ٣٤٦. غوانم، دراسات، ص ٦٢٦. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 373.

٢٠٤- دراج، المماليك والفرنج، ص ٢٠. خوري، تاريخ كنيسة اورشليم، ص ٩٢.

٢٠٥- عاشور، بعض اضواء جديدة على مدينة القدس، ص ١١٨. السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ٩٩. دراج، المرجع السابق، ص ٦٧.

٢٠٦- دراج، المرجع السابق، ص ٦٧.

٢٠٧- الدبس، من تاريخ سورية، ج٦، ص ٤٦٢. ضو، تاريخ الموارنة، ج٣، ص ٥٥٦. النقاش، اراء توضيحية عن تاريخ المارونية، ص ٥٠. سالم، المرجع السابق، ص ٣٤٢.

إلى متاجرهم في قبرص، فضاعت عليهم تجارتهم، والقي القبض على المتجسسين وقتل النصاري المخبرين^{٢٠٨}. كما تشدد يلبغا الخاصكي^{٢٠٩} على جميع النصاري في البلاد، وخاصة في الكرك والشوبك لمعالاتهم للفرنج، وأخذ أموالهم، ويقال أنه تجمع لديه اثنا عشر ألف صليب ذهب زنة كل صليب عشرة أرطال مصرية^{٢١٠}.

ولم تنته غارات القبارصة بموت بطرس لوزجنان، بل تجددت الغارات في عهد خليفته بطرس الثاني ٧٧١-٧٨٤هـ/١٣٦٩-١٣٨٢م على السواحل الشامية والمصرية. فلم يجد السلطان شعبان بن حسين بدأ من عقد الصلح مع ملك قبرص عام ٧٧٢هـ/١٣٧٠م وأفرج عن أسرى النصاري في مصر وبلاد الشام وفتحت كنيسة القيامة^{٢١١}.

إلا أن غارات القبارصة والكتلان تكررت على السواحل الشامية طوال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ففي سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م اضطر السلطان مؤيد شيخ ٨١٤-٨٢٤هـ/١٤١١-١٤٢١م إلى تطبيق مبدأ العقوبة الجماعية إزاء جميع التجار والفرنج وأمر بسجن الكتلان وقناصلهم، كما تعرض الحجاج في هذه السنة إلى سوء المعاملة فسارعت البندقية لتؤكد براءتها، ونجح سفيرها في مهمته وتم تعيين قنصل يمثلها في البلاد^{٢١٢}. وفي سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م استقبل السلطان برسباي سفير البندقية، وأصدر أمره إلى النائب بالقدس الوصية بالرهبان الفرنسيين في دير صهيون^{٢١٣}. إلا أن العلاقات عادت للتأزم بسبب غارات القبارصة والكتلان

٢٠٨- النويري الاسكندراني، الامام بالاعلام، ج ٥، ص ١٨٧.

٢٠٩- يلبغا الخاصكي: هو يلبغا بن عبدالله الخاصكي الناصري الأمير الكبير المشهور، وأول من أمره الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بتقديم الف، ثم كان رأس من قام على استأذه الناصر حتى قتل، وتسلطن المنصور محمد بن حاجي واستقر اتابك ثم خلعه وتسلطن الأشرف شعبان وتناهت إليه الرياسة ولقب نظام الملك وصار صاحب الأمر والنهي والحل والعقد وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم، توفي سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م). ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٢١٣.

٢١٠- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢١٣. ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢١٣.

- الرطل المصري: وهو مائة وأربعة وأربعون درهماً، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥١١.

٢١١- المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ١٩١. سالم، طرابلس الشام، ص ٢٤٦.
Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 374-376.

٢١٢- دراج، الماليك والفرنج، ص ٢٢. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص ١٢١.

٢١٣- دراج، المرجع السابق، ص ٢١.

على ميناء الاسكندرية وببيروت، وأسر عدد من التجار المسلمين والاهالي في شعبان ٨٢٥هـ/تموز (يوليه) ١٤٤٢م. فاضطر برسباي إلى نقض الاتفاقية مع البنادقة وأمر بالقاء القبض على جميع رهبان دير صهيون، وثلاثة عشر من الحجاج الذين كانوا بفلسطين، وعلى قنصلي جنوه والبندقية بالقدس، وأمر باغلاق كنيسة القيامة، إلا انه عاد وأفرج عنهم وفتح كنيسة القيامة. عام ٨٢٧هـ/١٤٢٤م بعد تدخل البندقية^{٢١٤}. لكن القبارصة عادوا لاستئناف غاراتهم ولم ير السلطان برسباي بدأ من التفكير في غزو جزيرة قبرص وتم له فتحها سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م، وتم الاتفاق على تبعية الجزيرة للدولة المملوكية^{٢١٥}. وقد استغل اليهود توتر العلاقات، ونجحوا في اقناع السلطان برسباي من انتزاع قبر داود من الرهبان الفرنسيين وعودته لليهود في سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، فثارت ثائرة الغرب، واصدر البابا مارتن الخامس مرسوماً يحرم على النصارى نقل اليهود من اوروبا إلى الاراضي المقدسة على سفنهم^{٢١٦}.

وشهد عهد السلطان جقمق ٨٤٧-٨٥٦هـ/١٤٤٣-١٤٥٢م انكاء الروح الصليبية واشتدادها، خاصة بعد فشله عدة مرات في الاستيلاء على جزيرة رودس، وأسر الفرنج لأعداد كبيرة من المسلمين^{٢١٧}. ففي سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م صب السلطان جقمق جام غضبه على الرهبان الفرنسيين بدير صهيون وبيت لحم، فأمر بالقبض عليهم

٢١٤- المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٦١٩، ٦٢٢. ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٨٤. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص ١٢١. دراج، الممالك والفرنج، ص ٣٢، ٣٣.

٢١٥- صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢-٢٤٥. ابن شاهين، زبدة كشف المالك، ص ١٣٢-١٣٣. ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٩٦. دراج، المرجع السابق، ص ٣٢. عاشور، المرجع السابق، ص ١٢١.

٢١٦- دراج، المرجع السابق، ص ٣٤. Drory, Jerusalem in the Mamluke Period, p. 212.

٢١٧- غزو رودس: جرد السلطان المملوكي جقمق عدة تجاريد للاستيلاء على جزيرة رودس بين الاعوام ٨٤٥هـ-٨٤٨هـ/١٤٤١، ١٤٤٤م وباءت جميع هذه المحاولات بالفشل بعد ان وقع بينهم وبين صاحب رودس وقعات شديدة قتل فيها كثير من العسكر المملوكي. حتى انه في سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م، ارتد جماعة من الممالك الى دين النصرانية لشدة وقع المعركة. وفي سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م خرجت تجريدة اخيرة الى رودس وتغلب عليهم صاحبها وعادوا الى ثغر الاسكندرية ويعلق ابن اياس بقوله: «وما اراد الله لهم بنصرة». عن هذه التجاريد انظر: ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٣.

مصر محملة بالأخشاب وكانت الخسارة فادحة، لدرجة انه عندما ابلى السلطان قانصوه الغوري بذلك تنكد وامتنع عن الأكل يومين^{٢٢٣}. وتزايد شر الفرنجة في هذه السنة وكثر تعبيثهم بالناس في البحر المتوسط والبحر الهندي. وقابل السلطان هذا الخطب بأن اصدر أمره في ١٢ جمادى الآخرة ٩١٦هـ/ ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٥١٠م بالقاء القبض على جميع تجار الفرنج المقيمين بالاسكندرية ودمياط. وكذلك على جميع الرهبان الفرنسيين بدير صهيون وكنيسة القيامة، وكانوا نحواً من عشرين راهباً وعندما حضر الرهبان إلى القاهرة أغلظ لهم القول وطلب منهم مكاتب الفرنج لاعادة السفن مهدداً اياهم وأمر الفرنج بغلق كنيسة القيامة، وبشنقهم، واتبع السلطان تهديده بأن ارسل رسولاً إلى القدس ليتولى اغلاق كنيسة القيامة والاحتياط على ما للفرنج بها من أموال، واجبر رئيس دير الرهبان على تسليم ما لديه من أموال مخبأة وتحفاً وذخائر كنسيه بلغت بالآلاف الدوكات^{٢٢٤}.

وفي صفر ٩١٨هـ/ ١٥ أيار ١٥١٢م وصل سفير البندقية إلى القاهرة ليتوسط في أمر الرهبان وكنيسة القيامة. وتمكن من اقناع السلطان باطلاق سراح جميع التجار والرهبان الفرنسيين وفتح كنيسة القيامة. وعقد معاهدة تجارية مع الغوري، ثم غادر سفير البندقية القاهرة، لزيارة كنيسة القيامة، ولزيارة الرهبان الفرنسيين بدير صهيون بعد عودتهم اليه^{٢٢٥}.

ومضت السنوات الأخيرة من عهد الغوري دون ان يحدث نزاع جديد بينه وبين الفرنج إذ توقفت اعمال القرصنة ضد السواحل والثغور المصرية والشامية بالبحر المتوسط. فوجد السلطان في ذلك فرصة لمجابهة خطر البرتغاليين، إلى ان فاجأه الغزو العثماني الذي كان مخيباً لآماله، ونجحوا في الانقضاض على الدولة المملوكية، والقضاء على حكمهم في بلاد الشام في معركة مرج دابق في ٢٥ رجب ٩٢٢هـ/ ٢٤ آب (اغسطس) ١٥١٦م. والتي قتل فيها السلطان قانصوه الغوري^{٢٢٦}. وبذلك انتقلت السيادة على الاراضي المقدسة إلى الدولة العثمانية.

٢٢٣- ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٩٢.

٢٢٤- ابن اياس، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٥، ١٩٩، دراج، الممالك والفرنج، ص ١٤٢.

٢٢٥- ابن اياس، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٩، دراج، المرجع السابق، ص ١٥٢، ١٥٣، العارف، المسيحية في القدس، ص ٧٦.

٢٢٦- ابن اياس، المصدر السابق، ج ٥، ص ٨٧.

خاتمة

عاش أهل الذمة ضمن إطار الدولة الإسلامية منذ بداية قيام الدولة وحتى أواخر دولة المماليك، متمتعين بكامل حقوقهم المدنية والدينية ينعمون بسياسة التسامح الديني. فقد حرص ملوك الأيوبيين وسلاطين المماليك، على التمسك بقواعد الشريعة الإسلامية تجاه أهل الذمة التي تنص على حمايتهم ومعاملتهم المعاملة الحسنة مقابل دفعهم الجزية. إذ سمحوا لهم بتنظيم أنفسهم داخلياً تحت رئاسة يختارونها دون تدخل من جانب الدولة، ولم يكن السلطان يتدخل في ذلك إلا في حالات الضرورة، كما التزمت الدولة بحماية الرهبان ورجال الدين منهم وكف الأذى عنهم، وحماية كنائسهم ودياراتهم، والسماح لهم بترميم وإعادة ما خرب منها، كما سمحت لهم بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية. ولم تخل دواوين الدولة قط من الموظفين النصارى واليهود، بل كانوا يتولون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها، كما اختص أطباؤهم بخدمة الملوك، والأمراء، فاكتنزوا الثروات الضخمة، وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة.

عاش أهل الذمة في بلاد الشام كجزء يرتبط ارتباطاً عضوياً بالكل الشامي، وإن عاشوا في حارات مخصصة لهم، إلا أنهم لم يكونوا منعزلين إجتماعياً عن المجتمع الإسلامي. فقد كان هناك تعاون مستمر بين الأهالي، وامتازت علاقاتهم بحسن الجوار، وظهر تأثير هذه العلاقات واضحاً في عادات وتقاليد المجتمع الشامي. إذ انتشرت بعض عادات الذميين بين المسلمين. كما اعتاد المسلمون على المساهمة في إحتفالات وأعياد أهل الذمة، ومشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم. وقد تعرضت تلك العلاقات الى فترات من النزاع والتخاصم تعرض فيها الذميون إلى شغب العامة، الذي قد يكون أحياناً ناتجاً عن استفزاز بعضهم لمشاعر المسلمين، عن طريق تفاخرهم بما لديهم من الثروة والسلطان، واستغلال موظفيهم في التعصب لأفراد طوائفهم، أو عن طريق التماهي في إظهار شعائرهم الدينية، إذ كانت روح التعصب الديني سائدة في تلك العصور، مما كان يدفع القضاة والفقهاء بالضغط على الحكام في التضييق عليهم وإلزامهم «بالشروط العمرية». إلا أن تأثير هذه المراسيم كان يزول تدريجياً إلى أن تصبح في عالم النسيان بدليل تجديد تلك المراسيم، وقياساً إلى كامل الفترة التاريخية التي تمتد إلى أكثر من ثلاثة قرون، يمكننا القول بأن هذه الخلافات بين المجموعات الدينية كانت قليلة وثنائية. كما أن وضع النصارى واليهود تحت الحكم

الإسلامي في هذه الفترة كان أفضل بكثير من وضع غير النصارى في العالم النصراني وذلك بشهادة بعض مؤرخيهم. فقد تمتعت هذه المجموعات الدينية بحرية التعليم في جميع مراحلها، وكانت لهم مدارسهم ومكتباتهم الخاصة، وانصرفوا إلى الدراسة والبحث والتأليف، نتيجة لما يسود الجو العام من حرية وتسامح ديني، فزخرت مكتباتهم بأنواع الكتب والمخطوطات.

مارس أهل الذمة كافة أنواع النشاط الإقتصادي، فامتلكوا الأراضي الزراعية، حتى كانت قرى عديدة يقتصر سكانها على النصارى واليهود. وغلّت أراضيهم كافة أنواع المحاصيل الزراعية الشامية، متمتعين بسياسة الدولة الزراعية التي تطالب موظفيها بالعدل وعدم الجور على الفلاحين. كما مهر جماعة منهم في صنع صناعات عديدة، واشتهرت على أيديهم بعض الصناعات الشامية التي كان لها سوق رائجة في الأسواق الأوروبية، كصناعة الحرير، والنسيج، والخور، وغيرها من الصناعات الأخرى. كما امتلكوا الحوانيت والدكاكين إلى جانب حوانيت المسلمين، وتنقلوا في البلاد ومارسوا كافة أنواع التجارة بحرية كاملة فدرت عليهم الأرباح الطائلة.

كان من أهم نتائج الحروب الصليبية وما قام به الصليبيون من مذابح ومجازر ضد العرب والمسلمين ولقابلية البعض من طوائف النصارى داخل البلاد التعاون معهم على أنهم إخوانهم في الدين، أن زرعت بذور الشك والمرارة في نفوس المسلمين تجاه النصارى داخل البلاد، فتعرضوا للمضايقات الطائفية كما تعرضت كنائسهم للهدم والتدمير. وقد زاد معدل هذه المضايقات في العصر المملوكي عن العصر الأيوبي بسبب طبيعة الحكم المملوكي، وحرص السلاطين على إتخاذ صورة المدافعين عن الإسلام من ناحية، وبسبب المعارك الضارية التي خاضها السلاطين ضد الصليبيين طيلة فترة الحكم المملوكي، مما دفع السلاطين اتخاذ سياسة التضييق على النصارى داخل البلاد كوسيلة من وسائل الضغط السياسي، على تلك القوى، من أجل التخفيف من غاراتها على السواحل العربية الإسلامية وقتل تجارهم ونهب مراكبهم.

ومهما يكن من أمر فائننا نود أن نؤكد بأن أهل الذمة لم يتعرضوا للهوان إلا في أوقات الشدة والاضطرابات والفتن، وفيما عدا ذلك فتشهد الحوادث على أنهم تمتعوا بكل ما يتمتع به إخوانهم المسلمون من حقوق وامتيازات، كيف لا والجميع مواطنون ينتمون إلى الأراضي العربية ففيها ولدوا وإليها ينتسبون منذ أجيال عديدة، فثقافة أهل الذمة من نصارى ويهود هي ثقافة عربية إسلامية تماماً كثقافة إخوانهم العرب المسلمين.

أن عبء الحرب داخلية كانت أم خارجية كان يقع بأكمله على المسلمين، فقد استمر المسلمون قرابة قرنين من الزمان في حربهم ضد الصليبيين حتى تم لهم تحرير الأراضي وتطهيرها منهم واسترداد بلادهم من احتلالهم. ولم تذكر المصادر التاريخية أي دور إيجابي لليهود في الحرب ضد الصليبيين، رغم نظرة الصليبيين العدائية لكل من المسلمين واليهود على السواء. وهذا أمر يتمشى مع وضعهم الإجتماعي آنذاك. فقد عاشوا في العالم العربي الإسلامي باعتبارهم أقلية دينية يؤدون الجزية، كما تركز نشاط أفرادهم في المهن المالية والصناعية التي تدر عليهم الأرباح. إضافة إلى ذلك، فقد كانت مدينة القدس هي الطرف الرئيسي في النزاع بين المسلمين والصليبيين ولكنها لم تكن تشكل أي ارتباط روحي أو مادي بالنسبة لليهود. فمدينة القدس لم تكن شيئاً مهماً في تاريخهم، بدليل قلة أعدادهم في المدينة طيلة العصورين الأيوبي والمملوكي رغم سماح السلطات الأيوبية والمملوكية على السواء لليهود بالإقامة فيها.

ملاحق البحث

- ١- نسخة توقيع بتعيين شاد لتحصيل المكوس من كنيسة القيامة.
- ٢- مرسوم السلطان الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر في سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م بإلزام أهل الذمة في البلاد بالشروط العمرية.
- ٣- مرسوم السلطان خشقدم وتاريخه ٢٨ صفر ٨٦٩هـ/٣٠ تشرين اول (اكتوبر) ١٤٦٤م لصالح رهبان دير صهيون بالقدس وعين كارم وبيت لحم.

ملحق رقم (١)

نسخة توفيق بتعيين شاد لتحصيل المكوس من كنيسة القيامة، من إنشاء ابن نباته
(من كتاب صبيح الأعشى ج ١٢ ص ٣٣٣-٣٣٤).

رسم بالامر- بسط الله تعالى على الامم مهابته وظلّه، وبأسه وفضله، ووجه
إليه آمال الخلق من كل قبْلّه، وأعلى آراءه التي يقال لعدلها: «لقد جدت حتى جزت
في كل ملة»- أن يرتب...مضافاً لما بيده، واستناداً الى صحيح خبره في الكفاءة وعلو
سنده، وإرتياداً لهممه التي إن رواها مسلم عن طوعه رواها نصراني عن تجلده،
وسكوناً الى حركته التي تحصل مالا، وتصل إلى مالا، وتستخرج الوفير من مكمنه،
وتأخذ الحق [من] قدام يدي المائل ومن خلف أذنه، وعلماً أن ما لتحصل قمامه مثل
عزمه المختار، ورفقه الذي يستنزل درّ القصد المدار، وإجتهاده الذي زرعه
المستنهضون فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيب بهم الكفار.

فليبشر هذه الوظيفة بشدة ولين يجعل كل واحد منهما في موضعه ومقامه،
وحق منير يجعل سبت نور كل لياليه وأيامه، وأمانة مدله، وكفاءة مظلة، وصيانة
توجب مزيد الخير إذا له، ومهابة إذا أدخلت مستخرج قعاقة أصلحته وجعلت أعزة
أهلها أذلة؛ لا يثنى هممه النفيسه، ولا يلتفت -كما يقال- لتبخير الكنيسة، بل
يستعمل فراسة تروع من حمل عن إداء الحق بهتاناً، ومناقشة تكشف عن جبال التجلد
أكناناً، ورأفة مع ذلك بالظاهري العجز: ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، ومتابعة
للضرائب القديمة لا يصرف عنها، وإستخلاص ما على الرأس حتى يقال: «ليس تحت
الزرقاء أخضع منها»، عاملاً بتقوى الله تعالى فإن أهل معاملته أهل ذمة، مجتهداً في
إستحقاق ما يترشح له من ولايات الأمور المهمة.

ملحق رقم (٢)

مرسوم السلطان الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م.

بإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية.

(من كتاب صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٣٧٨-٣٨٧).

وهذه نسخته-صورة ما في الطرة:

«مرسوم شريف بأن يعتمد جميع طوائف اليهود والنصارى والسامرة: بالديار المصرية، والبلاد الإسلامية المحروسة وأعمالها، حكم عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لمن مضى من أهل ملتهم: وهو أن لا يحدثوا في البلاد الإسلامية ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب منها، ولا يؤوا جاسوساً ولا من فيه ريبة لأهل الإسلام، ولا يكتموا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يظهروا شركاً، ولا يمنعوا ذوي قرابة من الإسلام إن أرادوه، ولا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم، ويلبسون الغيار الأزرق والأصفر، وتمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمين، ولا يركبوا سرجاً، ولا يتقلدوا سيفاً، ولا يركبوا الخيل ولا البغال، ويركبون الحمير بالأكف عرضاً، ولا يبيعوا الخمر، وإن يلزموا زبهم حيث كانوا، ويشدوا زنانيهم غير الحرير على أوساطهم؛ والمرأة البارزة من النصارى تلبس الأزار الكتان المصبوغ أزرق، واليهودية الأزار الأصفر؛ ولا يدخل أحد منهم الحمام إلا بعلامة تميزه عن المسلمين في عنقه: من خاتم حديد أو رصاص أو غير ذلك، ولا يعلو على المسلمين في البناء ولا يساوهم، بل يكونون أدون منهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفيفاً، ولا يرفعوا أصواتهم في كنائسهم، ولا يخدموا في دولتنا الشريفة-ثبت الله قواعدها-ولا عند أحد من أمرائها-أعزهم الله تعالى-ولا يلوا وظيفة يعلو أمرهم فيها على أحد من المسلمين، وإن يحمل الأمر في موارد موتاهم على حكم الشريعة الشريفة الحمديدية، وتوقع عليهم الحوطة الديوانية أسوة موتى المسلمين، وأن لا يدخل نسوة أهل الذمة الحمامات مع المسلمات، ويجعل لهن حمامات تخصهن يدخلنها، عملاً في ذلك بما رجحه علماء الشرع الشريف، على ما شرح فيه».

ونصه بعد البسملة الشريفة:

الحمد لله الذي بصر سلطاننا الصالح، باعتماد مصالح الدين والدنيا، ويسر لرأينا الراجح، توفير التوفيق اثباتاً ونفيّاً، وتحرير التحقيق امرأً ونهياً، وقهر باحكام الاسلام، من رام نكث العهد ونقض الذمام، بتعدي الحدود عدواناً وبغياً، وجسر على اقتحام ذنوب عظام، تحل به في الدارين عذاباً وخزياً، وتكفل للامة المحمدية في الاولى والاخرى بالسعادة السرمدية التي لا تتناهي ولا تتغيا، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا.

نحمده ان اصحب فكرنا رشداً وأذهب بأمرنا غياً، ونشكره على ان جبر بأحكام العدل للايمان وهناً وأثر لذوي البهتان بالانتقام وهياً، ونشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له واحد احد، فرد صمد، خلق ورزق وانشأ وأفنى وأمات وأحيا، وتقديس وتمجد عن الصاحبة والولد، وأوجد عيسى بن مريم كما أوجد آدم ولم يكن شيئاً وجعله عبداً صالحاً نبياً زكياً، ونشهد ان سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي انزل عليه مع الروح الامين قرآناً ووحياً، واستأنصل به شافة الكفار وأنزل بهم من الاخطار الداهية الدهيا، واتبع ملة أبيه ابراهيم الذي أرى الصدق وصدق الرؤيا، وجمع الله به الشتات فهدى قلوباً غلغا واسماعاً صما وابصاراً عمياً، وبلغ الرسالة، وأدى الامانة، ونصح الامة فبشرى لمن وفق من أمته فرزق لحكمته وعياً، ورفع الضلالة، ورد الضالة، وأجمل للعهد حفظاً وللذمام رعياً، ونسخت شريعته الشرائع، وسدت الذرائع، وشمخت على النجوم الطوالع، فهي أسمى منها رفعة وأنمى عدداً وأسنى هدياً، صلى الله عليه وعلى آله فروع الزهراء الذين عنوا بقوله تعالى: (رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد)^١ أمرع سقياً، خصوصاً صديقه ورفيقه في الممات وفي الحيا، ومن استخلفه في الصلاة عنه إشارة الى انه أحق لرتبة الخلافة بالرقيا، ومن فرق منه الشيطان ووافق الفرقان له رأياً، ويسر الله تعالى في أيامه المباركة من الفتوحات ما لا اتفق لغيره ولا تهياً، وذا النورين الذي قطع الليل تسبيحاً وقرآناً وأحيا، واستحييت منه ملائكة السماء لما من الله استحيا وعلى الصهر وابن العم المجاهد الزاهد الذي طلق ثلاثاً الدار الفانية التي ليس لها بقيا، وسره لما قضى على الرضا نحيبه، فوجد الأحبة: محمداً وحزبه، وحمد اللهاق واللقيا، وعلى تنمة بقية العشرة الابرار، وبقية المهاجرين والانصار، رحمة تديم لمضاجعهم صوبها الدار السقياء، صلاة وافرة الاقسام سافرة القسمات باهرة الحيا، وسلم تسليمأ كثيراً.

١- سورة هود، آية ٧٢.

أما بعد، فاحكام الشرع الشريف أولى بوجوب الاتباع، وذمام الدين الحنيف يبير من عصي ويجير من اطاع، وحرمان الملة الحمدي أحق بأن تحفظ فلا تضاع؛ ومن المهمات التي تصرف اليها الهمة، ويرهف لها حد العزمة، وتقام على متعدي حدودها بالانتقام الجزية، اعتبار احوال الملتين من أهل الذمة الذين حقن منهم الدماء حكم الاسلام، وسكن عنهم الدهماء ما التزموه من الاحكام، مع القيام بالجزية في كل عام، وسلموا لأوامر الشريعة المطهرة التي لولا الانقياد اليها والاستسلام، لأغمد في نحورهم حد الحسام، فهم تحت قهر سلطان الايمان سائرون، ولأمر دين الحق الذي نسخ الله به الأديان صائرون، وهم المعنيون بقوله تعالى: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»^٢.

ولما فتح الله تعالى ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فتح من البلاد، واسترجع بأيدي المهاجرين والأنصار من أيدي الكفار العادية كثيراً من الأمصار واستعاد وأكثر ذلك في خلافة أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، فأنها كانت للفتح مواسم، وبالمنج بواسم، وتظافرت فيها للمسلمين غنائم العزائم، التي أعادت هزاهها الكفار يجرون ذبول الهزائم-عقد أمراؤه الفاتحون لها بأمره- رضي الله عنه وعنهم- لأهل الكتاب عهداً، وحدوا لهم من الآداب حداً لا يجوز أن يتعدي؛ ولم تزل الخلفاء بعد ذلك والملوك في جميع بلاد الإسلام يجدونها، وبالحافظة والملاحظة يتعهدونها؛ وآخر من ألزمهم أحكامها العادلة، وعصمهم بذمتها التي هي لهم ما استقاموا بالسلامة كافلة، والدنا السلطان الشهيد «الملك الناصر» ناصر الدنيا والدين، سقى الله تعالى عهده عهد الرحمة، ولقى نفسه الخير لنصحه الأمة؛ فإنه- قدس الله روحه- جدد لهم في سنة سبع مائة لباس الغيار، وشدد عليهم بأس النكال والإنكار، وعقد لهم ذمة بها الاعتبار، وسطر في الصحائف منها شروطاً لهم بالتزامها إقرار، وبأحكامها أمكنهم في دار الإسلام الاستقرار، وخذل الفتنتين المفتريتين عملاً بقول الله تعالى: (وما للظالمين من أنصار)^٣.

ولما طال عليهم الأمد تبادوا على الاغترار، وتعادوا إلى الضر والإضرار، وتدرجوا بالتكبر والاستكبار، إلى أن أظهروا التزين أعظم إظهار، وخرجوا عن المعهود في تحسين الزنار والشعار، وعتوا في البلاد والأمصار، وأتوا من الفساد بأمور لا تطاق كبار.

٢- سورة التوبة، آية ٢٩.

٣- سورة البقرة، آية ٢٧٠.

ولما وضع عندنا منهم الإستمرار على ذلك والإصرار، أنكرنا عليهم أشد إنكار، ورأينا أن نتبع فيهم ما أمر الله تعالى به في الكتاب والسنة، وأبينا [إلا معاملتهم] بأحكام الملة الحمديّة التي كم لها على الملتين العيسويّة والموسويّة من منة، وأدخّر الله تعالى لنا هذه الحسنّة التي هي من جملة الفتوحات التي يفتح الله تعالى بها لنا في الدنيا أبواب السعادة وفي الآخرة أبواب الجنة، فاستفتينا في أمرهم المجالس العالية حكام الشريعة المطهرة، واقتدينا بأقوال مذهبهم الحرّة، التي لنا بهديها إلى إصابة الصواب تبصرة، وعقدنا لهم مجلساً بدار عدلنا الشريف، وألزمناهم أحكام أهل الذمة التي بالتزام أوائلهم لها جرى عليهم حكم هذا التكليف، وأخذناهم بالعهد الذي نسوه، وألبسناهم ثوب الهوان الذي لبسوا [و] لما طال عليهم الزمان نزعه ولم يلبسوه، وأجرينا عليهم الآن شروطه المضبوطة، وقوانينه التي هي من التبديل والتغيير محوطة؛ فمن جاوزها، فقد شاقق الشريعة الشريفة وبارزها، ومن خالفها، فقد عاند الملة الاسلاميّة وواقفها، ومن صدف عن سبيلها وتنكبها، فقد اقترف الكبائر وارتكبها، وحظرنا عليهم أن يجعل أحد منهم له بالمسلمين شبهاً، وصيرنا عليهم الذلة التي ضربها الله تعالى عليهم وأوجبها.

فلذلك رسم بالامر الشريف العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، الصالحي، الصلاحي-لازال أمره الممثل المطاع، وزجره به عن المآثم امتناع وارتداع، ورأيه الصالح يريد الاصلاح ما استطاع-ان يعتمد جميع طوائف النصارى واليهود والسامرة بالديار المصريّة وجميع بلاد الاسلام المحروسة وأعمالها: من سائر الاقطار والافاق، وما أخذ على سالفهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أكيد العهد ووثيق الميثاق.

وهو ان لا يحدثوا في البلاد الاسلاميّة وأعمالها ديراً ولا كنيسة ولا قلابة ولا صومعة راهب، ولا يجددوا فيها ما خرب منها، ولا يمنعوا كنائسهم التي عاهدوا عليها، وثبت عهدهم لديها، ان ينزلها احد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يؤوا جاسوساً ولا من فيه ريبة لأهل الاسلام، ولا يكتموا غشا للمسلمين، ولا يعلموا اولادهم القرآن، ولا يظهروا شركاً، ولا يمنعوا ذوي قرابة من الاسلام إن ارادوه، وان اسلم احد منهم لا يؤذوه ولا يساكنوه، وان يوقروا المسلمين، وان يقوموا من مجالسهم ان ارادوا الجلوس، وان لا يتشبهوا بشيء من المسلمين في لباسهم قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، بل يلبس النصراني منهم العمامة الزرقاء عشرة اذرع غير الشعرى فما دونها، واليهودي العمامة الصفراء كذلك، وتمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمين ولبس العمام، ولا يتسموا بأسماء المسلمين، ولا يتكنوا بكنائهم، ولا يتلقبوا

بالقابهم، ولا يركبوا سرجاً، ولا يتقلدوا سيفاً، ولا يركبوا الخيل ولا البغال، ويركبون الحمير بالأكف عرضاً من غير تزيين ولا قيمة عظيمة لها، ولا يتخذوا شيئاً من السلاح، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية، ولا يبيعوا الخمر، وإن يجزوا مقدم رؤوسهم، وأن يلزموا زيهم حيث ما كانوا، ويشدوا زنائيرهم غير الحرير على اوساطهم، والمرأة البارزة من النصارى تلبس الازار الكتان المصبوغ ازرق، واليهودية الازار المصبوغ اصفر، ولا يدخل احد منهم الحمام الا بعلامة تميزه عن المسلمين في عنقه: من خاتم نحاس او رصاص او جرس او غير ذلك، ولا يستخدموا مسلماً في اعمالهم، وتلبس المرأة البارزة منهم خفين احدهما اسود، والاخر ابيض، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يرفعوا بناء قبورهم، ولا يعلوا على المسلمين في البناء، ولا يساورهم، ولا يتحيلوا على ذلك بحيلة، بل يكونون ادون من ذلك، ولا يضربوا بالناقوس الا ضرباً خفيفاً، ولا يرفعوا اصواتهم في كنائسهم، ولا يخرجوا شعانين ولا يرفعوا اصواتهم على موتاهم، ولا يظهروا النيران، ولا يشتروا مسلماً من الرقيق ولا مسلمة، ولا من جرت عليه سهام المسلمين، ولا من منشؤه مسلم، ولا يهودوا ولا ينصروا رقيقاً، ويجتنبون اوساط الطريق توسعة للمسلمين، ولا يفتنوا مسلماً عن دينه، ولا يدلوا على عورات المسلمين. ومن زنى بمسلمة قتل؛ ولا يضعوا ايديهم على اراض لموات للمسلمين ولا غير موات ولا مزدرع، ولا ينسبوه لصومعة ولا كنيسة ولا دير ولا غير ذلك، ولا يشتروا شيئاً من الجلب الرقيق ولا ياكلوا فيه، ولا يتحيلوا عليه بحيلة، ومتى خالفوا ذلك فقد حل منهم ما يحل من اهل النفاق والمعاندة.

وكذلك رسمنا ان كل من مات من اليهود والنصارى والسامرة: الذكور والاناث منهم يحتاط عليهم من ديوان المواريث الحشرية بالديار المصرية وأعمالها وسائر البلاد الإسلامية المحروسة، إلى أن تثبت ورثته ما يستحقونه من ميراثه بمقتضى الشرع الشريف، وإذا اثبتوا ما يستحقونه يعطونه بمقتضاه، ويحمل ما فضل بعد ذلك لبيت المال والمعمور ومن مات منهم ولا وارث لهم يستوعب، حمل موجوده لبيت المال المعمور ويجرون في الحوطة على موتاهم من دواوين المواريث وكلاء بيت المال المعمور مجرى من يموت من المسلمين: ليتبين امر مواريثهم، ويحمل الامر فيها على حكم الشرع الشريف، عملاً بالفتاوى الشرعية المتضمنة إجراء مواريث موتاهم على حكم الفرائض الشرعية بحكم الله الإسلامية الحمدية: من إعطاء كل ذي فرض وعصبة ما يستحقه شرعاً، من غير مخالفة ولا امتناع، ولا موافقة ولا دفاع؛ فإن ذلك مما يتعين ان يكون له الى بيت المال المعمور فيه ارجاع، ولتعلق حقوق المؤمنين بذلك، ولأنه يعيد حيث تفيا الى المسلمين ما يستحقه بيت المال من مال كل هالك، ولأننا

المطالبون بما يؤول الى ميراث المسلمين من تراث اولئك، لتكون هذه الحسنة في صحائفنا مسطرة، وإن كانت الأيام قد تمادت عليها ومعرفتھا نكره، وتعددت اليھا ايديهم العادية فاختلست من الذهب والفضة القناطير المقنطرة.

ورسمنا ان لا يخدم نصراني ولا سامري ولا يهودي في دولتنا الشريفة، ثبت الله قواعدها، ولا في دواوين الممالك المحروسة والاعمال، ولا عند احد من امرائنا أعزهم الله تعالى، ولا يباشر احد منهم وكالة ولا امانة، ولا ما فيه تأمر على المسلمين؛ بحيث لا يكون لهم كلمة يستعلون بها على أحد من المسلمين في امر من الامور؛ فقد حرم الله ذلك نصاً وتأويلاً، وضمن حكمه في الحال والاستقبال قرأنا وتنزيلاً، فقال تعالى: «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً»^٤، وأوضح في اجتنابهم للمتقين علم التبيين، فقال تعالى: «يا أيها الذي آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين»^٥.

وقد نهى الله موالاتهم وأضاف بسخطه كل خزي اليهم، فقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم»^٦.

وقد أذلهم الله جل وعز لافترائهم واجترائهم من كتابه العزيز في مواضع عدة، فقال تعالى: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة»^٧، فوجب ان لا يكونوا على الأعمال امانة، ولا للأموال خزنة؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اليهود والنصارى خونه»، وقال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رشاً في دينهم ولا تحل الرشاً»؛ فباعترأهم واختزأهم يؤمن من مكرهم وخيانتهم ما يختشى.

ولما قدم عليه ابو موسى الأشعري من البصرة وكان عامله بها، دخل عليه المسجد، واستأذن لكتابه وكان نصرانياً، فقال له أمير المؤمنين عمر: وليت ذمياً على المسلمين، أما سمعت قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى

٤- سورة النساء، آية ١٤١.

٥- سورة المائدة، آية ٥٧.

٦- سورة الممتحنة، آية ١٢.

٧- سورة الزمر، آية ٦.

أولياء بعضهم أولياء بعض^٨ هلا اتخذت حنيفياً؟ فقال يا أمير المؤمنين: لي كتابته وله دينه، فأنكر أمير المؤمنين عليه ذلك، وقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ اذلهم الله، ولا أدنيهم إذ اقصاهم الله. فاتبعنا في صرفهم الكتاب والسنة والآثر، ومنعنا عن المسلمين، بفل أيديهم عن المباشرة-الاذى والضرر، ودفعنا عن أمير المؤمنين من سوء معاشرتهم ما أُلوا له من الاذى مع شر معشر.

فليعتمد حكم هذا المرسوم، الذي هو بالعدل والإحسان موسوم، وليخلد في صحائف المثوبات ليستقر ويستمر ويدوم، وليشع ذكره في الممالك، وليذع أمره في المسالك؛ وعلى حكام المسلمين-أيدهم الله تعالى-وقضاتهم، ومتصرفيهم وولاتهم، أن يوقعوا بمن تعدى هذه الحدود، من النصارى واليهود، ويردعوا بسيف الشرع كل جهول من أهل الجحود، ويحلوا العذاب بمن حمله العقوق على حل العقود، ويذلوا رقاب الكافرين بالاذعان لاستخراج الحقوق وإخراج الأضغان والعقود.

وقد رسمنا بأن يحمل الأمر في هذا المرسوم الشريف على حكم ما التزم في المرسوم الشريف الشهيدى الناصري المتقدم المكتتب في رجب سنة سبعمائة، المتضمن للشهادة على بطركي النصارى اليعاقبة، والملكية، ورئيس اليهود بالتحريم وإيقاع الكلمة على من خالف هذا الشرط المشروط والحد المحدود، وإن لا يحلوا ما أنبرم من محكم العقود، فيحل عليهم عذاب غير مردود؛ والله تعالى يعين سلطان الحق على ما يرجع بنفع الخلق ويعود، ويزين بصالح المؤمنين ملك الإسلام وممالك الوجود، ويهين ببأسه أعداء الدين الذين لهم عن السبيل المبين، صدوف وصدود ويسلك به شرعة الشرع الشريف ومنهاجه: من أماته البدع وأحياء السنن وأدامة الصون وإقامة الحدود، ويهلك بسطوته الكافرين كما هلك بدعوة صالح النبي صلى الله عليه وسلم شمود. والعلامة الشريفة أعلاه حجة فيه.

ملحق رقم (٢)

مرسوم السلطان خشقدم، تاريخه ٢٨ صفر ٨٦٩هـ / ٣٠ تشرين أول (أكتوبر) ١٤٦٤م لصالح رهبان دير صهيون بالقدس وعين كارم وبيت لحم. (من كتاب وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، للدكتور أحمد دراج، ص ص ١٠٥-١١٥).

بسم الله الرحمن الرحيم.

رسم بالأمر الشريف العالي المولوى

خشقدم

السلطاني الملكى الظاهري السيفى اعلاه الله تعالى وشرفه
وانفذه في الافاق وصرفه.

يعتمد

ان يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه من
المقر والجناب الكريمين العالين الاميرين الكبيرين الكفلى والكافلى
السيفيين كافلى

السلطنة الشريفة بالشام وحلب الحروستين اعز الله تعالى انصارهما
والجنابات والمجالس العالية والسامية الكافلية السيفية نواب السلطنة
الشريفة بطرابلس وحماه وصفد وغزة والقدس الشريف وناظر
الحرمين الشريفين بهما وكاشف الرملة وناپلس والاستاذ دار المتولى
قبض مال الجرجان والحكام وولاة أمور الاسلام بالممالك
الاسلامية ضاعف الله تعالى وادام نعمتهم ببدي ويوضح
لعلمهم الكريم.

المبارك أن المحتشم الموقر الارخس القديس فخر طايفته
وأهل ملته الرايس بدير صهيون وعين كارم وبيت لحم وكبير
طايفة الفرنج المقيمين بالقدس الشريف ودير صهيون وجميع
الرهبان المقيمين والواردين الى القدس الشريف رفعوا قصة

لمواقفنا الشريفة أنهموا فيها احوالهم وسالوا صدقاتنا الشريفة في شمولهم بنظرنا الشريف وبعدلنا الشامل وأن يجدد لهم مرسوماً شريفاً مطلقاً على حكم ما بأيديهم من المراسيم الشريفة من الملوك السالفة وهم الظاهر

بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد والناصر حسن واخوته والأشرف

شعبان والظاهر برقوق والناصر فرج والمؤيد شيخ وولده المظفر والظاهر ططر وولده الصالح والأشرف برسباني والظاهر جقمق والأشرف اينال ومرسومنا الشريف أيضاً يتضمن ما نذكر فيه وهوانه

إذا حضرت بريديه او خاصكية او غيرهم الى القدس الشريف لا يكلفوا ولا يلزموا بكلفة ولا تسفير الا ان كان لهم اسماً وان كان علي احد من طائفة الفرنج او من اجناس النصراني مطالبة فلا يلزموا بها

ولا تلزم طائفة الرهبان بتسفير ولا كلفة إلا أن كان لاحد اسم وان هلك

الرايس بدير صهيون او احد من الرهبان او من الجرجان يكون موجوده

للهربان المنكورين ويمكنوا من دفن من هلك ولا يعارضوا في ماكلهم.

ومشربهم ويفسخ لهم شراً العنب لمشربهم اذا لم يحصل به نفع للمسلمين ويمكنوا من مشربهم ومعایشهم ونقلها من دير الى دير ومن كنيسة الى كنيسة على جاري عادتهم القديمة ويمكنوا من التوجه الى بلادهم وضروراتهم والعودة الى محلهم بترجمان وبغير ترجمان ولا يلزموا بقرض ولا معاملة وتمكين الرهبان من الدخول الى قمامة عندما تفتح بغير كلفة وتمكين الرايس بدير صهيون من اقامة اثنين وثلاثين او اربعين بقامة واخراجهم اذا اراد واستبدلهم بغيرهم علي جاري العادة ويمكنوا من تلييس مساكنهم وتلييس اسطحهم لدفع الضرر من المطر على الوجه

الشرعى ولا يسطلب منهم غرامة ولا قطع مصانعة ولا يلزموا بما علي احد يموت من الفرنج البنادقة وغيرهم الا بوجه

شرعي ولا يجبر المذكورون على فتح ديورتهم وكفائسهم ببيت لحم وعين كارم الا برضاهم ويمكنوا من الدار المجاورة لديرهم وترميم اماكنهم.

التي يحتاجون اليها للسكن ولا يثاقلم احد من الحكام بالقدس الشريف لا من الناظر ولا النايب ولا الوالي ولا غيرهم ولا يقطع لهم

احد مصانعة ولا تمنع الصدقة المحضرة اليهم من بلادهم ولا يعارضهم فيها احد من الخفرا والشادين بالمين والسواحل والطرقا وغير ذلك ولا يعارضوا في جميع مزاراتهم بالاماكن التي لهم بها عادة ودخولهم فيها وفعل شرايطهم واعبادهم التي اقتضاها دينهم وخلص حقوقهم ممن يتعين في جهته واذا حصلت عليهم شكوى من القدس الشريف يعطى درهم واحد فضة او درهمين ولا يطالبوا ولا يكلفوا بشيء جملة كافية.

على جارى عاداتهم القديمة واذا اعتدى احد من طوائف الفرنج على احد من المسلمين في البحر او البر لا يلزم الرهبان بذلك لانهم تركوا الدنيا واشتغلوا بعبادة الله بالديورة المذكورة واذا حصل لاحد من الرهبان من احد من الحكام بالقدس الشريف وغيره ضرر وقصد الحضور الى الابواب الشريفة يمكن من الحضور ولا يمنع واذا حضر احد من البريدية لا يتعرض اليهم في بيوتهم ولا في مساكنهم ولا يقصدهم بضرر جملة كافية وان لا يطلب السرهبان المقيمون بدير صهيون وبيت لحم وعين كارم القدس الشريف بسبب القسايم التي كتبت عليهم ولا يلزم بها الا القناصلة لا غير وانه من قصد من الجرجان والفرنج التردد الى دير صهيون وبيت لحم يمكن من ذلك على العادة ولا يمنع اجهار الندا لهم بالحماية من الضرر والتشويش والامان والاطمئنان وكف الاذا

عنهم وعن غلمانهم واتباعهم واجرايهم واجرا تجارهم على جارى العوايد عملا في ذلك بالعدل الشريف وان يتقدم الكاشف بالرملة بكتابة قسايم شريفة على الخفرا بالرملة ويافا بعدم معارضة الرهبان المذكورين جملة كافية على جارى عاداتهم وان لا يتعرض احد الى الرهبان الواصلين لمينا يافا المعروفين برهبان الحبل من المكارية بالرملة وغيرهم ولا يفصبوهم للركوب معهم غصبا ولا يتكلم في ذلك الا

رئيسهم بدير صهيون وعين كارم وبيت لحم وكذلك الترجمة بالرملة والقدس الشريف لا يتعرضوا الى الفرنج في ترجمة الا ان كان بيده من يقصد التعرض اليهم مرسوم شريف او منشور شريف بالترجمة ومن لم يكن بيده مرسوم شريف ولا منشور شريف لا يتعرض اليهم جملة كافية وان يمكن غلمانهم واتباعهم من السفر حيث شاؤا من غير معارض لهم وسال الرئيس بدير صهيون والرهبان ان لا يكرهوا على ضمان احد من الفرنج ولا غيرهم وان لا يلزموا بكتب قسايم ولا حلف حيث يشق ذلك عليهم في دينهم وانه اذا حدث طلب بالقدس الشريف على النصارى واليهود السبب تكسير او غير ذلك لا يلزم الرئيس بالدير المذكور ورهبانه بشيء من ذلك وان يعفوا من ساير المغارم المظالم وان يمكن الرئيس بدير صهيون من ارسال رهبانه حيث شاؤا من ساير الممالك لاستعطا ما يقوم باودهم وابطال ما كتب على رهبانه في غيبته بسبب ذلك واذا سافر رهبانهم بحوايجهم وضروراتهم وغابوا سنتين واكثر في اشغال ديرهم تكتب اسمائهم عند المباشرين بحيث انهم اذا عادوا لا يلزموا بكلفة ولا موجب واذا استبدل الرئيس رهبانا من دير به رهبان بيروت لا يؤخذ منهم موجب على عادتهم وانه اذا خرج راهب بغير اذن ريسه ووقع منه شيئاً ناقصاً فلا يلزم الرئيس ولا رهبانه بذلك واذا حضر طائفة الجرجان و التجار والرهبان وغلمان التجار لزيارة قمامة واقاموا بما عليهم من الموجب يمكنون من الدخول ثلاث مرار من غير تعويق على عادتهم ومنع من يقصد قطع مصانعتهم بسبب ذلك واذا حضر الى القدس الشريف خاصكي او بريدي او غيرهم بسبب تكسير

خمر النصارى واليهود وحصل مغرم فلا يلزم الرهبان بتكسير ولا كلفة واذا توجه الرهبان الى بحر الشريعة وغير ذلك من المزارات لا يكلفوا لخفرا ولا لقطع مصانعة وانه اذا حضر جرجان او فرنج من البر او البحر وحصل لهم قطع طريق عليهم واخذ موجودهم فلا يلزم الرهبان ولا يلزموا غصبا بموجب المذكورين لا في ايام مستحق المقر الكريم الكنيلي.

كسافل المملكة الشامية المحروسة ولا في بسط السنة اذا شكاهم احد بغير حق وغرموا شيئاً يرجع على من شكاهم بذلك واذا فتحت

قمامة للزيارة وقصد حوايج كئناسهم ورهبانهم الدخول لها يمكنوا
من ذلك بغير كلفة الدرهم الفرد على جاري عادتهم

لا يمكن احد من طوائف النصاري من الدخول الى اماكنهم
بغير رضاهم ومنع من يقصد ضررهم فهذا مضمون ما بايديههم من
المراسيم الشريفة وما سالوا فيه صدقاتنا الشريفة وقد رسمنا لهم الآن
باستمرارهم على ذلك حملا على حكم ما بايديههم من المراسيم الشريفة

المتقدمة من الملوك السالفة سقى الله تعالى عهدهم حين اقتضاه
الشرع الشريف ومرسومنا لكل واقف عليه ومستتمعه وناظر اليه
ان يتقدموا بمنع من يحدث على المذكورين حادث او يجدد عليهم
مظلمة وحملهم على حكم ما بايديههم من المراسيم الشريفة المشار إليها

حيث اقتضته الشريعة المسطهرة وكف اسباب الاذا والضرر
عنهم ومعاملتهم بالمعدلة الشريفة ومنع من يتعرض لهم بسوء
ولا يكلفوا ما لا طاقة لهم به ولا عادة عليهم ومنع الوالي والسبلاصيه
والمشاة وغيرهم من دخول دبرهم وقطع مصانعتهم والستشويش عليهم
واذا دخل ريس جديد وخرج من قبله لا يكلف احد منهما الى مسفرم ولا
يلزم بكلفة ومن اعتمد خلاف، ما رسمنا به من ذلك وما تضمنته مراسيم
الملوك السالفة تبرز المراسيم الشريفة.

باحضاره الى الابواب الشريفة عملا بالعدل الشريف واعتماد ما
بايديهم من المرسوم الشريف والمربع من ديوان الجيوش المنصورة
المؤرخ بحادى عشرين

شهر ربيع الاول سنة ست وستين وثمانماية والعمل به والوصية
بهم ومنع من يتعرض اليهم

بغير طريق مبين قولا واحدا وامرا جازما والمراسيم الشريفة
تؤكد عليهم في ذلك.

غاية التاكيد والاعتماد على الخط الشريف اعلاه حجة
فيه بمقتضاه

ان شا الله تعالى

كتب في ثامن عشرين شهر صفر المبارك

سنة تسع وستين وثمانماية

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

١. الوثائق المنشورة.
٢. المصادر العربية المخطوطة.
٣. المصادر العربية المطبوعة.
٤. المراجع العربية الحديثة.
٥. المصادر والمراجع الأجنبية المعربة.
٦. الدوريات العربية.
٧. الرسائل الجامعية.
٨. المصادر والمراجع باللغات الأجنبية.

أولاً: الوثائق المنشورة:

أ. من وثائق دير سانت كاترين في سيناء:

١. «منشور من ديوان الملك العادل ابي بكر بن أيوب الى رهبان طور سيناء»، دراسة جوزيف نسيم، مجلة آداب جامعة الاسكندرية، مج ١٨، سنة ١٩٦٤م. وثيقة رقم ١١، تاريخ ١٦ محرم ٥٩٢هـ/ ٢١ كانون أول (ديسمبر) ١١٩٥م.
٢. «منشور من ديوان الملك العادل الى رهبان طور سيناء»، دراسة جوزيف نسيم، مجلة آداب جامعة الاسكندرية، مج ١٨، سنة ١٩٦٤. وثيقة رقم ١٢، تاريخ ٥ ذو القعدة ٥٩٥هـ/ ١١ آب (أغسطس) ١١٩٨م.
٣. «منشور من ديوان الملك العادل الى رهبان طور سيناء»، دراسة جوزيف نسيم، مجلة آداب جامعة الاسكندرية، مج ١٨، سنة ١٩٦٤. وثيقة رقم ١٥، تاريخ ٦.٧هـ/ ١٢١٠م.
٤. وثيقة بيع، دراسة عبد اللطيف ابراهيم، مجلة كلية آداب جامعة القاهرة، مج ٢٥، ج ١، مايو (أيار) ١٩٦٣م، رقم ٢٧٧، تاريخها ٢ جمادى الآخرة ٨٦٧هـ/ ٢٥ كانون أول (ديسمبر) ١٤٦٢م.
٥. وثيقة بيع، دراسة عبد اللطيف ابراهيم، مجلة كلية آداب جامعة القاهرة، مج ٢٥، ج ١، مايو (أيار) ١٩٦٣م، رقمها ٢٨٥، تاريخ ١١ ربيع الآخر ٨٨٢هـ/ ٢٤ تموز (يوليو) ١٤٧٧م.
٦. وثيقة بيع، دراسة عبد اللطيف ابراهيم، مجلة كلية آداب جامعة القاهرة، مج ٢٥، ج ١، مايو (أيار) ١٩٦٣م، رقم ٢٠٦، تاريخ ٢٧ جمادى الآخرة ٨٦٥هـ/ ١١ شباط (فبراير) ١٤٦٠م.

ب. من وثائق الحرم الشريف في مدينة القدس:

٧. وثيقة إشهاد بعدم مزاوله مهنة، نشرها كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج ٢، ١٩٨٥م، رقم ٦٣٦، تاريخها ٢٦ جمادى الأولى ٧٩٦هـ/ ٢٠ آذار (مارس) ١٣٩٣م، ودراسة محمد عيسى صالحية، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية آداب جامعة الكويت، الحولية السادسة، ١٩٨٥م.
٨. وثيقة شكوى بوقف تقسيم ورثة، رقم ٢٢٥، تاريخها ٢٠ ذي القعدة ٧٩٥هـ/ ٢٠ تموز (سبتمبر) ١٣٩٧م. نشر كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج ٢، ١٩٨٥م. ودراسة محمد عيسى صالحية، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية آداب جامعة الكويت، الحولية السادسة، ١٩٨٥م.

٩. مرسوم منقوش على قطعة من الرخام أصدره السلطان جقمق سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م. الى رهبان دير الأرمن بالقدس. نشر عارف العارف، المسيحية في القدس. ١٩٥١م. ويوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ١٩٨٢م. و

Van Berchem, Max, *Materiaux Pour un Corpus Inscription um Arabicarum, Deuxième Partie Syrie Du Sud, Tom Deuxième - Jerusalem, "Haram", 1927. Vol, 2.*

١٠. مرسوم السلطان الأشرف برسبای وتاريخه ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م. نشر
Van Berchem, *Courpus inscription um Jerusalem., Vol, 1, pt,2, Fast,1.*

١١. مرسوم السلطان الأشرف شعبان وتاريخه ٤ جمادى الآخرة ٧٦٧هـ/ ١٧ شباط (فبراير) ١٣٦٥م. نشر كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج١، و يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي.

١٢. مرسوم السلطان خشقدم وتاريخه ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م. نشر كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج١.

١٣. مرسوم منقوش على لوحة رخامية أصدره السلطان جقمق وتاريخه شهر جمادى الآخرة سنة ٨٥٣هـ/ أيار (مايو) ١٤٤٩م. نشر يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي و

Van Berchem, *Courpus inscription um Jerusalem, Vol, 2, pt2, Fast1.*

١٤. مرسوم منقوش على بلاطة ملصقة على باب كنيسة القيامة، أصدره السلطان قانصوه الغوري، وتاريخه ٩ محرم ٩١٩هـ/ ٧ آذار (مارس) ١٥١٣م، نشر يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي. وأحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ملحق رقم (٢) و

Van Berchem, *Courpus inscription um Jerusalem., Vol, 2, pt2, Fast1.*

جـ. **الوثائق المقتبسة عن السجلات المحفوظة في دير مار مرقس بالقدس:**

١٥. مرسوم السلطان سيف الدين ططر، وتاريخه ١١ ذي القعدة ٨٢٤هـ/ ٨ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٤٢٩م. نشر عارف العارف، المسيحية في القدس.

١٦. مرسوم السلطان برسبای، وتاريخه ١٤ شعبان ٨٢٥هـ/ ٤ آب (أغسطس) ١٤٢٢م، نشر عارف العارف، المسيحية في القدس.

١٧. مرسوم السلطان برسباي، وتاريخه ١٤ شعبان ٨٢٥ هـ/ ٥ آب (أغسطس) ١٤٢٢م. نشر عارف العارف، المسيحية في القدس.
١٨. مرسوم السلطان قايتباي، وتاريخه ١٧ جمادى الآخرة ٨٨٤ هـ/ ٧ أيلول (سبتمبر) ١٤٧٩م. نشر عارف العارف، المسيحية في القدس.
١٩. مرسوم السلطان قايتباي، وتاريخه ١٣ شعبان ٨٨٦ هـ/ ٨ تشرين أول (أكتوبر) ١٤٨١م. نشر عارف العارف، المسيحية في القدس.
- د. **من وثائق دير صهيون في مدينة القدس:**
 ٢٠. ملخص مرسوم عام أصدره السلطان الظاهر بيبرس، تاريخه ٩ صفر ٧٠٩ هـ/ ١١ تموز (يوليو) ١٣٠٩م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٩ في فهرس كستلاني (Castelani).
 ٢١. ملخص مرسوم عام أصدره السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تاريخه ١ جمادى الأولى ٧١٠ هـ/ ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٣١٠م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ١٠ في فهرس كستلاني.
 ٢٢. ملخص مرسوم عام أصدره السلطان شعبان بن حسين، تاريخه ٢ رجب ٧٧٦ هـ/ ٧ كانون أول (ديسمبر) ١٣٧٤م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٢٥ في فهرس كستلاني ورقم ١ نشر ريشاني (Rissani).
 ٢٣. ملخص مرسوم عام أصدره السلطان برقوق، تاريخه ٩ شوال ٧٩٠ هـ/ ١١ تشرين أول (أكتوبر) ١٣٨٨م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٢ نشر ريشاني.
 ٢٤. ملخص مرسوم عام أصدره السلطان برقوق، تاريخه ١٩ ذي القعدة ٧٩٠ هـ/ ١٩ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٣٨٨م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ليس لها رقم في فهرس كستلاني، كما أنها سقطت من مجموعة الوثائق التي نشرها ريشاني.
 ٢٥. ملخص مرسوم خاص أصدره السلطان برقوق، تاريخه ٢٠ شوال ٧٩٧ هـ/ ١٠ آب (أغسطس) ١٣٩٤م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٤ نشر ريشاني.
 ٢٦. ملخص مرسوم خاص أصدره السلطان برقوق، تاريخه ١٤ ربيع الآخر ٧٩٩ هـ/ ١٥ كانون ثاني (يناير) ١٣٩٧م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف وثيقة رقم ٧ نشر ريشاني.

٢٧. ملخص مرسوم خاص أصدره السلطان برقوق، تاريخه ١١ محرم ٨٠٠ هـ/ ٤ تشرين أول (أكتوبر) ١٣٩٧ م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٢٩، ٣٠ في فهرس كستلاني.
٢٨. ملخص مرسوم خاص أصدره السلطان فرج بن برقوق، تاريخه ٨١٤ هـ/ ١٤١١ م، نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ١٣ نشر ريشاني، وأرقام الوثائق ٣٥-٣٩ في فهرس كستلاني.
٢٩. ملخص مرسوم خاص أصدره السلطان برسباي، تاريخه شوال ٨٢٩ هـ/ آب (أغسطس) ١٤٢٥ م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٤٣ في فهرس كستلاني.
٣٠. ملخص مرسوم خاص من السلطان برسباي، تاريخه ٨٣١ هـ/ ١٤٢٧ م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٤٩ في فهرس كستلاني. كما نشره عارف العارف، المسيحية في القدس.
٣١. ملخص محضر شرعي تاريخه ١١ جمادى الآخرة ٨٤١ هـ/ ١٠ كانون أول (ديسمبر) ١٤٢٧ م. + فتوى شرعية تاريخها ١٢ رجب ٨٤١ هـ/ ١١ كانون ثاني (يناير) ١٤٢٨ م + ثلاث محاضر شرعية في ١٥، ١٦، ١٧، رجب ٨٤١ هـ/ ١٤، ١٥، ١٦ كانون ثاني (يناير) ١٤٢٨ م. وكلها مرسومة من السلطان برسباي. وملحق بها ايضا عدة محاضر شرعية. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٤٥ في فهرس كستلاني ورقم ١٨ نشر ريشاني. وهناك صورة كاملة عن المحضر الشرعي. نشره أحمد دراج، الممالك والفرنج في القرن التاسع عشر الهجري/الخامس عشر الميلادي، ملحق رقم ٤.
٣٢. ملخص مرسوم خاص من السلطان جقمق، تاريخه ١١ صفر ٨٥١ هـ/ ٢٩ نيسان (أبريل) ١٤٤٧ م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٢١ نشر ريشاني. وهناك صورة عن المرسوم كاملا نشره كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج ١، وأحمد دراج، الممالك والفرنج. ملحق رقم ٦.
٣٣. ملخص مرسوم خاص من السلطان جقمق، تاريخه ٢١ ذي الحجة ٨٥١ هـ/ ٢٨ شباط (فبراير) ١٤٤٧ م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٢٤ نشر ريشاني. وهناك صورة كاملة عن المرسوم نشر أحمد دراج، الممالك والفرنج، ملحق رقم ٨.

٢٤. ملخص مرسوم عام من السلطان خشقدم تاريخه ٢٨ صفر ٨٦٩ هـ/ ٢٠ تشرين أول (أكتوبر) ١٤٦٤م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٥٦ في فهرس كستلاني. وهناك صورة كاملة عن المرسوم نشرها أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ملحق رقم ٢.
٢٥. ملخص مرسوم خاص من السلطان خشقدم تاريخه ١٣ رمضان ٨٧٠ هـ/ ٢٠ نيسان (أبريل) ١٤٦٥م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٢٦ نشر ريشاني. وهناك صورة كاملة عن المرسوم نشرها كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ج ١.
٢٦. ملخص مرسوم خاص أصدره السلطان قايتباي، تاريخه ٤ ذي الحجة ٩٠٠ هـ/ ٢٧ آب (أغسطس) ١٤٩٤م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٦٥ في فهرس كستلاني.
٢٧. ملخص مرسوم خاص أصدره السلطان قايتباي، تاريخه ٣٠ جمادى الأولى ٩٠١ هـ/ ١٦ شباط (فبراير) ١٤٩٥م. نشره أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٦٦ في فهرس كستلاني.
٢٨. حجة صادرة زمن السلطان قانصوه الغوري، تاريخها ٢٠ رمضان ٩٠٤ هـ/ ٢ أيار (مايو) ١٤٩٨م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٦٩ في فهرس كستلاني.
٢٩. ملخص مرسوم خاص من السلطان قانصوه الغوري، تاريخه ١٤ ربيع ثاني ٩٠٩ هـ/ ٧ تشرين أول (أكتوبر) ١٥٠٣م. نشر أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، وثيقة رقم ٧٣ في فهرس كستلاني.

ثانياً: المصادر العربية المخطوطة:

٤٠. ابن حبيب، بدر الدين الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر، المتوفى سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، درة الأسلاك في دولة الأتراك، ٣ أجزاء، الجزء الأول يبدأ بحوادث ٦٤٨هـ وحتى سنة ٧١٤هـ. صورة عن مخطوط محفوظ في مكتبة بودليان، أكسفورد، برقم ٢٢٣ مجموعة مارش، ويوجد نسخة عنه على ميكروفلم في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية برقم ٥٣٩. والجزء الثاني يبدأ بحوادث سنة ٧١٥هـ وحتى سنة ٧٢١هـ. صورة عن مخطوط محفوظ في مكتبة بودليان، أكسفورد، برقم ٢٨١ مجموعة مارش. ويوجد نسخة عنه على ميكروفلم في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية برقم ٥٣٣. والجزء الثالث يبدأ بحوادث ٧٦٢هـ. صورة عن مخطوط محفوظ في مكتبة بودليان، أكسفورد برقم ٢١٩ مجموعة مارش ويوجد نسخة عنه على ميكروفلم في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية برقم ٥٣٩.

٤١. ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، المتوفى سنة (٥٧١ هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، الجزء الأول، صورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق وكمل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش واستنبول، ووضع فهارس التراجم والموضوعات الشيخ محمد بن رزق الطرهوني، دمشق، دار البشير للنشر، د.ت.
٤٢. أحكام العتيقة، وهي قوانين للنصارى من العرب، الجزء الأول، ترجمة يوحنا غالبياني وسرجونيا، مخطوط مصور عن الأصل المحفوظ في الامبروزيانا بدون رقم، طبعت بالفوتوستات ونشرت في ميلانو، ١٩٦٤م. وهناك نسخة تعود إلى الدكتور محمد عيسى صالحية.
٤٣. بيبرس الدوادار، ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار، المتوفى سنة (٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء العاشر، صورة عن مخطوط محفوظ في جامعة ييل (Yael)، رقم ٧٥٨، مجموعة لاند بيرج، ويوجد نسخة عنه على ميكروفلم في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية ورقمه ٢٠.
٤٤. الجزري، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن مجد الدين ابراهيم بن ابي بكر، المتوفى سنة (٧٣٩ هـ/ ١٣٢٨م)، حوادث الزمان وأنباؤها ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، صورة عن مخطوط محفوظ في مكتبة باريس رقم AR٦٧٣٩، وهناك نسخة تعود إلى الدكتور نعمان جبران.
٤٥. الذهبي، الحافظ شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايمان، المتوفى سنة (٧٤٨ هـ/ ١٣٤٣م)، تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام من الهجرة إلى سنة ٧٠٠ هـ أو تاريخ الذهبي، جزء (٢٠) يترجم فيه لمشاهير الاسلاميين بين سني ٥٨١ هـ - ٦١٠ هـ ويتحدث باختصار عن الأحداث في السنوات من ٦٠١ - ٦٢٠ هـ صور هذا الجزء من المتحف البريطاني رقم ٤٨.٦ ويوجد نسخة عنه على ميكروفلم في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية ورقمه ٣٠١. والجزء (٢١) يبدأ بحدوث ٦٢١ هـ - ٦٦٠ هـ صور من مكتبة بودليان، اكسفورد رقم ٣٠٥ مجموعة لود، ويوجد نسخة عنه على ميكروفلم في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية رقم ٥٣٧.
٤٦. العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، المتوفى سنة (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء ١١، قسم ١، صورة عن نسخة مكتبة الاستانة بدون رقم، ويوجد عنه نسخة على ميكروفيلم في قسم المخطوطات بجامعة اليرموك تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة.

ثالثاً: المصادر العربية المطبوعة:

٤٧. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني، المتوفى سنة (٦٣٠ هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ١٠ أجزاء، مراجعة محمد دقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.
٤٨. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، المتوفى سنة (٦٠٦ هـ/١٢٠٩م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٥ أجزاء، تحقيق محمد الطناحي وطاهر الزاوي، القاهرة، دار الفكر، ط ٢، ١٩٧٩م.
٤٩. ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي، المتوفى سنة (٧٢٩ هـ/١٣٢٨م)، معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان وصديق المطيعي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.
٥٠. ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي المصري، المتوفى سنة (٩٣٠ هـ/١٥٢٣م)، تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢-١٩٨٤م.
٥١. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي، المتوفى سنة (٦٦٨ هـ/١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، ١٩٦٥م.
٥٢. ابن أبي الفضائل، الفضل، المتوفى سنة (٧٥٩ هـ/١٣٥٧م)، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد ابن العميد، ٣ جزء، نشره Blochet-E، في: Patrologia Orientalis, Paris. 12, 1919, pp. 345-550. 14, 1920, pp. 375-672. 20, 1929, pp. 3-270.
٥٣. ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي، المتوفى سنة (٧٧٩ هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، بيروت، دار التراث، ١٩٦٨م.
٥٤. ابن تيمية، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس، المتوفى سنة (٨٠٣ هـ/١٤٠٠م)، الاختيارات الفقهية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة للنشر، ١٣٦٩ هـ/١٩٤٩م.
٥٥. —، فتاوي الخمر والمسكرات، تحقيق، محمد الحفناوي، طنطا، دار البشير للثقافة، ١٩٨٨م.

٥٦. ابن جبير، ابو الحسن محمد بن أحمد الاندلسي، المتوفى سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م)،
تذكرة الأخبار في اتفاقات الأسفار المشهور برحلة ابن جبير، بيروت، دار
صادر للطباعة والنشر، ١٩٦٤م.
٥٧. ابن جماعة، بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله، المتوفى سنة
(٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق فؤاد عبد المنعم
أحمد، قطر، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط ٣، ١٩٨٨م.
٥٨. ابن الجوزي، الامام ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي، المتوفى
سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٠ أجزاء، حيدر آباد،
مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.
٥٩. —، القرامطة، تحقيق محمد الصباغ، دمشق المكتب الاسلامي، ط ٤،
١٩٧٧م.
٦٠. —، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، تعليق نعيم زرزور، بيروت،
دار الكتب العلمية، ١٩٨٤م.
٦١. ابن الحاج، ابو عبد الله بن محمد العبدري الفاسي، المتوفى سنة
(٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، المدخل الى الشرع الشريف، ٤ أجزاء، بيروت، دار الكتاب
العربي، ط ٢، ١٩٧٢م.
٦٢. ابن حبيب، الإمام الحسن عمر بن الحسن بن عمر، المتوفى سنة
(٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تذكرة النبوة في أيام المنصور وبنية، ٢ جزء، تحقيق محمد
أمين مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م.
٦٣. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن محمود الشافعي، المتوفى
سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، أنباء الغمر بأبناء العمر، ٩ أجزاء، طبع بإعانة وزارة
المعارف الهندية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٨٦م.
٦٤. —، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، تحقيق محمد
سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ط ٢، ١٩٦٦-١٩٦٧م.
٦٥. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله، المتوفى سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م)،
المسالك والممالك، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩م. وبذيله كتاب الخراج وصناعة
الكتابة لابي فرج قدامة بن جعفر.
٦٦. ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم، المتوفى سنة (٦٨١هـ/
١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق إحسان عباس،
بيروت، دار صادر، ١٩٣٠م.

٦٧. ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن هبيرة الليثي العصفري، المتوفى سنة (٢٤٠هـ/٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٧٧م.
٦٨. ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيذر العلاءي، المتوفى سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطين، ٢ جزء، تحقيق محمد كمال عز الدين، مصر، عالم الكتب، ١٩٨٥م.
٦٩. ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، المتوفى سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، المكتب التجاري للنشر والتوزيع، ١٩٧٠م.
٧٠. ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام، المتوفى سنة (٢٢٤هـ/٨٢٨م)، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، دار الفكر للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٨٨م.
٧١. ابن شاعر الكتبي، محمد بن أحمد بن شاعر الكتبي، المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، ٥ أجزاء، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣م.
٧٢. ابن شاهين، غرس الدين بن شاهين الظاهري، المتوفى سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، المطبعة الجمهورية، ١٨٩٢م.
٧٣. ابن الشحنة، محمد بن محمود بن الشهاب غازي بن ايوب بن الحب ابو الفضل ابن الشحنة الحلبي، المتوفى سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله الدرويش، دمشق، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م.
٧٤. ابن شداد، عز الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم، المتوفى سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ٣ أجزاء، ج١، ق١، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٢م. ج٢، ق١ وق٢، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٦-١٩٦٢م.
٧٥. ابن شداد، القاضي بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة، المتوفى سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، كتاب سيرة صلاح الدين، المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٤م.

٧٦. ابن صصري، محمد بن محمد، المتوفى بعد سنة (٨٠٠ هـ/١٣٩٧م)، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم بيرنر، بركلي، جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٣م.
٧٧. ابن الصيرفي، علي بن داود بن ابراهيم المعروف بالخطيب الجوهري وبابن الصيرفي، المتوفى سنة (٩٠٠ هـ/١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ٣ أجزاء، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠-١٩٧٣م.
٧٨. ———، انباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠م.
٧٩. ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن طولون الصالحي الدمشقي، المتوفى سنة (٩٥٣ هـ/١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان تاريخ مصر والشام، ٢ جزء، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٤م.
٨٠. ———، إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق محمد دهمان، دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٤م.
٨١. ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين، المتوفى سنة (٦٩٢ هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.
٨٢. ———، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦١م.
٨٣. ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملقب، المتوفى سنة (٦٨٥ هـ/١٢٨٦م)، مختصر تاريخ الدول، بيروت، دار المسيرة، (١٩٧٠).
٨٤. ———، تاريخ الدول السرياني، نشر اسحق ارملة السرياني، نشر على فصل في مجلة المشرق، بيروت، العدد ٤٧، ١٩٥٣م والعدد ٥٠، ١٩٥٦م.
٨٥. ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله، المتوفى سنة (٦٦٠ هـ/١٢٦١م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٣ أجزاء، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٨٦م.
٨٦. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله، المتوفى سنة (٥٧١ هـ/١١٧٥م)، تهذيب تاريخ دمشق، ٧ أجزاء، هذبه ورتبه عبد القادر بدران، دمشق، دار المسيرة، ط٢، ١٩٧٩م.

٨٧. ابن فارس، ابو الحسن أحمد بن زكريا، المتوفى سنة (٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، ستة اجزاء، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٩م.
٨٨. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، المتوفى سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، تاريخ الدول والملوك نشر باسم تاريخ ابن الفرات، الأجزاء ٧، ٨، ٩، تحقيق قسطنطين زريق وشاركت نجلاء عز الدين في تحقيق القسم الثاني من الجزء التاسع، بيروت، المطبعة الاميركانية، ١٩٨٣م. والجزء الرابع، تحرير ونشر حسن محمد الشماع، البصرة، مطبعة مراد، ١٩٦٧م.
٨٩. ابن قاضي شهبه، تقي الدين أبو بكر محمد بن أحمد، المتوفى سنة (٨٥١هـ / ١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق عدنان درويش، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٧٧م.
٩٠. ابن القف، ابو الفرج يعقوب بن الشيخ موفق الدين اسحق، المتوفى سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض، تحقيق سامي حمارنة، عمان، منشورات الجامعة الاردنية، ١٩٨٩م.
٩١. ———، العمدة في الجراحة، الجزء الاول، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط٢، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.
٩٢. ابن القفطي، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم، المتوفى سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، بيروت، دار الآثار للطباعة والنشر، د.ت.
٩٣. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد، المتوفى سنة (٥٥٥هـ / ١١٦٠م)، ذيل كتاب تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م. مصحوب بشذرات من تواريخ الفارقي وسيط بن الجوزي والذهبي.
٩٤. ابن قيم الجوزية، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي بكر، المتوفى سنة (٧٥١هـ/١٣٥٠م)، زاد المعاد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ٥ أجزاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩م.
٩٥. ———، أحكام أهل الذمة، ٢ جزء، تحقيق صبحي الصالح، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦١م.
٩٦. ———، شرح الشروط العمرية مجردا من كتاب احكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، دمشق، مطبعة دمشق، ١٩٦١م.

٩٧. ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، المتوفى سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزء، تدقيق احمد ابو ملح وأخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٩٨٨م.
٩٨. ابن ماجه. ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، المتوفى سنة (٢٧٥هـ/٨٨٨م)، صحيح سنن ابن ماجه، ٢ جزء، تأليف ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٦م.
٩٩. ابن معاتي، القاضي الوزير شرف الدين ابو المكارم الأسعد بن مليح، المتوفى سنة (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، كتاب قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٤٣م.
١٠٠. ابن منظور، جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم، المتوفى سنة (٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، ١٥ جزء، بيروت، دار صادر، ١٩٨٦م.
١٠١. ابن النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل بن عبد الغني، المتوفى سنة (١١٤٢هـ/١٧٣٠م)، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض مراد، دمشق، دار المعرفة، ١٩٨٩م.
١٠٢. ابن النظيف، ابو الفضل محمد بن علي الحموي (ت في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) التاريخ المنصوري، تحقيق ابو العيد دودو، مراجعة عدنان درويش، دمشق، مطبعة الحجاز، ١٩٨١م.
١٠٣. ابن الواسطي، غازي، (ت في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)، الرد على أهل الذمة، نشر في: Journal of the American Oriental Society, Vol,14, U.S.A Yal university press, 1921. pp. 383-451.
١٠٤. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، المتوفى سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الأجزاء ١، ٢، ٣، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣-١٩٦٠م، والأجزاء ٤، ٥، تحقيق حسنين محمد ربيع وسعيد عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٢-١٩٧٧م.
١٠٥. ابن الوردي، سراج الدين ابو حفص عمر بن محمد، المتوفى سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تنمة المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ ابن الوردي، ٢ جزء، تحقيق أحمد البدرأوي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٠م.
١٠٦. ———، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مصر، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط ٢، ١٩٣٩م.

١٠٧. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى سنة (٢٧٥هـ/٨٨٨م)، سنن أبي داود، ٤ أجزاء، راجعه وضبط حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار إحياء السنة النبوية، د.ت.
١٠٨. أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل، المتوفى سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين، ٢ جزء، رواية الشيخ الإمام مجد الدين أبو المظفر يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي، بيروت، دار الجيل، د.ت.
١٠٩. ——— تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، نشر عزت العطار الحسيني، بيروت، دار الجيل، ط ٢، ١٩٧٤م.
١١٠. أبو شجاع، محمد بن الحسين عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين الروذراوري، المتوفى سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، ذيل كتاب تجارب الأمم، الجزء الثالث، اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ ف أمد روز، مصر، التمدن الصناعية، ١٩١٦م.
١١١. أبو عثمان النابلسي، أبو محمد عثمان بن إبراهيم، المتوفى سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م)، لمع القوانين في دواوين الديار المصرية، تحقيق س. بيكر. دمشق، مجلة المعهد الفرنسي، مج ١٦، ١٩٥٨-١٩٦٠م.
١١٢. أبو الفداء، المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين، المتوفى سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان، تحقيق رينود وماك كوكين دي سلان، باريس، المطبعة الملكية (دار الطباعة السلطانية)، ١٨٤٠م.
١١٣. ——— المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، كفر الطامعين (قسم الجمالية)، المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.
١١٤. أبو الفلاح، شهاب الدين عبد الحي بن العماد الحنبلي، المتوفى سنة (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الحديثة، د.ت.
١١٥. أبو القاسم الغساني، محمد بن إبراهيم الشهير بالوزير، (ت في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي)، حديقة الأزهار في ماهية العشب والنقار، تحقيق محمد العربي، بيروت، دار العربي، ١٩٨٥م.
١١٦. أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي، المتوفى سنة (٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، الأجزاء من ١-١٢، مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٣م. و ج ١٢، تحقيق محمد فهم

- شلتوت، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م. ج ١٤، تحقيق جمال محمد محرز وفهيم شلتوت، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر و ج ١٥، تحقيق إبراهيم طرخان، مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١م. ج ١٦، تحقيق جمال الدين الشيال و فهيم محمد شلتوت، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.
١١٧. ———، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ٢ جزء، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م.
١١٨. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، المتوفى سنة (١٩٢هـ/٨٠٧م)، كتاب الخراج، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٩م.
١١٩. أحمد، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد، المتوفى سنة (٢١٤هـ/٨٢٩م)، مسند الإمام أحمد، ٦ أجزاء، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، د.ت.
١٢٠. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس، المتوفى سنة (٥٦٠هـ/١١٦٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٩ أجزاء، نابولي، روما، معهد الدراسات الشرقية، ١٩٦٥-١٩٧٧م.
١٢١. أسامة بن منقذ، الأمير مجد الدين أبو المنذر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الشيزري الكناني، المتوفى سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م)، كتاب الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، الرياض، دار الأصاله للثقافة والنشر، ١٩٨٧م.
١٢٢. الأسدي، محمد بن محمد بن خليل، المتوفى بعد سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م)، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبد القادر طليعات، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م.
١٢٣. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، المتوفى سنة (٣٥٦هـ/٩٦٦م)، كتاب الأغاني، ٢٤ جزء، الأجزاء ١-٢ مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية، ١٩٦٣م. الأجزاء من ٣-١٦ مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، دار إحياء التراث العربي، د.ت. ج ١٧، تحقيق علي محمد البجاوي، ج ١٨، ١٩، ٢١، ٢٤، تحقيق عبد الكريم العزباوي وشارك محمد غنيم في تحقيق الجزء ٢١ وعبد العزيز مطر في تحقيق الجزء ٢٤. ج ٢٠، تحقيق علي النجدي ناصف، وجزء ٢٢، ٢٣ تحقيق علي السباعي، وجميعها صادرة عن دار إحياء التراث العربي، د.ت.

١٢٤. الانطاكي، يحيى بن سعيد، المتوفى سنة (٤٥٨ هـ/١٠٦٥ م)، تاريخ الانطاكي أو صلة كتاب اوتيا المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩ م.
١٢٥. الباكوي، عبد الرشيد صالح بن نوري، المتوفى سنة (١١٠٢ هـ/١٦٩٠ م)، كتاب تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، ترجمة وتعليق ضياء الدين بونيا توف، موسكو، إدارة التحرير الرئيسية للآداب الشرقية، ١٩٧١ م.
١٢٦. البخاري، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل، المتوفى سنة (٢٥٦ هـ/٨٦٩ م)، صحيح البخاري، ٩ أجزاء، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨.
١٢٧. البصري، علاء الدين بن يوسف احمد الدمشقي، المتوفى سنة (٩٠٥ هـ/١٤٩٩ م) تاريخ البصري، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر الماليك، تحقيق اكرم العلبي، دمشق، دار المأمون للتراث، ١٩٨٨ م.
١٢٨. البغدادى، صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق بن عبد الله، المتوفى سنة (٧٣٩ هـ/١٣٢٨ م)، مرآة الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، ٢ أجزاء، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٥٤-١٩٥٥ م.
١٢٩. البغدادى، موفق الدين ابو عبد اللطيف يوسف بن محمد، المتوفى سنة (٦٢٩ هـ/١٢٣١ م)، كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، تحقيق احمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبي، ١٩٨٣ م.
١٣٠. البلاذري، ابو العباس احمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى، المتوفى سنة (٢٧٩ هـ/٨٩٢ م)، فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨ م.
١٣١. البلوي، ابو المجد عبد الله بن محمد المديني، المتوفى في (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، سيرة احمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، المكتبة العربية، ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م.
١٣٢. البنداري، قوام الدين الفتح بن على بن محمد الأصفهاني، المتوفى سنة (٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م)، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩ م.
١٣٣. البيروني، ابو الريحان محمد بن احمد الخوارزمي، المتوفى سنة (٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م)، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق ادوارد ساشو، ليبزج، بروكهاوس، ١٩٢٣ م. اعادت طبعة بالافست، بغداد، مكتبة المثنى.
١٣٤. البيهقي، ابو بكر احمد بن الحسين، المتوفى سنة (٤٥٨ هـ/١٠٦٥ م)، السنن الكبرى، ١٠ أجزاء، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

١٣٥. الترمذي، أبو عيسى محمد بن سورة، المتوفى سنة (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، الجامع الصحيح أو سنن الترمذي، ٥ أجزاء، تعليق عزت عبيد الدعاس، حمص، مطابع الفجر الحديثة، ١٩٦٧م.
١٣٦. الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، المتوفى سنة (٣٣١هـ/٩٤٢م)، كتاب الوزراء والكتاب، حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٢٨م.
١٣٧. الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، المتوفى سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٤م.
١٣٨. الدمشقي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الانصاري الملقب بشيخ الربوة، المتوفى سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بطرسبورغ، المطبعة الأكاديمية، ١٨٤٠م.
١٣٩. الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز، المتوفى سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، ذيل العبر في خبر من غير، الجزء الرابع من كتاب العبر، تحقيق أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م.
١٤٠. —، العبر في خبر من غير، ٢ أجزاء، تحقيق أبو هاجر محمد سعيد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
١٤١. —، دول الاسلام، ٢ جزء، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٧هـ/١٩١٨م.
١٤٢. الزمخشري، محمود بن عمر، المتوفى سنة (٥٣٨هـ/١١٤٣م)، كتاب الامكنة والمياه والجبال، تحقيق ابراهيم السامرائي، بغداد، مطبعة السعدون، ١٩٦٨م.
١٤٣. سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن غزا اوغلي بن عبدالله، المتوفى سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، الجزء الثامن، قسم ٢، الهند، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٢م.
١٤٤. السخاوي، محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان، المتوفى سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، دت.
١٤٥. —، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، بيروت، مكتبة الحياة، دت.
١٤٦. السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد، المتوفى سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، كتاب المبسوط، ٣٠ جزء في ١٥ مج، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٨٦م.

١٤٧. سعيد بن البطريق، أفتيشيوس، المتوفى في (القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م.
١٤٨. السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، المتوفى (سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ٢ جزء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧م.
١٤٩. الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد، المتوفى سنة (٣٨٨هـ/٩٩٨م)، كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٥١م.
١٥٠. الشافعي، أبو عبدالله محمد بن إدريس، المتوفى سنة (٢٠٤هـ/٨١٩م)، الأم، ٨ أجزاء، بيروت، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م.
١٥١. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد، المتوفى سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م)، الملل والنحل، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨١م.
١٥٢. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، المتوفى سنة (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، ٩ أجزاء، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م.
١٥٣. الشيزري، عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله، المتوفى (حوالي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق الباز العريني، باشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٤٦م.
١٥٤. ———، المنهج السلوك في سياسة الملوك، تحقيق علي عبدالله الموسى، الزرقاء، مكتبة المنار، ط٢، ١٩٨٧م.
١٥٥. صالح بن يحيى، صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين، المتوفى سنة (٨٤٠هـ/١٤٣٦م)، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، دار المشرق، ١٩٦٧م.
١٥٦. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي، المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، ١٢ جزء، ج١، تحقيق هلموت ريتز، ط٢، ١٩٦٢م. ج٢-٦ تحقيق س. ديد رنغ، ط٢، ١٩٧٠-١٩٧٤م.
- ج٧ تحقيق احسان عباس، ١٩٦٩م. ج٨، تحقيق محمد يوسف نجم، ط٢، ١٩٧١م. ج٩ تحقيق يوسف فان إس، ط٢، ١٩٨٢م. ج١٠، تحقيق جاكولين سوبله وعلي عمارة، ط٢، ١٩٨٢م. ج١٢، تحقيق رمضان عبدالنواب، ١٩٧٩م. صدرت جميعها عن دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن.

١٥٧. الصقاعي، فضل الله بن أبي الفخر، المتوفى سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق جاكين سوبله، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٧٤م.
١٥٨. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، المتوفى سنة (٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك أو تاريخ الأمم والملوك، ١٠ أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٧.
١٥٩. العليمي الحنبلي، أبو اليمن القاضي مجير الدين العليمي الحنبلي المقدسي، المتوفى سنة (٩٢٧هـ/١٥٢٠م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ جزء، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣م.
١٦٠. العماد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن صفى الدين أبو الفرج محمد بن نفيس، المتوفى سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، البرق الشامي، ج٥، تحقيق فالح حسين، عمان، مؤسسة عبدالحميد شومان، ١٩٨٧م.
١٦١. —، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥م.
١٦٢. العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، المتوفى سنة (٧٤٩هـ/١٢٤٨م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول، الباب ٦، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٥م.
١٦٣. —، التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، مطبعة العاصمة، ١٣١٢هـ/١٨٩٤م.
١٦٤. العيني، بدر الدين أبو محمد حمد بن أحمد بن موسى، المتوفى سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، جزء يشمل على حوادث وتراجم سنين ٦٤٨-٦٦٤هـ/١٢٥٠-١٢٦٥م، تحقيق محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م. وجزء يشمل على حوادث وتراجم ٦٦٥-٦٨٦هـ/١٢٦٦-١٢٨٩م، تحقيق محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، وجزء يشمل على حوادث وتراجم سنين ٨٢٤-٨٥٠هـ/١٤٢١-١٤٤٦م، تحقيق عبدالرزاق القرموط، القاهرة، الزهراء للأعلام العربي، ١٩٨٩م.
١٦٥. الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين، المتوفى سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، الأحكام السلطانية، تصحيح حامد الفقي، مصر، مطبعة مصطفى البابي، ط٢، ١٩٦١م.
١٦٦. الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، المتوفى سنة (٨١٧هـ/١٤١٤م)، القاموس المحيط، ٤ أجزاء، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة

- للمطبعة الاميرية سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م. مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.
١٦٧. قدامه، ابو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادي، المتوفى سنة (٢٣٧هـ/٩٤٨م)، نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمود ياسين الزبيدي، العراق، دار الرشيد، ١٩٨١م.
١٦٨. القرطبي، عريب بن سعد، المتوفى سنة (٣٦٦هـ/٩٧٦م)، صلة تاريخ الطبري، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
١٦٩. القزويني، القاضي زكريا بن محمد بن محمود القزويني، المتوفى سنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، د.ت.
١٧٠. القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله ابو اليمن، المتوفى سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزء، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه من ج ١-٤، ٧، ١٠-١٤، محمد حسين شمس الدين، ج ٥ نبيل خالد الخطيب، ج ٦، ٨-٩، يوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.
١٧١. ———، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ٢ جزء، تحقيق عبدالستار فراخ، بيروت، عالم الكتب، د.ت.
١٧٢. الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب، المتوفى سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م.
١٧٣. المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي، المتوفى سنة (٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثاني، طبعة برّيه دي مينار وبافيه دي كرتاي، تحقيق، شارل بلا، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٦م.
١٧٤. المقدسي، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن محمد، المتوفى سنة (٣٧٥هـ/٩٨٥م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تقديم غازي طليمات، دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٨٠م.
١٧٥. المقرئ، تقي الدين احمد بن علي، المتوفى سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية، ٣ جزء، بقلم محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار التحرير للطبع والنشر عن طبعة بولاق، سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م.
١٧٦. ———، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، الجزء الأول والثاني تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٣٤-١٩٤٢م. والجزء الثالث والرابع، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠-١٩٧٣م.

١٧٧. النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق بن محمد بن اسحق الوراق، المتوفى سنة (٢٨٠هـ/٩٩٠م)، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، د.ن، ١٩٧١م.
١٧٨. النويري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، المتوفى سنة (٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر من ١-١٨ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت. ج١٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢٠، تحقيق محمد رفعت فتح الله، ج٢١، تحقيق محمد علي البيجاوي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥-١٩٧٦م.
١٧٩. النويري الإسكندراني، محمد بن قاسم بن محمد، المتوفى سنة (بعد ٧٥٥هـ/١٣٥٤م)، اللام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمر المقضية في وقعة الاسكندرية، ٦ أجزاء والسابع فهارس، ج١، ج٢ بدأ تحقيقهما اتين كومب، وأتم تحقيقهما عزيز سوريال عطية، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٨-١٩٦٩م. ج٣، ٤، ٥، ٦ تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٠-١٩٧٣. جمع الفهارس ورتبها عزيز سوريال عطية، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٦.
١٨٠. الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر، المتوفى سنة (٦١١هـ/١٢١٤م)، كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جاني سورديل - طومين - دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٣م.
١٨١. ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، المتوفى سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ أجزاء، بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م.
١٨٢. —، ارشاد الأريب الى معرفة الأديب، المعروف باسم معجم الأدباء، ٢٠ جزء، نشر داود مرجليوث، بيروت، دار المستشرق، ١٩٢٢م.
١٨٣. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المتوفى بعد سنة (٢٩٢هـ/٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، ٢ أجزاء، تقديم محمد صادق بحر العلوم، النجف، المكتبة الحيدرية، ط٤، ١٩٧٤م.
١٨٤. اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، المتوفى سنة (٧٥٩هـ/١٣٥٧م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق احمد حطيط، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٦م.

١٨٥. اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد بن أحمد، المتوفى سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، ذيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٤-١٩٦٢م.

رابعاً: المراجع العربية الحديثة،

١٨٦. أبو جيب، سعدي، القاموس الفقهي، دمشق دار الفكر، ١٩٨٢م.
١٨٧. آل تقي الدين، محمد أديب، كتاب منتخبات التواريخ لدمشق، ٢ أجزاء، تقديم كمال الصليبي، بيروت، دار الافاق الحديثة، ١٩٧٩م.
١٨٨. الإمام، رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦م.
١٨٩. أنطون، فرح، اورشليم الجديدة، الاسكندرية، دن، ١٩٠٤م.
١٩٠. باشا، عمر موسى، الادب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٩م.
١٩١. البخيت، محمد عدنان، مملكة الكرك في العصر المملوكي، دم، دن، ١٩٧٦م.
١٩٢. البقلي، محمد، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.
١٩٣. بهنسي، عفيف، العمارة عبر التاريخ، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٧م.
١٩٤. حسن، علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م.
١٩٥. حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، ١٩٨١م.
١٩٦. الحيدر آبادي، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، دت.
١٩٧. خان، ظفر الاسلام، تاريخ فلسطين القديم، بيروت، دار النفائس، ١٩٧٩م.
١٩٨. خماش، نجدة، الشام في صدر الاسلام، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٧م.
١٩٩. خوري، شحادة ونقولا، خلاصة تاريخ كنيسة اورشليم الارثوذكسية، القدس، د. ن، ١٩٢٥م.
٢٠٠. الدبس، المطران يوسف الياس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، ٩ أجزاء، بيروت، المطبعة العمومية، ١٨٩٣-١٩٠٥م.

٢٠١. دراج، أحمد، الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٦م.
٢٠٢. —، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٨م.
٢٠٣. دهمان، محمد أحمد، ولاية دمشق في عهد الممالك، دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٩٨١م.
٢٠٤. دي طرازي، الفيكنت فيليب، خزائن الكتب العربية في الخافقين، ٢ جزء، لبنان، دار الكتب، دت.
٢٠٥. رمضان، أحمد، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مصر، مؤسسة روزا اليوسف، ١٩٧٧م.
٢٠٦. زايد، عبد الحميد، القدس الخالدة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.
٢٠٧. زايد، محمود، رحلة برتراندون دي لا بوركير إلى فلسطين ولبنان وسورية (١٤٣٢م)، د.م، دن، ١٩٦٢م، أخذ عن مجلة الأبحاث، السنة ١٥، ج ٣، ١٩٦٢م.
٢٠٨. الزحيلي، محمد مصطفى، «الاسلام والذمة»، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية، (مؤسسة آل البيت)، معاملة غير المسلمين في الاسلام، ج ١، عمان، المجمع الملكي، ١٩٨٩م، ص ص ١٠٩-١٧٢.
٢٠٩. الزركلي، خير الدين، الاعلام، قاموس تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ١٠ أجزاء، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٥، ١٩٨٠م.
٢١٠. الزيات، حبيب، خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، ٤ جزء، دمشق، مطابع ألف باء للاديب، ١٩٨٢م.
٢١١. زيادة، نقولا، الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٢م.
٢١٢. —، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، القدس، الكلية العربية، ١٩٤٣م.
٢١٣. —، دمشق في عصر الممالك، بيروت، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.
٢١٤. —، «فيلكس فابري في فلسطين»، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، (فلسطين)، ج ٢، عمان، مطابع الجمعية العلمية الملكية، ١٩٨٣م، ص ص ١٩٢-٢٠٦.

٢١٥. سالم، عبدالعزيز، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.
٢١٦. السيد، علي، القدس في العصر المملوكي، القاهرة، دار الفكر للدراسات والترجمة، ١٩٨٦م.
٢١٧. شافعي، سلام، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والأيوبي، ٤٦٧-٦٤٨هـ/ ١٠٧٤-١٢٥٠م. القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢م.
٢١٨. الشدياق، طنوس، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، ٢ جزء، وضع مقدمته وفهارسه افرام البستاني، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠م.
٢١٩. شقير، نعم، تاريخ سيناء، مصر، دن، ١٩٦١م.
٢٢٠. صالحية، محمد عيسى، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية أداب جامعة الكويت، الحولية السادسة، الكويت، ١٩٨٥م.
٢٢١. ———، حطين وعين جالوت واليهود في القدس- منظور تاريخي يهودي-، بحث القى في ندوة حطين بمناسبة مرور ثمانية قرون على موقعه حطين، الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٢م.
٢٢٢. ———، النصارى في القدس في العهد المملوكي، الكتاب التذكاري، الكويت، جامعة الكويت، ١٩٨٨م، ص ٨٠-١١١.
٢٢٣. الصّوّا، علي، «موقف الاسلام من غير المسلمين في المجتمع الاسلامي»، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية (مؤسسة آل البيت)، معاملة غير المسلمين في الاسلام، ج ١، عمان، المجمع الملكي، ١٩٨٩م. ص ١٧٥-٢٤٤.
٢٢٤. الصياد، فؤاد عبدالمعطي، المغول في التاريخ، الجزء الأول، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٨٠م.
٢٢٥. ضو، الأب بطرس، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، ٥ أجزاء، بيروت، دار النهار للنشر، ط ٢، ١٩٧٧م.
٢٢٦. ضومط، انطون خليل، الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٠م.
٢٢٧. الطراونة طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليك، بيروت، دار الافاق الجديدة، ١٩٨٢م.
٢٢٨. طرخان، ابراهيم علي، مصر في دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م.
٢٢٩. ظاظا، حسن، القدس، مدينة الله أم مدينة داود، الاسكندرية، مطبعة جامعة الاسكندرية، ١٩٧٠م.

٢٣. العارف، عارف، المسيحية في القدس، القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذكس، ١٩٥١م.
٢٣١. ———، المفصل في تاريخ القدس، الجزء الأول، مطبعة المعارف، القدس، ١٩٦١م.
٢٣٢. عاشور، سعيد عبدالفتاح، أوروبا العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٨، ١٩٨٥م.
٢٣٣. ———، الحركة الصليبية، ٢ جزء، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٤، ١٩٨٢م.
٢٣٤. ———، الناصر صلاح الدين، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥م، سلسلة اعلام العرب، العدد ٤١.
٢٣٥. ———، «بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك»، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، ج ١، عمان، مطابع الجمعية العلمية الملكية، ١٩٨٣، ص ص ٨٠-١٢٧.
٢٣٦. عبدالخالق، هناء الزجاج الاسلامي، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦م.
٢٣٧. العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، ٢ جزء، عمان، الجامعة الاردنية، ١٩٨٣-١٩٨٧م.
٢٣٨. عطية، جورج، «الجدل الديني المسيحي الاسلامي في العصر الاموي وأثره في نشوء علم الكلام»، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، ج ١، عمان، ١٩٨٩م، ص ص ٤٠٧-٤٢٦.
٢٣٩. العلبي، اكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ٢ جزء، دمشق، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، ١٩٨٢م.
٢٤٠. علي، محمد كرد، خطط الشام، ٦ أجزاء، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٩-١٩٧١م.
٢٤١. عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.
٢٤٢. عنان، محمد عبدالله، مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ الاسلامي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر.
٢٤٣. عيسى، أحمد، معجم الأطباء أو ذيل عيون الانباء الأطباء، مصر، مطبعة فتح الله البابي وأولاده، ١٩٤٢م.
٢٤٤. الغزي، كامل حسين، نهر الذهب في تاريخ حلب، ٢ جزء، حلب، المطبعة المارونية، دت.

٢٤٥. غوانمة، يوسف درويش، التاريخ الحضاري لشرقي الاردن في العصر المملوكي، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط ٢١، ١٩٨٢م.
٢٤٦. ———، إمارة الكرك الأيوبية، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٨٢م.
٢٤٧. ———، نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، عمان، دار الحياة، ١٩٨٢م.
٢٤٨. ———، الحياة العلمية والثقافية في الاردن في العصر الإسلامي، د.م، د.ن، ١٩٨٤م.
٢٤٩. ———، التاريخ السياسي لشرقي الاردن في العصر المملوكي، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٨٢م.
٢٥٠. ———، دراسات في تاريخ الاردن وفلسطين، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.
٢٥١. قاسم، قاسم عبده، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والترجمة، ١٩٨٧م، موسوعة الحضارة العربية الاسلامية، مج ٣.
٢٥٢. ———، اثر الحروب الصليبية في العالم الاسلامي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والترجمة، ١٩٨٧م. موسوعة الحضارة العربية الاسلامية، مج ٣.
٢٥٣. ———، اهل الذمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧م.
٢٥٤. القاسمي، محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية، ٢ جزء، تحقيق ظافر القاسمي، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٨م.
٢٥٥. القسطلاني، نعمان أفندي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، د.ن، ١٨٧٩م.
٢٥٦. قلنجي، محمد رواس، موسوعة فقه عمر بن الخطاب، بيروت، دار النفائس، ط ٢، ١٩٨٦م.
٢٥٧. القوصي، عطية، تاريخ دولة الكشوز الاسلامية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م.
٢٥٨. ماجد، عبد المنعم، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٦م.
٢٥٩. محمود، عبدالغني، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

٢٦٠. مراد، كامل ، تاريخ الادب السرياني من نشأته الى العصر الحاضر، ٢ جزء، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م.
٢٦١. منصور، القس أسعد، تاريخ الناصرة، القاهرة، دار الهلال، ١٩٢٣م.
٢٦٢. الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غبريال، ٢ مجلد، بيروت، دار نهضة لبنان للطبع والنشر، ١٩٨١م.
٢٦٣. الموسوعة الفلسطينية، اصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، ٤ أجزاء، دمشق، ١٩٨٤م.
٢٦٤. نصر الله، حسن، تاريخ بعلبك، ٢ جزء، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٩٨٤م.
٢٦٥. نعيسه، يوسف، يهود دمشق، دمشق، دار المعرفة، ١٩٨٨م.
٢٦٦. ———، مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ/ ١٧٧٢ - ١٨٤٤م، ٢ جزء، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٦م.
٢٦٧. النقاش، زكي، أضواء توضيحية على تاريخ المارونية، لبنان، مطابع دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٧٠م.
٢٦٨. ولفنسون، اسرائيل، موسى بن ميمون- حياته ومصنفاته- القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٣٦م.

خامساً: المصادر والمراجع الأجنبية المعربة:

٢٦٩. أرنولد، سير توماس، الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم وآخرون، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م.
٢٧٠. أشتور، الياهو، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبدالهادي عيله، مراجعة أحمد سبانو، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر، ١٩٨٥م.
٢٧١. بريجز، مارتن . س . فن العمارة، ترجمة زكي محمد حسن، في تراث الاسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة . كريستي، ارنولد، بريجز، ترجمة زكي محمد حسن، دمشق، دار الكتاب العربي، ١٩٨٢م.
٢٧٢. ترتون، أس، أهل الذمة في الاسلام، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٦٧م.
٢٧٣. التطيلي، بنيامين بن يونه التطيلي الاندلسي، القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، رحلة بنيامين من ٥٦١-٥٦٩ هـ/ ١١٧٣-١١٧٣م، ترجمة عزرا حداد، بغداد، مطبعة الشرق، ١٩٤٥م.
٢٧٤. جو ستاف، أ. فون جرونباوم، حضارة الاسلام، ترجمة عبدالعزيز جاويد، القاهرة، دار مصر للطباعة ، ١٩٥٦م.

٢٧٥. حتي، فيليب، مختصر تاريخ لبنان، ترجمة فؤاد نصار، مراجعة محمود زائد، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨م.
٢٧٦. —، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢ جزء، ترجمة جورج حداد وكمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٨-١٩٧٢م.
٢٧٧. دار ثيو، الفارس لوران، وصف دمشق في القرن السابع عشر، ترجمة أحمد أيبس، دمشق، دار المأمون للتراث، ١٩٨٢م.
٢٧٨. دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ٦ أجزاء، ترجمة محمد سليم النعيمي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٧٨-١٩٩٠م.
٢٧٩. ديماند، م.س، الفنون الاسلامية، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣م.
٢٨٠. دينيت، دانييل، الجزية والاسلام، ترجمة فوزي جادالله، مراجعة إحسان عباس، بيروت، مكتبة الحياة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٠م.
٢٨١. رنسيما، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ٣ جزء، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧-١٩٦٨م.
٢٨٢. سوفاجيه، جان، دمشق الشام، ترجمة أفرام البستاني، تحقيق أكرم العلي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٦م.
٢٨٣. الشارترى، فوشيه، تاريخ الحملة الى القدس ٤٨٩-٥٢١هـ/ ١٠٩٥-١١٢٧م، ٣ أجزاء، ترجمة زياد العسلي، عمان، دار الشروق، ١٩٩٠م.
٢٨٤. طافور، خوان دياز، المتوفى حوالي سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م). رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، مصر، دار المعارف، ١٩٦٨م.
٢٨٥. كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية من ظهور الاسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية، ترجمة بدر الدين القاسم، بيروت، دار الحقيقة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٧٣م.
٢٨٦. كراتشوفسكي، اغناطيوس يوليانونفتش، تاريخ الادب الجغرافي، ٢ جزء، ترجمة صلاح الدين هاشم، مراجعة أيغور بلياييف، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، ١٩٦٣م.
٢٨٧. كريستي، أ.هـ، تراث الاسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، ترجمة زكي محمد حسن، سورية، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م.
٢٨٨. لابييدوس، ايرا، مدن اسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، الاهلية للنشر والترزيع، ١٩٨٧م.

٢٨٩. لي سترانج، ج. فلسطين في العهد الاسلامي، ترجمة محمود عمايره، عمان، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٧٠م.
٢٩٩. لين بول، ستانلي، سيرة القاهرة، ترجمة حسن ابراهيم وعلى ابراهيم، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، د.
٢٩١. ليونهارت، راوولف، رحلة المشرق الى العراق وسورية وفلسطين، تاريخ الرحلة سنة ١٩٨١هـ/١٥٧٣. ترجمة سليم التكريتي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨م.
٢٩٢. ماير، ب.م. الملابس الملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة عبدالرحمن فهمي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٥٢م.
٢٩٣. متز، آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٤، ١٩٦٤م.
٢٩٤. ناصر خسرو، ابو معين القيادياني المروزي، المتوفى سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م)، سفر نامه، المسمى برحلة ناصر خسرو، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ص ٢١، ١٩٧٠م.
٢٩٥. هايد، ث، تاريخ التجارة في المشرق الأدنى في العصور الوسطى، الجزء الأول ترجمة أحمد رضا، تقديم عز الدين فودة، القاهرة، ١٩٨٥م.
٢٩٦. هنتس، فالتر، المكايل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الاردنية، ١٩٧٠م.

سادسة: الدوريات العربية:

٢٩٧. ابراهيم، عبداللطيف، «من وثائق دير سانت كاترين: ثلاث وثائق فقهية»، مجلة آداب جامعة القاهرة، مايو (أيار) ١٩٦٣م، مج ٢٥، الجزء الأول، ص ص ٩٥-١١٨.
٢٩٨. ارملة السرياني، القس اسحق، «في البطريكية الانطاكية»، مجلة المشرق، بيروت، آب (أغسطس) ١٩٢٣م، مج ٢١، عدد ٨، ص ص ٥٨٩-٥٩٩.
٢٩٩. البرغوثي، عبدالودود، «تاريخ حماه الاجتماعي والاقتصادي والاداري»، مستمداً من سجل المحكمة الشرعية لعام ١٩٨٩هـ/١٥٨١م، مجلة الحوليات الاثرية السورية، دمشق، ١٩٦٩م، مج ١٦، ص ص ٥٧-٨٤.
٣٠٠. الزيات، حبيب، «الديارات النصرانية في الاسلام»، مجلة المشرق، بيروت، تعوز، آب أيلول، ١٩٣٨م، مج ٣٦، ص ص ٢٩١-٤١٧.
٣٠١. طرخان، ابراهيم علي، «الاسلام والممالك الاسلامية بالحبيشة في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية، ١٩٥٩م، مج ٨، ص ص ١-٦٨.

٣.٢. العبادي، احمد مختار، «الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية»، مجلة عالم الفكر، الكويت، ابريل -مايو- يونيو - ١٩٨٠م، مج ١١، عدد ١، ص ص ١٢٧-١٥٩.

٣.٣. غوانمة، يوسف درويش، «أضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحريره بيت المقدس»، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، نيسان (ابريل) ١٩٨١م، العدد الرابع، ص ص ٩٦-١٠٩.

٣.٤. المغربي، عبدالقادر، «يهود الشام»، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٢٩م، مج ٩، ج ١١، ص ص ٦٤١-٦٥٣.

٣.٥. منيمه، سارة، «التكوين الوظيفي للمدينة الإسلامية»، مجلة الفكر العربي، دمشق، تشرين أول (اكتوبر) - تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٨٣، عدد ٢٩ السنة، الرابعة، ص ص ١٢٤-١٥٢.

٣.٦. نسيم، جوزيف، «دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين بسيينا»، مجلة أداب جامعة الاسكندرية، ١٩٦٤م، مج ١٨، ص ص ١٧٩-٢٠٣.

٣.٧. يوسف، عبدالودود محمد، «طوائف الحرف والصناعات أو طوائف الاصناف في حماه في القرن السادس عشر»، مجلة الحوليات الاثرية السورية، دمشق، ١٩٦٩م، مج ١٩، ص ص ٨٥-١٠٢.

سابعة: الرسائل الجامعية:

٣.٨. زربا، فريال بدوي، الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير باشراف دكتور مصطفى الحيارى، عمان، الجامعة الاردنية، ١٩٨١م.

٣.٩. طريف، جورج فريد، مدينة حلب في العصر المملوكي، رسالة ماجستير باشراف دكتور نقولا زيادة، عمان، الجامعة الاردنية، ١٩٧٧م.

٣.١٠. المدني، زياد عبد العزيز، مدينة حلب في العصر المملوكي الثاني، رسالة ماجستير باشراف دكتور مصطفى الحيارى، عمان، الجامعة الاردنية، ١٩٨٣م.

- 311- Adler, Elkhan Nathan, Jewish Travellers, London: Published by George Rout Ledge and Sons, L.T.D., Broad way house, Carter lane.
- 312- Amiry, M.A, Jerusalem Arab Origin and Heritage, London: Longman, 1978.
- 313- Atyia, Aziz, The Crusade In The Later Middle Ages, New York: Kraus Reprint Co., 2nd ed, 1970.
- 314- Bliss, Fredrick Jones, The Riligions of Modern Syria and Palestine, New York: C. Scribner, 1972.
- 315- Conder, C.R, The City of Jerusalem, London: John Murray, 1909.
- 316- Drory, Joseph, Jerusalem In The Mamluk Period, Jerusalem, The Jerusalem Cathedra, Studies in the History, Archaeolge, Geography and Ethnography of the land of Palestianians, 1981.
- 317- Frescobaldi, Gucci and Sigoli, Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria, in 1384, translated from the Italian by F.R. Theophilus Bellorini, Jerusalem: Franciscan press, 1948.
- 318- Fischel, Walter, Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam, London: Royal Static Society, 2nd, ed, 1968.
- 319- Goitein, S.D, Amediterranean Society, 4. vols, Berkeley: University of California Press, 1976-1978.
- 320- _____, Studies in Islamic History and Institutions, Leiden: E.J. Brill, 2nd ed, 1968.
- 321- _____, Jews and Arabs their Contacts Through the Ages, New York: Schooken Books Inc. 5th Printing, 1970.
- 322- Hirscheler, Pal, The Social Isolation of Ahl Adh-Dimma, in Eliyahu Ashtor (ed.) The Medieval Near East: Social and Economic History, London: Variorum Press, 1978. pp. 74-92.
- 223- Lane-Poole, Stanley, Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London: AMS, Inc., 1978.

- 324- Lewis, Bernard, *The Jews of Islam*, London: Routledge and Kegan Paul, 1981.
- 325- Little, Donald, *History and Historiography of the Mamluks*, London: Variorum Reprints 1986.
- 326- Mann, Jacob, *The Jews in Egypt and in Palestine Under the Fatimid Caliphs*, 2 vols, London: Oxford University Press, 1969.
- 327- Ma'oz, Moshe, *Studies on Palestine During Ottoman Period*, Jerusalem: The Magnes Press, 1975.
- 328- Margoliouth, D. S., *Cairo, Jerusalem and Damascus, Three Chief Cities of the Egyptian Sultans*, London: Chatto and Windus, 1907.
- 329- Maundrell, Henry, *The Journey of Henry Maundrell from Aleppo to Jerusalem, A. D. 1697*. in Thomas Wright (ed.) *Early Travels in Palestine*, London, 1848, pp. 383-506.
- 330- Maundeville, John, *The Book of Sir John Maundeville, A.D. 1322-1356*, in Thomas Wright (ed.), *Early Travels in Palestine*, London, 1848., pp. 127-282.
- 331- Praeger, Moses, *Darken Zion, The Holy City, Jews on Jerusalem by Avraham Holtz*, New York: W.W. Novotn and Company-Inc-, 1971.
- 332- Runciman, Sir Steven, *The Historic Role of the Christian Arabs of Palestine*, Britain: Longman for the University of Essex, 1970.
- 333- Setton, Kenneth, *A History of The Crusades*, 6 vols, edited by Kenneth Setton and Harry W. Hazard, 2nd ed. Madison: University of Wisconsin P, 1969.
- 334- *Shorter Encyclopaedia of Islam*, edited by H.A.R. Gibb and J.H. Kramers, Leiden: E. J. Brill, 1974.
- 335- Stillman, Norman, *The Jews of Arab Lands*, Philadelphia: The Jewish Publication Society of America, 1979.

- 336- The Encyclopaedia of Islam, 5 Vols, edited by C.E. Bosworth and others, Leiden: E.J. Brill, 1960-1979.
- 337- The Jewish Encyclopedia, 12 Vols, New York: Ktav Publishing House, 1964.
- 338- Van Berchem, Max, *Materiaux Pour Um Corpus Inscription Um Arabicarum, Deuxième Partie Syrie Du Sud, Tom Deuxième-Jerusalem "Haram"*, 1927.
- 339- Wilkinson, John, *Jerusalem Pilgrims: Befor the Crusades*, Warminster: Eng., Aris and Phillips, 1977.
- 340- William of Tyre, *A history of Deeds Done Beyond the Sea*, 2 vols, translated and annotated by Emily Atwater Babcock and A. C. Krey, New York: Columbia University Press, 1943.
- 341- Ye'or, Bat, *The Dhimmi: Jews and Christians under Islam*, translated from French by David Maisel and others, Rutherford: Fairleigh Dickinson University Press, 3rd printing, 1985.
- 342- Ziadeh, Nicola, *Urban Life in Syria*, Beirut: American University Press, 1953.

ملخص

أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والملوكي

اعداد

فايزه عبدالرحمن حجازي

ماجستير تاريخ اسلامي، جامعة اليرموك، ١٩٩٢

اشراف

الاستاذ الدكتور يوسف درويش غوانمة

إن موضوع أهل الذمة (اليهود، والسامره، والنصارى، والصابئة)، والحكم الإسلامي، من المواضيع الهامة والحساسة التي أثارت اهتمام كثير من الباحثين و المؤرخين. و غالبية هذه الدراسات تناولت حكم الشرع الإسلامي من أهل الذمة وآراء الفقهاء المسلمين في ذلك، كما نجد بعض الدراسات المتخصصة التي تناولت أحوال أهل الذمة في منطقة معينة و في فترة زمنية محددة، كأحوال أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي، و العصر الأيوبي، والعصر المملوكي.

والهدف من اختيار موضوع «أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي»، هو التعرف على أحوال الذميين في بلاد الشام لعدم وجود دراسة متكاملة عن أحوالهم في هذه الفترة، و لتزامن هذه الفترة مع قدوم الحملات الصليبية من الغرب و جحافل التتار من الشرق، حيث تكون العلاقات بين المسلمين و أهل الذمة في مثل هذه الظروف أكثر تبلوراً ووضوحاً، و لاهتمام كثير من الكتاب الغربيين و المستشرقين في الكتابة عن أحوال أهل الذمة و الحكم الإسلامي في أوقات الحروب و الاضطرابات، مسلمطين الضوء على ما كان يحدث لهم من مضايقات و شدة بسبب تلك الظروف، سابغين صفة الإضطهاد عليهم و متجاهلين أيضاً الأوضاع الطبيعية و ما كان ينعم به أهل الذمة من تسامح ديني و حسن جوار في جميع العصور الإسلامية.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى سبعة فصول:

تحدثت في الفصل الأول عن لفظة الذمة لغة واصطلاحاً وأصل هذه الكلمة واشتقاقها، ثم موقف الشريعة الإسلامية من أهل الذمة كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية. ثم قدمت لمحة تاريخية عن أحوال أهل الذمة في العصور الإسلامية السابقة لفترة البحث.

وبيّنت في الفصل الثاني سياسة الأيوبيين والمماليك نحو رجال الدين ورؤساء الطوائف والرهبان والكنائس والأديرة، كما بحثت فيه الالتزامات المالية المترتبة على أهل الذمة، كالجزية (الحوالي) والضرائب الإضافية الأخرى التي كانت تطلب منهم.

وتحدثت في الفصل الثالث عن النشاط الاقتصادي لأهل الذمة، النشاط الزراعي، والصناعي، والتجاري. فقد مارس أهل الذمة جميع أنواع هذه النشاطات الاقتصادية مما در عليهم الأرباح الطائلة.

وخصصت الفصل الرابع للحديث عن الحياة الاجتماعية لأهل الذمة، ذكرت فيه طوائف أهل الذمة في بلاد الشام، وعلاقاتهم الاجتماعية مع المسلمين، والقيود الاجتماعية التي كانت تفرض عليهم في بعض الأحيان كما ذكرت فيه التعليم لدى اليهود والنصارى.

وتحدثت في الفصل الخامس عن ممارسة بعض الشعائر الدينية لأهل الذمة كالْحج، والاحتفال بأعيادهم الدينية، وزياراتهم إلى المزارات المقدسة لديهم وتقديم الهبات والنذور لتلك المزارات. وما كان يقام عندها من احتفالات ومواسم.

وذكرت في الفصل السادس. بعض الوظائف التي شغلها أهل الذمة، كالوظائف الإدارية فذكرت كبار موظفيهم، إلى جانب بعض المشاهير من أطبائهم الذين خدموا الخاص والعام.

أما الفصل السابع فقد خصصته للبحث في علاقات سلاطين الأيوبيين والمماليك ببعض الدول المسيحية كدولة الحبشة، وبيزنطة، والدول الصليبية وأثر ذلك على أهل الذمة وخاصة النصارى منهم داخل البلاد.

وتبين هذه الدراسة مجمل النتائج التالية:

- ١- عاش أهل الذمة ضمن إطار الدولة الإسلامية متمتعين بكامل حقوقهم المدنية والدينية ينعمون بسياسة التسامح الديني، منذ بداية قيام الدولة الإسلامية وحتى أواخر دولة المماليك. وقد حرص ملوك وسلاطين الأيوبيين والمماليك على التمسك بقواعد الشريعة الإسلامية تجاه أهل الذمة التي تنص على حمايتهم ومعاملتهم المعاملة الحسنة والحفاظ على كنائسهم وأديرتهم مقابل دفعهم الجزية.
- ٢- مارس أهل الذمة كافة أنواع النشاطات الزراعية والصناعية والتجارية دون أي ضغط أو قيد مما در عليهم الأرباح الطائلة.
- ٣- عاش أهل الذمة في بلاد الشام في العصر الأيوبي والملوكي بين اخوانهم العرب المسلمين، ولم يكن هناك أي انعزال بين فئات المجتمع آنذاك، متمتعين بحسن الجوار والتعاون، ومارسوا جميع انشطتهم التعليمية. وإن تعرضت تلك العلاقات في بعض الأحيان الى فترات من النزاع والتوتر فلم يكن يستمر ذلك إلا لفترة من الوقت تعود الامور الى ما كانت عليه بعد زوال الأسباب. كما يمكننا القول انه قياساً لكامل الفترة التاريخية التي تزيد على ثلاثة قرون فإن حوادث النزاع والتوتر كانت قليلة وثنائية.
- ٤- مارس أهل الذمة شعائرهم الدينية بحرية تامة وسمح لهم ملوك وسلاطين الأيوبيين والمماليك بالحج الى مقدساتهم حتى في أوقات الحروب، كما احتفلوا باعيادهم ضمن حاراتهم وكنائسهم ودياراتهم دون أي اعتراض، كما كانوا يقومون بالزيارات إلى مزاراتهم ويقدمون في تلك الأماكن الهبات والنذور.
- ٥- تقلد أهل الذمة من النصاري واليهود أرفع المناصب في الدولة واختلطوا بالأمراء والسلاطين، كما خدم أطباؤهم الحكام والأمراء فأنعموا عليهم بالقطاعات والانعامات.
- ٦- كان لعلاقات ملوك وسلاطين الأيوبيين والمماليك ببعض الدول المسيحية كدولة الحبشة، والدولة البيزنطية، والدول الصليبية أثره الإيجابي والسلبي على النصاري داخل البلاد، فتحسن العلاقات مع تلك الدول ينعكس أثره إيجاباً على النصاري من أهل البلاد، كما كان لتوتر هذه العلاقات أثره السلبي عليهم.

- ٧- كان لوقوف بعض الطوائف النصرانية في بلاد الشام إلى جانب الصليبيين على أساس أنهم إخوانهم في الدين، أن أدت إلى زرع بذور الشك والمرارة في نفوس المسلمين تجاه النصارى داخل البلاد، فتعرضوا أحياناً للمضايقات الطائفية، كما تعرضت كنائسهم ودياراتهم للتخريب والإغلاق.
- ٨- لم يكن لليهود أي دور إيجابي في الفترات التي تتعرض لها البلاد لخطر خارجي، وخصوصاً في فترة الصراع الصليبي في المنطقة، فرغم الاضطهاد الذي تعرض له اليهود من قبل الصليبيين إلا أنهم لم يقوموا بأي عمل عسكري ضدهم. كما أن بيت المقدس لم تكن تشكل أي ارتباط روحي أو مادي لهم، ولم تكن شيئاً مهماً في حياتهم، حتى أن أعدادهم كانت قليلة جداً في القدس إذا ما قيست بأعدادهم في بعض المدن الشامية الأخرى.

The Seventh chapter investigates the relations between Ayyubids and Mamlouks on one side and some Christian States like Abyssinia, Byzantium, and the Crusaders on the other side, and the effect of these relation whether positive or negative on Christians living among Muslims.

To conclude, one can say that excluding some harassment, which the Dhimmis were exposed to during the hard time, when Muslims were under the pressure of the Crusades, Christian and Jews were living a life of dignity under the Islamic sovereignty.

One can also notice that in spite of the fact that crusades offended both Muslims and Jews, the Jews did not take part in the burden of dismissing the invaders. Jews were a mere small group that paid Al Jizya. They used to live in centers where they could make money and few of them chose to live in Jerusalem although they were allowed to. This confirms that Jews had no spiritual connection to the holy city and that Jerusalem was not important to them as they claim now.

Dhimmis have been enjoying freedom of religion and freedom of association, and have been leading prosperous businesses.

The thesis is divided into seven chapters. The first introduces a definition of the term Al Dhimma and the status of Ahl-Adh-Dhimma in Qur'an and Sunneh. It also gives a general survey of their conditions during the time preceding the investigated period.

The second is about: 1) The ecclesiastical matters such as clergy, friars and restoring churches and monasteries. b) The financial duties such as tribute (Al Jizya) and some other taxes that were imposed upon Ahl-Adh-Dhimma.

The third chapter talks about the economic activities carried out by the Dhimmis whether individuals or institutions. They owned land and grew it; some industries such as weaving and making glass, pottery and alcoholic drinks were in their hands; they were also active in trading.

In the forth chapter the social life and education are discussed showing that the Dhimmis were on good terms with the Muslim Community -except for some occasions when troubles out break for one reason or another- and that they had an access to learning and education.

The fifth chapter is allocated to religious tolerance that allows Jews an Christians to practice their own religious ceremonies such as celebrating their feasts and going an pilgrimages to the sacred places.

The sixth chapter is about: 1) The executive positions and administrative posts that were occupied by Jews and Christians who as a result had an opportunity to mix with statesmen and to make a fortune. 2) Physicians among Jews and Christians who served the Sultans as well as the common.

ABSTRACT

AHL ADH-DHIMMA IN BILAD AL-SHAM DURING AYYUBIDS AND MAMLUKS PERIOD

By

Fayzeh Abdul-Rahman Hijazi

Master of Islamic history, Yarmouk University, 1992

Supervisor

Prof. Dr. Yousef H.D. Ghawanmeh

The Dhimmis (Jews, Samaritans, Christians, and Sabaeans) under Islamic rule is a critical subject that has been an issue of research and study by many historians. Most of these studies are about the status of the Dhimmis in Islam and the opinions of Muslim theologians about it; others deal with their conditions in a specific area during a definite period of time.

٤١٦.٥٥

As a subject of my thesis, I chose to write about "Ahl Adh-Dhimma in Bilad Al-Sham during Ayyubids and Mamluk Period" because: a) No particular study has been carried out to investigate this subject. b) This period of their life is very critical because it is simultaneous with the Crusades from the west and the Tatarian invasion from the east that were launched against the Islamic regions. c) Many of the studies about the Dhimmis are carried out by many western historians and orientalist who are biased against the Islamic rule. They focus on harassment and distresses which the Dhimmis faced during that period of time, and they ignore the right reasons behind that treatment. The westerners conceal the fact that the

**AHL ADH-DHIMMA IN BILAD AL-SHAM DURING
Ayyubids and Mamluks Period**

By

Fayzeh Abdul-Rahman Hijazi

Supervisor

Prof. Dr. Yousef H.D. Ghawanmeh

Thesis is submitted in partial Fulfillment of the requirements of the
degree of Master of Islamic history at Yarmouk University